

ذخائر العرب

١٨

# مذكرات الأمير عبد الله

آخر ملوك بني زيري بغرناطة

(٤٦٩ - ٤٨٣)

المسمّاه بكتاب "التبّيان"

نشر وتحقيق

عن النسخة الوحيدة المحفوظة

بجامع القرويين بفاس

إ. ليثي بروقتسكال

أستاذ الحضارة العربية بالسر بون

ومدير معهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة باريس

والأستاذ الزائر بالجامعات المصرية

دار المعارف بمصر

# مذكرات الأمير عبد الله

آخر ملوك بني زيري، بن زناطة

(٤٦٩ - ٤٨٣)

المسمّاه بكتاب "الشبيان"



*mohamed khatab*

# مذكرات الأمير عبد الله

آخر ملوك بني زيري بغرناطة

(٤٦٩ - ٤٨٣)

المسمّاه بكتاب "التبيان"

نشر وتحقيق

عن النسخة الوحيدة المحفوظة

بجامع القرويين بفاس

إ. ليفي بروقنسال

أستاذ الحضارة العربية بالسر بون

ومدير معهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة باريس

والأستاذ الزائر بالجامعات المصرية

دار المعارف بمصر



## مقدمة

إنَّ المصنّف الذى سيوجه الجزء الأكبر من نصّه هنا — وهو كلُّ ما عُثر عليه لحدِّ الآن — سبق أن عُرِف لدى كلِّ من درس تاريخ الأندلس بعض الشيء ، وعلى الأخصَّ العهد المسمّى بعهد ملوك الطوائف من هذا التاريخ ، والموافق إجمالاً للقرن الخامس الهجرى ( الحادى عشر الميلادى ) . ولقد نشرتُ منه ، فى فترتين ، أولاً ثلاث قطع ، ومن ثمَّ قطعتين واسعة كلِّما اكتُشف شىءٌ منها ، وذلك فى مجلّة « الأندلس » الصادرة فى مدريد فى عام ١٩٣٥ — ٣٩ وفى عام ١٩٤١ . وستظهر ترجمةٌ باللغة الإسبانية ، بعد فترة وجيزة ، بتوقيعى وتوقيع زميلى وصديق الأستاذ إ . غرسية غومس ، للمجموع الذى أُلّف بين أجزائه اليوم ، ما عدا الصفحة الأولى وفراغاً طويلاً يؤسف له فى وسط الكتاب . وستصحّب هذه الترجمة بمقدّمة مفصّلة وبمجموعة من الملاحظات التاريخية والجغرافية أُحيلُ إليها منذ الآن القارئ الذى يرغب أن يطلع بتفصيل على المؤلّف الذى أنشره اليوم وعلى قيمته الأدبية والتاريخية .

سأقتصر هنا إذاً على بعض الإشارات الأساسيّة . فليس من المألوف أن نجد فى تاريخ العالم العربى ملوكاً أو شخصيّات رفيعة اعتنوا بتسطير حياتهم ، فكتبوا مذكراتهم لفائدة معاصريهم أو الأجيال القادمة . إنّ هذه الملاحظة لتصدق على الغرب الإسلامى أكثر منها على الشرق ؛ فإذا

وُجد في الغرب الإسلامي بعض من يترجم لنفسه من الشخصيات الهامة كمثل ابن خلدون وابن الخطيب في القرن الثامن ( الرابع عشر الميلادي ) ، فلا يعرف من هذا الصنف التاريخي إلا مصنف واحد يذكر ، وهو كتاب البَيِّذَق صاحب المهدي ابن تومرت مؤسس الموحّدية ، وقد وقّعت منذ أكثر من ربع قرن على مخطوط له بمكتبة الأسكوريال في إسبانيا ظلّ مجهولاً إلى ذلك الحين . وإنّه لتوفيق آخر ليس أقلّ سعادة من الأوّل ، أن أحصل ، بعد سنين طويلة ، وجزءاً بعد جزء ، على مصنف لترجمة شخصيّة لا يقلّ أهميّة عن الأوّل ، وهو مصنف الأمير عبد الله ، الذي كانت كراريسه مبعثرة بين مجموعة كثيفة من المخطوطات المهمة منذ ستة قرون على الأقلّ في جناح تابع لمسجد القرويين بفاس .

وقد كنّا نعرف ، بفضل إشارة واردة في كتاب « الحلال المؤشّة » المجهول المؤلّف ، أنّ الأمير عبد الله كان قد دوّن تاريخاً عن الدولة التي أسّستها أسرته في إسبانيا والتي كان هو آخر ممثليها . وعندما أصدرت في ١٩٣٤ أوّل طبعة للقسم المتعلّق بالأندلس من كتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب ، جلبت انتباهي الفقرة الآتية ( ص ٢٩٩ ) : « وقفت على ديوان بخطّ عبد الله بن بلقين ألفه بعد خلعه بمدينة آغمات وقرّر فيه أحواله والحادثه عليه ممّا يستظرف من مثله ، أتخفى به خطيب المسجد بآغمات رحمه الله . » وبفضل إشارة أخرى وردت في نفس الكتاب ، نعرف أنّ ابن الخطيب قد زار آغمات وزار بها قبر المعتمد بن عباد في سنة ٧٩١ ( ١٣٩٠ ) ؛ فيمكننا أن نتساءل بأن المخطوط الذي استعملناه ، إذا لم يكن هو نفس هذه النسخة ، فهو على الأقلّ نسخة ثانية كتبت

عن الأصل وقُبلت معه ، كما تثبت ذلك الإشارة المترددة : « صح » ،  
أصل » .

وأخيراً ، اكتشفت لى صدقة من صدف المطالعة العنوان التام  
لمذكّرات عبد الله : ففي فقرة من كتاب « المرقبة العليا » ( ص ٩٧ ) ،  
وهو مصنف في مراتب القضاء بالأندلس لمؤلفه المشهور ابن الحسن النباهي  
( وقد نشرته في القاهرة سنة ١٩٤٨ ) ، يتبين أن كتاب عبد الله  
كان موسوماً بـ « التّبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري  
في غرناطة » .

إنّ هذا العنوان يعلن أحسن إعلان عما يُقصد منه : فالمؤلف الذي  
عُزل ونُفي قصد إلى سرد تاريخ دولته وظروف عزله .

\* \* \*

من كان الأمير عبد الله هذا ، وأيّة قيمة يجب إعطاؤها إلى كتابه ؟  
فلأكتفِ هنا بتلخيص ما نشرته عنه أخيراً في الطبعة الجديدة لدائرة  
المعارف الإسلامية ( الطبعة الفرنسية ، ج ١ ، ص ٤٥ ) :

كان عبد الله بن بُلقين بن باديس بن حبّوس بن زيري الملك  
الثالث والأخير لمملكة غرناطة التي أسسها فرعٌ منحدرٌ من عائلة بني  
زيري البربرية الصّهاجية ، وذلك بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة .  
وُلِدَ في سنة ٤٤٧ ( ١٠٥٦ ) ؛ وعيّن عند وفاة أبيه بُلقين سيف الدولة  
في عام ٤٥٦ ( ١٠٦٤ ) كوليّ عهد لجدّه الأمير باديس بن حبّوس ؛  
ثمّ اعتلى بعده عرش غرناطة في سنة ٤٦٩ ( ١٠٧٧ ) ، بينما أصبح أخوه



تيميم المُعِزِّ أميرًا مستقلًّا في مالقة . ولم تكن دولة الأمير عبد الله إلَّا سلسلة طويلة من الاضطرابات في داخل مملكته ، والمشادات المسلَّحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين ، والمواثبات مع ملك قشتالة ألفونس السادس . وساهم عبد الله في وقعة الزَّلَاقَة ومحاصرة حصن لَيْيَط عند تدخُّل المرابطين في إسبانيا . لكن اتِّفَاقاته مع الملك النصراني أدَّت به إلى ضياع عرشه ؛ فقد جاء الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين لمحاصرته في غرناطة عام ٤٨٣ ( ١٠٩٠ ) ؛ فاضطرَّ إلى أن يسلم نفسه إليه ؛ فعُزل عن ملكه وأُرسل إلى المنى بمدينة آغمات ، في جنوب المغرب الأقصى ، حيث انتهت حياته .

أما كتابة عبد الله لمذكراته ، فقد كانت أثناء إقامته الإِجبارية في آغمات . وإنَّ هذه الترجمة الشخصية تكونُ أعظم مجموعة وثائق نملكها عن تأريخ ملوك الطوائف وأقلَّها تحويرًا ، كما نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة . وعلى الرغم من الاستطرادات الطويلة التي يحاول فيها المؤلِّف أن يبرِّر موقفه السياسيَّ أمام الأخطار التي كانت تهدِّم مملكته ، فإنَّ كتاب « التبيان » يقدِّم لنا سرِّدًا مفصَّلًا جدًّا لجميع الحوادث التي أدَّت إلى استيلاء ألفونس السادس على مدينة طُلَيْطَلَة عام ٤٧٨ ( ١٠٨٥ ) وإلى تدخُّل المرابطين في شبه جزيرة إيريا في السنة التالية .

كما أنَّ مذكرات عبد الله هي وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول ، يساعد بصورة أفضل من كُتُب التاريخ التي أُلِّفت من بعد ، على الحكم على حالة الانحلال الاجتماعيِّ والسياسيِّ في الأندلس قبل معركة الزَّلَاقَة وبعدها ، وعلى التقدُّم الذي حقَّقه في هذا الوقت أنصار استرجاع

إسبانيا المسلمة إلى النصرانية . ومن جهة أخرى ، إنَّ قصَّ الحوادث السابقة على حكم الأمير عبد الله نفسه هو أيضاً أمرٌ جديدٌ وهامٌّ جداً . ويجب إذاً أن نعتبر مذكَّرات ملك غرناطة كدليل مرشد لتأريخ الطوائف الغامض ، وذلك ابتداءً من العصر الذي تنتهى فيه مؤلَّفات ابن حَيَّان . وإنَّ هذه الفترة التي سَأَصِفُهَا بحول الله في الجزء الرابع من كتابي « تأريخ إسبانيا الإسلامية » ستوضَّح بصورة أوسع وتحت ضوء جديد بفضل هذا الحصول السعيد على وثيقة غنيَّة لا يرتاب فيها .

\* \* \*

إنَّ مخطوط مذكَّرات عبد الله يحتوى في مجموعه على ٨٠ ورقة من القرطاس السحيك ومن القطع الكبير ( ٢٣ × ٣١ سنتيمتر ) . وهو مسجَّل في مكتبة جامع القرويين بفاس تحت رقم ١٨٨٦ . خطُّه من الخطِّ المبسوط الأندلسي . والنسخة على العموم في حالة جيِّدة عدا ورقتين ممرقتين جداً . وقد أرفقنا مع النصِّ ملحقين يحتويان على فقرات غير منشورة من كتاب « البيان المغرب » لابن عِذارى المراكشي ، ومن كتاب « الإحاطة في تأريخ غرناطة » لابن الخطيب ، يتعلَّق هذا الذيل بالأمير عبد الله نفسه وبشخصيَّتين هامَّتين في دولته . وسيجد القارئ خريطة تساعد على الوقوف على أهمِّ المناطق الجنوبية في إسبانيا مما جرى ذكرها في النصِّ .

أودُّ في الختام أن أنبِّه قرَّائي الذين سيستغربون لبعض التعابير أو لبعض الصياغات في تأليف الأمير عبد الله إلى أن لغته ، مع أنَّها صحيحة ، قد تأثَّرت إلى حدٍّ ما باللغة العاميَّة الأندلسيَّة ، وأنَّه يلزم الرجوع بصورة

خاصّة إلى « ملحق القواميس العربيّة » لدوزى لفهم بعض الألفاظ التي تبدو خاطئة .

وليس من الضروري أن أنبّه القراء من جهة أخرى إلى أن العناوين التي أُضيفت داخل النصّ للتفريق بين محتويات الفصول لم تكن موجودة في النصّ الأصلي .

ا . ل . ب

باريس ٢٦ يونيو ١٩٥٥





# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## لفصل الأول

### نظرات عامة للمؤلف

#### ١ - القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها

.....<sup>(١)</sup> واستنباط الغريب الذي لا يعقله كثير من الناس ؛ فإن ذلك ١ (١)

يولد خشونة اللفظ ، الذي تمجّه الأسماع .

- والكلام ، إذا خرج من القلب ، وقع في القلب . ولا خير في رام  
ه رَعِش ، ولا متكلم هائب ؛ فإنَّ الهَيْبَةَ فرعٌ [ من ] الخافة ، والخافة فرعٌ  
[ من ] الحذر ؛ وَمَنْ حذر ، فقد عَقَلَه ، وَمَنْ خاف ، تكدَّرَ عَيْشُهُ ، ولا  
تصحُّ مع هذا قريحةٌ ينطق عنها اللسان ، ويذكرى بها الجنان ؛ فالنفسُ ،  
إذا منعت ما تشتهي ، تُرَى مختلطة ، وتصير كأنَّها بطوارقِ الخبل مختبطة .  
ولا يجب على الناطق والكاتب أن يتبع هواه في أمره كله : فكلُّ  
١٠ مفتون ملقنٌ حُجَّتَه ، ولا عليه أن يرفض ذلك ؛ فيكون بانياً على غير أصل  
وعاملاً لغير نهاية . وعسى بذلك يسمى فيما يصلح غيره ويُفسد حال نفسه ،  
وهو لا يشعر ، بل يصرف نفسه على فرقتين : يسعى في بلوغ أمّله وإدراك

(١) هنا يبتدئ نص المخطوط ، إذ تلفت منه الورقة الأولى .

مُراده دون أن يكون ذلك مُحِلًّا بذكره ولا غرضاً لعدوه . وكلُّ بيان ما لم يكن صواباً ، فمُذَرٌّ .

وليس يُحمَدُ لوضوح كتابٍ أو ناظمٍ خبرٍ أكثر من جودة التأليف فقط ، لأنه إنما وضع ما قد سبقه إليه غيره ؛ وكلُّ أحدٍ ينفق ممَّا عنده . وإنَّ الأوَّل لم يدع للآخر شيئاً . فلو كان نطقُ الناس إحصاءَ بعضهم على بعض ، ما سُمِعَ أحدٌ يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن مُنكرٍ ، ولا يتبرَّع في [شئ] . ولكنَّ الأوَّل أن يؤخذ بما نصَّ الله عليه في قوله <sup>(١)</sup> : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ .

ولست الفائدة فيما قصدنا إليه ذِكْرُ خبرٍ يوصف ويأتى عليه نادرة مستطرفة ، أو حكاية مستغربة ، أو معنى يؤدَّى إلى تأدُّب وارتفاع . فلملك — أيها المتأمل كتابنا — أن يكون عندك أو طراً إليك خبرٌ من أحوال الدولة مشهور لا تجده منصوصاً هنا ، فتعجز واضعه : فليس إلَّا كما قدَّمناه . اللهمَّ إلَّا أن يكون حديثاً يؤدَّى إلى القيام بِحُجَّةٍ صاحبه\* والاعتذار عنه ١ (ب) من أمرٍ قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة ، فنطق هذراً ، وساعدَ عليه أقواماً لم يخسروا في عرض غيرهم شيئاً ، وطعنوا على غائبٍ أو ميّتٍ لم يُحرِ الجواب عن نفسه ، أو دليلاً لم ينتصر لعرضه .

أو أبان المؤلف عن نفسه حذقاً ومعرفةً تُذكر عنه وتُنشر بعده : فإنَّ ذلك من آكد ما يجب له السعى فيه وإعمالُ ذهنه وحواسه في تلخيصه ، إن أعانه على ذلك اغتباطٌ بِجميل الثناء ، وأنفةٌ لسوء المقال ، ونشاطٌ على

ترفع الذكر ، مع فتو الهمة وصبوة القريحة . وإلا ، فالأمر ناقصٌ منه ،  
واللسانُ عيٌّ عنه .

ولا سبيل إلى اجتماع أمرين مختلفين في الإنسان معاً ، ولا في غيره من  
جميع المخلوقات . فإنه ، متى ارتفع أمرٌ ، نزل ضدهُ : كالحياة ، إذا ارتفعت ،  
وجب الموت ؛ وإذا ارتفعت الصحة ، وجب السقم ؛ وإذا ارتفع الكرب ،  
وجب الفرج .

هكذا نسق كلَّ أمرٍ : كالعامل للآخرة محضاً ، لا بدُّ له من نقصان  
دنياه .

ألا ترى أنَّ مؤلفَ الكتاب ، إن كان غرضه نظم الكلام وسجّع  
اللفظ ، كان ذلك ضاراً بالمعنى ؛ وإن أتى به ، فإنما يسوقه بعد تحليق عليه ،  
وربما وضعه من غير شكله . وإذا تمَّ المعنى ، نقص بعضُ اللفظ ؛ كما قيل :  
« إذا تمَّ العقل ، نقص الكلام » .

وأرى أنَّ مساقَ الحديث في التأليف بعضه لبعض أحسنُ خطأً وأفضلُ  
نظماً من تقطيعه . ولهذا نريدُ إيرادَه كالحديث « [ فالحديث ] ذو  
شُجون » ، ونضرب المثل لبعضه ببعض : فيتنق إرادُه دفعةً واحدةً ،  
ونصُّه على أكمل ما يمكن .

## ٢ - حقيقة الإسلام والردُّ على من لا يؤمن به

ومن كان لا يعرف دنياه التي نشأ فيها ، وأدركها ببصره وجميع حواسِّه ،  
فهو لآخرته أَجهل ، [ آخرته ] التي لا تُعرف إلا بالتفكير والاعتبار ، بعد



ما حضّ عليه الكتاب وأتى به الرسول — عليه السلام — . وقال تعالى <sup>(١)</sup> :

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ . وما \* يصلح لنفسه لا يصلح لغيره . وأصل <sup>(٢)</sup> (١)

العلم كله معرفة الإنسان بدينه ، و [ يقينه ] بمعآده ، وأنه لم يخلق عبثاً . فإذا صحّت معرفته بذلك ، كان أخرى أن ينتفع به لدنياه التي يشاهدوها معاينةً .

والرجال ثلاثة : رجلٌ عَمِلَ فَعَمِلَ : فذاك الذي يُدْعَى في الملوكوت ؛

ورجلٌ عَمِلَ ولم يَعْمَلْ : فذاك الذي يُضَاعَفُ له العذاب ؛ ورجلٌ لم يَعْمَلْ

ولا عَمِلَ : فذاك ، إن مات ، يموت مِيتَةً جَاهِلِيَّةً ، ولا تصحُّ له معرفة

دينه إلا بأن لا يقدح فيه قول كافرٍ ولا مُعْطَلٍ . فإذا حَسُنَ تمييزُهُ عن

الصفنف المُلْحِد ، عرف فَضْلَ ما هو عليه ، فَاتَّبَعَ على يقينٍ وجوده نَظَرٍ ،

١٠ لا باستهزاء ولا تقليدٍ ، فيعجز ويشكُّ .

وأما من كان من الأصناف المُلْحِدَة ، غير أهل الكتّابين <sup>(٣)</sup> من المُشركين

ومن سِوَاهُمْ ، فالضلالُ منهم بيّنٌ ، لا يحتاج معه إلى قياس ولا تفتيش . وأما

ما يزعم أهل الكتاب من أنّهم على الحقّ ، ولهم الدين القويم <sup>(٤)</sup> ، وأنّ قولهم

أُخِلَّ [ بغيره ] ، فالردُّ عليهم في ذلك أن يُقال لهم : « إن كنتم تزعمون

١٥ أنه ليس بعد نبيِّكم نبيٌّ ولا سُنَّةٌ ، فلا يكون هذا القياس إلاّ بأن

تكفروا بمن كان قبل نبيِّكم من الأنبياء ! ألم تكن قبل موسى شرائعُ

وكتبٌ مُنزلةٌ وأنبياءٌ عدّةٌ ؟ فلو كان على مذهبكم ، لا ينسخ دينٌ ديناً ،

لم يجب لكم أنتم شيءٌ ! »

وإنَّ الله تعالى لا يترك الخلق سُدًى مُهْمَلِينَ ، وهو قوله تعالى <sup>(٥)</sup> :

(١) سورة الرعد : ١٨ . (٢) كذا في الأصل . (٣) أصل : « القديم » .

(٤) سورة فاطر : ٢٢ .

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ، وقد كانت الضلالة بيّنة في الفترات من عبادة الأوثان وتعبدهم بعضهم لبعض ، ما لم يكن في حكمة الله ومشيئته أن يترك المرء ودينه ، ولا يمهل من يعبد سواه حتى بعث محمّداً — صلى الله عليه وسلم — بالحقّ بشيراً ونذيراً ؛ فصدع بالقرآن ، وجاهد في الرحمن ، وسنّ السنن ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . وكان في ذلك الزمان قد ضلّ أهل الكتاب ، واختلفوا ، وردّ بعضهم [ على بعض بما لا ] يمكن أن تصحّ لفرقة منهم شريعة مع الأخرى ؛ وكانوا كم \* ..... (١) ٢ (ب) الله تعالى ؛ فختم الله الرسالة بنبيّنا — عليه السلام — ليبين له ما فرضه عليهم ، ويُظهره على الدين كلّهُ ! إن يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير ! » وقال الله تعالى (٢) : ﴿ اِكْلُكُمْ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ، فالْحُجَّةُ عليهم ظاهرة على ما بينناه فيما يعطى العقل والقياس . وأمّا تبَيّان نبوّته — عليه السلام — في الآيات التي جرت على يده ، فأكثر من أن توصف . وإذا قتلت أحدهم بيعض هذه الحجج ؛ فمن ينتحل منهم قهراً في علمه وسداداً ، يرجع إلى أن يقول : « إنّما كان رسولاً إلى العرب ! » فتأمل . تناقضه ، وكيف أثبت له الرسالة ؛ ومتى وجب إثبات الرسالة ، فقد أوجب على نفسه التصديق في كلّ مقالة وما أتى به . ثمّ الله يقول (٣) : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ . وقال — عليه السلام — : « بُعِثْتُ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ وَالْحَرِّ وَالْعَبْدِ » ؛ فهم لا يصحّ لهم الإنكار جملةً ولا الإيمان بأمرٍ دون أمرٍ .

(١) خرم نحو سطر في الأصل .

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

(٣) سورة سبأ : ٢٨ .

## ٣ - قصور القياس دون عون من الوحي

وقد كانت معرفة الباري تعالى بالعقل اضطراراً لقوله<sup>(١)</sup> : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ . ولو ترك الناس في ذلك على قياسهم وما تدركه عقولهم ، لكان خوضهم في هذا المعنى قليلاً ، مستضعفين ، لا يطبقون نصر ما عهد إليهم مما يريدون من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولغلب جهالهم وعامتهم التظلم ، ولم يلتفت أحد إلى قوله وما يقيس عليه . فكانت النعمة مما أراد الله من صلاح العالم أن بعث فيهم الرسل ، ليكون ما أتوا به دواء لما في الصدور وهُدًى ورحمة ؛ فمن عرف الله قبل بالعقل ، أتم عليه نعمته ؛ فقد عرفه نفسه باليقين ، وبشره بالثواب ، وأنذره العقاب ، ليرفع الشك ويوقن بالمعاد ولينقد إليه عامة الناس طوعاً أو كرهاً . ١٠

ألا ترى أن لا شيء من أمور الدنيا يصح بالظن دون اليقين ؟ فكيف الآخرة التي لا يوقن . . . . .<sup>(٢)</sup> \* الذين أبانوا عنها ؛ والظن<sup>(٣)</sup> (١) أ كذب الحديث والشرع ، ومن تقلده بطل [ رأيه ] . وليس حكم الباري تعالى مما يجري على قياس : كيف ؟ وهو خالق القياس ، وهو واهب العقل الذي به أدركنا جميع الأشياء . ألا ترى أن النفس لم يقف أحد منها على حقيقة ؟ ما هي إلا اختلاف بين العلماء الشرعيين وأهل الطبيعة واللاهوتية . والحق إنما يكون في طرف واحد ؛ فهم يخبطون خبط عشواء وإذا قست على الحق ، فإنما تجده عند أهل السنة لما بأيديهم من القرآن ١٥

(١) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٢) خرم نحو نصف سطر في الأصل .

وحديث ارسول — عليه السلام — ، فهم يتكلمون على أصل ، وغيرهم على قياس : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> .

وترى من المُلْحِدِينَ كثيراً [مَنْ] لا يؤمن بالغيب ويقول : « إِنَّمَا أَعْلَمُ <sup>(٢)</sup> ما تُذَكِّرْكَ حَوَاسِيَّ مِنْ حَارٍّ وَبَارِدٍ وَرَطْبٍ وَيَابِسٍ ، وما أدركته بعقلي مما كان ؛ وَلَا أَعْلَمُ ما يكون ، وَإِنَّمَا أَنَا أَنُ الْآنُ » . فالرَّدُّ عليه أن يقال

له : « أَتَدْرِي بِمَ عَرَفْتَ هَذَا كُلَّهُ ؟ » سيقول : « بالنفس . وعلمتُ النفس بالعقل الذي هو أرفع الدرجات » . فتقول له : « إِذَا عَرَفْتَ بِالْعَقْلِ ما أنتَ فيه ، لم يكن لك شيءٌ متقدِّمٌ تعرف به العقل ، ولا استطعتَ

لنفسك ، ولا علمتها قبل ؛ فتركب فيها عقلاً وتديراً . وواهبُ العقل الذي خلقتك ودبرك كيف شاء ، قادرٌ على أن يعيذك ولا يجعلك هماً ، ولم

يخلقك عبثاً ! ولو أنك تعلم — أيها الشقي — أنَّ العقل ، إِذَا جحدتَ به آيات ربِّك ، كلُّ عليك وحملٌ يوم القيامة ؛ وهو قوله تعالى <sup>(٣)</sup> :

﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ . وقال <sup>(٤)</sup> : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ .

وقد أنت الرُّسُلُ بِالآيَاتِ التي هي خارجة عن حكم الطبيعة ليكون ذلك في العالم أشدَّ استغراباً ومعجزاً يؤمن به أكثرُ البَشَرِ . وقد أمر الله تعالى

بالإيمان بما قد غاب عن العقل والقياس ؛ ولا يعجز الله في قدرته على ما يشاء \* جاحِدٌ كَافِرٌ .

٣ (ب)

كقول أهل الطبيعة : إِنَّهَا هي تُدَبِّرُ كلَّ شيءٍ ، وإِنَّهَا أَعْلَمُ [مَنْ] كلُّ

(٢) أصل : « نعلم » .

(٤) سورة يس : ٧٨ .

(١) سورة الأنعام : ١١٦ .

(٣) سورة الأحقاف : ٢٦ .

عليم وأحكم [ من ] كلِّ حكيم ؛ فنجمع من فعلها في الأبدان ما لا تدركه  
 الأطباء باجتهادها . وقال غيرهم : « الطبيعة اسمٌ واقعٌ على غير شيء لا يُدرى  
 ما هو . » فالحُجَّة عليهم : أهى طبيعةٌ واحدةٌ ، أم طبائعٌ كثيرةٌ ؟ بل ،  
 يقولون : « لكلِّ شيء طبيعةٌ ، فأرى أضداداً لا تصحُّ لأحدها إلهيةٌ ،  
 ٥ وَغَيْرُهَا مُناقِضٌ لها . وهى كانت حُجَّة إبراهيم على قومه وردَّه على من قال  
 إنّ الشمس هى حياة العالم دون غيرها ؛ فقال — عليه السلام — : « أرى  
 الظلَّ يفعل ضدَّ ما تفعله الشمس ؛ والخالق لا يُضادُّ ! » فأثبت الوحداية  
 بالحُجَّة القاطعة الواضحة .

وقد ذُكر عن سُقراط ، وكان فى زمن جاهليَّة ، أنّه قال ، بما أوتى من  
 ١٠ الحكمة ، مخاطباً البارئ عزَّ وجلَّ : « يا أزل الأزل ! ويا أوَّل الأوائل !  
 ويا قديماً ! لم يزل مِنى نارُكَ لِعِلْمى أن هذه المخلوقات من آثاركَ ؟ »  
 ولم تكن معه فِئَةٌ يتَّبِعونه على قوله ، ولا يعقلون ما قال ، حتى أمروا  
 بقتله .

ولهذا يرجع ما قدَّمنا ذكره أنَّ شرعاً لا يتمُّ بقياس العلماء وخواصِّ الناس  
 ١٥ دون الرسالة ، على أنّه لا يشكُّ ذو عقل أنَّ المخلوقات قد جعلها الله عِللاً بعضها  
 لبعض ، ولم يخلقها عبثاً ؛ ولكلِّ عِلَّةٍ عِلَّةٌ إلى أن ينتهى ذلك إلى البارئ عزَّ  
 وجلَّ ؛ فهو الذى لا فوقه شيء . وهو قول إفلاطون لموسى — عليه السلام —  
 إذ قال له : « يا أخى ؟ رَسولُ مَنْ أنت ؟ » أراد استخباره ؛ فقال له موسى :  
 « أنا رسول العِلَّة » . فقال له إفلاطون : « ما العِلَّة ؟ » قال : « لا أدري !  
 ٢٠ ولو كنتُ أدري ، لكنتُ أنا العِلَّة ! إنّما أنا متَّبِع ! » فقال له إفلاطون :  
 « اذهب وبلِّغ ما شئت ! فالآن صحَّ عندى أنكَ رسولٌ حقٌّ ! »

وكذلك الجزء لا يُحيط بالكل ، والكل مُحيط بجميع الأشياء ؛ وهو قوله تعالى<sup>(١)</sup> : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ .

وكذلك \* أهل الهندسة والمعرفة بالنجوم قد علموا أنها مخلوقة مصرفة ٤ (١) لما . . . العباد ؛ والعامل منهم يقرُّ بذلك ، غير أنه نهى عن النظر فيها والاجتهاد فيما نهى عنه ، إذ ليست عقول أكثر الناس تهتدى إلى الحقيقة ؛ والفسادُ أسرعُ من البنيان ، وأقربُ إلى عقول الناس من الاهتداء . « وَدَعْ مَا يُرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيْبُكَ » .

وَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ فِيهَا سَعُودًا وَنَحُوسًا ، إِنَّمَا فِي الْفَلَكَ سَعْدَانٌ وَنَحْسَانٌ ، يعنون بها المشتري والزهرة وزحل والمرّيج ، ونيران ، وهما الشمس والقمر ؛ ولا يصحُّ لعالم أن يتكلّم عليها إلا بمزج بعضها ببعض ، فكيف يكون لها الحكم ؛ وهى أضدادٌ ، والحاكم لا يضادُّ ، وخالقُ الخير والشرِّ إليه يرجع الأمر كله ؟ وهو مصرفُ الدهور بما يشاء ! لا إله إلا هو ، العزيز الحكيم !

وليس فى العالم أمرٌ يثبت ؛ وعلى هذا بُنيت الدنيا ، وكذلك الدُّول والمِلَل : كلٌّ يأتى فى أوانه ، ولا يتعدّى وقته ؛ والدينُ صلاحُ العالم ، ولا عدلٌ إلاّ به ، والمُلْكُ يعضده ويحميه ، وهو قوامُ العالم على مارتب الباري عزَّ وجلَّ .

## ٤ - ضرورة التعليم والتجربة

- وأَعْلَمَ أَنَّ الْعَقْلَ مَحْتَاجٌ إِلَى التَّعَلُّمِ ، وَلَا يَسْتَحْكَمُ تَعَلُّمٌ إِلَّا بِتَجَرِبَةٍ ،  
وَلَا تَتَحَكَّمُ تَجَرِبَةٌ إِلَّا مَا كَانَ فِيهَا بَعْضُ النَّكَدِ وَالْإِشْغَافِ ؛ فَالْإِنْسَانُ عَلَى  
مَا ضَرَى عَلَيْهِ وَعَلَى أَنَّ السَّعِيدَ مَنْ أَعْطَى بَغِيرَهُ ؛ لَكِنْ مِنْ شَأْنِ الْإِنْسَانِ  
التَّسْوِيفُ وَ « لَعَلَّ » وَ « عَسَى » ؛ فَإِذَا أُحْتِيجَ فِي ذَاتِهِ ، أَعْقَبَهُ ذَلِكَ  
يَقْظَةً وَحَنَكَةً . وَكَذَلِكَ مِنْ أُخْوَجَ إِلَى نَفْسِهِ كَأَنَّمَا لَا يَتَّكِلُ عَلَى غَيْرِهِ .  
فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَعْمَلَ نَفْسَهُ فِي رِيَاضَةِ ذَلِكَ ، وَالتَّمَرُّنِ فِيهِ ، إِنْ لَمْ يَحُوجْهُ  
الدَّهْرُ ؛ وَإِلَّا : فَلْيَتَعَبْ ذَهْنَهُ ، وَيَشْغُلْ بَالَهُ بِالْفِكْرَةِ فِيهِ ، خَوْفًا أَنْ يُضْطَرَّ  
إِلَيْهِ ، وَإِنَّ الدَّعَةَ غَيْرَ دَائِمَةٍ . فَإِنْ أَحْتَاجَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَجَدَهَا ؛ وَإِنْ اسْتَغْنَى  
عَنْهَا ، عَرَفَ فَضْلَ مَا هُوَ فِيهِ ، وَكَانَتْ لَذَّتُهُ بِهِ أَشَدَّ تَمَكُّنًا : فَإِنَّهُ \* لَا يَعْرِفُ (ب)  
قَدْرَ الْخَيْرِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ . وَإِعْمَالُ الْفِكْرَةِ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي كَالْتَجَرُّبِ  
بِهَا : فَإِنَّ الْإِهْتِمَامَ بِمَا لَمْ يَكُنْ بِلَاءً فِي النَّفْسِ كَأَنَّ ، وَذَلِكَ الْبِلَاءُ مُؤَدِّبٌ ،  
وَإِعْظَمُ ، نَافِعٌ ، مُضْمَحَلٌّ ، خَيْرٌ مِنْ بِلَاءٍ مُوجِعٍ حَالٍ .
- وقيل : ليس العلم بكثرة الرواية ؛ إِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَضَعُهُ اللَّهُ فِي الْقُلُوبِ .  
وَلَا عَذْرَ لِلْإِنْسَانِ فِي أَنْ يَجْهَلَ عِلْمًا يَلِيقُ بِهِ ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى <sup>(١)</sup> : ﴿ فَسْتَلُوا أَهْلَ  
الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وَمِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا  
يَعْنِيهِ . وَلَيْسَ كُلُّ مَا حَضَّ عَلَيْهِ وَنَهَى عَنْهُ عَلَى الْعُمُومِ ، بَلْ لَذَلِكَ كُلُّهُ  
حُكْمٌ يَحْسِنُهُ الْعَاقِلُ ؛ وَالْجَاهِلُ لَا يَحْسِنُهُ ، وَإِنْ جُهِدَ جَهْدَهُ .

## ٥ - التكوين السياسى للمؤلف

وقد كنّا — مَعشَرَ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ — نَرَى مِنْ آكَدِ مَا تَأَدَّبَ بِهِ إِعْمَالُ السِّيَاسَةِ فِي طَلَبِ الرِّيَاسَةِ ، وَالسَّعْيِ لَهَا بِكُلِّ الْوُجُوهِ ، وَإِحْضَارِ الْأُذْهَانِ ، مَا لَوْ أَنَّ الْمُفْرِطَ فِي بَعْضِ ذَلِكَ مِنَّا يَكُونُ أَفْقَهَ النَّاسِ فِي سَائِرِهَا مِنَ الْعُلُومِ ، لَكَانَ عِنْدَنَا نَاقِصًا ، لَا يَصْلَحُ لِهَذَا الشَّأْنِ ، حَتَّى وَقَعَ التَّنَافُسُ عَلَى ذَلِكَ .

وَقَتَلْنَاهَا نَحْنُ عِلْمًا لِرِيَاضَةِ أَنْفُسِنَا لَهَا ، وَمَا أَجْرَانَا<sup>(١)</sup> عَلَيْهِ آبَاؤُنَا ، وَبَصَّرُونَا فِيهِ مِنْ أَوَّلِ نَشَاتِنَا .

١٠ وتلك صناعةٌ وجب تَعَلُّمُهَا لِمُضْرُورَةِ الْحَالِ ، كَسَائِرِ الصَّنَائِعِ الَّتِي مِنْهَا مَعَاشُ النَّاسِ ، وَلَا بَدَّ لَهُمْ مِنْ إِيْنَانِهَا . وَلَعَمْرِي إِنَّ الْوَالِيَّ أَكْثَرَ عِلْمًا وَأَحْسَنَ عَقْلًا : فَإِنَّ جَمِيعَ عُقُولِ النَّاسِ تَعْرِضُ لَدَيْهِ ، وَيَجْرُبُ فِي مَوْضِعِهِ مَا لَا يَجْرُبُ غَيْرُهُ فِي تَقْلِبِهِ فِي الْبِلَادِ ، وَإِلَيْهِ تَهْدَى الْأَخْبَارُ ، وَيَتَخَصَّمُ النَّاسُ ، وَعِنْدَهُ يَقَعُ الطَّلِبُ ، وَتَرْفَعُ الْحَاجَاتُ ، وَتَقَعُ الْعِزَايَاتُ ؛ فَيَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ يَوْمٍ جَدِيدًا لَمْ يَرَهُ أَمْسًا . وَقَالَ عَمْرُ بْنُ الْعَزِيزِ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — :  
١٥ « لَسْتُ كَخَبِّ ، وَلَا الْخَبِّ يُخْدَعُنِي ! » وَقِيلَ : « فَلَانٌ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ » .  
قَالَ : « ذَلِكَ أَجْدَرُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ! »

\* وَلَمَّا كَانَ الْمُظْفَرُ جَدُّنَا — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — قَدْ أُوتِيَ مِنَ الدِّهَاءِ وَالتَّمْيِيزِ ٥ (١)

لأحوال الزمان ما لا خفاء به ، وأنه من آكد ما يجب له النظر فيه ترشيح



أَحَدَ بَنِيهِ لِلْوَلَايَةِ بَعْدَهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَمَرِينِهِ وَإِعْمَالِهِ فِي جَمِيعِ خِدْمَتِهِ ، كَيْ يَتَدَرَّبَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدَّوْلَةِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِيهِ نَفْسُهُ ، كُنْتُ مَعَهُ وَقَعَهُ اللَّهُ لِرَبِّهِ وَالْإِنْصِياعَ لَوْصِيَّتِهِ . فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِي مِنَ الْمَكْتَبِ إِلَى التَّصَرُّفِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ لِي — نَصَرَ اللَّهُ وَجْهَهُ — : « مَعَكَ مِنَ الْكِتَابَةِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ مَا يَكْفِيكَ ! وَهَذَا أَوَّلَى مَا تَتَعَلَّمُ ! فَعَلَيْكَ بِإِحْضَارِ ذَهْنِكَ لِجَمِيعِ مَا يَكُونُ مِنِّي وَمَا يَنْقُضِي فِي دَوْلَتِي أَيَّامَ هَذِهِ الْفِتَنِ ؛ فَإِنَّ الزَّمَانَ أَشَرُّ ، وَالْأَيَّامُ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ تُدْرِكَ تَعَلَّمَ كُلِّ شَيْءٍ يَعْنِي بِهِ الْمُلُوكُ لِأَبْنَائِهِمْ ! »

فَامْتَنَتُ حُدَّةً ، وَأَخَذْتُ نَفْسِي أَوَّلًا بِالتَّوَضُّعِ لَهُ وَابْتِغَاءِ كُلِّ شَيْءٍ يَقَعُ مِنْهُ فِي نَفْسِهِ أَيْ أَشْرَهُ بِهِ إِلَى تَعْجِيلِ الْوَلَايَةِ أَوْ الْحِرْصِ عَلَى الرِّيَاسَةِ ؛ بَلْ كُنْتُ أَتَأَبَّى لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَا أَخْكُمُ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلَّا عَنْ مَشُورَتِهِ وَمِشَارَكَةِ أَهْلِ السَّنِّ وَالْعَمَلِ مِنْ وَزَرَائِهِ ، وَأَنْزَلِ نَفْسِي لَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْإِبْنِ ، حَتَّى وَقَعَ ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَوْفَعًا ارْتَضَوْنِي بِهِ لِلْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَاتَّفَقَ فِي ذَلِكَ رَأْيُهُمْ مَعَ رَأْيِ الْجَدِّ — رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا نَهَارٌ إِلَّا وَاسْتَفِيدُ فِيهِ فَائِدَةً مِنْ تَجَرُّبَةِ وَحُكْمَةِ .  
وَمَا كُنْتُ أَجْهَلُهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، أَجِدُ لَهُ أَعْوَانًا مِنَ الْوُزَرَاءِ ، يَعْلَمُونَنِي بِالصَّوَابِ فِيهِ لِقَلَّةِ خِلَافِي عَلَيْهِمْ وَبِرِّي بِهِمْ .

كُلُّ ذَلِكَ [ مِنْ ] الْأَسْبَابِ الَّتِي أَدْنَى اللَّهُ مِنْ أَجْلِهَا وَلَاقِي مِنْ بَعْدِهِ .  
وَقَدْ كَانَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ مَنْ يَصْلِحُ لَهَا قَبْلِي ، وَمَعِيَ مِنْ أَخٍ كَبِيرٍ وَعَمٍّ وَقَرَابَةٍ أَتَوَقَّعُ اسْتِغْدَافَهُمْ إِلَيَّ وَتَعَلُّبَهُمْ عَلَيَّ ، مَا لَوْ أَنْفَقْتُ مِلْءَ الْأَرْضِ عَلَى كِفَايَةِ شَرِّهِ ، مَا اسْتَطَعْتُ لَهُ . فَكَفَانِي اللَّهُ تَعَالَى مَا كُنْتُ \* ه ( ب )

أَتَوَقَّعُ ، وأراني الخـيرة في عاقبة كلِّ أمرٍ كنتُ فيه أكرهه . فنحنُ  
جُدْرَاهُ بتعدادِ نِعَمِ اللَّهِ والإنصافِ في شُكْرِهِ ، كما حضَّ الله عليه في  
قوله <sup>(١)</sup> لَنَبِيِّهِ — عليه السلام — : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

وقد كان أبونا سَيِّفُ الدولة — رحمه الله — مُرَشَّحًا للمملكة ، كثيرًا  
حبُّ أبيه له ، وجمعه الأموال من أجله ، وتدريبه عليه بكلِّ وجهٍ .  
وكان — رضى الله عنه — من العقول والكرام وحُسن الخلق والحلم ماضٍ به  
في البلاد ، واجتمع عليه محبة العباد . ولم يكن للمظفر جدًّا غيره ؛ فتوفى  
— رحمه الله — ابنَ خمسةٍ وعشرين عامًا . وسنذكر من أحواله مع سائر  
أُمُور الدولة ما يَرِدُ بعد هذا إن شاء الله .

## ٦ — صعوبة الإنصاف التاريخي

١٠

وأوَّلُ ما ينبغي تقديمه ذِكْرُ دُخُولِنا الأندلسَ ، وكيفيَّةَ ولايتنا إيَّاهَا ،  
إلى هَلُمَّ جَرًّا .

فإنَّه ، متى أتينا على خبر يطيب ذِكْرُهُ في هذا التأليف ، للمُعْتَرِضِ  
أن يقول : « هذا أَحْسَنُ لو كان على أَصْلِ مُحَمَّدٍ ، وعن ولايةٍ تُرْتَفَعُ ! »  
فينطق هَذَرًا دون اختبار ولا إنصاف ، على أنَّ الثناء الحسن لا يقع على الدولة  
إِلَّا في مُدَّتِهَا وأَيَّامِ سَعَادَتِهَا ، ولو كانت ظالمةً ؛ فلا يقع فيها الذمُّ إِلَّا بعد  
تَوَلَّيْهَا ، ولو كانت عادلةً . والناسُ مع من سبق إِلَّا مَنْ نَظَرَ بعين العدل ،  
لا بعين الهوى ؛ وقليلٌ ما هُمُ !

ولتَرَى أن لاشيء في العالم يسعد وينحس إِلَّا وكان أحد الأمرين لا يشوبه غيره . ولا يتعلّق بالسعادة إِلَّا كلُّ مستحسن من غير تكدير ، كما أنه لا تشوب المنحسة ما فيه أدنى سرور . وليس مع الإقبال إدبارٌ إِلَّا تمام المدة .

- ٥ ولا يَتَّفِقُ الناسُ أجمع على مدح أحدٍ ولا على ذمه : فَإِنَّ رِضَى العامة أمرٌ لا يُدْرَكُ ، ولا بدّ للوالى أن يقضى عند حُكْمه لأحد الخصمين على الآخر ضرورة ؛ فالمَقْضَى عليه انقلب سaxonاً ، والمَقْضَى له انقلب راضياً ، وكلاهما يتكلّم على شهوة نفسه . فكيف يَتَّفِقُ إجماع العامة على خير واحدٍ\* ٦ (١) أو مدحه ؟ وإن الله تعالى كان قادراً على أن يُسوّى بين [ أمور خلقه ، وجديراً ، وإن ] كَيْفَتْ ، أن يرفع بعضهم فوق بعض درجاتٍ .

## ٧ - المصادفة وأثرها في التاريخ

### مثل المنصور

- وإذا اعتبرت أحوال هذا العالم على شيء من أمر الدنيا ، فإنما تجدُه كأنثاً بارقٌ سَبَب : فمن بين جاهلٍ مسعودٍ أو حاذقٍ مُمخرقٍ . وإذا بَعَثْتَ على ما هو فيه أعين استحقاقٍ تصيرُ إليه ، لم تختبر من فعّاله ومقاله شيئاً يشد عن العالم ، ولا يشفُّ على رأى من تزدريه عينك ، ولأنّ الجهل في العامة أغلب ، والباطل إلى عقولها أسرع : استعظمت ما هو عند اللبيب حقير ، وتكلمت على ما ظهر إليها ، ولم تقس عليه بعقولها ؛ والله

ما بطن ، وللناس ما ظهر . ولهذا ترى صاحب الناموس أرفع ذكراً وأطيب ثناء ، وإن كان يُرأى .

وقد كان المنصورُ بن أبي عامر ، على دقة شأنه قبلُ ، ولأنه لم يكن من أهل بيت المملكة ، فيستحقها عن الآباء ، ولا كانت به قدرة على الدنيا ، قد حصل على عظام بدهائه ومخرفته على العامة ، مع ماهيات السعادة له ( وكان أقوى الأسباب في سلطانه ) . وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنه مَنْ كان طالعه من البروج الحوت والقوس كان أعظم الأسباب في سلطانه أو عقاره .

ولولا قيامه بدعوة الخليفة ، وإظهاره الانخضاع له [ في جميع ] ما يأتي ويذر إلى طاعته وإقامة أوده ، وتوليته الحجابة والوزارة ، وإخاله لأهل الدولة الحَكَمِيَّة<sup>(١)</sup> ، وتقضيهم بالقتل ، متأولاً في ذلك أن دولته تصفو<sup>(٢)</sup> به ويقوى سلطانه ، وأن في بقائهم كثرة الخلاف وإثارة الفتن وهلاك المسلمين ، حتى اتسق له ما أمّل ، وبلغ من ذلك كله الغاية القصوى — ولو أن أحداً اشتهر ببعض ما أتى هو به دون تعلّق بسبب أو إظهار طاعة ، [ لكان قُتِلَ ] من ساعته ، ولو كان من أهل بيت الخلافة — إلى أن ورث الأمر ابنه من [ بعده ، فسار المنصور ] \* بأحسن سيرة وأحمد طريقة ؛ وكانت له في بلاد<sup>٦</sup> ( ب ) العدو فتكات ، نال الإسلام في أيامه عزاً ما كان بالأنْدَلُس [ مثله ] ، وأذل ما كان النصراني عليه .

(١) في الأصل : « الحاكية » .

(٢) أصل : « أن به تصفى دولته » .

## الفصل الثاني

الأحداث الممهدة لقيام دولة بني زيري  
وأوليات هذه الدولة . أيام زاوي بن زيري  
وحبوس بن ماكسن

---

٨ - الإصلاح العسكري الذي أدخله المنصور .

قدوم بني زيري إلى الأندلس وقيام دول الطوائف

وتوقع [ المنصور ] من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، إذ كانوا صنفًا واحدًا ، وتألهم على معصية أمره ، متى أمر بما أحبوا أو كرهوا ؛ فنظر من ذلك بعين اليقظة ، وسؤل له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتًا متفرقة : إن هم أحد الطوائف بخروج عن الطاعة ، غلبها بسائر الفئات ، مع احتياجه إلى تقوية عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلل بلاد العدو وتدوينها متى شاء . فاستجلب من رؤساء البربر وحماة وأنجاده من بلغه فروسيته وشده . وتسامع الناس بالجهاد ؛ فبادر إليه من شرق العدو من كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ما لا خفاء به . وبهم كان يصول ابن أبي عامر على العدو ؛ وهم كانوا

العِدَّة في الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعتزك الوغاء . وكان من أذْهَابهم رَأْيًا وأَبْغَدَهم هَمَّةً زَاوِي بن زِيرِي عَمَّنَا ، وبعده حَبُوسُ بن مَأْكَسَن ابنُ أخيه — رضى الله عنهما — ؛ فإِلَيْهِمَا كان الرأى والمشورة في الأمر ، والحكم على من دونهم من الأجناد .

٥ فَرْتَب ابنُ أبى عامر الرُّتَب ، وأظهر هَيْبَةَ الخِلافة ، وقمع الشُّرَكَ ،

وحضَّ المسلمين عامَّةً على الغزو ؛ فَعَجَزَ عن ذلك رعيَّةُ الأندلس ، وشكوا

إِلَيْهِ ضعفهم عن المُلَاقاة وشُغْلهم بالفَرَوات عن عِمارة أرضهم ؛ ولم يكن

القومُ أَهْلَ حَرْبٍ . ففَقَطَعَهُم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم ، ويعطوا من

أموالهم كُلِّ عام ما يقيم به من الأجناد مَنْ يكفيهم ذلك ، على اتِّفاق ورضى

١٠ منهم . ففَضَرَبَ عليهم الأقطاع ، وحَصَّلَ في الدواوين جميعَ أموال الناس ،

وكسرها \* عليهم<sup>(١)</sup> [ وفرض ] بينهم ما لآ [ يرتزق ] منه الجيش . فبقيت تلك ٧ (١)

الأقطاع عليهم إلى [ أن عمَّت الأندلس ] عدَّة الثَّوَّار و [ اتَّبَعُوا ] هم على

تلك الآثَار . [ ودأبهُ ] في ذلك إِنَّمَا كان على ما وَصَفْنَاهُ .

وكان الناس مؤتمنين على ما يعطونه من زكاة أموالهم في الناض والطعام

١٥ والواشئ ، يقسمون ذلك على الساكنين بكلِّ بلدة ؛ ولم يكن الوالى يقرب

من ذلك إِلَّا ما يقيم به الجيش والدولة التى هى قيام العالم ؛ ولولا حماية

السلطين للرعيَّة ، وعزُّ دُوْلِهِم ، وذَبْهُم عنهم ، ما طاب لهم عيشٌ ولا عزٌّ بهم

قرارٌ . فكان ذلك كُلُّهُ عن سداد وصلاح وتأوُّل الخير . ولم تزل الأندلسُ

قديمًا وحديثًا [ عامرة ] بالعلماء والمُفَقِّهَاء وأهل الدين ، وإليهم كانت الأمور

٢٠ مصروفة ، إِلَّا ما يلزم المَلِك من خاصَّته وعبيده وأجنادِه من الأخذ من واحدٍ

(١) وقع هنا وفيها بلى خرم وبعض نحو في الأصل . وأكلناه بما يتفق والمعنى .

وَدَفَعَهُ لآخر ، لينخُلَ بذلك عسكره ويتخيَّرَ أَفْضَلَهُ . . . . . فيه للمسلمين كفاية وعُدَّة ، إذ كانت الأموال التي يعطونها من غير أَصُولهم ، ولا اكتسابهم ؛ إِنَّمَا كان ذلك من وجه النظر للمسلمين . وأما ما كان بَيْنَهُم من مظلمة أو قضيَّة وكلِّ حُكْمٍ يرجع للسُّنَّة ، فَإِنَّمَا كان لقاضى البلدة .

٥ فلما تَمَّت الدولة العامريَّة ، وبقي الناس لا إمام لهم ، ثار كلُّ قائد بمدينة ، وتحصَّنَ في حصنه بعد تَقْدِمة النظر لنفسه ، واتَّخَذَهُ المساكر ، وادَّخَرَهُ الأموال ؛ فَتَنَافَسُوا على الدُّنْيَا ، وطمع كلُّ واحد في الآخر . وكذلك لا يصحُّ أمرٌ بين نَفْسَيْنِ ؛ فكيف سلاطين كثيرة وأهواء مختلفة ؟ . . . . . إِلَّا اللهُ . . . . . من كان ظالماً منهم يتعدَّى . . .

١٠ للقدر\* الذى شاء ربُّنا لا شريك له . ٧ (ب)

## ٩ - استقرار بنى زيري في البيرة بناءً على طلب أهلها

فلما رأى سلاطين صِنْهَاجَة وبنو زيري اقتطاع كلِّ أمير في بَلَدٍ لنفسه ، وذهبَ ما كانوا عليه من عزٍّ وأثرٍ ، عزموا بالرحيل عن الأندلس والجواز إلى العِدْوَة ، ليرجعوا إلى مُسْتَقَرِّهم . فانهقدوا على ذلك بعد أمور يطول ذِكْرُها ، وظهور فساد كثير أضربنا عن إيراد كَلَمَةٍ ، إذ كان مَقْصِدُنا وَصَفَ دولتنا خاصَّةً . ولا بُدَّ من ذِكْرٍ لَمَعٍ من غَيْرِها عند الاحتياج إليه . وكان أهل البيرة في بَسِيط من الأرض ، وكان بهم من الفسِّ بعضهم لبعض ما إنَّ الرجل منهم لِيَتَّخِذَ بِإِزاء داره مسجداً وحمَّاماً فراراً من جاره ، ولا يرجعون إلى طاعة ولا حُكْمٍ والٍ . وكانوا مع هذا من أجبن الناس

وَأَخَوْفَهُمْ عَلَى مَدِينَتِهِمْ ، لَا يَسْتَطِيعُونَ عَلَى قِتَالِ أَحَدٍ ، وَلَوْ كَانَ الذَّبَابُ ،  
إِلَّا بَنَ يَحْمِيهِمْ وَيَذُبُّ عَنْهُمْ . فَلَمَّا بَصُرُوا بِاخْتِلَافِ سُلَاطِينَ الْأَنْدَلُسِ ،  
وَأَنَّهَا أَضْرَمَتْ نَارًا ، وَتَوَقَّعُوا أَنْ يَتَخَطَّفَهُمُ النَّاسُ ، وَجَّهُوا إِلَى زَاوِيِ الْمَذْكُورِ ،  
شَاكِينَ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، وَيَقُولُونَ : « إِنْ كُنْتُمْ جَاهِدْتُمْ قَبْلَ الْيَوْمِ ، فَهَذَا  
الْجِهَادُ آكَدٌ عَلَيْكُمْ : أَنْفُسُ تَحْيُونَهَا ، وَدِيَارُ تَحْمُونَهَا ، وَعِزَّةٌ تَأْوُونُ إِلَيْهَا !  
وَنَحْنُ شَارِكُوكُمْ بِأَمْوَالِنَا وَأَنْفُسِنَا : لَكُمْ مِنَّا الْأَمْوَالُ وَالسُّكْنَى ، وَلَنَا  
مِنْكُمْ الْحَمَاةُ وَالذَّبُّ عَنَّا ! » .

فَقَبِلَ الْقَوْمُ قَوْلَهُمْ . وَاعْتَبَطُوا بِمَكَانِهِمْ ، وَاسْتَبَشَرُوا بِاسْتِفْتَاكِ الْبَلَدِ  
لِغَيْرِهَا ، وَ . . . أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْغَدْرِ لَنَشْتَتُهُمْ وَرَجُوعِ أُمَرِهِمْ كُلِّهِمْ دُونَ  
فِئَةٍ [ نَحْمِيهِمْ ] ، وَلَا جَمَاعَةٍ يَتَوَقَّعُ عُصْبَتُهَا . فَاتَوْهُمْ مُحْتَشِدِينَ مَتَأَلِّفِينَ ،  
قَدْ انْقَطَعَ إِلَيْهِمْ كُلُّ مَنْ اتَّعَى مِنَ الْبَرْبَرِ وَتَعَلَّقَ بِهِمْ . وَنَزَلُوا سَاحَتِهِمْ ،  
وَحَيَّوهُمْ بِالتَّخَفِّ وَالْأَمْوَالِ ، وَشَارَكُوهُمْ أَحْسَنَ مُشَارَكَةٍ ، رَاضِينَ بِهِمْ  
لَا سَاحِطِينَ . وَاسْتَجَابَتْ لَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ مَعَاقِلُ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا جَيَّانُ وَأَنْظَارُهَا ،  
وَحِصْنُ آشَرِ\* مِنَ الْغَرْبِ .

٨ (١)

فَلَمَّا طَاعَتْ لَهُمُ الْبِلَادُ ، اجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَتَقَارَعُوا عَلَيْهَا ؛ وَكَانَتْ  
عَادَةً فِي الْبَرْبَرِ ، كَيْ لَا يَأْنِفَ أَحَدُهُمْ مِمَّا يَصِيرُ إِلَى أَخِيهِ . فَرَجَعَتْ  
إِلْبِيرَةُ فِي قَرْعَةِ زَاوِيِ ، وَحِصْنُ آشَرِ مَعَ جَيَّانَ فِي قَرْعَةِ حَبُوسِ ابْنِ أَخِيهِ  
جَدَّنَا — رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ — . وَتَعَاقَدَ جَمِيعُهُمْ عَلَى أَنَّهُ ، إِنْ طَرَقَ الْعَدُوُّ  
جِهَةً صَاحِبَهُ ، يَكُونُ الْآخَرُ يَحْمِيهَا بِنَفْسِهِ وَرِجَالِهِ .

١٥



# ١٠ — ردّ الفعل الذي أحدثه في الأندلس قيام دولة بني زيري

## اختطاط غرناطة

فلما بصر بفعلهم ثوار الأندلس ، جزعوا منهم ، وحذروا أن تقوى شوكتهم ، فيطرقوهم ويحصلوا على بلادهم ، لما اختبروا من شدّتهم ورأيهم . فاجتمعوا على منازلهم وقصدتهم إليهم بأحشادهم ، كراهية تطييدهم بذلك المكان وبغضهم لجنسهم . وقدّموا على أنفسهم إنساناً سمّوه بالمرنّفى ، زعموا أنه قرشي ، كنى يستهلّوا بخلافته عامّة الناس ، ويرجع أمرهم إليه . ونزل الجمع على مقربة منهم .

وكان قبل ذلك ، لما بلغهم احتشادهم وتألّبهم ، جمعوا أهل البيرة المذكورة وقالوا لهم : « نحن لم نأت لفساد دياركم ، ولا قهرناكم على استيطانها ؛ وإنما كان ذلك على اختياركم لنا . وهذه الفئات مقيمة لطلبنا : فإن استوثقنا منكم ، دافعنا عنكم ؛ وإن كانت الأخرى ، فأعلمونا : نمض عنكم على أجل وجه . فلن نعدم الخير بسيوفنا ! » فأجابهم القوم : « اثبتوا في قتال عدوكم والدفاع عنا وعن أنفسكم ! فنحن رعيّتكم الطائفة وأسيافكم القاطعة ! » فقال لهم زاوي بن زيري : « إذا كان هذا رأيكم ، فأرى من الصواب أن نتحلّ عن هذه المدينة ، ونختار لأنفسنا فيما

يقرب منها متعلّلاً نأوى إليه بأهالينا وأموالنا \* . . . . . والحرب ٨ (ب) سيجال . . . . (١) يصيب عندها ولا يصاب ؛ فقد يُظنّ عجزاً ! وقد أمر

النبيُّ — عليه السلام — عند احتشاد المُشْرِكِينَ على المدينة أن يُخَنِّدَ حَوَالِيهَا ، وَسَنَ الْحَزَمَ ، مع مدِّ الوَحْيِ له ؛ فكيف نَحْنُ ؟ »

وقالوا لأهل البيرة : « لَسْنَا نَكْلِفُكُمْ <sup>(١)</sup> من الأموال ما نَسْرَعُكُمْ به ، إِلَّا أن تنفقوها فيما يخصُّكم من تقوية مدينتكم بحشود رَجَالَةٍ منكم ، تنفقون عليهم ليكونوا بها لكم أعواناً : تصرفونهم حَرَساً وجواسيسَ وما أشبه ذلك ، وتحملون من تعرفون أَنَّهُ يستطيع على الجُنْدِيَّةِ ، أو تبنون لأنفسكم سوراً يتوقَّع بتركه ثلثة تدخل بها الداخلة عليكم . وأما سِوَى ذلك مما يخصُّنا نحن ، فاعلموا أَنَّهُ لم نَأْتِ الأندلس إِلَّا وأجلبنا مع أنفسنا من الأموال ما لا نحتاج فيه إلى أَحَدٍ ، بانين على الإقامة إن اضطررنا إليها ؛ ولم نَأْتِها عن فاقَةٍ ولا سعاية ؛ إِنَّمَا جئناها رغبةً في الجهاد ، وأن تكون كفايتنا التي شهرنا بها على العدوِّ دون سائرهم ، وأن نفنى باقى أعمارنا فى طاعة الله ، إلى أن دفعتمنا الأقدار إلى ما تَرَوْنَ . ونَحْنُ لم نطلب أَحَدًا ، ولا تعدَّينا على بشر ! وهوؤلاء باغُونَ متطاولُونَ . وَمَنْ ﴿ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللهُ <sup>(٢)</sup> ﴾ ؛ ومن قُتِلَ دون ماله وأهله ، فهو شهيدٌ ! »

فرضى القوم من قولهم ، وزاد ذلك فيهم رغبةً . واتفق رأى الجميع أن يخيروا لأنفسهم جَبَلًا مُنِيفًا وَمَعْقِلًا شامخًا ، يبنون فيه ديارهم ، ويرحلون إليه بقلَّتْهم وكثرتهم ، ويعملونه القاعدة ، ويحربون له البيرة المذكورة . . . . .  
..... <sup>(٣)</sup> فوقمت أعْيُنُهُم على بسيطٍ جميل ، قد جمع الأنهار والأشجار ؛ ٩ (١)

وجميع ما يليه من البلد كله ينسقى من وادى <sup>(٤)</sup> شَنِيلٍ المنحدر من جَبَلٍ

(١) أصل : « نكلفوكم » . (٢) سورة الحج : ٦٠ . (٣) خرم نحو

سطين فى الأصل . (٤) أصل : « واد » .

شَلِيرَ . وبصروا بالجبل الذي فيه الآن مدينةُ غَرْناطةَ موسَّطةً للبلدِ كُلِّهِ :  
 الفَحْصَ أَمَامَهُ ، وَجِهَتِي الزَّاوِيَةَ وَالسَّطْحَ بِجَنْبَيْهِ ، وَنَظَرَ الْجَبَلَ وَرَاءَهُ .  
 فَأَفْتَنَهُمُ الْمَكَانَ ، وَعَمَلُوا عَلَيْهِ كُلَّ حَسَابٍ ، وَرَأَوْا أَنَّهُ فِي وَسْطِ النِّعَمِ وَجْهٌ  
 الرِّعَايَا ، وَأَنَّ الْعَدُوَّ ، مَتَى نَازَلَهُ ، لَمْ يَطُقْ لَهُ إِحْصَارًا ، وَلَا مَنَعَهُ دَاخِلًا  
 وَلَا خَارِجًا الْبَتَّةَ ، فِي كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْمُرَافِقِ . فَشَرَعُوا فِي  
 بُنْيَانِهِ . وَتَوَلَّى كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِقَامَةَ دَارِهِ مِنْ أُنْدُلُسٍ وَبَرْبَرٍ . وَخَرَبَتْ  
 عِنْدَ ذَلِكَ الْبَيْرَةَ .

## ١١ - خروج المرتضى لحرب بني زيري وهزيمته

فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مُدَّةً يَسِيرَةً قَبْلَ أَنْ يَسْتَكْمَلَ الْبُنْيَانُ ، فَإِذَا بِالطَّوَانِفِ  
 الْبَاغِيَةِ قَدْ أَقْبَلَتْ طَامِعَةً مُتَأَلِّفَةً ، يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ ، عِنْدَ وَصُولِهِمْ ، لَا تَرْتَدُّ  
 لَهُمْ سَاعَةٌ . وَقَدَّمُوا كِتَابًا إِلَى زَاوِي الْمَذْكُورِ ، يَأْمُرُونَهُمْ — بِزَعْمِهِمْ —  
 بِالْخُرُوجِ أَمَامَهُمْ عَلَى الْأَمَانِ ، وَأَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْبَقَاءِ ، وَلَا يَتْرَكُونَهُمْ بِذَلِكَ  
 الْمَوْضِعَ : يُبْلِغُونَ بِذَلِكَ الْعَذْرَ عِنْدَهُمْ ، إِذَا ظَفَرُوا بَعْدَ هَذَا ، أَنْ لَا يَقْبَلُوا  
 لَهُمْ عَثْرَةً .

١٥ فَلَمَّا قُرِئَ عَلَى زَاوِي كِتَابُ الْمُرْتَضَى الْمُقَامُ لِهَذَا النَّامُوسِ ، جَمَعَ  
 رِجَالَهُ ، وَخَاطَبَ ابْنَ أَخِيهِ حَبُوسًا ، يَأْمُرُهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ؛ فَأَتَى فِي جَمِيعِ  
 عَسْكَرِهِ ، وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ ، غَيْرَ مُجَانِبٍ لَهُمْ ، وَلَا مُتَكَاِمٍ مِنْهُمْ .  
 وَاجْتَمَعَ بِغَرْناطةَ مِنْ صِنْهَاجَةِ دُونَ الْأَلْفِ مِنْ خَيْرَةِ الْخِيَرَةِ ؛ وَكَانَتِ الطَّوَانِفُ  
 الْبَاغِيَةِ فِي نَحْوِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَلْفِ فَارَسٍ .

٢٠ فَأَمَرَ زَاوِي الْمَذْكُورَ [ بِكَتَبِ الْجَوَابِ مِنْ ] إِمْلَائِهِ ، وَقَالَ لِلْكَاتِبِ :

« لَا تَزِدْ شَيْئًا عَلَى مَا أُمِّلِي عَلَيْكَ ! \* اَكْتُبْ : ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى ۙ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ (١) .

فلما ورد الجواب عليهم ، عجبوا من دهائه ، وقالوا : « إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَأْبَ الطَّاعَةَ لَنَا ، إِلَّا أَنَّهُ وَاثِقٌ بِنَجْدَتِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ ، أَوْ مُوَطَّنٌ عَلَى الْمَوْتِ ، أَوْ مُعْجَبٌ بِمَحْيَنٍ ! » فزحفوا إليه .

وهشَّ القومُ إلى مُلَاقَاتِهِمْ . فَأَمَرَهُمْ زَاوَى بِالثُبُوتِ وَتَرَكَ الطَّيِّشَ ، حَتَّى يَبْدُو لَهُ مَا هُمْ فِيهِ . فَقَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : « لَا خَيْرَ لَنَا فِي غَيْرِ مُلَاقَاتِهِمْ ، إِذْ قَدْ أَيقَنَّا بِأَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُنَا مَعَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا الظُّفْرُ بِهِمْ أَوْ الْمَوْتُ عَلَى أَيْدِيهِمْ . وَلَا مَهْرَبَ لَنَا فِي الْأَرْضِ دُونَ قِتَالِهِمْ ! إِنْ بَقِينَا ، لَمْ يَبَارِحُونَا ، وَأَحْصَرُونَا مَعَ رَعَايَانَا إِنْ لَمْ يَرَوْا مِنَّا دِفَاعًا عَنْهُمْ ! فِيمَا هُلُكٌ وَإِمَا مُلْكٌ ! وَإِنْ مَوْتَنَا فِي مُلَاقَاتِهِمْ ، بَعْدَ إِبْلَاءِ الْعَذْرِ ، أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تَغْلِبِهِمْ عَلَى مَدِينَتِنَا ! »

فَخَرَجُوا إِلَيْهِمْ بِأَنْفُسٍ جَرِيئَةٍ وَعَلَى الْمَوْتِ مُوَطَّنَةً ، وَقُلُوبٌ حَنِقَةٌ وَلِلْمَوْتِ طَالِبَةٌ . فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَصَفْقَةٍ بِالْكَفِّ عَلَى الْكَفِّ حَتَّى وَلَّوْهُمُ الْأُدْبَارَ ، وَانْهَزَمُوا أَمَامَهُمْ مَذْعُورِينَ ، يَطْلُبُونَ النِّجَاةَ بِحِشَاشَةِ أَنْفُسِهِمْ ، لَا يَلْوِي مِنْهُمْ أَحَدٌ عَلَى صَاحِبِهِ . وَاتَّبَعَتْهُمْ صِنْهَاجَةٌ ، وَانْبَسَطَتْ عَلَيْهِمْ أَيْدِي الْبَرَبَرِ ، يَقْتُلُونَ مِنْهُمْ نَهْمَةً أَنْفُسَهُمْ ، وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ وَمَا تَرَكَوهُ مِنْ أَسْلِحَتِهِمْ ، حَتَّى امْتَلَأَتْ مِنْ ذَلِكَ أَيْدِيهِمْ .

وَكَانَتْ تِلْكَ الْوَقْعَةُ أَوَّلَ ظَفَرِ ثُبُوتِهَا فِي أَوْطَانِهِمْ . وَهَابَهُمُ النَّاسُ ، وَانْقَادَتْ لَهُمُ الرِّعَايَا . وَتَوَطَّدَ مُلْكُهُمْ بِغَرْنَاطَةٍ ، وَطَاعَتْ لَهُمْ أَكْثَرُ بِلَادِ أَعْدَائِهِمُ الْمَهْزُومِينَ .

## ١٢ — رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً

وإنَّ زاوي بن زيري ، لما بصر بهذه الحال ، ورأى تألَّبَ أهل الأندلس عليهم وبُغضهم لهم ، عمل بذلك فِكْرته وقال : « قد علمتُ وأيقنتُ أنَّ هذا يكون \* دأبهم أبداً ، وإن كُنَّا قد مُنحنا الظفر في أوَّل صفقة ، لم نأمنهم على أنفسنا وديارنا كلَّ حين ! وهُم ، إن قُتِلَ منهم واحدٌ ، خَلَفَهُ أَلْفٌ ، مع مِثْل جنسيِّهم من الرعايا إليهم ؛ فتكون الزيادة فيهم والنقصانُ مِنَّا ! ولا يموت لنا نَحْنُ أَحَدٌ ونخلفه أبداً ! » فنظر من المكان بعين الحقيقة ، ورَهَدَ فيه ، مع ما عِلِمَهُ من وفاة باديس بن المنصور ، والدِ المُعِزِّ ، مَلِكِ القَيْرَوَانِ ، وأنَّ ابنه وَلِيَّ طِفْلاً صغيراً ؛ فشرهت نفسه إلى تلك الولاية ، وعزم على النهوض إليها ، للقدَر الذي قدَّره الله من إزالته عنها وولاية ابن أخيه مكانه .

وكان لزاوي بَنُونَ ، يعدل كلُّ واحد منهم ببَدَنه مائة فارس في نجدة وقوَّة بأسه ورأيه : منهم مُبْلَقَيْن بن زاوي . فأعاب هذا الرأي على أبيه ، وقال له « بَنَيْتَ لِفَيْرِك ، فتكون له بمنزلة الخادم أو الأجير ! لا تترك حاضراً لغائب ! واثبتُ بمكانك الذي لم تحصِّل عليه إلَّا بعد مشقَّة وإشرافٍ من نفسك على الهلاك ! » فقال زاوي : « نستخلف على المدينة من شيوخ تلكاتة الموثوق بهم في المُهِمَّات مَنْ يَشَقُّهَا ، وينوب منابى فيها ، حتَّى أباشِرَ بنفسى حال القَيْرَوَانِ وكيفيَّة دَوَلَّتْهَا . فإمَّا أن يتهيأَ غَرَضُنَا ، وإلَّا انصرَفْنَا إلى مَرَكَزِنَا » .

٢٠ فتهيأَ للمسير على سبيل المشاركة للمُعِزِّ ، وأن يكون له بالأندلس عُدَّة

وَعَبْدًا ، وَمَا شَبِهَ ذَلِكَ مِمَّا يُسْتَعْمَلُ فِي الْمُشَارَكَاتِ وَاتِّصَالِ الْأَيْدَى عَلَى  
الْمُهَمَّاتِ . وَاسْتَحْلَفَ مِنْ اسْتَحْلَفِهِ مِنَ الشُّيُوخِ أَلَّا يَدْخُلُوا <sup>(١)</sup> عَلَيْهِ دَاخِلَةً  
وَلَا يُسَلِّمُوا <sup>(٢)</sup> مِنْ أَحْوَالِهِ شَيْئًا لِابْنِ أَخِيهِ وَلِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، \* يُرِيهِمْ <sup>(٣)</sup> (ب)  
فِي مَسِيرِهِ <sup>(٤)</sup> النَّظَرَ لَهُمُ وَالسَّعَى فِيمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ مَوَظِعِهِمْ ذَلِكَ .

٥ ثُمَّ خَرَجَ عَنِ الْبَلَدِ كَأَنَّهُ يُقَادُ قَوْدًا ؛ فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا بِمَرَحَلَةٍ إِلَّا وَكُتِبَ  
مُسْتَحْلَفِيهِ سَائِرَةً إِلَى حَبُوسِ بْنِ مَأْكَسَنَ ، يَسْفَهُونَ رَأْيَ زَاوَى وَيَقُولُونَ  
لَهُ أَنْ يُعَجِّلَ بِالْقُدُومِ إِلَى الْبَلَدِ ، وَأَنَّهُ أَحَقُّ بِوَلَايَتِهِ مِنْ غَيْرِهِ ، قَبْلَ أَنْ  
يَطْمَعَ فِيهِ مَنْ لَا يَرْضُونَهُ ، أَوْ يَشْرَعَ إِلَيْهِ مِنْ فَغْرَ فَاهُ إِلَيْهِ بِزَوَالِ زَاوَى  
عَنْهُ . فَلَمْ يَتَأَخَّرْ عَنْهُ إِقْبَالُ حَبُوسِ . وَتَلَقَّاهُ <sup>(٤)</sup> صِنْهَاجَةً بِالطَّاعَةِ وَالْإِقْبَادِ  
لِمُلْكِهِ . وَسَمِعَ بِخَبَرِ زَاوَى ، وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ غَرْنَاطَةِ ؛  
وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ . وَلَامَهُ وَلَدَهُ عَلَى ذَلِكَ .

وَيَذْكُرُ أَنَّهُ ، لَمَّا وَصَلَ إِلَى الْقَيْرُوانِ ، وَأَحْسَنَ بِمَذْهَبِهِ بَعْضُ وَزَرَاءِ الْمُعِزِّ  
نَكَرُوهُ وَخَافُوا دَوَاخِلَهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَكْدُرَ مَا صَفَا . وَرَأَوْا أَنَّ وَلَايَةَ الْمُعِزِّ  
عَلَى طُفُولِيَّتِهِ ، وَعَيْشَتِهِمْ مَعَهُ ، وَتَحْكُمَتِهِمْ عَلَيْهِ ، أَخَفُّ عَلَيْهِمْ مِنْ تَوَلِيَةِ دَاهِيَةٍ  
مِثْلَ زَاوَى ، لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُ مِنْ قِطْمِيرٍ . فَدُسَّ إِلَيْهِ مِنْ سَقَاةِ السُّمِّ . وَمَاتَ  
بِتِلْكَ الْبِلَادِ .

### ١٣ — إِمَارَةُ حَبُوسِ بْنِ مَأْكَسَنَ

وَصَفَا الْأَمْرُ لِحَبُوسِ بْنِ مَأْكَسَنَ ، وَسَارَ بِأَجْمَلِ سِيرَةٍ وَأَعْدَلَ طَرِيقَةٍ .  
وَصَرَفَ أَحْكَامَهُ أَجْمَعَ إِلَى قِضَاةِ الْبِلَادِ ، وَتَعَفَّفَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ وَجَمَدَتْ

(١) أَصْلُ : « يَدْخُلُونَ » . (٢) أَصْلُ : « يَسْلَمُونَ » . (٣) أَصْلُ : « مَسِيرِهِ » .

(٤) أَصْلُ : « وَتَلَقَّاهُ » .

يَدُهُ عَلَى الْحَرَامِ وَالْأَمْوَالِ . فَأَحَبَّهُ النَّاسُ ، وَأَمِنَتْ مَعَهُ السُّبُلُ ، وَقَلَّ  
الْفُسَادُ ، وَارْتَفَعَ الْجَوْرُ .

وكان الرجلُ مُحِبًّا فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ ، لَمْ يَسْتَأْثِرْ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ .  
وَقَسَمَ عَلَيْهِمُ الْبِلَادَ . وَأَمَرَ كُلَّ قَائِدٍ أَنْ يَنْتَخِبَ مِنَ الرِّجَالِ عِدَدًا يَلِيقُ بِهِ  
وَمَا يَكُونُ عَلَى قَدَرِ مَا أُعْطَاهُ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَأَنْهَى إِلَيْهِمْ : « إِلَّا فَائِدَةٌ  
تَفِيدُونِي بِهَا تُنْفَقُ عِنْدِي مِنْ مَالٍ أَوْ تَخَفَةٌ غَيْرِ الْاسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَجْنَادِ ؛ فَمَتَى  
دَعَوْتُ \* أَحَدَكُمْ لِهَيْمَةٍ ، وَبَصَرْتُ عَسْكَرَهُ أَكْثَرَ عِدَدًا وَأَجُودَ خَبْرَةً ، ١١ (١)  
فَذَلِكَ الْأَثِيرُ عِنْدَنَا ، وَالْحَظِيُّ لَدَيْنَا ! » فَسَارَعَ الْأَجْنَادُ إِلَى الْحَقَّةِ ، وَزَادَ  
الْجَيْشُ فِي أَيَّامِهِ ؛ وَقَامَتْ هِمَمُ الرِّجَالِ عَلَى سَاقٍ ، وَتَنَافَسُوا عَلَى خِصَالِ  
الْحُرُوبِ وَمَقَاطِعِ الشُّجْعَانِ . ١٠

وكان بنو عَمِّهِ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ سُلْطَانًا فِي نَاحِيَّتِهِ ، قَدْ حَازَ جِهَتَهُ  
وَانْفَرَدَ بِعَسْكَرِهِ . وَكَانَ حَبُوسٌ — رَحِمَهُ اللَّهُ — لَا يَنْفَرِدُ بِرَأْيٍ دُونَهُمْ ،  
وَلَا يَقْطَعُ مَقْطَعًا إِلَّا بِمَشُورَتِهِمْ ، حَتَّى إِنْهُمْ لِيَجْتَمِعُونَ مَعَهُ لِلْحُكْمِ فِي مَوْضِعٍ  
خَارِجٍ قَصْرِهِ دُونَ السَّيْرِ إِلَيْهِ ؛ وَذَلِكَ اسْتِحْسَانًا مِنْهُ ، كَتَّى لَا يَحْصُلَ عَلَيْهِمْ  
مَا يَقَعُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ ذَلَّةٍ وَلَا مَا يَنْقُمُونَ عَلَيْهِ . وَكَانَ رَفِيقًا بِهِمْ ، مُحْسِنًا ١٥  
إِلَيْهِمْ ، مُؤَلَّفًا لِكَلِمَتِهِمْ . وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ : « إِنْ صِنْهَاجَةٌ عِنْدِي مِثْلَ  
الْأَسْنَانِ فِي الْقَمِ : إِنْ عَدِمْتُ مِنْهُمْ وَاحِدًا ، لَا نَخْلُفُهُ أَبَدًا ! » فَكَانَتْ  
لَهُ بِهِمُ الصَّوْلَةُ عَلَى النَّاسِ وَالْإِسْطِطَالَةُ عَلَى الْعَدُوِّ . وَمَا كَانَ كُلُّ أَحَدٍ يَرَى  
تَرْكَهُ غَنِيمَةً وَالسَّلَامَةَ مِنْهُ مِنْ أَعْظَمِ الْفَائِدَةِ ، فَضْلًا أَنْ يَطْمَعَ فِي شَيْءٍ  
مِنْ جِهَاتِهِ ، أَوْ تُحَدِّثَهُ نَفْسُهُ بِغَزْوِ بَعْضِ بِلَادِهِ . ٢٠

## ١٤ — المؤامرات التى دُبِّرَت لإسناد الإمارة

إلى يَدَيَّر بن حُباسة .

## موت حَبُوس

وكان لَحَبُوس بن مَأكَسَن — رحمه الله — ابْنُ أَخٍ يُعْرَفُ يَدَيَّر  
 ٥ ابن حُباسة . وكان عنده آثَرٌ من وَلَدِهِ ، لِلَّذِى كان يَرى من نباهته ،  
 وإقباله على قراءة الكُتُبِ ومُجالسة الفقهاء ؛ وهو الذى كان يلقى به  
 الرُّسُلَ ، ويصرفه فى المَهَمَّاتِ . وكان بارًّا بِحَبُوسَ وبجميع أهل المملكة .  
 وكان من أَحَبِّ الناسِ فيه كاتبُ حَبُوسَ المعروف بِأبى العباس ، لِمَا يَرى  
 من تواضعه وحُسنِ مُشاركته فيما عَنَّ له من سَبَبٍ . وطار له بذلك نامُوسٌ  
 ١٠ كبيرٌ عند\* صِنْهاجة حتى آثَرُوهُ على غيره .

١١ (ب)

وكان بَادِيسَ بن حَبُوسَ جَدُّنا — رحمه الله — كبير النفس ، عالى الهمة ،  
 حادِّ المزاج ، لا يستطيع أَحَدٌ [ أن ] يَخْرِقَ عليه فى أمرٍ من الأمور ، ولا يَنكسر  
 لأَحَدٍ من بنى عَمِّهِ ، رِقَّةً منه بسعادته ؛ وإنَّ الانخضاع والتريض فى القول  
 لا يَفْعِلُهُ ذلك ولا يزيد فى أَيَّامِهِ . وكان ذلك كُلُّهُ منه فى حزمٍ ورَوِيَّةٍ ،  
 ١٥ لا يفسد جانباً حتى يَصْلَحَ آخَرُ ، ويضرب بعضهم ببعض . فوجست أنفُسُ  
 البعض منه ، وأشْرَبُوا هَيْبَتَهُ ومُخافتَهُ ، وتوقَّعُوا ، إن صار الأمرُ إليه ، أن  
 يَجْرِبَهُمْ على خلاف ما عهدوه من أبيه . فَأَضْمَرَ أَكْثَرُهُمْ لَهُ الغوائلَ ، وآثَرُوا  
 عليه يَدَيَّرَ المذكور ، وتمنَّوا بولايته : كُلُّ ذلك لشِقائِهِم وتَمَامِ أَيَّامِ سعادَتِهِمْ !  
 وَصَمِّغَتْ المُظَفَّرَ بَادِيسَ — رحمه الله — يَصِفُ بعض ذلك فى مجلسه



ويقول : « كنتُ واقفاً بين يدي حَبُوس أبي — رحمه الله — حتى انتدبَ إليه من شيوخ صِنْهَاجَة من قال له : « إنَّ من آكَدِ ما تنظر فيه أن تولَّى على أمرك مَنْ يَخْلُفك مِمَّنْ تُرَجِّي بَرَكَتَهُ للمسلمين ولبنى عَمَّك ! فَإِنَّ الموت يغدو ويروح ! » فقال أبو العَبَّاس كَاتِبُهُ : « ليس يصلح لهذا الأمر إِلَّا يَدَّيْر ، لطهارته ، وعفافه ، ومحَبَّتُهُ في الناس ! » وكان في الجُمْلَة من شيوخهم صديقٌ لى اسْمُهُ فِرْقَان ، قد اصْطَنَعْتُهُ واستمْلَتُهُ ؛ فسمعتُ رَدَّهُ على أبي العَبَّاس ، وهو يقول له : « ما ينبغي لك أن تتكَلَّمَ بهذا ! كيف يُقَدِّم للأمر غَيْرُ ابنه ، وهو مستطلعٌ بجميع الأمور ؛ وقولك أنتَ وقولُ غَيْرِكَ باطل ! كَأَنِّي ، والله ، أرى موتَ حَبُوس وولايةَ باديس من بعده ، وَإِنَّ يَدَّيْرَ سيتَحامقُ على باديس ، ويظفر به ، ويقتله ! » قال باديس : « فسرَّني \* كلامُهُ ، وأعطيتُهُ عليها ألف دينار . »

١٢ (١)

وكان الأمر بعد ذلك على ما وصف فِرْقَان . ثمَّ إِنَّهُ اطَّيَّبَ من وجوه صِنْهَاجَة أقواماً ، ووعدهم بالإحسان ، وسعى بجهدِهِ على حلِّ تلك الصَّفقة ، إلى أن كلَّموا أباه في تَوَلِيَّتِهِ . فرضى ذلك ، وأمر الناس بانصياعهم له . وزجر يَدَّيْرَ في ملأٍ من الناس ، وقال له : « لا تشره ما ليس لك ، يا ابن حُباسة ! » يُخاطِبُهُ بهذا اللفظ .

فوقع من ذلك في نفس يَدَّيْرَ عدواةٌ مجدَّدة لباديس ؛ وعمل من ذلك الوقت على خلافه ومُكابرتِهِ وإِجماع الجماعات عليه ، وشَتَّت أقواماً من صِنْهَاجَة ، حتى صاروا معه . ووَآلَى بُلُقَيْن شقيقَ باديس — رحمهما الله — ؛ وكان من أهل البأس والنجدة ، غير أَنَّهُ لم يكن له معرفةٌ بسياسة المُلْك . ولَمَّا رأى بعضُ أصحابه موالاته لبُلُقَيْن وسعِيَهُ له في ظاهر الأمر ، لامَهُ على

ذلك ، وقال له : « إن كنتَ لا تسعى لنفسك ، ويكون من سَعْيِكَ لغيرك ما نَرَى<sup>(١)</sup> ؛ فباديسُ أحقُّ بذلك ، الذى هو الأكبر والأسعد ، وله الرياسة ! » فكان جوابه لقائل ذلك : « ليس سَعْيِي لبلقين إشاراً منى له على نفسى ، غيرَ أَنَّهُ صحيحُ النية ، غيرُ حاذقٍ بمكايدِ المملكة ؛ وهو شقيقُ الذى أطلبُ ، ولن أجدَ لطلبه أَقدَرَ على ضرِّه من أخيه ! فإنما أنا أصيدُ به ! هـ فلو اتسقت لى الأمور ، وتهايا قتلُ باديس على يدى أخيه ، كان أمرُ بلقين من بعده هيناً ، وخلعه مُمَكِّناً ! »

فكان أبدأً يحضُّه على قتل أخيه ، ويريه السعى له . وكان الأخُ فى ذلك مُتَشَبِّهًا فى أمره مُشْفِقًا على أخيه ، إلى أن توفى حبُّوس بن ١٠ ما كَسَن - رحمه الله .

## الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس

( ١ ) من أوليتها إلى موت ابن نغالة

١٥ — أولية إمارة باديس بن حبوس

وتعاضم الوزير اليهودي أبي إبراهيم

وولى الأمر من بعده جدنا باديس — نصر الله وجهه — فحاول  
أموراً كباراً ، وشقي\* مع كل أمة : صنهاجة يطلبون مكانه مع يدّير ، ١٢ (ب)  
وسلاطين الأندلس يرمون بلاده ؛ وهو فى ذلك كله حسن السياسة ، صبور  
على الأذية .

وكان أبو إبراهيم اليهودي كاتباً بين يدي أبي العباس كاتب حبوس .  
ولما توفى أبو العباس المذكور ، وترك بينين ، أقام حبوس — رحمه الله —  
أكبرهم عوضاً من أبيه ، واستعمله مكانه . وكان فى الابن صبوة لا يرتبط  
معه إلى خدمة الرئاسة ؛ ففكر به أبو إبراهيم اليهودي ، ولزم خدمة الرئيس ،  
وصار ، متى عاب ولد أبي العباس ، يحضر أبو إبراهيم ؛ فيسأل عنه حبوس ؛  
فيقول ، معتذراً فى الظاهر ومطالباً له فى الحن القول : « ولد أبي العباس ،

كما ترى ، صبيٌّ يُؤثّر الراحة ؛ وأنت جديرٌ بالإغضاء عليه وإقامةِ  
عذره . وأنا عَبْدُهُ ، أنوبُ منابه ؛ فمرّني بما شئتُ : يَهَيِّأْ ذلك ! »  
فلم يزل على هذا أبداً حتّى تمكّن ، وظهرت خدمته وسعيه في  
ضمِّ الأموال .

٥ وكان مع هذا قد ميّز عن باديس سعادته ودهاءه ؛ فافترض السّعى  
له والتخدّم لإرادته ما دَامَ أَمْكَنُهُ ذلك ، في وقت المناوِين له والقائمين  
عليه ، للذي قدّر من أيتامه معه .

فلَمَّا اتَّفَقَ أعداؤه مع يَدَّير عليه ، شاركوا في ذلك أبا إبراهيم ،  
 واجتمعوا في منزله ، يرومون قتلَ باديس وإقامة يَدَّير ، وَعَدَّهم على الاجتماع  
عنده . وتقدّم إلى باديس ، وأخبره الخبر ، وأتى معه إلى المنزل ، وقال

له : « ليس الخبر كالبيان ! اسمع بأذنك وَعِ بقلبك ! » وهو بموضع مرتفع  
على البيت الذي يرومون فيه عمَلَهُمْ ؛ وأبو إبراهيم في ذلك كلّهُ يقول عند  
محاورتهم كالمخاطب للبارئ : « يا مَنْ يَرَى ولا يُرَى ! » وهو يعنى بذلك

باديس جدّاً الذي يَرَاهُمْ ولا يَرَوْنَهُ . فشكر ذلك باديس\* لأبي إبراهيم ، ١٣ (١)  
وأيقن بثبّته وأمانته . وصار له خادماً من ذلك النهار ؛ وشاوره في أكثر  
رأيه مع بني عمّه .

٢٠ وكان في اليهوديّ من الكيس والمُدَاراة للناس ما طابَقَ الزمانَ الذي  
كانوا فيه والقوم الذين يرومونه . فاستعمله لذلك استيحاشاً من غيره ، ولَمَّا  
كان يَرَى من طَلَبِ بني عمّه له ، ولأنّ هذا يهوديّ ذِمِّيٌّ ، لا تشره  
نفسه إلى ولاية ، ولا هو أُنْدَلُسِيٌّ ، فَيَتَّقِي منه إدخالَ داخلٍ مع غير جنسه  
من السلاطين ، ولاحتياجه إلى الأموال التي يَطَّي بها بني عمّه ، ويحاول بها

أَمَرَ الْمَلِكُ ، لم يكن له بُدٌّ من مثله أن يجمع له من الأموال ما يُدرك معها الآمال . ولم يكن له تَسَلُّطٌ على مُسْلِمٍ في حَقِّ ولا باطِلٍ ، ولأنَّ الرعايا أَكْثَرُهُم بتلك البلدة ، والعَمَالُ إِنَّمَا كانوا يَهُوداً ؛ فكان يجبي منهم الأموال ويعطيه ؛ فيلقى ظالماً منهم إلى ظلمةٍ ، يأخذ منهم ما [ يملأُ به ] بيت المال ؛ وإقامة أود المملكة أَوْلَى به منهم .

## ١٦ - فشل المؤامرة التي دبرها يَدِّيَر بن حُباسة

ضدَّ باديس

فلما ولى باديس ، كَثُرَ عليه الخلافُ والهرَجُ ، وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ على ما قَدَّمنا على قتله وتولية يَدِّيَر . وأعطى على ذلك أقواماً المثاقيل والصكوك بالإنزالات القويَّة .

وكانت عادة السلطان أن يخرج إلى موضعٍ يُعرف بالرَّمْلة ، ويزاؤها مُنْيَةٌ كان يحكم بها حَبُوس أبوه ؛ وكان لها بابان ، [ فاتَّفَقوا ] على أن يقيموا المَلْعَبَ ، ويقتلوه عند خروجه من تلك المُنْيَةِ ، وهُم قد تسلَّحوا بالدرع من تحت الثياب ، عازمين على الشرِّ .

وكان مِمَّن ارْتَشَى على ذلك شيخٌ من صِنهاجة يُعرَف بِفِرْقَان ، أُعْطِيَ خَمْسَمِائَةَ مِثْقَالٍ وَصَكًّا بِقَرْيَةِ قَوْلَجَر من عَمَل السَّطَح . فقال في نفسه : « لم أَجِدْ فُرْصَةً نَحْطِي بها عند باديس أُمْكِنٌ \* من هذه ! » ١٣ (ب) فجعل أَنَّ الفَرَسَ زَادَ به في جَرِيهِ ، كَأَنَّهُ جَمَحَ ، حتى دخل المُنْيَةِ ، وألقى باديس على الخروج من ذلك الباب ؛ فقال له مَخْتَلِساً : « انْجُ بنفسك وأَخْرِجْ من الباب الآخر ! فَإِنَّ المَلَأَ يَأْتُمِرُونَ بك ليقتلوك ! » وأراه الدنانير ٢٠

التي أعطى على ذلك . فخرج باديس من الباب الآخر ، يحدُّ في السير إلى قصبته ؛ وهم لا يشعرون ، ينتظرونه .

فبينما هم على ذلك ، إذا بعلي بن القروى وأصحابه من وزراء باديس وثقاته قد أقبلوا إليهم ؛ فقالوا لهم : « إنَّ السلطان ورَدَ عليه من بعض أنظاره خبرٌ مُقْلِقٌ وجب الانصراف له ؛ فأعذروه في تخلفه عنكم ! ومع هذا ، فإنه لم يخفَ عليه شيء ! » فلما سمع القوم بذلك ، فكلُّ من كان في نفسه خبرٌ هرب على المقام ، وهرب يدَّيرُ بنُ حُباسة ، لا يلتفتون على شيء ، يطلبون النجاة بمُهجهم .

ثم افتضحت القضايا كلها لباديس من بعد هروبه ؛ ومشى إليه بالنصائح كثيرٌ ممن بغاه قبل ذلك . وطلع إليه أخوه بُلقين ، وبكى بين يديه ، وسأله العفو عما أدخله فيه الفاسق ابنُ عمِّه ، وأنه لم يزل به أبدًا يروم ذلك منه لولا تلبُّته وشفقته عليه . وإنَّ يدَّيرَ خرج عن البلدة ، وصار في حيزِ الأعداء ؛ وكلُّ رئيسٍ قد انتدب إلى فِتنة جدُّنا — رحمه الله — ينحازُ هو إليه ، وبصير من أعوانه وعلى أجناده ، يدلُّ بهم البلد ، ويريههم المخادع ، ويكشف لهم من عورات الجهة ما خفي عنهم ، لا يفتروا بالضرب عليه وتهتيك بلاده ؛ وجدُّنا في هذا لا يأوى معه إلى راحة ، ولا يقرُّ به قرارٌ .

وصنْهاجة مع هذا يخاطبونه ، حتى إنه وقعت بيد السلطان باديس — رحمه الله — كُتُبٌ كثيرةٌ من عند صنْهاجة إلى يدَّير ، تضمَّنت أزيد من

٢٠ مائتي رَجُلٍ\* من الأكابر . فغضب لذلك ، وهمَّ بقتلهم . وشاورَ أبا إبراهيم (١) في الأمر ؛ فقال له : « أرى من الرأي ألاَّ تؤنَّبَ أحداً على هذه

الْكُتُبُ ، وَلَا تَعْلَمُهُمْ أَنَّهَا صَارَتْ إِلَيْكَ ، وَأَنْ تَأْمُرَ الْآنَ بِنَارٍ تَحْرِقُهَا بِهَا وَتَطْفِئُ أَثَرَهَا ؛ وَرَأْسُ الْعَقْلِ مُدَارَاةُ النَّاسِ . فَإِنْ عَاقَبْتَ ، كَمْ عَسَى [ أَنْ ] تُعَاقِبَ ، وَهُمْ أَجْنَادُكَ وَأَجْنَحَتُكَ ! فَاحْتَلْ لِلْأَمْرِ بِغَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ ! » فَقَبِلَ نَصِيحَتَهُ ، وَاسْتَعَانَ بِنَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضِ ، وَأَفْشَى فِيهِمُ الْعَطَايَا ؛ وَضَرَبَ الْإِبْنَ بِأَيْدِيهِ وَالْأَخَ بِأَخِيهِ .

فَكَانَ دَابُّ يَدَّيْرٍ هَكَذَا أَبَدًا ، لَا يَقْرُءُ عَنِ الضَّرْبِ عَلَى بِلَادِهِ وَمَعَاوِدَةٍ ذَلِكَ بِلَا سَامَةٍ وَلَا فِتْرَةٍ ، إِلَى أَنْ أَظْفَرَهُ اللَّهُ بِهِ وَصَارَ فِي ثِقَافِهِ . وَذُكِرَ أَنَّهُ مَاتَ مَقْرُوعًا حَتَفَ أَنْفَهُ . وَتَأَنَّتِ الْأُمُورُ لِبَادِيسٍ مِنْ بَعْدِهِ ، وَصَفَا لَهُ الْجَوُّ .

### ١٧ - انتصار باديس على زُهَيْرِ صَاحِبِ الْمَرْيَةِ

وَأَوَّلُ فَتْحٍ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ هَزِيمَتُهُ لَزُهَيْرِ الْخَصِيِّ وَالْمَرْيَةِ . وَكَانَ لَهُ كَاتِبٌ ، يُعْرِفُ بَوْلَدَ عَبَّاسٍ ، مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ حِمَاةً وَاسْتِخْفَافًا ، مُثِيرًا لِلشَّرِّ ، مُؤَرِّشًا بَيْنَ الْمُلُوكِ ؛ وَكَانَ الْغَالِبَ عَلَى أَمْرِ زُهَيْرٍ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ زُهَيْرٌ يَصْلُحُ لَشَيْءٍ لِعِبَاوَتِهِ وَجَهْلِهِ . وَكَانَ قَدْ جَمَعَ كُلَّ خَصِيٍّ بِالْأَنْدَلُسِ وَاحْتَفَلَ ؛ فَبَالِغَ . وَأَدْرَكَهُ الطَّمَعُ فِي غَرْنَاطَةِ ، لَمَّا بَلَغَهُ مِنْ مَوْتِ حَبُوسِ بْنِ مَأْكَسَنَ . فَآتَى حَتَّى نَزَلَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهَا ، بِمَوْضِعٍ يُعْرِفُ بِالْفُونْتِ ، مُحْتَقِرًا لِمَنْ وَلِيَ غَرْنَاطَةَ ، يَزْعَمُ أَنَّهُمْ أَصَاغِرُ وَأَمْرُهُمْ مُخْتَلٌ بَعْدَ حَبُوسِ ، لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ هَلَاكِهِ وَهَلَاكِ جَنْسِيَّتِهِ الْخَصِيَّانِ .

وَكَانَ جَدُّنَا بَادِيسٌ — رَحِمَهُ اللَّهُ — قَدْ رَأَى عِنْدَ ذَلِكَ رُؤْيَا أَنَّ الْحَوْرَ بَغْرِنَاطَةَ قَدْ سَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ جَمِيعَهُ ؛ فَهَالَهُ ذَلِكَ ، وَخَشِيَ أَنْ تَكُونَ الْوَقِيعَةُ عَلَيْهِ ؛ فَأَرْسَلَ فِي الْمَعْبَرِ وَقَصَّ عَلَيْهِ . فَقَالَ لَهُ الْمَعْبَرُ : « أَبَشِّرْ بِهِذِهِ

الرؤيا ! إنَّ الحَوْرَ شبيهٌ بالخصيان ، الذى \* لا طَعْمَ له ، ولا أصل يتورَّك ١٤ (ب) عليه ؛ وهُمُ بهذه المرتبة . ولا شكَّ فى سقوطهم وبوارهم على يدك ! » فكان ذلك .

وقدَّم على العساكر أخاه بُلقَيْن ؛ وكان من أشجع الناس ؛ وكان باديس ، عند موت أبيه ، قد اختصَّه بكلِّ ما شاء وفضَّله فى الميراث على نفسه إلَّا الناصَّ الذى تحتاجه المملكة . فلقى العسكر المزدول ؛ فلم تكن إلَّا ساعة من النهار حتَّى انهزم وقُتل جميعُ من كان فيه من الخصيان ، وخفى زهيرُ عن العسكر ؛ فلم يوجد حيًّا ولا ميتًّا . وكانت تلك أوَّلَ سعادة باديس ، كما كانت هزيمة المُرتَضَى أوَّلَ سعادة أبيه ، ثمَّ افتتح البلاد ، وصارت إليه الأنظار التى تلى المَريَّة . وظفر بعدوِّه كاتبِ زهير ، وأمر بقتله متأوِّلاً لإثارتِهِ الفتنة ، ونقم عليه أشياء كثيرة قبل ذلك ، من أقاويل خَسِنة ومُعَامَلات قبيحة عَرَفَهُ بها .

وقرَّ مُلكُ باديس جدًّا قرارَهُ ، وطار له الذِّكرُ . وكانت له من الهيبة فى الناس أن لم يَجْتَرِئَ عليه أحدٌ بعد تلك القضية .

ثمَّ إنَّ بُلقَيْنَ أخاه لم يلبث بعد تلك الواقعة إلَّا يسيرًا حتَّى مات — رحمه الله — . وكبرت سنُّ سيف الدولة فى حال الحداثة ، وهو أبونا . وترك عمُّه بُلقَيْنَ ابنًا كان يناوئه ويخشى منه ضرًّا كثيرًا ، ويتوقَّع على نفسه من المطالبات بتلك الأخبار ؛ فخرج عن البلد بجميع ماله وتركه أبيه ، لم يعترض له شىء .



## ١٨ - شخصية الأمير بُلقين سيف الدولة والد المؤلف

ولم يكن للمظفر جدنا غير بُلقين أينا - رحمهم الله - . وكان رفيقاً به ، مشفقاً عليه ، حذراً من أعدائه وبنى عمه أن يُبلغوه من بعده بما بُولغَ هو به بعد وفاة أبيه ؛ فكان لا يحسُّ من أحدٍ داخله ولا نفاقاً إلا ونظر فيه بما يوافق أمره من إخالٍ أو نفيٍ أو أخذٍ مالٍ ، لئلا يبقى لابنه من يُناوئه ويُذله .

وكان سيف الدولة حليماً\* رفيقاً ، ضدَّ أبيه في كلِّ حال ؛ فإنه لم يجربْ (١) من الأمر ، ولا ابتليَ بما ابتليَ هو به . وكان يعدُّ الناسَ بالجميل ، ويقول لهم : « أنا أنسيكم طريقة أبي ! » ومن استوجب من أبيه القتل أو أذنى ضررٍ ، كان هو الذى يعنى بأمره ، ويتشفع فيه عند الأب ، حتى يتخلصه . فاجمع الناس على محبته خاصةً وعامةً للذى يرون من مكارمه ، مع تمكين أبيه له وبسطِ يده على الأموال .

## ١٩ - نشاط يوسف بن نغالة اليهودى ومؤامراته

وكان فى زمانه للمظفر أبيه وزيرانِ ابنا القروى : أحدهما على ، والآخر عبدالله ، ممن نشأ معه ؛ وكانا حَضِيرَيْنِ فى المكتب ؛ وكانا قائدَى العسكر ؛ وإليهما كان يرجع الرأى فى أمور الفتن (١) . وكان أبو إبراهيم الشيخ مؤذناً لهما ، مستعيناً بهما .

- فلما توفى أبو إبراهيم، وترك ابنه وزيراً جدنا، ورث لأبيه أموالاً كثيرة، ووصاه بأن يسعى في طلب الوزراء عند استقامة الدولة للرئيس، وعرض عليه الأبواب التي منها يكون حَتَفٌ كل واحد منهم، لِمَا كان بأيديهم من البلاد واستشارهم بالجبايات. فجعل الخنزير نفسه لذلك. وكان المظفر — رحمه الله — لا يقبل منه مُطالَبَةٌ لمُسْلِمٍ، ولا عَرْضُهُ لذلك، غير أَنَّهُ كَانَ يتلَطَّفُ بالأموال، ويعطى لثِقَاتِهِ وَعَبِيدِهِ ما يجعلهم في المَطالَبَةِ على هواه، وهو ساكت، لا يتكلم بشيء مثل أن يَدُسَّ في طَلَبِ أَحَدٍ على يَدَيِ مُوَفَّقِ الْخَصِيِّ صَاحِبِ المدينة من رِثَاتِ باديس؛ وكان منتصباً لهذه المشايه؛ فيأتي مُوَفَّقُ المذكور بنصيحة إلى السلطان مِمَّنْ يزعم أَنَّهُ من أهل الشر؛ فيُرْسَلُ في اليهودي ويُقال له: «بلغني أمرٌ كذا وكذا». فيُريه اليهودي التبرؤ<sup>(١)</sup> من ذلك بأن يقول له: «كلُّ ما نُقِلَ إليك \* كذب»: فتثبت<sup>(١)</sup>! فيقول له الرئيس: ١٥ (ب) «أخبرني مَنْ لا شكَّ عندي في نصيحته!» فكان آخر ما يقول له: «ما قَطَعُ الشرَّ إلا سياسة!» وكان لمُبَاهَاتِهِ وَمَخْرَقَتِهِ، يَرى الناس أَنَّهُ يقدر؛ ولم يكن ذلك منه، إلاَّ عن تحيُّلٍ ومكرٍ.
- ١٥ فلما توفى أبو إبراهيم الشيخ، وكان ابنه في سنِّ الصبا، كره توليته جدنا، وقال لعلِّي المذكور: «النِّزَمُ خِدْمَةُ الْمَلِكَةِ؛ فَأَنْتَ أَحَقُّ بِهَا!» فأبى ذلك على. واطَّباهُ وَلَدُ أَبِي إِبْرَاهِيمِ بِالْأَمْوَالِ الْجَسِيمَةِ، وقال: «ليس أَرغبُ إلاَّ أن أكونَ عَبْدَكَ وَتَرْيِّتَكَ؛ وَلَكِ الْأَمْرُ؛ وَأَنَا كَاتِبٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَأَقُومُ بِنَفَقَتِكَ كُلِّهَا، وَلَوْ كَانَ أَهْلُكَ عَدَدَ الْخَصِيِّ!» فطمع ٢٠ على في قوله، وكَلَّمَ السلطان في ذلك، وقال له: «إن أَبْقَيْتَ على وَلَدِ

(١) أصل: «التبرؤ».

أبي إبراهيم ناصحك ، فأنا أرجو ذلك لو لَدَى من بعدى ؛ وأنا المُشْرِفُ عليه . « ففعل السلطان ما قال ، وقَدَّمه على العُمَّال والجبايات . وكان يعطى لعلِّيَّ صدرًا من دولته إلى أن كَبِرَتْ سُنُّهُ .

وأظهر [ وَلَدُ أبي إبراهيم ] للسلطان نصائحَ كثيرةَ حِظِيَّ بها عنده ؛ وَتَبَرَّمَكَ على عليٍّ وغيره ، واستوثق من جانب الرئيس ما لم يُسأل به عن عليٍّ ولا عن أحدٍ من خلق الله . وكان فيما قال له : « إنَّ الذي يأخذ عليٌّ أنتَ أوَّلِيَّ به ؛ والرجلُ كثيرُ الأولاد والصفف ، ويذهب مالك إن لم تحمِني وتعزدي . وهو متى تملأ ، طَمِعَ في مُلكك ! وأنا رجلٌ ذِمِّيٌّ لا هَمَّةَ لي إلاَّ خِدْمَتِكَ وَجَمْعَ الدراهم لبيت مالك ! » فوثقَ الرئيس بقوله ، وقاس عليه بعقله ، ومنع منه عليًّا وجميعَ الناس . ولما رأى عليٌّ تأخُّرَهُ وتقدُّمَ اليهوديِّ ، ندم على ما كان منه أوَّلًا ، وفاته من الأمر ما لم يقدر معه على حيلة عند السلطان ؛ وغَاظَهُ ذلك وأَكْرَبَهُ .

وكانت مَدِينَةُ وادِي آش\* بِيَدِهِ ، قد قدَّم عليها أخاه عبدَ الله ؛ وكان (١) ١٦  
يأكلُها طعمةً ، ولا يعطى منها فوق خمسة عشر ألف دينار دَرَاهِمَ ، وهي تُساوِي أزيد من مائة ألف دينار ثُلُثِيَّة . فدخل عليه اليهوديُّ بهذه المطالبة ١٥  
وقال للسلطان : « اقْبِض وادِي آش من عنده ، ولك مَنِّي فيها أزيد من مائة ألف ! » فقال له : « لستُ أقدر على أخذها منه بهذا الوجه ؛ فتكون مفاصلةً ، وهم متصرفون في خِدْمَتِهَا » . فوجد اليهوديُّ السبيلَ إلى حيلة في نزْعها باسمِ سيف الدولة أَيْنَا ، وقال : « لَأَخْذَنَّ البلدة من يد عدوِّ ، فأضعُها في يد سلطان يشكرني عليها ، ويَرَى لي ذلك عن تَخْدُمٍ ونصيحة ! » ٢٠  
فقال لأبي : « إنه يلزمني طاعتُك ونصيحتُك لأكون لك كالذي أنا لأبيك ؛

وأراك كثير الذُرِّيَّة ، تلزمك نفقات وتجمُلُ الرياسة ؛ ومن الغبن أن يكون وزراء والدك أغنى منك ! وهذه وادي آش ، بنتُ غرناطة ، لا تجمل إلا لك ، وأنا أثمرُها وأجعلك تأخذ فيها مائة ألف ! » ففرح لقوله والدي — رحمه الله — ، وشكر له رأيه ، ووعدته بالزيادة في مرتبته إن صار الأمرُ إليه .

٥ ثم مضى إلى الوالد ؛ فأخبره الخبر ، وقصَّ عليه أمر ابنه ؛ فقال له المظفر : « الآن وجب أخذها من أولاد القروى . » فأرسل على المقام في علي وقال له : « إن ابني محتاجٌ إلى المال ، وطلب مني وادي آش . ولو كنت أخذها منك ومُعطيها لقرنك ، لعزَّ عليك ! ولكن يجب لك أن تتسرع بها لابني . » فلم يكن جواب علي إلا أن قال له : « ما صلح للمولى على العبدِ حرامٌ ! » فضمَّها اليهوديُّ خادِمًا لأبي فيها ، وشرط عليه أن يعطيه رستمها في أنجم العام ؛ واتفقا على ذلك \* . وصارت المودة متمكنة بين الابن ١٦ (ب) والوزير مُدَّةً طويلةً .

## ٢٠ — موت الأمير بُلُقَيْن مسمومًا

فلما رأى وزراء الدولة وعليُّ وأخوه تمسَّكَن اليهوديُّ عند السلطان وعند الابن ، أغاظهم ذلك وأفلقهم ، وبلغ منهم كل مبلغ . وأجمع رأيهم على الدخول بينه وبين أينا . وكان أولاد عليَّ وعبد الله وزراء لسيف الدولة ونُدَماء ، لا يُفارقونه . فعملوا عليه من كل وجه بأنفسهم ومع بنينهم ، وقالوا لسيف الدولة : « إن الأموال التي ينفق اليهوديُّ ويستأثر بها ، أنت أحقُّ بها وأولى . وقد أخمك وأخل الدولة أجمع ! ولو أنك قتلتَه ، لم يقل لك أبوك في ذلك شيئًا ! وما عسى أن يصنع بابنه ؟ » أرادوا — الفسقة —

٢٠

قَتَلَ عَدُوَّهُمْ عَلَى يَدَيِ ابْنِ الرَّئِيسِ ، لِيُخْرِجُوا أَيْدِيَهُمْ مِنَ الْمَسْأَلَةِ : فَإِنْ عَاقَبَ ،  
عَاقَبَ ابْنَهُ ، إِنْ شَاءَ ، وَحَصَّلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ دُونَ مَلَامَةِ مِنَ السُّلْطَانِ . فَلَمْ  
يَزَالُوا بِهِ أَبَدًا ، يَنْمُونُ بِالْيَهُودِيِّ ، وَيَكْذِبُونَ عَلَيْهِ ، وَيَمْضُونَ<sup>(١)</sup> إِلَى  
الْيَهُودِيِّ بِالْكَذْبِ عَلَى لِسَانِهِ ، حَتَّى تَغَيَّرَ أُبُونَا عَلَيْهِ وَتَغَيَّرَتْ لَهُ نَفْسُ  
الْيَهُودِيِّ ، مَعَ قَلَّةِ تَجَارِبِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ لِمُكَايِدِ النَّاسِ . فَعَمِلَ عَلَى قَتْلِهِ ؛  
وَكَانَ يَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ ، وَيَفْشِي سِرَّهُ إِلَى الْوُزَرَاءِ الرَّافِعِينَ إِلَيْهِ ؛ فَلَا هُوَ يَعِزُّمْ  
عَلَى قَتْلِهِ ، وَلَا هُوَ يَتَكَبَّرُ بِالْأَمْرِ ، إِلَى أَنْ صَحَّ ذَلِكَ عِنْدَ الْيَهُودِيِّ ، وَاعْتَزَمَ  
رَأْيُهُ عَلَى أَنْ يَسْبِقَهُ بِالْأَمْرِ ، وَرَأَى عَيَانًا تَغْيِيرَهُ عَلَيْهِ . وَكَانَ أُبُونَا ، لَمَّا هُمْ  
بِقَتْلِهِ ، وَأَعَدَّ لَذَلِكَ عَمِيدَهُ ، فَكَّرَ فِي سَطْوَةِ أَبِيهِ ؛ فَكَفَّ .

- ١٠ وَكَانَ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ أَخٌ صَغِيرٌ اسْمُهُ مَا كَسَنَ ، عُمْنَا الشَّهِيدُ فِي وَقِيعَةِ  
بَطْلْيُونُسَ . فَعَمِلَ الْخَنْزِيرُ رَأْيَهُ مَعَ مَشِيخَةِ الْيَهُودِ ، \* وَأَخْبَرَهُمْ بِتَغْيِيرِ سَيْفِ  
الدَّوْلَةِ عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ وَأَدَهَا هُمْ رَأْيًا : « لَا تَطْمَعُ فِي الْفَلَاحِ بَعْدَ  
الشَّيْخِ ، وَلَا فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ ! وَلَكِنْ انْظُرْ لِنَفْسِكَ فَيَمُنْ تُقِيمُ إِنْ مَاتَ  
رَبِّسُكَ : أَوْجَدْتَهُ ؟ وَتَحْيَلْ فِي سَقَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ . وَهَذَا مَا كَسَنَ أَخُوهُ  
١٥ مَحْمُولٌ ؛ فَإِنْ قَتَلْتَ أَنْتَ هَذَا ، وَوَلَّيْتَ هَذَا ، قَدَّمْتَ عِنْدَهُ يَدًا لَا يَنْسَاكَ عَلَيْهَا ! »  
فَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ سَقْيَهُ . وَكَانَ مَتَمَكِّنًا بِذَلِكَ ، لِأَنَّ أَبَانَا كَانَ كَثِيرَ  
الشَّرْبِ مَعَهُ وَالتَّكْرَارِ عَلَيْهِ فِي مَنْزِلِهِ . فَشَرِبَ يَوْمًا عِنْدَهُ عَلَى عَادَتِهِ ؛ فَلَمْ  
يُخْرِجْ عَنْهُ حَتَّى قَذَفَ مَا كَانَ فِي جَوْفِهِ ، وَاسْتَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ  
الْمَشْيَ إِلَى مَنْزِلِهِ إِلَّا عَنْ مَشَقَّةٍ ؛ وَلَبِثَ يَوْمَيْنِ يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، حَتَّى مَاتَ —  
٢٠ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ .

ولقد سمعتُ كبيراً من خِصيان باديس يقول : « أُرْسِلَ فِي سَيْفِ  
الدولة يوماً وقال لي : « انهضْ إلى أُمّهَاتِي وَقُلْ لَهُنَّ <sup>(١)</sup> إِنِّي اعْتَزَمْتُ عَلَى قَتْلِ  
اليهودى . » يقول الخصى : « فقلتُ له : « أنا لا أَمْضِي بهذه الرسالة !  
فإنَّ الخَبَرَ لَا مَحَالَةَ عِنْدَهُ ! لَوْ أَنَّكَ تَرِيدُ قَتْلَهُ ، مَا كَانَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ  
تُسَمِّعَنِي ذَلِكَ وَلَا أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ! » فعلمتُ أَنَّ حاله تَوَوَّلُ إِلَى  
مثل ذلك . »

ومما أَعَانَ عَلَى الفساد قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ أَبَانَا كَانَ مَعَ أُمّهَاتِهِ ، اللَّائِي  
رَبَّيْنَّ وَلَدَهُ الْمُعِزَّ أَخَانَا ، عَلَى ضِدِّ مِنَ الْأَمْنِ ، لِإِفْرَاقِهِنَّ الْمَالَ عَلَى ابْنِهِ  
طِفْلاً صَغِيراً وَمَنْعِهِ هُوَ مِنْهُ . فَاحْتَاجَ إِلَى الْيَهُودِيِّ عَنِ الْمَالَ . وَكَانَ أُمّهَاتُهُ  
يُطَالِبُنَّهُ وَيَمْنَعْنَهُ عَنْ صَحْبَةِ الْيَهُودِيِّ ، حَتَّى شَعَرَا بِذَلِكَ ؛ وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمَا عَلَى  
مُطَالَبَةِ النِّسَاءِ عِنْدَ الرَّئِيسِ ، وَتَجْرِيمِجْهِنَّ بِسَرَقَةِ الْمَالَ وَإِرْسَالِهِ إِلَى الْبِلَادِ . فَلَمَّا  
وَقَفَ جَدُّنَا عَلَى الْمَقَالَةِ ، وَقَدْ وَقَعَتِ الْمَفَاسِدَةُ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ ابْنِهِنَّ ، صَارَ  
مَلُومًا\* مِنَ الْأَبِّ وَالنِّسَاءِ . وَتَحَيَّلَ النِّسَاءُ عَلَى أَنْ بَرَّأْنَ <sup>(٢)</sup> أَنْفُسَهُنَّ مِمَّا قُذِفْنَ <sup>(ب)</sup> ١٧  
بِهِ ؛ وَدَعَتِ الضَّرُورَةُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ أَنْ يَتَصَالَحَ مَعَ النِّسَاءِ لِرَجُوعِ أَبِيهِ  
مَعَهُنَّ ؛ وَرُدَّتِ الْقِصَّةُ فِي رَأْسِ الْيَهُودِيِّ . فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا زَادَهُ غَائِلَةً  
وَنُفُورًا ، وَجَرَى عَلَى يَدَيْهِ مَا قَدَّرَ اللَّهُ بِهِ لِنِهَايَةِ الْمُدَّةِ .

وكان في أوَّلِ الْمَفَاسِدَةِ قَدْ احْتَبَسَ لَهُ بِكَثِيرٍ مِنْ جَبَايَةِ وَادِي آش ؛  
وَشَكَا بِهِ سَيْفُ الدَّوْلَةِ لِأَبِيهِ . فَتَحَيَّلَ الْخُزَيْرُ عَلَى أَنْ دَعَا أَبَانَا إِلَى مَنْزِلِهِ  
لِشْرَابٍ ، حَتَّى سَكَرَ ؛ وَأَمَرَ بِخُرُوجِ بَنِيهِ وَعِيَالِهِ فِي ثِيَابِ الْحُزْنِ . فَهَالَ  
ذَلِكَ أَبَانَا لِمَا رَأَى مِنْ حَالِهِمْ وَبِكَأَمِهِمْ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ : « هَلْ مَاتَ عِنْدَكَ ٢٠

(١) أصل : « لهم » . (٢) أصل : « برين » .

أَحَدُهُ ؟ » فقال له : « مات عندى مالٌ كبيرٌ لا يمتسك عنك إلا بمَظْلٍ الرعيّة ! وهذا يومٌ طيّبٌ : فَأَنْسُ أَهْلِي بِكِتَابِ بَرَاءَةٍ تَبَرِّئُنِي بِهَا إِلَى أَنْ يَرِدَكَ مَالِكَ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ وَجَسَتْ نَفُوسُهُمْ وَفَزَعُوا . فَأَتَيْمٌ إِحْسَانُكَ بِكِتَابِ الْبَرَاءَةِ ! » فَافْتَرَصَهُ فِيهَا ، وَكَتَبَهَا ؛ ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لَهُ : « إِنَّمَا يَنْفَقُ مَالُهُ عَلَى الْوُزَرَاءِ وَالشَّرَابِ الْمُدْمِنِ ! وَهَذَا إِبْرَؤُهُ لِي : فَأَيْنَ شَكُوَاهُ ؟ » فَرَجَعَ مَلُومًا مِنَ الْأَبِ زَائِدًا ، وَصَارَ فِي خُسَارَةٍ مَعَ الْوَزِيرِ وَالنِّسَاءِ ، لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَمَامِ الْمُدَّةِ . وَاللَّهُ يَنْفَعُهُ بِجَمِيلِ نَيْتِهِ وَصَفَاءِ مَذْهَبِهِ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ !

## ٢١ - ما بلغ ابن نَعْرَالَةَ مِنَ الْمَكَانِ الْأَرْفَعِ

- ١٠ فلما تَوَفَّى أَبُوْنَا ، وَكَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الرِّزَايَا لِلنَّاسِ ، لِمَا كَانُوا يَرْجُونَهُ مِنَ الْعَدْلِ عَلَى يَدَيْهِ ، هَاجَ النَّاسُ بِأَمْرِهِ ، وَهَمُّوا بِقَتْلِ الْيَهُودِيِّ . وَكَانَتْ تِلْكَ مَقْدَمَاتٌ لِهَلَاكِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ مَعَاقِبَةَ الرَّئِيسِ . وَزَادَ فِي طَلْبِهِ لِأَوْلَادِ الْقَرَوِيِّ ، وَصَوَّرَ عِنْدَ الْمُظَفَّرِ أَنَّ بَنِيهِ زَيْنُوا لِابْنِهِ الْإِدْمَانَ عَلَى الْخَمْرِ حَتَّى هَلَكَ . وَأَدْرَكَتْ لِذَلِكَ أَوْلَادَ الْقَرَوِيِّ مَنَحَسَةً عَظِيمَةً مِنْ نَفْيِهِمْ عَنْ أَوْطَانِهِمْ ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ، وَقَتَلَ بَعْضَ الْوُزَرَاءِ\* الَّذِينَ كَانُوا (١) ١٨ حَوَالِي أَيْنَا لِمَا أَتَّهَمُوا بِهِ ؛ وَجَانِيَ الْقَضِيَّةِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ . وَتَبَرَّمَكَ الْيَهُودِيُّ بَعْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَسَعَى فِي إِقَامَةِ مَا كُسِنَ عَمَّنَا .
- ١٥ وَكَبُرَتْ عِنْدَ ذَلِكَ سِنٌ جَدُّنَا ، وَأَخْلَدَ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَزَهَدَ فِي طَلْبِ الْبِلَادِ لِكِبَرِ سِنِّهِ وَمَوْتَ ابْنِهِ ، وَأَلْقَى بِمَقَالِيدِهِ إِلَى الْيَهُودِيِّ فِي الْخِدْمَةِ عَنْهُ ؛
- ٢٠ فَتَمَكَّنَ بِمَا شَاءَ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ .

## ٢٢ - استيلاء باديس على مالقة

وإنما كان طَلَبُ جَدِّنا أَكْثَرُهُ وَسَعْيُهُ على أَخْذِ مالقة ؛ فإنه ، متى كان يأخذ شيئاً من مَعاقِلِ الأَنْدَلُسِ ، يبلغه من المَعِزِّ بن باديس أَنَّهُ يقول : « يَخاطِبُنِي صاحِبُ غرناطة بأخْذِ الكُورِ والقُرَى ! أما أَنَّهُ لو أَخَذَ مثل قُرْطُبة ومالقة وما أَشبههما من القواعد ، كُنَّا نَباعِ له في ذلك ! »  
فجعله كلامه يَجِدُّ في خَبرِ مالقة ، ولِلَّذِي كان يَرى من اندبار سلاطينها ، وتوقُّعه على أن يأخذ البلدة مَنْ يَدْخُلُ عليه الداخلة منها . فلم يزل يعاودُها سِنين<sup>(١)</sup> بلا سَامة ولا فِترَةٍ ، حتى حصل عليها .

وبنى قَصَبَتها بِنِياناً لم يَقْدِر على مثله أَحَدٌ في زمانه ، وأَعَدَّها عُدَّةً لِلْمُهَمَّاتِ ، وجعل فيها جميع ما ورث لابنه ، وزاد عليه ؛ وكان الذي يَتَوَقَّع من كَلَبِ سلاطين الأَنْدَلُسِ واتِّفاقهم عليه لذلك أن يَتَحَصَّنَ فيها ما استطاع ، وإِلا ، فيجوز منها إلى عِدوة بنى عَمِّه بأَهْلِهِ وذِخائِرِهِ ومُذْ أَخَذَها ، حلَّ عن نفسه .

ونازَعَهُ عليها ابنُ عَبَّاد ، وأطاعَهُ أَهْلُها دون القَصَبَةِ ؛ فوجَّهَ إليها عَساکِرَهُ ، وهزمه عليها . ورجَعَتْ إليه بعد اليأس منها . ولم يُبْلَقِ سلطانٌ على مدينةٍ مالا قى هو على مالقة من طول الفِتَنِ ونفقة الأموال . فلما بلغ منها الغاية من آماله ، حلَّ على نفسه ، وتمتَّع بِمُلْكِهِ . ومن ذلك دخلت عليه الدواخِلُ باستنামته إلى الوزراء وولاةِ البلاد ، على حسب ما نَقَضَهُ بعد هذا .

(١) أصل : « سِنيناً » .



- ولولا ما كان غَرَضُنَا وَصَفَ دولتنا خاصَّةً ، لَذَكَرْنَا لَمَعًا من دُولِ بنى  
 سُخُودٍ في مَالَقَةٍ ، واختلالِ أُمُرِهِمْ\* وَاحِدًا بعد واحد ، حتى تَصَيَّرَ الْأُمُرُ إلى جَدَّنَا ١٨ (ب)  
 — رحمه الله — ؛ لكن نقتصر على ذِكْرٍ ما نحتاج إلى إيرادِهِ إن شاء الله .  
 فَتَهَدَّنتُ الحَالُ ، وَتَأَتَّتِ السَّعَادَاتُ ، وَامْتَلَأَتْ بُيُوتُ الْأَمْوَالِ سِنِينَ<sup>(١)</sup>  
 ٥ لَا يُسْمَعُ فِيهَا بَفِتْنَةٍ ، وَلَا يُرَى مَعَهَا تَشْغِيبٌ ، إِلَى أَنْ اخْتَلَّتِ الْأَحْوَالُ  
 بعد ذلك بما كان من نفاق اليهوديِّ — لعنه الله — ، وَتَضَيَّرَ وادِي آشٍ  
 وَجَمِيعَ أَنْظَارِهَا لابن صُمَادِحَ ، وَاسْتِثْسَادِ الرُّؤَسَاءِ عَلَى الْبِلَادِ ، حَتَّى إِنَّهُ  
 لَمْ يَبْقَ لَنَا أَكْثَرُ مِنْ غِرْنَاطَةِ وَالْمُنْكَبِ وَبَاغُهُ وَقَبْرَةٍ . وَلَمَّا شَاعَ عِنْدَ  
 الرِّعَايَا خَبَرُ مَوْتِ الرَّئِيسِ الْأَجَلِّ — فَإِنَّهُ كَانَ مُحْتَجِبًا أَبَدًا — خَلَّتِ الْمَعَاقِلُ  
 ١٠ مِنَ الرِّجَالِ ، وَافْتَرَصَتْهَا الرِّعَايَا بِأَسْبَابٍ نَحْنُ نَذَكُرُهَا<sup>(٢)</sup> إِنْ شَاءَ اللَّهُ بعد هذا .

### ٢٣ — عِلَاقَاتُ بَادِيسِ بِنِيِّ صُمَادِحَ أَصْحَابِ الْمَرِيَّةِ

- وَالْأَوَّلَى أَنْ نَقْدِمَ وَصَفَ وَلايَةِ ابْنِ صُمَادِحَ لِلْمَرِيَّةِ ، وَعَضَدَ جَدَّنَا —  
 رحمه الله — لِرِيَاسَتِهِ ، وَإِثْبَاتَهُ لَهُ فِي مُلْكِهِ عِنْدَ قِيَامِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ عَلَيْهِ ،  
 طَالِبًا لَهُ خِلَافَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَادِي كَرِيمَةٍ سَلَفَتْ مِنَ الْمُظْفَرِّ قَبْلَهُ ، لَمْ يَسْبِقْهُ  
 ١٥ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ جَنْسِهِ ، وَلَمْ تَكُنْ مَكَافَأَتُهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ افْتَرَصَ بِلَادَهُ  
 وَقَبِلَ دَوَاخِلَ إِلَى الْإِفْرَنْجِ ، يَمْدُمُ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ . وَأَجَابَهُ مُجَاهِدٌ لِمَا  
 أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ ؛ وَعَمِلَتِ الْكَلِمَةُ فِي نَفْسِهِ ؛ فَلَمَّا هَمَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ بِالرَّجُوعِ  
 عَنْ لُرُقَةٍ يُرِيدُ الْمَرِيَّةَ ، تَأَخَّرَ عَنْهُ مُجَاهِدٌ ، وَتَبَيَّنَ لِلْمَنْصُورِ قَعُودُهُ عَنْهُ  
 وَخِذْلَانُهُ إِيَّاهُ ؛ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ . فَقَالَ مُجَاهِدٌ مُحَاطِبًا لَهُ وَلِأَعْلَامِ قَوَّادِهِ :

(٢) أصل : « ذَاكِرُهَا » .

(١) أصل : « سِنِينَ » .

« يا قوم ، إن كنتم لا تعرفون البرّ ، ولا جرّبتُم حروبهم ، فأنا ، والله ، أعلمُ بها ! فإياكم أن يكون بوارُكم على أيديهم . وأنتم [ ستعلمون ] أن فتنة عشرين سنة خيرٌ من مُلافاة ساعة واحدة ؛ فإن فيها تتلف الدُّول ، وينتقل المُلك ، ويستأصل الجمع . فعليكم بالتأني ! » فقال له ابن أبي عامر : « جُبنت ! ارجعْ إلى دانية ولا تفسد على الجيش ! » فأقلع على المقام مغضباً من قذفه .

وجزع الناس بزوال مُجاهدٍ عنهم ؛ وأدرك\* الإفرنج الطمعُ ، وطلبوا ١٩ (١) منه ما لا قدرة له به . وانصرف خاسئاً .

وجمع المظفرُ رجاله وقال لهم : « كيف ترؤن هزيمة هذا المسكر من غير قتال ؟ » فأجابوه أن : « قد وقَّعت ! وأنتم ، مفسرَ الملوك ، لم تُعطُوا الولاية على الناس حتى اختاركم الله لها ، وجعل عقولكم أجلَّ وأنفسَ من عقول الناس ؛ وبذلك فضَّلتم من دونكم ! » ورجع المظفرُ غالباً منصوراً . وصار أبو الأخوص [ بن صُمادح ] طاعةً له ؛ لا يروم شيئاً من كلِّ ما بالمرية إلا وصار إليه ، ولا يأمر فيها بأمرٍ إلا وكان ملكَ يديهِ . وبقى الأمرُ على ذلك سنين . ١٥

وكانت قُرطبة في ذلك الزمان بمنزلة المرية ، إذ كان فيها ابنُ السَّقاء ، لا يمتنع على المظفر من رغباته فيها شيء ؛ إلى أن توفَّى أبو الأخوص ، وترك ابنه هذا التوفى بالمرية — رحمه الله — عند ظهور المرابطين عليها ، وهو إذ ذاك صغير السن . فأرسل إلى المظفر يرغب إليه أن يكون له في المضد والحماية بالمنزلة التي كان عليها لأبيه ، وأنه أحسن طاعة وأشدَّ انقياداً من أبيه ؛ وسأله تجديد العهد معه والاجتماع به . فأجابه المظفر إلى كلِّ

ما سأل ، ووعدَه بالذَّبِّ عنه على أتمِّ ما كان عليه لأبيه ، واجتمع به .  
وجدد معه عَقْدًا . وثبتتْ رياسته ، وقرَّ حاله قراره ، ودأما على ذلك  
دَهْرًا طويلًا ، لا يُسمع فيها بفتنة ، ولا يكابد معها تشغيبٌ .

- وكان في ذلك [ الوقت ] خدامُ دَوْلَتنا مُتَّفِقين مع اليهوديِّ ، إذ  
كان وزيرُ السلطان وصاحبُ سرِّه : فَنَهِم صَنِيعَةً له قد استغنى معه ،  
ومنهم عدُوُّ له ، مُؤازِرٌ في الظاهرِ استدفاعاً لشرِّه . فَاسْتَقَت الأمور بذلك ،  
وأعان بعضهم بعضاً على خدمة السلطان ، وأنسوا إلى ثِقَتِهِ بهم وعَضِدَ  
بعضهم لبعض . ولما تَهَيَّأت له الأمور ، وتوطَّدت الدولة ، بعد كلِّ ما ذكرنا  
من تلك الفِتَنِ <sup>(١)</sup> وغيرها ، وحصل على مدينة مائقة بعد المكابدة واليأس \* ١٩ (ب)  
١٠ منها ، حلَّ عن نفسه ، ومال إلى الراحة التي يستريح إليها الملوك ،  
وفوض أمرَه إلى الوزير وأَخْدَمَتِه .

## ٢٤ -- وصول النّاية إلى غرناطة .

### حظوته ومنافسته لليهوديِّ

- وفي أَمَكَنٍ ما كانت الدولة وأبْهَجِها ، قصده النّاية ، عبدٌ كان للمُعْتَصِدِ  
١٥ ابن عباد — رحمه الله — ؛ وكان من جُمْلَةِ من اتَّفَق على غدره مع ابنه  
المشهور خَبَرُهُ ؛ فَأَتَى للقدَر الذي لم يكن عنه محيصٌ . واعتنى به جماعة  
من كبار العبيد ، وطلبوا له من السلطان العَطَايا ؛ فأجابهم إلى ذلك تَقَمُّنًا  
لسرورهم <sup>(٢)</sup> ، كَتَبَ يَزِيدُوا في خِدْمَتِهِ ونصيحَتِهِ ؛ وقالوا له : « قَصْدَكَ هذا  
الإنسان عن مَفاسِدَةٍ لغيرِكَ وتعويلٍ عليك ؛ وقد أَمْلَكَ ؛ فما تصنع فيه

(١) أصل : « الفتون » . (٢) أصل : « لسارهم » .

إِنَّمَا تُسَدِّيه إِلَيْنَا . » ودخل غرناطة في أَسْعَدِ وقت له ، وَأَشْغَبِهِ على الدولة . وسار في أوَّل أمره مع الخِدْمَةِ بِأَجَلِ سيرةٍ وتواضعٍ لهم ، حتى حمدوا طريقته ، ونفعوه عند السلطان ، إلى أن استعمله في بعض خِدْمَتِهِ وصرَّفه في ولاية بعض عسكره . وكان لَطَلَبِهِ النَّارُ من بني عَبَّاد ، قد اكتفى في فِتْنَةٍ مَالَقَةٍ واستمال أقواماً من الجُنْدِ ؛ وكان فيها مُتَصَرِّفاً بين يدي مُقَاتِلِ بن يحيى فائِذِهَا . ولم يزل مُقَاتِلُ المذكور ، متى خَرَجَتْ مُغِيرَةٌ إلى بَلَدِ ابن عَبَّاد ، يُعَلِّمُ الْمُظَفَّرَ بِكَفَايَةِ النِّايَةِ المذكور فيها ، حتى كاد يجعل له الحسَّ كُلَّهُ ، إلى أن ورده كتابُ السلطان مُشْتَرَكاً بينهما ، وصار قائداً معه في البلدة . وزاد جِدُّهُ ، ونَمَا خَبْرُهُ ، وتَصَاعَفَ إِحْسَانُ الْمُظَفَّرِ إِلَيْهِ . وكان ، متى ما أتى مَالَقَةً ، نزل السلطان في داره ، وشرب معه ، مع تنويهه به والتزُّيد له من ذلك مع الأيام .

- وكان ، مع تقريب السلطان له مَتَى انْفَرَدَ به أو افْتَرَصَهُ على الخمر ، يَجْرَحُ عنده اليهوديَّ ، ويقول له : « قَدْ أَكَلَ مَالَكَ ، وَتَمَلَّكَ بِأَعْظَمِ مِنْ مَالِكَ ، وَبَنَى خَيْرًا مِنْ قَضْرِكَ ! فَاللهُ اللهُ في إِزَاحَتِهِ والتَّجَبُّبِ إلى المسلمين بِفَقْدِهِ ! » وَالْمُظَفَّرُ في هَذَا كُلِّهِ يَعِدُهُ ويقول له : « لَا بُدَّ لِي مِنْ ذَلِكَ ؛ وَأَوْكَلْتُكَ \* على قَتْلِهِ ! » فَرُبَّمَا لَفَظَ بِذَلِكَ بِمَسْمَعٍ مِنْ لَا يُؤْبَهُ ٢٠ (١) له من عبيده والمتَصَرِّفين بين يديه ؛ فينقلون ذلك على المقام إلى اليهوديَّ لِيَصِلَهُمْ عَلَيْهَا . فلا تزداد نفسُ الخَنْزِيرِ إِلَّا حِمَاقَةً وَمُنَافَرَةً ، وَيَكَادُ أَنْ يَمُوتَ هُمَا وَحَقًّا ، مع حسده له على المنزلة التي خُصَّ بها دُونَهُ ؛ ورام ٢٠ مطالبته عند السلطان بكلِّ مرام ؛ فلم يقبل منه . فلما رأى أَنَّ منزلته لَا تزداد إِلَّا تَرْفِيعًا ، وخاف على نفسه أَنْ يحمل السلطان على هلكته ،

انقطع رجاؤه من كلِّ وجهٍ وقال : « إِنَّمَا اسْتَهْزَأُونَا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ عِزِّ  
السلطان ! وَأَمِنَّا هُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا بِحِمَايَتِهِ وَعِزِّيَّتِهِ . وَأَمَّا الْآنَ ، فَقَدْ انْقَطَعَ  
الرجاء : لَا سُلْطَانَ نَأْمَنُهُ <sup>(١)</sup> ، وَفَرِينَ سُوءِ يَطْلُبُنَا عِنْدَهُ ، وَعَامَّةٌ تَرِيدُ  
هَلَاكَنَا ، وَنَحْنُ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ! »

## ٢٥ - إجلاء الأمير ماكسن بن باديس

وكان [ اليهوديُّ ] قد ألقى يَدَهُ فِي عَمَّا مَاكْسَنَ ، رَجَاءً مِنْهُ أَنْ  
يُسَدِّدَهُ وَيَأْمُرَهُ بِالْمُدَارَاةِ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ مُوَاجَهَةً : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا  
قَتَلْتَ أَخِي ؟ » فَعَمَلَتْ فِي نَفْسِ الْيَهُودِيِّ . وَكَانَ مَاكْسَنُ مَعَ هَذَا كُلِّهِ  
سَيِّئِ الطَّرِيقَةِ ، قَلِيلَ الْبِرِّ ، خَشِنَ الْكَلَامِ ، يَعِدُّ النَّاسَ بِالشَّرِّ ، حَتَّى  
كَرِهَهُ أَهْلُ دَوْلَةِ أَبِيهِ وَأَبْغَضُوهُ . وَكَثُرَ عَلَيْهِ الطَّلَبُ عِنْدَ أَبِيهِ .

وكانت أمُّهُ تَتْرُكُ مَعَامَلَةَ الْوَزِيرِ الَّذِي أَلْقَى يَدَهُ فِيهِ ، وَتَمِيلُ إِلَى خَالِهِ :  
يَهُودِيٍّ يُعْرَفُ بِأَبِي الرِّبْعِ بْنِ الْمَاطُونِيِّ ، وَكَانَ قَابِضَ الْوَجِيئَةِ ؛ فَتَخَاطَبُهُ  
أَبَدًا ، وَتَطْلُبُ مِنْهُ مَا لَا بَأْسَ بِهِ السَّلَفُ . فَغَارَ الْوَزِيرُ لَذَلِكَ ، وَعَمِلَ عَلَى طَلْبِهِ  
وَطَلَبِ أُمِّهِ وَحَاشِيَتِهِ ، وَافْتَرَى عَلَيْهِمْ عِنْدَ السُّلْطَانِ . وَشَهِدَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ  
جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ، فَمَنْ نَقَمُوا عَلَى مَاكْسَنَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا قَدَّمْنَا  
ذِكْرَهُ . وَأَغْرَى بِهِمْ حَتَّى جَعَلْتَهُ الْأَنْفَةَ مِنْ مَكْرُوهِ مَا نُقِلَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَ  
بِقَتْلِ أُمِّهِ وَدَايَاتِهِ وَبَعْضٍ مِنْ اتَّمَى . وَقَتَلَ الْوَزِيرُ خَالَهُ غَدْرًا\* فِي مَنْزِلِهِ ٢٠ (ب)  
عَلَى الشَّرَابِ خِلَافِهِ عَلَيْهِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ ؛ وَاتَّقَى مِنْهُ نَصِيحَةَ السُّلْطَانِ ،

(١) أصل : « نَأْمَنُوهُ » .

وأعطاه على ذلك مالا جسيما ، لئلا يثرب عليه قتله . فقبل السلطان ذلك منه ، وودَّ أن لو قَتَلَ كلَّ يومٍ يهوديًا ، فيُغَرِّمَ عليه مالا .

نمَّ أمر بعد ذلك بَنَى وَلَدِهِ . وكان من آكِدِ الأسباب في تَفْيِهِ أن خرج السلطان يوما لعرَض الأجناد ، وقتَ الفِتْنَةِ مع ابن صُمَدِح ؛ فانتدب إليه من شيوخهم من قال له : « ما ينبغي لك أن تُقَدِّمَ علينا العبيد وغيرهم ، وتترك مثل هذا الابن ! أُرْسِلْهُ معنا ، ونَتَّبِعْهُ في كلِّ مُلِمَةٍ ! » يعني ما كَسَن . فعزَّ ذلك على أبيه ، مع سَخَطِهِ عليه لِمَا كان يَرَى منه وتُقِلُّ إليه عنه ، وخاف أن يكون وراء هذا الكلام فعلٌ بأن يَحْمِلُوهُ ويقَدِّمُوا ابْنَهُ . وجزع اليهوديُّ لذلك جزعا شديداً وقال : « ما حسبتُ نفسي في ذلك اليوم إلا مقتولا ! » فأعْلَمَ السلطان بهذه الوجوه ؛ وأمر على المقام بَنَفْيِهِ عن البلدِ ، ووجَّهَ معه من عبيده من يُخْرِجُهُ عن نَظَرِهِ كُلَّهُ . ووصَّى اليهوديُّ — لعنه الله — ذلك <sup>(١)</sup> العبد أن يَصِلَ معه إلى موضع سَمَاءُ بجيثٍ يَخْنِي أَمْرُهُ ، فيضرب فيه عنقه .

وكان أخونا المَعِزُّ قد ربَّاه جَدُّهُ ، ونال معه الكرامات ، وأَحَبُّهُ في حُرْمَةِ أبيه . واتفق رأى الجميع مع اليهوديِّ على قَتْلِ ما كَسَن وتولية المَعِزِّ ، حذرا على أنفسهم من ما كَسَن أن يثور عليهم ويعاقبهم بِمَحَبَّتِهِمْ في [ ابن ] أخيه وترَبَّيتِهِمْ له . فكان من ذلك ما أَمْلُوهُ .

وخرج عَمَّنَا على أسوأ حال ، مذعورا ، خائفا ، بَعْضُهُمْ يُشِيرُ بِقَتْلِهِ ، وَبَعْضُهُمْ يَأْبَى إلا إزاحتَهُ عن النَظَرِ كُلِّهِ ، حتَّى صار يبعض الطريق .

٢. وانحلَّ عن عُموهِم بهلاك اليهوديِّ ، على ما نذكرُهُ بعد هذا .

(١) أصل : « لذلك » .

## الفصل الرابع

إمارة باديس بن حبّوس

(٢) من موت ابن نَعْرَالَةَ إلى نهايتها

٢٦ — مؤامرة الوزير اليهودي ابن نَعْرَالَةَ

ثورة صُنْهَاجَةَ عليه وقتله

وإنَّ الحَنَزِيرَ — لعنه الله — لما رأى طغيان النساء، وكلُّ فرقة منهنَّ  
تُريد ولاية من تُربِّيهِ من أبناء السلطان، ورأى تغيُّر مولاه\* عليه وإمعانَ (١) ٢١  
الناية في مُطالبته والازدياد في جاهه، لم يجد في الأرض مهزباً، ولا  
وجد إلى التخلص سبيلاً، وشاور في ذلك مَشِيخَتَهُ من ذوى الرأى؛ فقال  
بعضهم: « انج بنفسك، وقَدِّمْ جُلَّ مالِكَ إلى أيِّ البلاد أُحِبَّتْ،  
تَسْتَوْطِنُهَا غَنِيًّا أَمِنًا! » فقال: « ذلك مُمَكِّنٌ لولا أنَّ الرئيسَ الأَجَلَ، إنَّ  
أرسل فيَّ إلى صاحب تلك الجهة، يقول: « ذهب وزيرى بأموالى: إمّا أن  
تصرفه علىَّ، وإمّا أن أفاتنَكَ! » أترى أنه يبيع الرئيس عني؟ هذا  
ما لا يجوز إلّا أن أُصيرَ إليه من البلاد بحيث تقع الفتنة بينهما، ونأمن  
على نفسى عند الذى نصير إليه ولا يُمكنه إسلامى. وأنا قد وضعتُ في

يده بلادًا ومجدًا كبيرًا ! » فَاتَّقَ رَأْيَهُمْ عَلَى مُخَاطَبَةِ ابْنِ صُمَادِحَ ، وَأَنَّهُ الْأَوَّلَى لَجِيرَتِهِ وَقُرْبِهِ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِيهِ .

- وأخبرني رسولُ ابنِ صُمَادِحِ ابنُ أَرْقَمَ ، وكان قد تَخَيَّرُوهُ لِلرَّسَالَةِ <sup>(١)</sup> حينئذٍ ، قال : حضرتُ يومًا مع المظفرِّ — رحمه الله — وقد خرج إلى بعض متنزّهاته والنايةُ معه ، واليهوديُّ وراءه ، حتى بصر النايةَ بحكيم كان للوزير ، يهوديًّا ؛ فأمر بإهانتِهِ وإرجالِهِ عن دابَّتِهِ بحضرةِ الرئيس ، وتوقَّحَ في ذلك ، وأبلغَ في شتمِ اليهوديِّ ؛ فاستعظمَ اليهوديُّ ذلك وقال لابنِ أَرْقَمَ : « حسبك هذه الإهانة ، ولا صبرَ عليها ! فَإِنْ كُنْتُمْ تَسْتَطِيعُونَ لِي عَلَى شَيْءٍ ، وَإِلَّا فَلَا بَدَّ مِنَ التَّرامِي عَلَى غَيْرِكُمْ ! » فقال له ابنُ أَرْقَمَ : « أَنْتَ جَدِيرٌ بِالنَّشْبِ فِي هَذَا الْأَمْرِ ! وَأَيُّ ضَرُورَةٍ دَفَعْتَكَ إِلَيْنَا وَبِيَدِكَ الرِّعَايَا ، وَإِلَيْكَ تُجْبَى الْأَمْوَالُ ؟ وَالسُّلْطَانُ لَمْ يَغَيِّرْ عَلَيْكَ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ هَمَزَاتِ هَذَا الْمُطَالِبِ ! فَاحْتَلَّ بِأَنْ تُصَابِرَ الْأُمُورَ إِلَى أَنْ يَمُوتَ الشَّيْخُ ، لِأَسِيًّا أَنَّهُ قَدْ أَسَنَّ ؛ وَتَلْقَى يَدَكَ فِي حَفِيدِهِ الْمُعِزِّ ، وَتَبْقَى حَالُكَ مَعَهُ حَسَبَ مَا كَانَتْ مَعَ جَدِّهِ ؛ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى السَّلَامَةِ ! » فقال له اليهوديُّ : « كُنْتُ أَفْعَلُ ذَلِكَ لَوْلَا أَنَّ الْمُعِزَّ صَغِيرُ السِّنِّ \* ، وَلَهُ أُمَّهَاتٌ وَطَبَقَاتٌ جَمَّةٌ مِنَ النِّسَاءِ وَالْحَاشِيَةِ . فَكَيْفَ نَرْجُو مَعَهُمْ ١٥ الْفَلَاحَ ؟ وَالْحَالُ إِذْ ذَاكَ تَكُونُ عَلَى أَشَدِّ لاختلافِ أَهْوَائِهِمْ . وَقَدْ صَحَّ عِنْدِي أَنَّ الصَّبِيَّ يَحْقِدُ عَلَى مَا قَالَهُ النَّاسُ مِنْ سَقَى أَبِيهِ . وَقَدْ أَدْرْتُ هَذِهِ الْوُجُوهُ ؛ فَلَمْ يَتَّجِهْ لِي مِنْهَا أَمْثَلُ مِنَ التَّرامِي عَلَى الْمُعْتَصِمِ ! » فقال ابنُ أَرْقَمَ : « دَخَلْتُ عَلَى الْمُظْفَرِّ ، وَأَلْقَيْتُ إِلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ رُمُوزًا ، وَقُلْتُ لَهُ : « أَيْدَكَ اللَّهُ ! تَبَقَّظْ ! فَإِنَّكَ لَمْ تَطْعَنْ فِي السِّنِّ ، وَلَا بَلَغْتَ فِيهِ مَبْلَغًا يُولَدُ عَلَيْكَ الْغَفْلَةُ ٢٠



عن دَوْلَتِكَ ! » رجاء مَتَّى أَنْ يَسْتَفْهِمَنِي عَنِ الْكَلَامِ وَأَقْصَّ عَلَيْهِ بَعْضَهُ .  
 فدعا اليهوديَّ وقال له : « انْهَضْ إِلَى ابْنِ أَرْقَمَ وَقُلْ لَهُ : « لَأَيَّ وَجْهِ  
 قَالَ لِي الْآنَ : نَبِيِّقُظْ ! » وَاسْتَفْهِمَهُ عَنْ ذَلِكَ ! » فُجَاءَنِي الْيَهُودِيُّ وَأَخْبَرَنِي  
 بِالْقَضِيَّةِ . فَدَهَشْتُ لَهَا وَمِتُّ ، وَلَمْ أَجِدْ جَوَابًا . فَاتَّهَمَنِي الْخِنْزِيرُ ، وَخَاطَبَ  
 ٥ بِأَمْرِی الْمُعْتَصِمَ وَأَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ يُقْعِدَنِي عَنِ الرِّسَالَةِ وَيُوجِّهَ فِيهَا مِنْ يَنْفَعُهُ ؛ فَسَفَرُ  
 فِيهَا رَضِيْعَةً وَأَمَرَهُ بِنَسْجِ الْأَمْرِ مَعَهُ ، وَكَيْفَ الْحِيلَةُ فِي تَصَيُّرِ الدَّوْلَةِ إِلَيْهِ ،  
 وَغَرْنَاظَةِ مَعْدَنِ الْجَيْشِ ، وَفِيهَا مِنْ صِنْهَاجَةٍ مِنْ لَا يَجُوزُ هَذَا الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ ؟ وَقَالَ  
 لَهُ : « لَا تُدْخِلْ نَفْسَكَ وَالْمُعْتَصِمَ فِيمَا لَا يَتِمُّ وَتَقْتَضِيحُ فِيهِ مَعَ الْمَظْهَرِ ،  
 وَهُوَ صَاحِبُ الْأَمْوَالِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْفِتْنَةِ ! وَتَخْزِي مَعَهُ ، وَتَكُونُ سَبَبًا إِلَى  
 ١٠ هَلَاكِ نَفْسِكَ وَالْفُسَادِ عَلَيْهِ ! » فَرَأَى الْخِنْزِيرُ مِنْ رَأْيِهِ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ الْبِلَادِ  
 كُلَّ مَنْ يَتَوَقَّعُ قِيَامَهُ .

وَتَخَيَّرَ مِنْ كِبَارِ صِنْهَاجَةٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَبِيدِ ، الَّذِينَ يَخْشَى مَعْرِتَهُمْ ،  
 أَقْوَامًا ، وَأَشَارَ عَلَى السُّلْطَانِ بِإِرْسَالِهِمْ إِلَى الْمَعَاوِلِ الْأَهْمَةِ ، وَصَكَّكَ لَهُمْ بِهَا ،  
 وَقَالَ لَهُمْ فِي سِرِّ الْأَمْرِ : « أَنْتُمْ إِخْوَتِي ، وَقَدْ أُخْلِمْتُ مَعِي ، وَرَأَيْتُمُونِي !  
 ١٥ وَأَرَى مِنْ دَوْلَةِ هَذَا السُّلْطَانِ مَا يَنْبَغِي لَكُمْ إِنْكَارُهُ بِأَنْ يَقْدَّمَ عَلَيْكُمْ مِنْ  
 لَيْسَ مِنْكُمْ وَلَا شَأْنُهُ شَأْنُكُمْ ، وَتَبْقَى وَلَايَتُهُ عَارًّا عَلَيْكُمْ وَشَنَارًا مَا بَقِيَ الدَّهْرُ ؛  
 وَقَدْ\* نَصَحْتُ السُّلْطَانُ فِي أَمْرِهِ ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ مَتَّى ، وَلَا يُقَدَّرُ عَلَى مُضَادَّتِهِ ؛ ٢٢ (١)  
 وَالْآنَ أَتَوَقَّعُ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ الشَّرِيفَةِ وَالْمَعَاوِلِ الْفَارِهَةِ أَنْ يَلِيَهَا مِنْ قَبْلِ النَّايَةِ  
 مَنْ يَشْتَقِي بِهِ الْجَمِيعُ ، وَلَا نَقْدَرُ مَعَهُمْ عَلَى إِمْسَاكِ الدَّوْلَةِ ، وَتَكُونُ لَهُمُ الصَّوْلَةُ  
 ٢٠ عَلَيْنَا ، ثُمَّ لَا مَهْرَبَ إِلَّا إِلَى يَدَيْهِ ، فَإِذَا أُمْسَكْنَا مَعَاوِلَنَا وَكَانَ بَنُو عَمِّكُمْ  
 بِالْحَضْرَةِ ، يَتَجَسَّرُ عَلَى تَبْدِيدِكُمْ ، وَكَانَ أَمْرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ هَيْئًا ، مَتَى أَرَادَ التَّغْيِيرَ ،

قتلناه ، ومتى ما سخط السلطانُ على أَحَدِنَا وأمر بَنَفِيهِ على يديه ، لَجَأُ  
إلى مَعْقِلِ صاحِبِهِ . »

فقبل القومُ قَوْلَهُ ، مع شَرِهِم إلى ولاية البلاد ، وبادروا إلى ذلك .  
فأخرج يحيى بن يِفْران إلى مدينة المُنكَب ، ومُسكِّن بن حَبُوس المَفْرَأَى  
إلى جِيَّان ، وَمَنْ سِوَاهُمْ إلى غيرها من القواعد . وزَيَّن للسلطان أن ذلك من  
وجه النظر له ، وأنه لا يحصى القواعد إِلَّا كِبَار الرجال ، وأن المعزولين قد  
صَحَّ عنده غفَلَتُهُمْ وتَضْيِيعُهُمْ ، إذ كان لا يسمع من أحد إلا قوله في هذه  
المَشَايِه ، لِنَقْتِهِ به .

وكتب [ اليهوديُّ ] إلى ابن صُمَادِح يُخْبِرُهُ بخروج القَوْمِ القَوَّغَاءِ من  
المدينة ، وأنه لم يَبْقَ فيها إِلَّا من لا يُوبَهُ له ، ويحصدُهم سَيْفُهُ إذا دَخَلَهَا ،  
وأنَّهُ مُتَهَيِّئٌ لِفَتْحِ أبوابِها متى جسر وطرقها ؛ وَضِيعُ النَّظَرِ في سائر  
الحصون غير القواعد ، وأَهْمَل ما يَرْتَقِبُونَ به من الرجال والعُدَد على وجه  
الغفلة ، حتى خَلَّت .

والمُظَفَّر ، في هذا كُلِّهِ ، لا خَبَر عنده إِلَّا الإقبال على الشرب والدَّعة .  
فلما خَلَّت المعاقِل ، وصَحَّ عند أهلها ، يَاهَلُم واحتجاب السلطان عنهم ،  
أنَّهُ قد مات لا حَالَةَ ، تصايَحَت بعضها لبعض ، وَخَلَّتْ بأقطارها ؛  
وافترَصَهَا رجالُ ابن صُمَادِح ، وصاروا فيها حتى لم يَبْقَ منها إِلَّا حِصْن  
قَبْرِيْرَة ، على مقربة من غرناطة في طريق وادي آش .

وأرسل اليهوديُّ على المقام لابن صُمَادِح ، يلحُّ\* عليه في الإقبال إلى ٢٢ (ب)  
المدينة ، وأن لا مَانِعَ يَمْنَعُه . فالتوى عن ذلك ابن صُمَادِح ، وجزع من  
الجسر على مثل غرناطة ، إلى أن اتَّسَعَ اتَّخَرَقُ وتَمَادَى النفاق ؛ وصار

اليهوديُّ مُتَنَقِّلًا من داره إلى القَصْبَةِ حِذْرًا من العامَّةِ ، حتى يَتِمَّ ما أُمِّلَ ؛  
فأنكر ذلك الناسُ ، مع بُنْيَانِهِ لِحِصْنِ الحُمْرَاءِ على أَنَّهُ ، إذا دخل ابن  
صُمَادِحِ البَلَدِ ، صار هو بأَهْلِهِ إِلَيْهَا ، إلى أن تتوطَّدَ الحالُ . فأَنْفَتِ العامَّةُ  
والخاصَّةُ لمكر اليهود وما اشتهروا به من تغيير الأحوال ، ورأوا من الرُّتَبِ  
خِلَافَ ما عهده .

وَلَلَّذِي أَرَادَهُ اللهُ مِنْ هَلَاكِهِمْ فِي يَوْمِ السَّبْتِ لِعَشْرِ خَلَوْنٍ مِنْ صَفَرٍ  
[ من سنة ٤٥٩ ] ، استعمل اليهوديُّ الشراب تلك الليلة مع أَقْوَامٍ مِنْ  
عَبِيدِ الْمُظَفَّرِ ، كانوا قد عاقَدُوهُ وَاتَّفَقُوا مَعَهُ ، وَبَعْضُهُمْ فِي السَّرِّ يَشْنَأُهُ ؛  
فَأَعْلَمَهُمْ بِأَمْرِ ابْنِ صُمَادِحِ ، وَأَنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْهِمْ وَمَسْوُوعٌ لَهُمْ مِنَ الْقُرَى فَلَانَةِ  
وَفَلَانَةِ مِنْ فَحْصِ غِرْنَاطَةِ ؛ فَاتَّدَبَّ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ مِمَّنْ كَانَ يَكْمُنُ بِغُضِّهِ ،  
وَقَالَ لَهُ : « قَدْ عَلِمْنَا هَذَا ! فَأَخْبِرْنَا عَنْ تَسْوِيفِكَ هَذِهِ الْإِنْزَالَاتِ ،  
أَهْوَى مَوْلَانَا حَيٌّ أَوْ مَيِّتٌ ؟ » فَرَدَّ عَلَيْهِ بَعْضُ حَاشِيَةِ الْيَهُودِيِّ ، وَوَجَّهَهُ عَلَى  
قَوْلِهِ ؛ فَأَنْفَ ذَلِكَ الْعَبْدُ وَخَرَجَ فَارًّا عَلَى وَجْهِهِ [ وَهُوَ ] سَكْرَانٌ ، يَصِيحُ بِالنَّاسِ  
وَيَقُولُ : « يَا مَعْشَرَ مَنْ سَمِعَ بِالْمُظَفَّرِ قَدْ غَدَرَهُ الْيَهُودِيُّ ! وَهَذَا ابْنُ صُمَادِحِ  
دَاخِلٌ فِي الْبَلَدَةِ ! » فَتَسَامَعَ لَذَلِكَ النَّاسُ أَجْمَعُ خَاصَّتُهُمْ وَعَامَّتُهُمْ ، وَأَتَوْا  
عَازِمِينَ عَلَى قَتْلِ الْيَهُودِيِّ . فَتَحَيَّلَ عَلَى الْمُظَفَّرِ حَتَّى أَخْرَجَهُ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ :  
« هَذَا سُلْطَانُكُمْ حَيٌّ ! » وَرَامَ الرَّئِيسُ تَسْكِينَهُمْ ؛ فَلَمْ يَقْدِرْ ؛ وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ  
عَلَى الرَّاقِعِ . وَهَرَبَ الْيَهُودِيُّ بِنَفْسِهِ إِلَى دَاخِلِ الْقَصْرِ ، وَاتَّبَعَتْهُ الْعَامَّةُ حَتَّى  
ظَفَرُوا بِهِ وَقَتَلُوهُ . وَأَحَالُوا السِّيفَ عَلَى كُلِّ يَهُودِيٍّ بِالْبَلَدَةِ ، وَحَصَلُوا عَلَى  
عِظَائِهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ .

وَاسْتَأْصَدَتْ إِذْ ذَاكَ صِنْهَابَةٌ ، وَطَفَعُوا بِمَا صَنَعُوهُ عَلَى الرَّئِيسِ ، مَعَ الْفِتْنَةِ

المُصْطَكَّة\* عليه من كلِّ قطر . وكانوا هم الوزراء ومُدَبِّرِي<sup>(١)</sup> الدولة ؛ ٢٣ (١)  
والمُظْفَرُ من هذا كله تحت خوفٍ وذلٍّ ، قد حقد عليهم ما صنعوه  
بوزيره ، من غير أن يَعْلَمَ بشيءٍ من دواخِلِهِ ، ولا صدق قولهم عليه ،  
وسائر أمره معهم بالمدارة والصبر ، إلى أن تفتحت له البلاد ، ورجعت  
طاعته إليه بما نحنُ نذكره<sup>(٢)</sup> بعد هذا إن شاء الله . ٥

ولما مضى مُسْكَنٌ إلى جَيَّان ، على ما قدّمنا ذِكره ، أَلْقَى في طريقه  
عَمَّنًا ما كَسَن ، يحمله الصَّقْلَى ؛ فاستنقذه ، ومشى به إلى جَيَّان ، وقال :  
« لا فائدة أكبر من هذا : ابن الرئيس يكون معي حُجَّةً على ما أريدُه  
من مُلْكِ جَيَّان أو غيرها ؟ وسينقاد إليه الناسُ ، ونحصل على عظامهم ! »  
كالذي كان . فَوَلِيَ جَيَّان باسمِهِ ، وصار حاكمهما مع بني عمِّه . وحصل  
إذ ذاك من أموال اليهود فيها على ما لا يتحصّل . وبقي نائراً على أفضل حال . ١٠

## ٢٧ - الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع وادي آش

من أيدي ابن صُمَادِح

وإنَّ المُظْفَر ، لما رأى ما نزل به من كَلْبِ العدوِّ وطَمَعِ الناس فيه ،  
وما حلَّ به من كلِّ وَجْهِ ، جمع الناس وقال لهم : « ما تَرَوْنَ في أمرِ ١٥  
وادي آش ، وتصيرُها إلى ابن صُمَادِح ، واستحواذِهِ على أنظارنا ؟ »  
فأجابه قوَّاده وجملةُ رجاله أن : « لا دواء لهذا ، إلَّا أن تبذل الأموال ،  
وتترك الدَّعة ، وتبشِّر الأمر بنفسك ! » فقال لهم : « مثلي ومثلُ ابن  
صُمَادِح كمثلِ القُبْعة التي كان يلازمها عشُّ إوزة ؛ فأعجبها بيضُها ، فقالت :

(١) أصل : « مدبرين » . (٢) أصل : « ذاكره » .

« لأحضنَّ هذا البيض ، يكون خيراً من متاعى ! » فلما رامت ذلك ، عَجَزَتْ وقَصُرَتْ جَنَاحَاهَا عن التحضين ؛ فلما رجعت إلى متاعها ، وَجَدَتْهَا قد فَسَدَتْ . وكذلك ابنُ صَادِح : تعدَّى على بلدى ، وسيخرج عنه وعن كثير مما كان قديماً بيده ! « فقَوِيَتْ نفوسُ الناس ، وادَّرَعَ الحَزْمُ والعزمُ ؛ وتَأَهَّبَ للمسير ، واجتمعت إليه الأجناد ، [ وفَرَّقَ ] فيهم العطايا . ٥ ونازَلَ وادى آش حتى حاصَرَهَا .

وكان فى أوَّلِ الفتنَةِ ، للذى\* رأى من قيام رعيَّتِهِ وخشى خلاف ٢٣ (ب) الجميع ، قد وَجَّهَ لابنِ ذى النُّونِ ، صَاحِبِ طُلَيْطُلَةَ ، يعلمه بما دهمه من الأمر ، ويسأله صِلَةَ يده به ، وأَنَّهُ ما انصرف إليه من البلاد أعطاهُ منها ما أَحَبَّ واختار ؛ فسارَعَ ابنُ ذى النونِ إلى ذلك ، ولحق به ، وهو على وادى آش قد حاصَرَهَا وَقَرَّبَ مَرَامُهَا ؛ واجتمع معه إلى أَجَلِ هَيْئَةٍ وأنتم رتبة . وفى قَصَبَةِ وادى آش ذلك الوقتَ وزراءُ صاحبِ المَرِيَّةِ وأكابرُ رجالِهِ . فاشتدَّ عليها الحربُ ، وكثُرَ الإنفاقُ ، حتى إنَّه انتهت النفقة عليها ، على ما رأيته مكتوباً بخطِّ يدِ جدِّى — رحمه الله — سِتَّةَ بيوت من المالِ دَرَاهِمَ ثُلُثِيَّةً ، البيتُ منها أَلْفُ أَلْفِ دِينَارٍ ثُلُثِيَّةٍ . ١٥ وصار ذلك مَثَلاً فى الناس لصبره وكثرة إنفاقه .

فلما رأى مَنْ بالقَصَبَةِ من أَكابرِ أهلِ المَرِيَّةِ ما دهمهم ، وأَنَّهُ لا مَلْجَأَ لهم إِلاَّ الهرب أو السَّيْفُ ، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، تَحَيَّلُوا وأرسلوا إلى ابنِ ذى النونِ ، وهُمُ على المَلَكَةِ ، يعلمونه بما هم فيه وَقَطَعَ رجالُهُم عن إمدادِ صاحبِهِمْ ، ويسألونه أن يتوسَّطَ أمرَهُم مع المُظَفَّرِ ، ويأخذَ لهم العَفْوَ ، ٢٠ ويخرجُهم على سلامة ؛ ووعدوه على ذلك ، إن هو استنقذهم ، أن يُصَيِّرُوا

العرية مُلكه . وكان ابن ذى النون من الطمع فى غايةٍ لم يذتبه إليها ملكٌ ؛  
فقطع فى قولهم ذلك ، وترامى على جدنا ، ورغب إليه ؛ فأسعفه ، حتى  
خرجوا وأخلوا له القصة . وثقفها بحماة رجاله .

واستنجز ابن ذى النون وعده ، وقال : « إن الذى أريد من هذه  
البلاد بسطة . » فلم يكن بدّ للمظفر من إنجاز وعده ، وأمر بإخلاؤها له .  
وتفتحت للحاجب بلادٌ كثيرةٌ أربت على التى انصرفت إليه .

وأرسل إليه ابن صمادح بعد ذلك ، يسأله العفو والإغضاء على ما كان  
منه ، وأنه لا يتعرض من ذلك شىء لولا اليهودى ، وخوفاً ، إن \* أهمل (٢٤) (١)  
البلد ، أن يتعدى عليه من يخشى داخلته . وترامى على جدنا وأتاه بنفسه  
ليجتمع معه على ذلك ، ويجدد عقداً . ففعل وقبل اعتذاره . ويحكى أنه ،  
عند اجتماعه به ، كان أول ما خاطبه به : ﴿ يَا أَبَانَا ! اسْتَغْفِرْ لَنَا  
ذُنُوبَنَا ! إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ! ﴾ (٢) فأجابه المظفر على البديهة : ﴿ لَا تَثْرِيْب  
عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ ! يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (٣) ! .

## ٢٨ - الحركة الموقفة التى قام بها باديس لانتزاع مالقة

من يد ابن عبّاد

ولما صار إلى المظفر جميع بلاد ، وتوطدت له الدولة ، وكان قبل  
أخذه لوادى آش قد أخذ مالقة ، وقدمها قبل شغله كله ؛ وكان قائد  
عسكره إليها تلك السفارة يحيى بن يفران ؛ وكان الرجل من أكابر تلك الكاتبة

(١) سورة يوسف : ٩٧ .

(٢) سورة يوسف : ٩٢ .

وكان مُطاعاً في قومه ، قد شقى جدُّنا به طول مُدَّة الفتنه . ولَمَّا استأسَدَ صِنْهاجَة ، على ما قدَّمنا ذكره بعد قتل اليهوديِّ ، تَرَأسَ فيهم يحيى المذكور ، ونال من الرئيس كثيراً في ماله وعرضه ؛ فحقد ذلك عليه ؛ وكان عازماً على أنَّهُ ، إذا انصرف من فتح مالقة ، أن ينظر في خلعه ، ويثور عليه مع بنى عمِّه . وكان الخبر قد طرأ إلى جدِّنا . ففَضَّى اللهُ تعالى أن مات يحيى المذكور في تلك السفرة مقتولاً في الواقعة . فقال عند ذلك المظفرُّ : « أَتَدْنَا في يوم واحد فرحتان : أوْلُهُما موتُ يحيى ، والأخرى فَتَحُ مالقة ! » ثمَّ نهض على المقام إلى وادي آش ؛ ففعل عليها ما وصَفْنَاهُ . وكان ابن عَبَّاد قد دخل مدينة مالقة المذكورة قبل هذا الفتح ، وامتنعت له القَصَبَة لِما كان فيها من كفاة المَغَارِبَة ، وقائدها ذلك الوقت مَخْلُوفُ ابن مَلُول ، شيخٌ كبيرٌ من ثِقَاتِهِ ؛ وانتظروا قوَّةَ الرئيس صَبْرًا منهم ، وكثرةَ بَقِيَّا ، وأنْفَةً من كشفِ حرمة الذين كانوا بالقَصَبَة المذكورة ، إلى أن ورد العسكرُ . وخرج إلى مُلاقاتهم من فيها من عسكر ابن عَبَّاد ؛ فَمَنَحُوا عليهم الظفر ، ودخلوها غَنَوَةً .

١٥ وكان حصول ابن عَبَّاد عليها لِدَاخِلَةٍ\* أهلها ومَئِيلِهِمْ إليه ، اختياراً له (٢٤) ب علينا ، على إحسان المظفرِّ — رحمه الله — إليهم ، وأنَّهُ وجدَّهم على أسوأ حالةٍ ؛ فأصلح من أحوالهم كثيراً ، وحمل فقهاءها ومُقرِّئِها على المطايا ، وأنزلهم على أفضل المراتب ، ما كان مشهوراً عنه في الأقطار ، إذ كانوا قَبْلُ في حال قِلَّةٍ وعلى غير رتبة . ثمَّ كافأوه بما فعلوا . وبعد ظفَره بهم ، عفا عن ذلك كلِّه ، وزاد في مراتبهم . ولقد اخْتُطِبَ لابن عَبَّاد مُدَّةٌ كونه فيها ؛ وحُكِيَ أَنَّهُ قيل في الخطبة : « اليومَ أَكَمَلْتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ! »  
فلم تقطِ السياسة مُعاقبةً أَحَدٍ مِنْهُمْ ، إِذْ كَانُوا فِيهِ سَوَاءً ، وَلَا يَصَحُّ إِمْسَاكُ  
بِلَدَةٍ إِلَّا بِأَهْلِهَا .

فقرَّ مُلْكُ جَدِّنا قَرَارَهُ ، وَجَبَرَ الْأُمُوالَ ، وَزَادَتْ الْجَبَايَا .

## ٢٩ - الكشف عن أمر فُتْيَانَةٍ وَفَتْنَتِهَا

ولما انصرف من فُتْيَانَةٍ<sup>(١)</sup> ، غزوته تلك الوادي آشِيَّة<sup>(٢)</sup> ، دعا بقائديَه [ الناية  
وعبد الله بن القَرَوِيَّ ] ، وكانا على العسكر مُدَّةً فُتْنَةً وادي آش ؛ وامتنحن  
على أُمُوالهم أين أُنفَقَتْ : أَكَانَتْ فِي وَاجِبٍ أَمْ زِيْفَتْ ، لِمَا اسْتَغْطَمَ مِنَ  
النَّفَقَةِ ؛ وَجَمَعَ الْقَائِدَيْنِ وَالْكَتَبَةَ ، وَكَشَفَ عَلَى ذَلِكَ غَايَةَ الْكَشْفِ .  
وكان الناية من أَهْلِ التَّجَرُّبَةِ وَالْفِكْرَةِ فِي الْعَاقِبَةِ ، قَدْ عَمِلَ هَذَا الْحِسَابَ ،  
وَأَخْرَجَ مِنْهُ نَفْسَهُ : قَمَتِي وَرَدَّتْ أُمُوالٌ مِنْ غَرْنَاطَةِ اللَّعْطَاءِ ، يَتَحَرَّيْ عَنْهَا ،  
وَلَا يَقْبِضُ مِنْهَا شَيْئًا ، وَيَقُولُ لِلَّذِي يَأْتِي بِهَا : « اَحْمِلْهَا إِلَى خِباءِ الشَّيْخِ  
عبد الله بن القَرَوِيَّ ؛ فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَصْنَعُ ، وَهُوَ أَسْنُّ وَأَذْرَبُ ! » فَاحْتَجَّجَ  
النايَةَ بِهَذَا الْفِعْلِ عِنْدَ الْمُظَفَّرِ ، وَأَتَى عَلَى ذَلِكَ بِالْبُرْهَانِ ، وَتَبَرَّأَ مِنْهَا .  
وَغَضِبَ الْحَاجِبُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ سَاعَتَئِذٍ ، وَأَمَرَ بِنَفْيِهِ .

وكان أَكْثَرُ الْجُنْدِ يَشْنَأُ النَايَةَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ ، وَيُوَثِّرُ عَبْدُ اللَّهِ لَتَرِ بَيْتِهِ<sup>(٣)</sup>  
مَعَهُمْ ؛ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، وَأَذْرَكَهُمْ مِنَ الْأَنْفَقَةِ أَنْ خَرَجُوا كُلُّهُمْ حُرْمَةً  
فِي عَبْدِ اللَّهِ ، وَأَخْلَوْا\* عَلَيْهِ لِلْحَلَّةِ . وَزَالَ عَنْهُمْ أَكْبَرُ صِنْهَاجَةٍ أَجْمَعَ ؛ ٢٥ (١)

(١) أصل : « فُتْيَانُهُ » ، وهو تصحيف .

(٢) أصل : « الوادشِيَّة » .

(٣) أصل : « لَتَرِيَّيْهِ » .



فلم يصبح الحاجب بفنيانة منهم معه أحدٌ ؛ ورَجَوْا أن يكون يرغب إليهم ، ويفزعونه بتلك الفعلة . فأتى إليه النايةُ يرعد فرَقًا ، وأخبره بالقصة . فقال المظفر في نفسه : « لا خيرَ لي في ردِّ هؤلاء ! فإنَّ ذلك مما يزيدهم طغيانًا ، وتجرُّهم العادةُ ، متى أحبُّوا الخلاف ، على أن يمتثلوا هذه الطريقة . ولا حاجة بي إلى إمساحهم ، وفي مُضيِّهم الغنيمة والراحة ! » فسكت عنهم وتركهم على أهوائهم ؛ فصاروا فرَقًا وأشتاتًا ، منهم من مضى إلى جَيَّان يريد مُسَكَّنًا ابنَ عمِّهم ، ومنهم من انقطع إلى شَرْق الأندلس ، ومنهم من رجع إلى غرناطة على خفاء ، يُرى أنه لم يكن في الجملة .

وأقلعَ المظفر عن فنيانة وأتى غرناطة ، لم ينقصه من ذلك شيء ، ولا عدم جُنْدًا . واستوزر الناية ، وبقي على الدعة والتمكين دهرًا طويلاً .

### ٣٠ - استيلاء باديس على مدينة جَيَّان

ولما تمكَّن ماكسن من جَيَّان ، وثار معه مُسَكَّنٌ مع بني عمِّه ، أقلقَ ذلك جدًّا ؛ وخاف النايةُ على نفسه منهم ، وجزع من أن يتفقَ مَنْ هنالك من بني عمِّهم وسائر البربر الذين بغرناطة ، ويقتلوه ، ويسعوا في ولاية ماكسن . ولم يرَ المظفر - رحمه الله - لمفاننته وجهًا ، وإنَّ مُسَايَرَتَهُ ومُداراته أولى ، وإنَّ في فتنته من العار وسوء القالة أن يُقال : « رجع المظفرُ يُكابِدُ فِتْنَةَ ابنه ، وإن أعياه أمرٌ عجز ! » فتركَه على حاله ، ورأى أن السعى عليه بالمداخلة أولى . والنساية ، في ذلك كله ، يحدُّ ويَحْتَدُّ ، خوفًا على نفسه ، ويبذل الأموال للمعاربة ، ويرسل منهم إلى قَصَبَةِ جَيَّان مُتَخَيِّسِينَ مَنْ يُدَاخِلُهُمْ .

وكان مُسَكِّنٌ قد أَخْلَلَ عَمَّنَا مَا كُنْ ، واستبدَّ بالرأى ، وجمع الأموال  
دونه ؛ وصار له ما كُنْ بمنزلة\* البازي الذي يُصَيِّدُ به ، وما كُنْ لا يقدر ٢٥ (ب)  
على أكثر من الصبر ، إذ لا فِئَة غيرهم ، وقع بتلك الحال لاستنقاذه له  
من الموت ، ورأى إقرارَ روحه في جسده غنيمةً ، فَضَلَّ عن طلب ما سوى  
ذلك . فلم يَزَلْ أبداً يُدخل عليه بالأموال ، حتَّى استمال جميع مَغَارِبَة ٥  
القَصَبَة . وكان ، مُدَّة كونه بجيَّان ، يُخاطبه أقوامٌ من صِنهاجة في حُبَّته ،  
ويقولون بذلك في المحافل والمجالس سرّاً وجهرًا ، ويروُن ولايته خيرًا من  
تولية العبيد عليهم واليهود ومن أشبههم ؛ قد سئموا من ذلك ، وأشربوا  
المُظَفَّر من الشنآن والبغضاء ما لو استطاعوا ، لَخَلَعُوهُ . لكنَّ السعادة والمُدَّة  
لم يقطع عليها قاطِعٌ ! والرئيس من هذا كله تحت أمرٍ عظيم ، والناية ١٠  
متوقَّعٌ للقتل مساءً وصباحًا ، تكثرُ عليه الأراجيف مع الساعات ، إلى أن  
نجمت تلك المُدَاخَلَة : فقام المَغَارِبَة بالقَصَبَة على ما كُنْ ، وخرج منها  
فارًّا بنفسه ، هو وجميع من معه ؛ وهرب مُسَكِّنٌ ، لا يلوى على شيء ،  
يطلبون النجاة بحشاشة أنفسهم ؛ ووقع فيهم البهتُ ، إذ لم يدروا من حيث  
أتوا لما سمعوا النداء بالليل : « لا طاعةَ إلَّا للمُظَفَّر ! » وعجَّل الحاجبُ ١٥  
بنقاف جيَّان ، واستراح من تلك الفِئَة .

ولقد حُكِيَ عن المُظَفَّر — رحمه الله — أنه لما تهَيَّأت له هذه  
السعادة ، رأى الناية مهمومًا . فسأله<sup>(١)</sup> في ذلك ؛ فقال : « اهتممتُ  
خللاص هذه الشرذمة بأرواحهم . ولسنا نأمن شرَّهم في البلاد ! » ومن  
ثَوَرٍ حَتَّى لَا يُلبَسَ هَرَاكيس ! » واسمُ وَلَدِكَ كبيرُ ! » فأجابه المُظَفَّر أن ٢٠

(١) أصل : « فقال له في ذلك » .

قال : « الذى حلَّ بهم أشدُّ من القتل ، لخلائهم <sup>(١)</sup> عن أوطانهم وكشفهم فى انتقالهم بأهاليهم إلى من يتولَّى خِدْمَتَهُمْ وَيُرْزِكُهُمْ وَيُنْزِلُهُمْ . والموتُ دونَ هذا راحةٌ ! »

فقصد ما كَسَنَ إلى طَلَيْطَلَةَ ، وصار بها عند ابن ذى النُّون \* مُكْرَمًا ، ٢٦ (١)  
 ٥ على حال الجُنْدِيَّة . وتقلَّب مُسْكَنٌ فى البلاد ، يخدم الجُنْدِيَّة . وصاروا أبايدَ .

### ٣١ - استيلاء الناية على بَيَّاسة

وزاد جاهُ الناية بفرناطة ، وأخْمَلَ صِنْهاجَةَ ، وأظهر لهم البغض لنفاقهم كان بَزْعَمَهُ على اليهودى وعلى الحاجب فى ابنه ؛ واستخصَّ بنى بَرْزَالٍ وأخْسَنَ إليهم ، وقَرَّبَهُمْ من نفسه ، وهُمُ كانوا أولياءه <sup>(٢)</sup> وأنصاره ، وبثَّ فيهم العطايا . وأخذ السلطانُ إلى الراحة . ١٠

ثمَّ إنَّه ، لما فُوِّضَ له الأمر ، رأى أن يجعل لنفسه ذِكْرًا وثناءً يوثر عنه ، فى غزو البلاد ومُداخلة بعضها . فانتدب إلى مدينة بَيَّاسة ، وقال للمُظَفَّر : « إِنَّ مُداخلةَ بعض أهلها عندى ! » وكانت إذ ذاك لوْلَدَ مُجَاهِد . فقال له الحاجب : « لا تعرَّضْ إليها ، ونَحْنُ فى دَعَا ! وكأَنَّيَ والله أرى تُنفق عليها الأموال ، وتُهْلِك الرجال ، ولا تُحْصِلُ على فائدٍ ! » ١٥  
 فَأَلَحَّ عليه وزَيْنُ له الأمر ، حتى أجابه إلى ما سأل ، وأمره بالمسير ، وهَيَّأَ معه الجيش ، وأعطاه الأموال . فَرَامَ من بَيَّاسة أمرًا عظيمًا : كلُّ ذلك يتعذَّر من أمرها ما لا يُرْجَى به أخذُها ، حتى سَمَّ السلطان النفقة ومنع منه المال .

(٢) أصل : « أوليائه » .

(١) أصل : « لخلاهم » .

- وكان في المجلس ممن يطالبه بذلك رجلٌ كاتبٌ للمظفر يُعرف بابن أضْحَى ، ويقول للحاجب : « لم تَقمْ بِنَاسَة وعشرة أمثالها ببعض هذه النفقات التي كُنْتَ عنها في غِنَى ! » وكلُّ ذلك يَتَّصِلُ بالناية ؛ فيُخْرِجُ المغايرَ ، ويفنم الأغنامَ ، ويوجِّهُ بها إلى مولاه ليَجْبِرَ منها بعض نفقاته ؛ فكان ابن أضْحَى يبيعها بيخسٍ من الثمن ، ويحضّر المال بين يديه ، ويقول له : « أين هذا ممّا أنفقتَ ؟ » فيخرج أخلاق المظفر عليه ؛ فيصبر عليها الناية ؛ واستسلف طعاماً كثيراً من شيوخ جَيَّان . وكان بانياً على أنّه ، إن لم يقدر فيها على شيء ، أن يكون ذلك طريقه فارّاً ، لا ينصرف إلى غرناطة ، إلى أن استفتحها بكثرة المؤاظبة والملازمة ، وكانت عليه الصلوة على مُطالبيهِ بذلك . ودخل\* المدينة في عِزَّةٍ ورفعةٍ وإكرامٍ من السلطان جسيم ، مهَّدداً ٢٦ (ب) لَمَنْ طالَبَهُ ، ومُسْتَطِلاً بذلك مُعَلِّناً .
- وقدم إلى المظفر يقول له : « لا أدخلُ البَلَدَ حتّى تأمرُ بِنَفْيِ ابن أضْحَى أو أنصَرِفَ من مكاني هذا ! » فرأى الحاجبُ أنّ نَفْيَ ابن أضْحَى أوّلَى من فساد عسكره . فأمر بِنَفْيِهِ ، بعد تَغْرِيمِهِ وإِهَانَتِهِ . وخرج من ذلك الوقت ساعياً على الدولة ومُطالباً لها إلى زمان ولايتنا ، حتّى أظفرنا الله به ، على ما يأتِي ذِكْرُهُ بعد هذا .

### ٣٢ — مؤامرة ضدّ الناية ومقتله

- وإنّ وزراء الدولة وكثيرة عبيدها ، لمّا بصروا بما فعل الناية ، والزيادة في أمره وجاهه ، وأنّه هو الحاكمُ دون السلطان ، حتّى قالوا إنّهُ طامِعٌ بالرياسة والقيام مع بنى برزّال ، وشنع ذلك عليه ، أدركتهم منه أنفةٌ ٢٠

عظيمة وحسدٌ شنيعٌ . فاتفق رأيهم أجمع ، أعني ولاية البلاد : منهم وَلَدُ الْقَاضِي ، صَاحِبُ بَاغِهِ وابنُ يَعِيش ، صَاحِبُ قَبْرَةٍ ، وَوَاصِلُ ، صَاحِبُ وادي آش ، والقاضي ابنُ الْحَسَنِ النَّبَاهِي بِمَالَقِهِ ، أَنَّهُ متى قَدِمَ إحدى هذه الجهات ، قُتِلَ فيها ، وَأُرْسِلَ في ما كُنْصَن — وَقُدِّمَ — أَرَادَ وَالِدُهُ أُمِّ لَمْ يُرِدْ .

ثمَّ إِنَّ النِّفْرَ المذكورَ عملوا رأيهم ، وفكروا في العاقبة ، ورأوا أن يقتله واصلُ الْعِلْجِ بَوَادِي آش ؛ [فيكون ذلك] أَسْرَعَ لِقَتْلِهِ وأبعد للظنِّ بهم : فَإِنْ عَاقَبَ ، عَاقَبَ غُلَامَهُ وَتَبَرَّأُوا مِنْ ذَلِكَ . فوَعِدَ واصلُ المذكورَ على ذلك بِالْوِزَارَةِ مَكَانَهُ ، وَضَمَّنُوا لَهُ تَوْطِيدَهُمْ لِلأَمْرِ عِنْدَ السُّلْطَانِ ، حَتَّى تَهَيَّأَ ذَلِكَ فِي دِمَاقِ الْعِلْجِ ، وَاسْتَعَدَّ لِقَتْلِهِ ، إِلَى أَنْ حَدَثَ بَوَادِي آش أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ بُدْئًا لِلسُّلْطَانِ أَنْ يَرْسَلَ وَزِيرَهُ فِيهِ ، مِنْ تَحْصِيلِ أَمْوَالٍ وَالْكَشْفِ عَلَى أَحْوَالِ . فَهَضَّ فِي أُنْحَسٍ وَقْتٍ وَأَشْرَقَ قَدَرٌ . وَكَانَ واصلُ هذا المذكورَ مِنْ أَكْبَرِ صَنَائِعِ النِّيَاةِ ، وَمِنْ أَطْبَاءِ يَاحْسَانِهِ ، وَشَرَفَهُ عِنْدَ السُّلْطَانِ ، وَرَفَعَهُ مِنَ الْحُضِيِّضِ . فَفَشَا الأَمْرُ عِنْدَ النَّاسِ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ واصلًا عَازِمٌ عَلَى قَتْلِ النِّيَاةِ .

وَحَكَى لِي إِنْسَانٌ مِنَ الْبَرْبَرِ ، قَالَ : « نَصَحْتُهُ بِذَلِكَ وَحَذَّرْتُهُ أَنْ لَا يَنْهَضَ إِلَيْهِ ، وَأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَنْزِلُ فِي دَارِهِ ؛ فَكَانَ مِنْ جَوَابِهِ : « تَرِيدُونَ أَنْ تَنْزِعُوا الرَّيْبَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَتَرُدُّوْهَا عَلَى أَصْدَقِ النَّاسِ إِلَى » أ » فَلَمَّا تَوَجَّهَ إِلَى وَادِي آش ، وَنَزَلَ فِي مَنْزِلٍ وَاصِلُ ، أَظْهَرَ لَهُ إِكْرَامًا وَتَبَجُّلًا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ قَبْلُ ، حَتَّى اطمأنَّ ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ أَعْوَانُهُ . وَلَمَّا دَخَلَ اللَّيْلَ فِي جَنَّتِهِ ، أَتَاهُ وَاصِلُ بِرِمْحِهِ ، وَهُوَ سَكْرَانٌ ؛ فَضْرَبَهُ ضَرْبَةً أَنْفَدَهُ بِهَا ، حَتَّى أَثَرَتْ الضَّرْبَةُ فِي الْحَائِطِ ؛ وَقَطَعَ رَأْسَهُ وَطَوَّفَهُ صَبِيحَةُ اللَّيْلِ [بِأَرْقَةٍ مَدِيَةِ وَادِي آش

وَمُنَادٍ يَنَادِي [ : « هَذَا جَزَاؤُهُ مِنْ طَلَبِ مَا لَا يَعْنِيهِ ! »

- فَوَرَدَ الْخَبْرُ فَجَاءَ بَغْرِنَاطَةَ ، وَبُهِتَ لَهُ النَّاسُ ؛ وَلَمْ يَدْرِ أَحَدٌ مِنْ حَيْثُ أَتَى ، فَهُمْ مِنْ يَقُولُ : « السُّلْطَانُ دَسَّ إِلَيْهِ ، إِذَا لَا يُمْكِنُ لِذَلِكَ الْعِلْجُ أَنْ يَتَعَدَّى ! » وَبَلَغَ ذَلِكَ مِنَ السُّلْطَانِ مَبْلَغًا عَظِيمًا ، وَعَلِمَ أَنَّ هَذَا مِنْ اتِّفَاقٍ عَلَيْهِ ؛ وَدَخَلَ مِنْهُ فِي بَحْرِ طَامَسٍ ، حَتَّى أَسْهَرَ لَيْلَهُ وَامْتَنَعَ مِنْ لَذَّتِهِ . وَأَظْهَرَ لِلنَّاسِ تَجَلُّدًا ، وَهَدَّدَهُ الْجُنْدَ ، وَأَرْسَلَ إِلَى وَاصِلٍ بِالْأَمَانِ ، يَأْمُرُهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ، وَيَشْكُرُهُ فِيمَا فَعَلَ ، سِيَاسَةً مِنْهُ وَتَوَطِيدًا إِلَى أَنْ يَسْتَبْرَأَ كَيْفِيَّةَ الْحَالِ ، وَيَنْظُرَ لَهَا عَلَى مَهْلٍ . فَزَادَ بِذَلِكَ الْعِلْجُ حَمَاقَةً ، وَقَالَ مُعَلِّنًا : « لَمْ أَدْخُلْ يَدِي فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ وَحْدِي ، حَتَّى يَسَاعِدَنِي عَلَيْهَا مِنْ لَا يُنَالُ بِهِمْ عَنْ أَحَدٍ ! »
- وَأَتَى مُشْتَرَطًا لِلْوِزَارَةِ . وَكَلَّمَ وَلَدُ الْقَاضِي الْمَظْفَرِ فِي أَمْرِهِ وَقَالَ لَهُ : « إِنَّ هَذَا الْعَبْدَ ، وَإِنْ جَنَى عَلَيْكَ فِي قَتْلِ وَزِيرِكَ ، فَإِنَّمَا فَعَلَ حُبًّا مِنْهُ فَيْكَ وَرَغْبَةً فِي قُرْبِكَ ؛ وَهُوَ أَحَقُّ مِنْ ذَلِكَ إِذْ هُوَ تَرْبِيَّتُكَ ! » وَجَعَلَ [ أَهْلُ ] الدَّوْلَةِ يَعْتَنُونَ بِهِ وَيَسْأَلُونَ الْعُفُوَ لَهُ . فَأَحْسَنَ السُّلْطَانُ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ، وَأَيَقَنَ أَنَّ هَذِهِ النَّصْبَةَ لَمْ تَكُنْ إِلَّا عَنْ اتِّفَاقٍ عَلَيْهِ ، وَحَسَبَ نَفْسَهُ مَخْلُوعًا لَا مَحَالَةَ . فَإِنَّهُ ، سَاعَةً
- مَا قُتِلَ النَّايَةُ ، أُرْسِلَ عَنْ مَا كُنَّ إِلَى طُلَيْطَلَةَ ، وَوُجِّهَ \* إِلَيْهِ بِخَاتَمِ النَّايَةِ ٢٧ (ب)
- كَتَبَ يَتَحَقَّقُ قَتْلَهُ ، وَقِيلَ لَهُ : « لَيْسَ بَغْرِنَاطَةَ عَلَيْكَ مُخْتَلَفٌ وَلَا مِنْ يَصُدُّكَ ! » إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَتَجَاسَرَ حَتَّى يَرَى إِلَى مَا تَوَوَّلَ الْأَحْوَالُ . فَكَظَمَ الْحَاجِبُ هَذَا فِي نَفْسِهِ ، وَاحْتَرَقَ لَهُ قَلْبُهُ ؛ وَدَارَى جَمِيعَهُمْ ، وَصَوَّبَ فَعَلَ وَاصِلٍ ، وَقَالَ : « هَذِهِ نَارٌ مَوْقُودَةٌ لَيْسَ يَنْقُذُنِي مِنْهَا إِلَّا إِطْفَاؤُهَا وَالنَّظَرُ لَهَا عَلَى سَعَةٍ ! »
- وَأَمَرَ بِتَقْدِيمِ وَاصِلٍ عَلَى الْحَايِلِ . ٢٠

٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ما كَسَنَ ورجوعه إلى الحضرة

وَاتَّفَقَ رَأْيُ الْجَمِيعِ ، مع بعض أهل قصره من النساء ، أن يُدْخَلَ عليه ابنُهُ ، وَيُخْلَعَ مِنْ أَجْلِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ . فلما رأى الْمُظْفَرَ اتِّفَاقَهُمْ عَلَيْهِ ، وَأَحْسَنَ بِهِذِهِ الْمَصَائِبِ ، ولم يَرِ لِنَفْسِهِ مع من يَسْتَرِجِ ، أرسل في أَبِي الرَّبِيعِ النَّصْرَانِيَّ ، وكان فيما مضى كَاتِبَ حَسَمٍ ، قد عرف خدمة اليهوديِّ وَتَصَرَّفَ معه ؛ فَأَرْسَلَ عَنْهُ سِرًّا ؛ وَأَتَتْ كُتُبُهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَرَاغَ عَنْهَا بِخَطِّ يَدِهِ . فكان ذلك زيادةً في الشَّرِّ وَخِبَالِ الدَّوْلَةِ . فَلَمَّا أَحْسَنَ بِهَذَا وَلَدُ الْقَاضِي صَاحِبُ بَاغُهُ ، شَافَهُ الْمُظْفَرَ فِي الْأَمْرِ وَقَالَ لَهُ : « إِنْ كُنْتَ تَعَزِّمُ عَلَى أَبِي الرَّبِيعِ ، فَنَحْنُ لَا نَبْقَى مَعَكَ ، وَلَا يَأْتِي أَحَدٌ حَوَالَيْكَ ! » فَأَجَابَهُ : « أَلَا أَبْقَى اللَّهُ مِنْكُمْ أَحَدًا ! » وَضَبَّ الْحَزْمَ فِي هَذَا ، لَا سِيَّأَ أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ بِيَدِهِ مَدِينَةٌ لَا يَمْلِكُ مِنْهَا مَعَهُ شَيْئًا ؛ فَعَمِلَتْ فِي نَفْسِ صَاحِبِ بَاغِهِ وَأَهْلِ الدَّوْلَةِ ، وَتَغَيَّرَتِ الْأَنْفُسُ ، وَكَثُرَ الْإِرْجَافُ . وَاتَّفَقَ مع صَاحِبِ قَبْرَةِ ، وكان صَدِيقَهُ قَدِيمًا ، إِلَى أَنَّ وَرَدَ أَبُو الرَّبِيعِ .

فَاسْتَرَا حَ إِلَيْهِ الْمُظْفَرَ عَلَى الْمَقَامِ ، وَأَعْلَمَهُ بِمَا حَلَّ بِهِ . وَأَتَاهُ الْمَذْكُورُ مِنْ دَانِيَّةٍ ، إِذْ كَانَ بِهَا مِنْ وَقْتِ قَتْلِ الْيَهُودِيِّ . فَقَالَ لَهُ أَبُو الرَّبِيعِ : « قَدْ أُيْقِنْتُ أَنَّهُمْ أَرْسَلُوا عَنْ ابْنِكَ ، وَلَا مُخْتَلَفَ عَلَيْهِ . وَلَا قُدْرَةَ بَكَ عَلَى مُكَابَرَةِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ! فَالْأَيُّ فِي ذَلِكَ وَالْحِيلَةُ أَنْ تَتَلَفَى الْأَمْرَ ، وَتَوَجَّهَ فِي ابْنِكَ ، وَتَكْتُبَ إِلَيْهِ بِخَطِّ يَدِكَ بِالْعَفْوِ عَنْهُ وَإِثَارِكَ لَهُ عَلَى كُلِّ وَالٍ لَمْ يَصْلُحْ لَكَ ، وَأَنَّكَ

مَقْدَمُهُ \* لَوْلَايَتِكَ وَمَوَرِثُهُ مُلْكُكَ . فَإِنَّكَ ، إِنْ فَعَلْتَ ، هَدَنْتَ قُلُوبَ هَذَا الْعَالَمِ ٢٨ (١) وَتَقَمَّنْتَ مَسَرَّتَهُمْ (١) . فَإِذَا وَصَلَ وَلَدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، كُنْتَ فِي أَمْرِهِ بِالْخِيَارِ ،

وَتَخَذْتُ قَصَّتَهُ عَلَى سَعَةِ : فَمُكَابِدَتُهُ ، وَهُوَ مَعَكَ ، خَيْرٌ مِنْ مُكَابِدَةِ شَرِّهِ مَعَ  
بُعْدِهِ ! وَلَسْتَ تَأْمَنُ مَكْرَهُ حَيْثُ مَا تَوَجَّهَ ! »

فَرَضَى الْمُظْفَرُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَأَرْسَلَ عَلَى الْمَقَامِ عَنْهُ فَقِيهًا كَبِيرًا مِنْ  
فُقَهَائِهِ يُؤَمِّنُهُ وَيُوطِّدُهُ ، وَيُبَشِّرُهُ بِمَذْهَبِ أَبِيهِ وَاسْتِخْلَافِهِ لَهُ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي  
الدَّوْلَةِ مِنْ بَنِيهِ مَنْ يُرْجَى لِهَذَا الْأَمْرِ سِوَاهُ ، وَكَتَبَ إِلَى ابْنِ ذِي النُّونِ يَرْغَبُ  
فِي تَسْرِيحِهِ إِلَيْهِ . فَسَرَّ بِذَلِكَ جَمِيعَ النَّاسِ ، وَانْصَرَفَتْ نَفُوسُهُمْ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ ،  
وَطَفَّفَ الْعَالَمَ فِي مَحَبَّةٍ مَا كُنْ سَنَ ، وَرَجَّوْا الْخَيْرَ مَعَهُ ، إِلَى أَنْ وَرَدَ فِي أَنْحَسِ  
طَالِعٍ وَأَنْكَدٍ جَدٍّ .

فَأَنَسَهُ أَبُوهُ ، وَبَذَلَ لَهُ الْأَمْوَالَ ، وَجَعَلَ يُوَصِّيهِ بِوَصَايَا لَمْ تَنْفَعِهِ ، أَرَادَ  
بِذَلِكَ ضُرَّهُ وَانْصَرَفَ نَفُوسَ النَّاسِ عَنْهُ . فَأَوَّلُ مَا أَمَرَهُ بِهِ بِالشَّدَّةِ وَالْفِطَاعَةِ ،  
وَبَغْضِ إِلَيْهِ صِنْهَاجَةٍ ، وَقَالَ لَهُ : « أَنْتَ تَعْلَمُ مَا شَقِيتُ أَنَا بِهِمْ بَعْدَ حَبُوسٍ !  
فَصُلِّ عَلَيْهِمْ لِيَهَابُوكَ ، وَلَيْسَ فِي الدَّوْلَةِ غَيْرُكَ إِلَّا بَنِي أَخِيكَ : فَهُمْ أَطْفَالُ صَغَارٍ ! »  
وَكَانَ مَا كُنْ سَنَ مِنَ السَّفَةِ وَعَجْزِ الرَّأْيِ وَقَلَّةِ الْفِطْنَةِ بِحَيْثُ لَمْ يَخَفْ عَلَى أَحَدٍ .  
فَزَادَ عَلَى ذَلِكَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً . وَوَافَقَ سُوءَ طَبْعِهِ مَقَالَةُ أَبِيهِ ؛ فَتَحَكَّمَ الشَّرُّ  
فِيهِ ، وَلَمْ يَقْدَمْ شَيْئًا عَلَى شَتْمِ النَّاسِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ ؛ وَمِنْ الْعَجَبِ أَنَّهُ  
كَانَ أَبْغَضَ الْعَالَمِ فِيمَنْ أَحَبَّهُ وَسَعَى فِيهِ ؛ فَجَعَلَ يَبْلُغُ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ وَتَكْلِيفِهِمْ  
مَا لَا يَطِيقُونَ وَمَا انْصَرَفَتْ نَفُوسُ الْعَالَمِ فِيهِ إِلَى الْبَغْضَةِ ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ قَلَّةِ  
عَقْلِهِ ؛ وَأَجْمَعَ \* الْكُلُّ عَلَى الْأَخَيْرِ فِيهِ يُرْتَجَى .

٢٨ (ب)

وَكَانَتْ بِنْتُ عَمِّهِ أُمُّ الْعُلُوِّ طَامِعَةً بِزَوَاجِهِ ؛ وَكَانَتْ مُطَاعَةً فِي قَوْمِهَا :  
قَدْ اسْتَمَاتَ أَكْثَرُ نِسَاءِ الْجُنْدِ ؛ فَأَوَّلُ مَا ابْتَدَأَ بِتَهْجِينِهَا وَشَتْمِهَا ، وَأَنَّهَا فِيمَا يَزْعَمُ  
لَا تَصْلُحُ لَهُ . فَزَادَ ذَلِكَ فِي نَحْسِهِ وَالسُّعْيِ بِكُلِّ وَجْهِ عَلَيْهِ . وَكَانَتْ كَرِيمَةً

٢٠



المُظَفَّرُ الساعية في خبره يعد سعيها في قتل أمه ، قد أغارت من أن يكون ما كَسَنَ يزوج بنت عمه ، حِذْراً منها أن تجعل منها حاشيةً وتمنع حرمتها .  
 واتَّقَى من ذلك واصلُ وامرأته ؛ فقالا<sup>(١)</sup> لها : « أئى فائدة لك في زواج أم العُلُو؟ لكنَّ الأولى بِكَ أن تعطيه صَبِيَّةً من تربيتك ، تكونين<sup>(٢)</sup> من أجلها حاكمةً على داره ! » ففعلت ذلك وأخرجتها إليه بأموال ، وصورت عند السلطان أنها تُوفِّيَت ، لئلا يطلبها في قصره ، باسم أخرى ماتت عندها .  
 وشقَّ على بنت عمه ذلك كله ، ورجعت تسعى عليه مع نساء البربر ، وتدخل بين امرأة واصل المذكور ، وبين كريمة الحاجب ، وتقول لها : « إذا أردتِ الانفراد بما كَسَنَ ، فما حمل امرأة العُلج على السكنى معه ؟ » فمُنعت الدخول إلى داره ؛ فأنفت لذلك . وكان مع ذلك زوجها واصلٌ يؤثر عليها صَبِيَّةً كانت لها ، ويؤذيها من أجلها . فاجتمع على المرأة الغيرةُ والأنفَةُ لما طُرِدَت عن دار ما كَسَنَ ؛ فلم تلبث أن مضت إلى أبي الربيع النصراني : وقالت له : « أنا أمةُ المُظَفَّر : فلينظر من نفسه ! فإنَّ الاتفاق عليه على وجه كذا وكذا ! » وبيّنت جميع ما راموا من غدره . فأبى أبو الربيع إلى الحاجب مسروراً ، وقال له : « أنظرُ كيف تبتدى سعادتك في تشتيت هؤلاء القوم ! أخبرتنى امرأةٌ واصلٍ بكذا وكذا ! ألم أقل لك<sup>(٣)</sup> ..... ؟ »

(١) أصل « فقالوا » . (٢) أصل : « تكون » .

(٣) إلى هنا انتهى ما هو موجود في نسخة « مذكرات عبد الله » الوحيدة من تاريخ دولة باديس

ابن حبوس جد المؤلف .

## الفصل الخامس

إمارة عبد الله بن بُلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب

(١) مشاكل الأندلس الخارجية وحال الجزيرة

عند ابتداء إمارة عبد الله .

٣٤ - رفض مطالب ألفونس السادس واشترائه

مع ابن عمّار

[..... وأما] \* ألفونس ، لما تيقن هذه الفتن ، عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ ٢٩ (١)

من أكبر سعادته وأعظم فرجه في طلب الأموال . فَأَرْسَلَ إلينا رسوله :

أَوَّلَ مُدَاخَلَةٍ نَشَأَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؛ فَأَتَى بَاطِرُ شُولِشِ يَطْلُبُ مِنَّا ضَرِيْبَتَهُ .

فَأَبَيْنَا عَلَيْهِ ، وَاجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى أَنْ لَا نَفْعَلَ ، وَأَنَّ ضَرَرَ الْأَفُونُسُ لَا يُخْشَى

وغيرنا أَمَانَتنا ، نَعْنَى بِذَلِكَ ابْنُ ذِي الثَّوْنِ . وَلَمْ نَقِسْ أَنَّ أَحَدًا يُعَاقِدُهُ

عَلَى مُسْلِمٍ . فَانْصَرَفَ عَنَّا دُونَ عَمَلٍ .

وَإِنَّ ابْنَ عَمَّارٍ انْتَهَزَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ ؛ وَكَانَ مُنْتَظِرًا لَهُ بِيَاغُهُ ، مُرْتَقِبًا

لِمَا يَصْنَعُ مَعَنَا . فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَتِمَّ لَهُ عَمَلٌ ، أَلْقَى يَدَهُ فِيهِ عَلَى الْمَقَامِ ١٠

وَقَالَ لَهُ : « إِنْ كُنْتُمْ <sup>(١)</sup> مُنْعِمْتُمْ عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ (وهي التي سأل عن

ضَرِيْبَتِهِ) ، فَتَحْنُ نَعْطِيَكُمْ خَمْسِينَ أَلْفًا ، عَلَى أَنْ تُعَاقِدَكُمْ عَلَى غَرْنَاطَةِ :

(١) أصل : « إِنْ كَانَ مَنَعْتُمْ » .

تُعْطُونَا الْقَاعِدَةَ ، وَلَكُمْ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ ! » فَعَاقَدُوهُ عَلَى ذَلِكَ . وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَبْنُوا عَلَى غَرْنَاطَةِ مَعْقِلٍ يَضِيقُ عَلَيْهَا حَتَّى تَلْقَى يَدَهَا . وَكَانَ ابْنُ أَصْحَى ، الْمَذْكُورُ قَبْلَ هَذَا — هُوَ الْمُخْرَجُ عَلَى يَدَى النَّايَةِ — قَدْ انْحَاشَ إِلَيْهِمْ ، يَدُلُّ بِهِمْ عَلَى عَوْرَاتِ الْبَلَدَةِ ، وَيُرِيهِمْ أَشَدَّ مَا يَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَوَاضِعِ إِنْ بُنِيَ ، وَيَجْعَلُ فِيهِ نَدْبًا لِلضَرْبِ وَالتَّضْيِيقِ . فَأَرَاهُمْ حِصْنَ بَلِيلِش .

وَأَكْرَى ابْنُ عَمَّارٍ مِنْ عَسْكَرِ الْفُونْشِ مَا قَوَى بِهِ عَلَى الْبُنْيَانِ بِأَعْدَادٍ مِنَ الْأَمْوَالِ جَسِيمَةٍ ، يَسُوِّفُهُمْ فِيهَا تَارَاتٍ ، وَيَعِدُّهُمْ وَيُخَادِعُهُمْ ، حَتَّى تَمَّ الْبُنْيَانُ . وَجَعَلَ الْمُعْتَمِدُ يُحَاوِلُ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ ، وَيَبْرِزُ أَبَدًا عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ غَرْنَاطَةِ مَدَّةٍ كَوْنِهِ ، طَمَعًا فِي أَنْ يَقُومَ مَعَهُ أَهْلُ الْبَلَدَةِ . فَلَمَّا تَمَّ بُنْيَانُهُ ، قَوَّاهُ بِالنَّدْبِ ، وَاتَّخَذَ فِيهِ جَمِيعَ الْأَقْوَاتِ ، وَأَمَرَهُمُ بِالتَّضْيِيقِ . وَكَانَتِ الْحَالُ شَدِيدَةً ، وَنَسِيَ بِهِ أَمْرَ الْقَلْعَةِ .

وَعِنْدَ انْصِرَافِ الْمُعْتَمِدِ عَنْهُ وَعَسَاكِرِ الرُّومِ ، عَبَّئْنَا عَسْكَرًا كَثِيرًا ، وَنَهَضْنَا إِلَيْهِ ؛ فَلَمْ نَقْدِرْ فِيهِ عَلَى شَيْءٍ . وَانْقَطَعَ رَجَاءُ النَّاسِ مِنْ دَوْلَتِنَا ، لِاجْتِمَاعِ الْمُطَالِبِينَ عَلَيْهَا مَعَ الرُّومِيِّ . وَنَدِمْنَا عَلَى التَّفْرِيطِ أَوَّلًا فِي مُعَاقَدَتِهِ حَسَبَ

مَا سَأَلَ . وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ شَيْءٍ \* عَلَى السَّلَاطِينِ اخْذُ مَعْقِلٍ بِالسَّيْفِ ؛ ٢٩ (ب) فَإِنَّهُ ، مَتَى اعْتَرَضَ ، لَمْ يَسْتَطِعْ عَلَى دُخُولِهِ لِمَنْعَتِهِ وَمَا عُدَّ فِيهِ ، وَلَا عَلَى إِحْصَارِهِ ، حَتَّى يَنْفَدَ مَا فِيهِ لِقُوَّةِ تَأْتِيهِ ، فَيُقْلِعَ عَنْهُ إِلَّا مَنْ كَانَ أَقْوَى . وَلَمْ نَكُنْ نَحْنُ إِلَّا مُتَكَافِئِينَ فِي ذَلِكَ : مَتَى مَا أُعْطِيَ أَحَدُنَا لِعَسْكَرٍ مَالًا ، وَأَرَادَ الْآخَرُ نَقْضَهُ ، أَرْبَى عَلَيْهِ وَأَرَاحَهُ مِنْهُ . ٢٠

فَكَانَتْ بَلِيلِشُ قَدْ أَفْسَدَتْ ، وَضَيِّقَتْ عَلَى فَحْصِ غَرْنَاطَةِ ؛ وَلَمْ يَكُنْ

ماحلّ من أجلها حتى جعلنا الفؤوس أن نُغرمَ ما فاتهُ مِنّا ، تباعةً وتذنيباً لرفضنا إِيَّاهُ ، واستدفاعاً لِمَا يُتَقَى من تَمَادِيهِ على الطَلَب . وابنُ ذى النون فى هذا يتوسَّط له بالأمر ، ويسعى فى تصيير المال إليه ، يرضيه بذلك وينتظرُ فسادَ مَمْلَكَتِنَا ، فيفتَرِصُها هو أو يأخذُ منها حصَّته .  
 ٥ فكان — على ما قدَّمنا ذِكْرَه — عدوًّا فى الباطن ، صديقاً فى الظاهر . وهو مع ذلك لا يزال يُدْخِلُ قُرْطُبَةَ ، ويسعى جهده فيها ، إلى أن قدَّر اللهُ ، وافتَرَصها غُدْرًا بِمُدَاخَلَةٍ من بعض أهلها مَن لا خَطرَ له . واستشهِدَ فيها ابنُه عَبَّاد [ بن المُعْتَمِد ] وقائدهُ ابنُ مَرْتِين .

فلَمَّا انقضت بقرطبة هذه الدائرة ، وسمع بالخبر أهلُ بِلَيْش ، أخلَوْها على المقام ؛ ودخلها رجالُنا ، وصارت فى مِلْكنا مُشِيدَةً مَبْنِيَّةً . فنظرنا منها بالذى نضع بقصبة غرناطة . وتروَّحَ مُحَقِّقُها من حيث لم يُحْتَسَبُ .

### ٣٥ — المهادنة بين عبد الله وابن صُمَادِح صاحب المَرِيَّة

وكان قائدَ مدينة بَسْطَةَ ابنُ مَلْحَانَ ، رَجُلٌ معجبٌ ، قد شَرِهَتْ نفسه إلى رُتَبِ الملوك . وكان المُظَفَّر — رحمه الله — قد فوَّضَ إليه أمرَ البلدة عَوْضاً من أبيه . فلَمَّا صارت لنا الدولة ، وكثر فيها آراءُ الوَزَرَاءِ ، جعل كلُّ واحدٍ منهم يطلبه بمال ، ويسأله مُتَاحَفَات : فمن لم يعطِهِ ، طالَبَهُ وأَذَاهُ ، مع صغر سنِّنا ؛ فلم يَجِدْ سبيلاً إلى الدفاع عن نفسه ، ولا شكوى لمن يذبُّ عنه ويحميه . فترامى على ابن صُمَادِح وقبلة ؛ وصارت البلدةُ إليه ؛ وعَلِمَ أَنَّهُ لا يُفَاتِن طولَ مدَّةِ الفِتْنَةِ مع ابن عَبَّاد .

٢٠ ثمَّ إِنَّهُ غَدَرَ\* حِصْنَ شَيْلَش ؛ ونحن ، فى ذلك كَلَه ، لا نفتر عن مُحَازَاتِهِ ٣٠ (١)

بالإضرار ببلده . وصار إلينا مع حصن شنت أفلج من معاقله ما وقعت  
المعاوضة به من شيلش . وصالحناه مهادنة وانجراراً للحال ، حتى نرى  
ما نصنع مع ابن عباد .

### ٣٦ — مهاجمة ألفونس السادس على غرناطة

واضطرار عبدالله إلى المهادنة معه .

٥

وبقى ابن عمّار مُرتَهَنًا بما جعل على نفسه للنصرانيّ من كراه بليش  
في تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يُقَطِّعُهَا له ، ويَعِدُّهُ بها . وأدخلَ سلطانه  
من ذلك في تشغيب ، لأنّه كان لا يُريد أن يجعله يَخْلُدُ إلى راحةٍ لِكَيْ  
يحتاج إليه في تلك الفتنّة لا يقرّ عن إدخال ضَرَرٍ على المسلمين . ومتى  
١٠ ما كان الْمُعْتَمِدُ يسعى في تهدين الأمر ، وزوم معه الصلح ، أو تنشأ  
مُهادنةٌ ، لا يَنَامُ في نَقْضِهَا وإشعالِ نار الفتنة .

فعاد ثانيةً إلى النصرانيّ ألفونس ، وزين له أمرَ غرناطة ، وصوّرنا  
عنده في صورةٍ مَنْ لا يقدر على شيءٍ من أجل الضعف وسنّ الصبا ،  
وأَنَّهُ ضامِنٌ له أموال غرناطة لتَصِيرُ إليه بأسرها ، على أن يُعاقِدَهُ ،  
١٥ إذ تمكّن من البلدة ، أن يجعلها مُلْكَهُ ، وله ما لَقِيَ من أموالنا . وألْقَى  
يَدَهُ في ألفونس ، عازماً عليه في الإقبال إليها ، وأعطى على ذلك أموالاً  
جسيمة ، ووعدّه بخمسين ألف منقال إذا تَمَّتِ القضيّة ، سيعطيها زائدةً على  
ما يَجِدُ ، لمُسَاعَدَتِهِ على السير .

فأدركَ الرُّومِيُّ من ذلك طمعٌ كبيرٌ ، وقال : « هذه نَصْبَةٌ لَسْتُ  
٢٠ أَخْلُو فيها من فائدةٍ ، وإن لم تُحْصَلِ البلدة ! وأى فائدةٍ لي في إعطاء

بلدة من واحدٍ لآخرَ إِلَّا تَقْوِيَّتُهُ عَلَى نَفْسِي ؟ وَكَلَّمَا أَكْثَرَ الثَّوَارُ ، وَوَقَعَ  
 بَيْنَهُمُ التَّنَافُسُ ، كَانَ لِي أَفْعَدَ ! » فَأَتَى عَلَى رِيَّةٍ أَخَذَ مَالِ الْفَرِيقَيْنِ ،  
 يَكْسِرُ رُؤُوسَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ . وَلَا كَانَ أَيْضًا فِي أَمَلِهِ أَنْ يَأْخُذَ الْبِلَادَ  
 لِنَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ عَمِلَ فِي ذَلِكَ حَسَابًا أَنْ قَالَ : « إِنَّا مِنْ غَيْرِ الْمِلَّةِ ؛ وَكُلُّ  
 ٥ النَّاسِ يَشْتَأِي ؛ فَبِأَيِّ وَجْهِ أَطْمَعُ فِي أَخْذِهَا ؟ إِنْ كَانَ مِنْ بَابِ الطَّاعَةِ ،  
 فَأَمْرٌ لَا يُمْكِنُ ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ وَجْهِ الْقِتَالِ ، فَيَهْلِكُ فِيهَا رَجَالِي \* وَتَذْهَبُ ٣٠ (ب)  
 أَمْوَالِي ، وَتَكُونُ الْخَسَارَةُ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا نَرْجُوهُ إِنْ صَارَتْ إِلَيَّ .  
 وَلَوْ صَارَتْ ، لَمْ تَتَمَسَّكَ إِلَّا بِأَهْلِهَا ؛ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُونَ ! وَلَا مِنَ الْمُمَكِّنِ  
 أَنْ نَسْتَبِيحَ أَهْلَهَا وَنُعَمِّرَهَا بِأَهْلِ مِثْلِي ! وَلَكِنَّ الرَّأْيَ ، كُلَّ الرَّأْيِ ،  
 ١٠ تَهْدِيدُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَأَخْذُ أَمْوَالِهِمْ أَبَدًا ، حَتَّى تَرُقَّ وَتَضَعُفَ ؛ ثُمَّ  
 هِيَ تَلْقَى بِيَدِهَا إِذَا ضَعُفَتْ ، وَتَأْتِي عَفْوًا ، كَالَّذِي جَرَى بَطْنِيظَلَّةَ إِنَّمَا  
 كَانَ مِنْ فَقَرِ أَهْلِهَا وَتَشْتَتِهِمْ ، مَعَ انْدِبَارِ سُلْطَانِهَا ، وَصَارَتْ إِلَى بِلَا  
 مَسْقَةِ ! »

وَكُنَّا نَحْنُ نَعْلَمُ هَذَا مِنْ مَذْهَبِهِ ، عَلَى مَا كَانَ يُخْبِرُ بِهِ وَزَرَائِهُ . وَلَقَدْ  
 ١٥ قَالَ ذَلِكَ شِشْلَانْدُ فِي حَالِ هَذِهِ السَّفَرَةِ ، وَشَافَهُنَا بِذَلِكَ ، وَقَالَ : « إِنَّمَا  
 كَانَتْ الْأَنْدَلُسُ لِلرُّومِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ، حَتَّى غَلِبَهُمُ الْعَرَبُ ، وَالْحَقُّوهُمْ  
 بِأَنْحَسِ الْبِقَاعِ : جَلِيْقِيَّةَ ؛ فَهُمْ الْآنَ عِنْدَ التَّمَكُّنِ ، طَامِعِينَ بِأَخْذِ ظِلَامَتِهِمْ !  
 فَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ إِلَّا بِضَعْفِ الْحَالِ وَالْمُطَاوَلَةِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مَالٌ  
 وَلَا رَجَالٌ ، أَخَذْنَاهَا بِلَا تَكَلُّفٍ ! »

٢٠ فَكَانَ الْجَمِيعُ يُسَايِرُ الْأُمُورَ ، وَيُدَافِعُ الْأَيَّامَ ، وَيَقُولُ : « مِنْ هُنَا  
 إِلَى أَنْ تَمَّ الْأَمْوَالُ وَتَهْلِكَ الرِّعَايَا بِزَعْمِهِمْ ، يَأْتِي اللَّهُ بِالْفَرَجِ وَيَنْصُرُ الْمُسْلِمِينَ ! »

فورد علينا من إقبال ألفونش مع ابن عمّار هَوْلٌ عظيمٌ ، وصحَّ  
عندنا أنّه لم يأتِ إلّا طالباً لمُلكنا : قد استوثق من ألفونش على ماقدّمنا  
ذِكْرَه . ثمَّ أرسل إلينا ينذرُ بإقباله ، ويأمرُنا بالخروج إليه ، يُرى أنّه  
يذهب إلى تجديد العهد والاجتماع بنا ، على ما يفعله مع السلاطين . فلم نشكَّ  
أنّ ذلك للتنبُّض علينا وإنجاز ما عقَدَ عليهم . فاجتمع علينا أهلُ الرأى  
والمشورة ، وقالوا : « ما الذى تذهب إليه ؟ هذا عدُوٌّ قد جاء لطلبك ،  
ولا قدرة بك على مناواته ! وسواء عليك خَرَجْتَ أم بَقَيْتَ ! فإنّ أنت  
بَقَيْتَ ، حَلَّتْ بك الداهيةُ العظمى ، ووقعت المفسّدة ، وأصاب مُطالبُك  
سبيلاً إلى العمل ؛ وتكون هذه أشدَّ من الأولى ، وقت رَفَضْنَا بَطْرَه سُولِس  
وألقى ابنُ عمّار يَدَه \* فيه حتى بنى علينا بَلِيلُش . والآن لم يتروَّح مُحْتَفِئاً ٣١ (١)

حتى نعود إلى ما هو أذهى وأمرُّ ؛ فلو رأت الرعايا بعض خلاف من هذا  
الجيش ، لم تُبق ولا تذرْ لشعفة ما قد دَهَوْا به قَبْل ، وكان الرجاء ينقطع ،  
ويتلف الكلُّ حتى تُؤخَذَ هُنا باليدِ على غَيْرِ صُلحٍ ، فلا يرقب فينا  
إلّا ولا ذِمّةً ! فالخروجُ إليه أيسرُ لأمرين : فإن كانت سلامة ، شكرتَ  
رأيك ، وثبت مُلكك ؛ وإن كانت الأخرى ، كان خروجُك عن  
أمانٍ ، وصِرتَ حَيِّزاً فى العافية ! فاعزَم على لقائِهِ (١) ، وقُلْ له قولاً  
ليّناً ؛ والله أن يُنفذَ قضاءه .

فاستعدّدنا لذلك جهّداً ، وأجمَعنا حوَالينا مَنْ نثقُ به من رجالنا ،  
وأخذنا أهبة الحال ، ولقيناها على مقربة من المدينة ، وبالغنا بالضرورة فى  
إكرامه ؛ فأعرض علينا وجهاً يسيّطاً وخلُقاً حسناً ، ووعدنا أنّه يُحاجى ٣٢

(١) أصل : « لقاء » .

عَنَّا كَمَا يُحَامِي عَنْ بَلَدِهِ .

ثُمَّ وَقَعَتِ الْمَعَامَلَةُ ، وَمَشَتْ الرُّسُلُ مِنَّا إِلَيْهِ وَمِنْهُ إِلَيْنَا ، يُبَيِّنُ مَا عُوقِدَ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ سَيَقِ سَوْقًا ، وَيَقُولُ : « إِنِّي قَدْ تَشَبَّتُ فِي الْأَمْرِ ، وَلَمْ نُعْجَلْ حَتَّى نَسْمَعَ مَا عِنْدَكُمْ . فَإِنْ جَاسَلْتُمُونِي وَرَأَيْتُمْ لِقَصْدِي وَجْهًا ، انصرفتُ عَنْكُمْ عَلَى خَيْرٍ ، وَإِلَّا ، فَهَا أَنَا مَعَ مَنْ عَاقَدَنِي ! » وَطَلَبَ خَمْسِينَ أَلْفَ مِثْقَالٍ . ٥

فَشَكَّرُونَا إِلَيْهِ قَوْلَةَ الْبَلَادِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ مِنَ الْقَطْعِ لَنَا مَا يَفْتَرِصُنَا بِهِ ابْنُ عَبَّادٍ ؛ فَإِنَّهُ ، لَوْ أَخَذَ غَرْنَاطَةَ ، قَوَى عُنُصْرُهُ ، « وَلَمْ يَنْطَعْ إِلَيْكَ . فَخُذْ مَا نَقْدِرُ إِلَيْهِ ، وَاتْرُكْ رَمَقًا لَا نَسْتَأْصِلُ مِنْ أَجْلِهِ ! وَمَا تَرَكْتَ ، تَجِدْهُ عِنْدَنَا مَتَى مَا طَلَبْتَ ! » قَبِلَ الْعُذْرَ بَعْدَ جُهِدٍ عَظِيمٍ ، وَقَاطَعْنَاهُ لِقَصْدِهِ بِخَمْسَةِ وَعَشْرِينَ أَلْفًا ، نِصْفِ الْعَدَدِ ؛ ثُمَّ أَعْدَدْنَا لَهُ مِنَ الْفَرَشِ وَالثِيَابِ وَالْأَنِيَةِ كَثِيرًا ، اسْتِدْفَاعًا لَشَرِّهِ ؛ وَجَمَعْنَا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي خِبَاءٍ كَبِيرٍ ، وَدَعَوْنَاهُ إِلَيْهِ . وَلَمَّا رَأَى الثِّيَابَ اسْتَحْقَرَهَا ؛ وَوَقَعَ الْإِتِّفَاقُ مَعَهُ عَلَى زِيَادَةِ خَمْسَةِ آلَافٍ مِثْقَالٍ لِنَتَمَّ بِهَا ثَلَاثُونَ أَلْفًا ؛ فَأَكْمَلْنَاهَا لَهُ لَثَلًا يَنْفَسِدُ الْأَكْثَرُ عَنْ \* الْأَقْلُ . فَشَكَرَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَطَابَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ . ١١ (ب)

وَرَجَعَ إِلَى ابْنِ عَمَّارٍ يَقُولُ لَهُ : « كَذَبْتَ لِي فِي قَوْلِكَ إِنَّ غَرْنَاطَةَ فِي ضَعْفٍ ، وَإِنَّ صَاحِبَهَا مِنْ صَغُرِ سَنَةٍ لَا يَعْقِلُ ! وَرَأَيْتُ مِنْ رَتْبَتِهَا وَأَحْوَالِهَا مَا خَالَفَ قَوْلَكَ ! » ١٥

فَرَجَعَ ابْنُ عَمَّارٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَنَا عَقْدًا يُوقِفُ عِنْدَهُ ، وَاسْتَأْهَلَ عَلَى أَخْذِ اسْطَبَّةٍ مِنْ عِنْدِنَا ؛ وَكَانَتْ مَعْقِلًا عَظِيمًا مِمَّا يَلِي جِهَاتِ إِشْبِيلِيَّةٍ ، قَدْ كَانَ أَخَذَهُ قَائِدُنَا كَبَّابٌ فِي الْفِتْنَةِ . وَسَأَلْنَاهُ نَحْنُ خَبَرَ الْقَلْعَةِ ؛ فَوَقَعَ الْإِتِّفَاقُ عَلَى أَنْ تَكُونَ قَلْعَةُ اسْطَلِيرٍ عِوَضًا مِنْ اسْطَبَّةٍ . ٢٠



وكانت قَاشَتْهُ وَمَارَتْشُ الْمُتَمَلِّينَ الَّذِينَ عَلَى جَيَّانَ . ومن أَجْلِهْمَا انقطع  
صاحبُها عَمَّنَا [ مَاكُسَن ] ولم يكن لجَيَّانَ مَعْنَى إِلَّا بهما . فترامى ابنُ عَمَّارٍ  
في أمرها على أَلْفُونش ، ووَعَدَهُ على مَارَتْشُ بِأَمْوَالٍ كَأَنَّهُ يَشْتَرِيهَا مِنْهُ .  
فَعَزَمَ عَلَيْنَا فِيهَا لِلطَّمَعِ فِي الْمَالِ ، ووَعَدَنَا نَحْنُ عَلَى قَاشَتْهُ بِالْمَطْمَرِ ، وكان  
أَيْضاً حِصْناً قَدْ اشْتَرَكْ نَظَرُهُ مَعَ نَظَرِنَا بِيَدِ ابْنِ ذِي الثَّنُونِ ؛ فَضَمَّنَ خَبْرَهُ  
أَنَّهُ يَعْطِيهِ لَنَا عِوَضاً مِنْهَا ؛ فِدَافَعْنَا الْأَمْرَ جُهْدَنَا : فلم نَقْدِرْ عَلَى أَكْثَرِ فَعَلٍ  
الْقَوَى مَعَ الضَّعِيفِ ،

ثُمَّ إِنَّهُ عُقِدَ الْعُقْدُ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْ لَا يَتَعَدَّى مِنَّا أَحَدٌ عَلَى  
صَاحِبِهِ ، وَذَكَرَ فِيهِ مَا نَعْطَى كُلَّ عَامٍ مِنَ الضَّرِيَّةِ : فَجَعَلَ عَلَيْنَا عَشْرَةَ  
آلَافٍ مُشْتَقَالٍ فِي الْعَامِ ، وَطَيَّبَ لَنَا الْكَلَامَ بِأَنْ قَالَ : « طَمَعُ ابْنِ عَمَّارٍ  
أَنْ نَقْدِرَ بِكَ ؛ وَمَعَاذَ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَشِيعَ فِي الدُّنْيَا أَنَّ مِثْلِي كَبِيرًا فِي  
الرُّؤُومِ يَقْصِدُكَ ، وَأَنْتَ كَبِيرٌ فِي جَنْسِكَ ، ثُمَّ نَقْدِرُ بِكَ ! فَاثْبِقْ عَلَى أَمَانٍ !  
لَا أَكَلِّفُكَ إِلَّا الضَّرِيَّةَ ، تُوجِّهْ إِلَى بَها فِي كُلِّ عَامٍ دُونَ مَطْلٍ ؛ وَإِنْ  
تَأَخَّرْتَ بِهَا ، أَتَاكَ رَسُولِي عَنْهَا وَتَلَزَمَكَ عَلَيْهِ نَفَقَاتٌ ؛ قَبَادِرُ بِهَا ! »  
فَقَبِلْنَا قَوْلَهُ ، وَرَأَيْنَا إِعْطَاءَ عَشْرَةِ آلَافٍ فِي الْعَامِ نَدْفَعُ بِهَا مَضَرَّتَهُ خَيْرًا  
مِنْ هَلَاكِ الْمُسْلِمِينَ وَفَسَادِ الْبِلَادِ ، إِذْ لَمْ تَكُنْ بِنَا قُدْرَةً عَلَى مُلَاقَاتِهِ وَمُكَابَرَتِهِ ،  
وَلَا وَجَدْنَا مِنْ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ عَوْنًا عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ يَسُوقِهِ إِلَيْنَا لِهَلَاكِنَا .  
فَبَقِيَّتِ الْأُمُورُ عَلَى مُصَالَحَةٍ وَمُهَادَنَةٍ\* وَرَفَاهِيَةٍ ، لَا يُسْمَعُ فِيهَا بِفِتْنَةٍ . ٣٢ (١)

### ٣٧ — اسْتِيلَاءُ أَلْفُونشُ السَّادِسُ عَلَى طُلَيْطُلَةَ

وَمِمَّا هَيَّأَهُ اللَّهُ أَنْ فَقَدْنَا وَسَائِطَ السَّوْءِ بَعْدَ ذَلِكَ بِفَقْدِ ابْنِ عَمَّارٍ ،  
وَشُغْلِهِ فِي مَرْسِيَّةٍ ، وَبِزَوَالِ سِمَاجَةَ عَنَّا وَأَشْيَاعِهِ . وَتَوَفَّى قَبْلَ ذَلِكَ ابْنُ

ذى النون عند بلوغه آماله بقرطبة ، وكانت الأندلس قد ارتجبت له ، وخافه الرؤساء ؛ فلم يلبث بها يسيراً حتى مات : وكذلك الأشياء إذا تمت . وكان أهل العلم يخبرون بذلك أنه إذا حصل على قرطبة ، فقد تمت أيامه وإذا تم شيء ، دنا نقصه .

٥ ثم خلع من بعده حفيده ، وقام عليه أهل بلده ، ولجأ إلى ألفونس ؛ فصرفه إليها على قهرٍ وغلبةٍ ، إلى أن جعل عليه أموالاً جسيمةً ، أشدها ما جعل على نفسه في شراء حصن من ألفونس على مقربة من طليطلة بمائة وخمسين ألف مثقال طيبة وخمسمائة مدي من طعام ضيافة لكل ليلة مدة مقامه عليه : أخذها من أهل بلده حتى ضعفوا . ولازمها ألفونس حتى صارت إليه . ١٠ وعوض صاحبها بكنسية ؛ ولم يعترض له مالا ولا أهلاً غير الذهب والفضة . وكان حفيد ابن ذى النون ، في أقل ولايته ، لم يقدم شيئاً على الغدر بوزير جدّه [ ابن ] الحديدي لسعاية البغاة أعدائه ؛ وسوّلت له نفسه أن قتله لا يصح إلا على يدي قوم قد سجنهم جدّه على بصيرة ؛ فأطلقهم وسلطهم عليه ؛ ولما تمكنوا منه ، كان كذبهم عليه أشد ، وصاروا طالبين للثأر وكانوا أقوى الأسباب في فساد ملكه ، وهم بنو اللوارنكي ، وبنو مغيث ، ١٥ ومن انحاش إليهم . وكان قديراً على قتله دونهم ؛ لكن العجز وضعف الرأي عميا عليه وجه الصواب .

٣٨ — استيلاء ابن هود على دانية . بعض أخبار بني هود

وحصل أيضاً ابن هود على مدينة دانية بغلة صاحبها عن الرجال وحبه ٢٠ في الأموال ، مع مداخلات أوتى بها من قبل وزيره ابن الرئولة ، الخارج

عنه إلى سَرَ قُسْطَةَ ؛ فعمل عليه مع ابن هود حتى أتاه على غفلة ، ودخل المدينة بلا مشقة ، وحصل منها على عظام من الأموال بوفرها . وكان \* ٣٢ (ب) عنده وَلَدٌ مُجَاهِدٌ صَاحِبٌ دَانِيَّةٍ مَكْرَمًا حتى مات .

وَإِنَّ ابْنَ هُودٍ ، لَمَّا حَصَلَ عَلَى دَانِيَّةٍ ، انْفَسَدَ طَبْعُهُ ، وَأَدْرَكَتْهُ الرَّغْبَةُ ٥ فِي الْبِلَادِ ، وَزَالَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ جِهَادِ الرُّومِ ، وَطَمِعَ فِي بِلَاسِيَّةٍ عِنْدَ ذَلِكَ ، وَأَعْطَى عَلَيْهَا أَمْوَالًا جَسِيمَةً لِأَلْفُونُشٍ ؛ وَأَلْفُونُشٌ فِي هَذَا كُلِّهِ ، عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذَكَرَهُ ، يَأْخُذُ الْأَمْوَالَ ، وَلَا يَحَقِّقُ لِأَحَدٍ أَنْ يَهْأُوذَهُ عَلَى أَخْذِ بَلَدٍ . فَتَوَفَّى ابْنَ هُودٍ فِي إِثْرِ أَخْذِهِ لِدَانِيَّةٍ وَبَلُوغِهِ آمَالِهِ مِنْهَا . وَقَدْ كَانَ ابْنُ الْخَلِيطِ الْمُنَجِّمُ ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ ؛ وَلَقَدْ قَرَأْتُهُ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْقُضَى ، حَتَّى رَأَيْتُهُ عَيَانًا . ١٠

وَكَانَتْ قَضِيَّتُهُ فِي دَانِيَّةٍ كَقَضِيَّةِ ابْنِ ذِي النُّونِ بِقَرْطَبَةِ : فَإِنَّ ابْنَ هُودٍ اهْتَرَّتْ لَهُ الْأُنْدُلُسُ عِنْدَ حَصُولِهِ عَلَى دَانِيَّةٍ ؛ وَجَزَعَ جَمِيعُ الرُّؤَسَاءِ لِأَخْذِهِ لَهَا دُونَ قِتَالٍ وَلَا زِمَانٍ ، وَأَعَدَّ كُلُّ أَحَدٍ عُدَّةً مُتَاهَبًا لَشَرِّهِ ، إِلَى أَنْ أَرَاهُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَقَبِضَهُ عَلَى فِتْنَةٍ وَاقْتِبَالَ أَمَلٍ .

ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُ الْمُؤْتَمِنِ ؛ فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى مَاتَ . وَشَعَرَ ١٥ الْمُؤْتَمِنُ لِابْنِ الرُّيُولَةِ وَزِيرِ أَبِيهِ بِأَعْمَالِ فَاسِدَةٍ مَعَ أَلْفُونُشٍ ، لِيَتَخَذَمَ لَهُ خِدْمَةَ ابْنِ عَمَّارٍ ، فَيَرَأْسَ لَذَلِكَ عِنْدَهُ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ خِذْلَانًا وَطُغْيَانًا ؛ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ . وَتَوَفَّى الْمُؤْتَمِنُ ، وَوَرِثَهُ الْمُسْتَعِينُ حَفِيدُهُ هَذَا الْوَالِي الْآنَ .

وَكَانَ الْمُؤْتَمِنُ رَجُلًا عَالِمًا ، قَدْ طَالَعَ الْكُتُبَ ، مَعَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْأَثَارِ ؛ فَرَأَى مَوْتَهُ قَرِيبًا . فَكَانَ لَا يَسُرُّهُ بِالْمَمْلُوكَةِ ، وَيَزْهَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدُّنْيَا . وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي بَعْضُ مَنْ حَضَرَ مَجْلِسَهُ مِنْ أَعْلَامِ جُنْدِهِ أَنَّهُ كَانَ ٢٠

يُريهم ذخائره التي لم يجتمع مثلها عند مَلِكٍ ؛ فَيُهَيِّثُونَهُ عَلَيْهَا ؛ فيقول لهم :  
« مَا أَصْنَعُ بِهَا ، وَالْمُدَّةُ يَسِيرَةٌ ، وَلَا أَدْخُلُ مِنْهَا قَبْرِي إِلَّا بِكَفْنٍ ! »  
فَكَانَ يَكْدِرُ قَوْلُهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى مَاتَ .

وَكَانَ مُنْذِرُ أَخُوهُ بَدَانِيَّةَ ، إِلَّا أَنَّ أَبَاهُ الشَّيْخَ لَمْ يُمْكِّنْهُ مِنْ مَالٍ ،  
حَذَرًا مِنْهُ أَنْ يَخَالَفَ عَلَى أَخِيهِ لِحَدِّثِهِ وَشِدَّةِ بَأْسِهِ . فَلَمَّا تَوَفَّى الْمُقْتَدِرُ ،  
اضْطَرَبَتِ الْفِتْنَةُ بَيْنَهُمَا . وَكَانَ مُنْذِرُ مِنْهُمَا \* يَتَضَمَّعُ لَهُ وَيَتَكَافَى بِهِ ، ٣٣ (١)  
لِمَا كَانَ مِنْ إِحْسَانِهِ لِلْأَجْنَادِ وَمَوَاسَاتِهِ لَهُمْ ، إِلَى أَنْ تَوَفَّى بَعْدَ أَخِيهِ ؛  
وَقَامَ ابْنُ لَهُ صَغِيرٌ بَعْدَهُ ، يُدَبِّرُ مُلْكَهُ وَزَيْرُهُ .

### ٣٩ - ثورة ابن عَمَّارِ عَلَى الْمُعْتَمِدِ بِمُرْسِيَّةَ

إِلَى أَنْ أَخْرَجَهُ مِنْهَا ابْنُ رَشِيقٍ .

أَعْمَالُهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَمَهْلِكُهُ الشَّنِيعُ

وَصَارَ ابْنُ عَمَّارٍ فِي حَيِّزِ الْخِلَافِ عَلَى الْمُعْتَمِدِ ؛ وَجَعَلَهُ يَطْلُبُ مُرْسِيَّةَ ،  
وَاعْتَرَاهُ عَلَيْهَا مَشَقَّاتٌ وَنَفَقَاتٌ أَمْوَالٌ . وَجَرَى مِنْ أَسْرِ ابْنِ الْمُعْتَمِدِ عَلَيْهَا  
مَا قَدْ شَهَرَ . وَطَالَ مَكْنُهُ عَلَى مُرْسِيَّةَ ، يُحْزَبُ عَلَيْهَا الْأَحْزَابُ وَيَنْفَقُ  
الْأَمْوَالُ ، يُرَى سُلْطَانَهُ أَنَّ السَّعَى لَهُ ؛ وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ يَجِدُّ لِنَفْسِهِ ،  
لَكَيْ يَتَّخِذَهَا مَعْقَلًا يَرَأْسُ فِيهِ ، كَالَّذِي صَنَعَ . وَلَقَدْ كَانَ يَقُولُ أَهْلُ  
الْعِلْمِ بِالْآثَارِ وَالتَّأْوِيلِ : « إِنَّ مُلْكَ بَنِي عَبَّادٍ يَتَنَاهَى حَتَّى يَبْلُغُوا إِلَى تَدْمِيرٍ ،  
وَمِنْ ثَمَّ يَتِمُّ هَلَاكُهُمْ . وَكَانَ النَّاسُ إِذْ ذَاكَ يَتَوَقَّعُونَ عَلَيْهِ الْفَسَادَ عِنْدَ مُحَاوَلَةِ  
ابْنِ عَمَّارٍ لِأَمْرِهَا ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْدَهُ بِحَيْنٍ ، عِنْدَ بُلُوغِ الْكِتَابِ أَجَلُهُ .  
وَصَارَ ابْنُ عَمَّارٍ بِمُرْسِيَّةَ بِأَقْبَحِ طَرِيقَةٍ مِنَ الِاسْتِخْفَافِ بِالنَّاسِ ، وَاسْتِعْمَالِ

المعاصي ، والإدمان على الخمر ، حتَّى أبغضه أهلها . وكان للمُعْتَمِد طاعة في معصية ؛ واشتهر بأخذ عِرْضِهِ وهَجْوِهِ بما قد نَزَّهَهُ اللهُ عنه ، ففعل الأوغاد والأرذال .

وقدم إلى مُرْسِيَّةَ ابنُ رَشِيق ؛ فكان يطويها وينشرها ؛ وشَبَّكَ عليه المعاقِلَ بقرابته ، واتَّخَذَ لنفسه صنائع مُدَّةَ غفلة ابن عَمَّار عنه وإقباله على راحته ، إلى أن خرج عن مُرْسِيَّةَ ، يُريد لنفسه في رسالة النصرانيّ لِيُخْدِمَ أَمْرَ الأنظار التي تُجَاوِرُهُ في الشرق ، وعسى يَضَعُهَا في يَدَيْهِ ، مِثْلَ شَنْتِ مَرِيَّةَ ، ويسعى في إصلاح ما أفسد عليه ابنُ رَشِيق ؛ فإنه لم يَجِدْ إليه سَبِيلًا لِكَلْبِهِ عليه . ولَمَّا نَهَضَ إلى أَلْفُونْشَ ، فَأَوَّلُ ما سَعَى في تَصْغِيرِ طَلِيْظَلَّةٍ إِلَيْهِ بِمَدَاخَلَةِ أَهْلِهَا ، لِيَكُونُوا حَاكِمِينَ أَنْفُسَهُمْ ، وَيُوَدُّوا الْجَزْيَةَ لِلنَّصْرَانِيّ دُونَ رَئِيسٍ . وَأَتَى طَلِيْظَلَّةَ ، وَابْنُ ذِي النُّونِ فِيهَا بِاسْمِ\* الرِّسَالَةِ ، ٣٣ (ب) ووافقَ على ذلك ، وَحَلَّلَ أَلْفُونْشَ عَلَيْهَا ، فِي حِينَ صَرَفَ حَاجِبَهَا إِلَيْهَا بَعْدَ خَلْعِ أَهْلِهَا لَهُ ، لِيَبْقَى لَهُ بَوَعْدُهُ ، ثُمَّ يَعْكُسُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ ، فَيُقْتَلُ . فَشَعَرَ لَذَلِكَ ، وَغَلَبَ حَفِيدُ ابْنِ ذِي النُّونِ الْفَتَّةَ الْقَائِمَةَ عَلَيْهِ . فَقَرَّ مِنْهُمْ ١٥ مَنْ خَلَصَ إِلَى أَلْفُونْشَ ؛ وَفَرَّ ابْنُ عَمَّارِ .

وَلَمَّا لَمْ تَمْ لَهُ خِدْمَةُ أَلْفُونْشَ فِي ذَلِكَ ، نَهَضَ إِلَى صَاحِبِ سَرَقُطَّةَ ، وَتَخَدَّمَ لَهُ خَبَرَ شَقُورَةٍ ( وَبِهَا طُفِيرٌ بِهِ ، وَوُجَّهٌ بِهِ إِلَى الْمُعْتَمِدِ ) . فَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّهُ اسْتَقَرَّ عِنْدَ ابْنِ هُودَ ، غَدَرَهُ فِيهَا — أَعْنَى مُرْسِيَّةَ — ابْنُ رَشِيقَ ، مَعَ اسْتِمَاتِهِ لِأَهْلِ الْبَلَدَةِ ؛ وَاسْتَحْسِنُوا وِلَايَتَهُ . وَلَمْ تَكُنْ لِابْنِ عَمَّارِ بَعْدَ ذَلِكَ رَجْعَةٌ إِلَى مُرْسِيَّةَ ، وَصَارَ خَادِمًا عِنْدَ ابْنِ هُودَ صَاحِبِ سَرَقُطَّةَ . ٢٠ وَلَمَّا احْتَلَّ بِذَلِكَ الْقَطْرَ ، أَضْرَمَهُ نَارًا ، وَأَهَاجَ فِيهِ فِتْنَةً ؛ وَصَارَ سَفِيرًا

- لِلإِفْرَنْجِ . وَأَتَرَهُ ابْنُ هُودَ ، وَقَرَّبَهُ ، رَجَاءً مِنْهُ أَنْ يَنْالَ عَلَى يَدَيْهِ مَا نَالَ الْمُعْتَمِدُ ، لِذَلِكَ قَامَ لَهُ عِنْدَهُ مِنَ الطَّارُوسِ بِسَعَادَةِ صَاحِبِهِ ، لَا بِأَعْمَالِهِ . وَكَانَتِ الْعِدَاوَةُ الْوَاقِعَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُعْتَمِدِ عَلَى يَدَيِ الرَّشِيدِ ابْنِهِ ؛ فَإِنَّهُ ، بِفُسُوقِهِ ، كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى أَوْلَادِهِ ، وَيَضِيقُ عَلَيْهِمْ ، وَيُسِيءُ الصَّنِيعَةَ ٥ مع من يجب عليه إكرامه من قرابة سلطانه ؛ والمُعْتَمِدُ ، فِي هَذَا كُلِّهِ ، يَصْبِرُ لَهُ ، وَلِأَنَّهُ كَانَ قَدْ اسْتَمَالَ النَّصَارَى ، وَانْدَخَلَ مَعَهُمْ بِحِيلَةٍ : فَتَى مَا دَهَمَ أَمْرٌ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَجَّهَهُ إِلَيْهِمْ ؛ فَيَنْجَلِي مِنْ أَمْرِهِمْ مَا يَضِيقُ الصَّدْرَ بِهِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ بِأَمْوَالِ رَأْسِهِ وَسَعَادَةِ أَيَّامِهِ ، وَهُوَ بِحِيلِهِ يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَتِيهًا إِلَّا بِسَبَبِهِ ، وَيُرَدُّ الْحَسَّ كُلَّهُ إِلَى نَفْسِهِ . وَكَانَتِ هَذِهِ الْمَعَانِي مِمَّا ١٠ أَحْنَقَ عَلَيْهِ الْمُعْتَمِدُ ، حَتَّى عَقَبَ عَلَيْهِ بِمَا كَانَ جَدِيرًا بِهِ ، وَأَمَكَّنَهُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَجَازَاهُ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُ بُدٌّ ، وَلَا رَأَى لغيره أَهْلًا . وَكَانَتِ شَقُورَةُ قَدْ أَخْلَاهَا الْمُعْتَمِدُ ، وَبَنَى صَاحِبُهَا — عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِ سِرَاجِ الدَّوْلَةِ — أَنْ يَضَعَهَا فِي يَدَيْهِ ؛ فَلَمَّا صَارَ\* ابْنُ عَمَّارٍ إِلَى سَرَقُوسْطَةِ ، نَهَضَ إِلَى الْعَبْدِ الْمَذْكُورِ ، ٣٤ (١) عَسَاةَ يَرْجِعُ إِلَى طَاعَةِ ابْنِ هُودَ ؛ فَتَقَفَّهُ وَأَرْسَلَ بِهِ إِلَى الْمُعْتَمِدِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ قَتَلَهُ شَرٌّ قَتَلَهُ . ١٥
- وإِنَّ ابْنَ رَشِيقٍ بَعْدَ ذَلِكَ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْخِلَافَ عَلَى الْمُعْتَمِدِ ، وَاحْتَجَّ بِأَنْ قَالَ : « لَمْ يُقَدِّمْنِي إِلَى مُرْسِيَّةٍ ! » وَزَعَمَ أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اخْتَارُوهُ ، وَأَنَّ مُقَدِّمَهُ إِنَّمَا كَانَ ابْنُ عَمَّارٍ مَتَى ذَهَبَ عَنْهَا . وَسَنَدُّ كُرٍّ مِنْ أَمْرِهِ بَعْدَ هَذَا ، عِنْدَ ذِكْرِ أَحْوَالِ الْمُرَابِطِينَ — أَعَزَّهُمُ اللَّهُ — وَقَصْدِهِمْ ٢٠ إِلَى لَيْبِيطَ ، مَا انْقَضَى مِنْ خَبَرِهِ عَلَيْهَا مِمَّا هُوَ مَشْهُورٌ .

## ٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب إشبيلية

لَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَليمٌ سِرِّ الْأَمْرِ كَالَّذِي نَصِفُهُ نَحْنُ . والدليلُ على ما قَدَّمناه ذِكْرَهُ من ارتباطِ الْمُعْتَمِدِ إلى الْخَيْرِ وإِثَارِهِ لِلصُّلْحِ بزوال هذا الفاسِقِ ابنِ عَمَّارٍ عن دولته ، لم يُرَ بعده فِتْنَةٌ فيما بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؛ وَحَقَّقَ معنا في كُلِّ أَمْرٍ ، كَالَّذِي فَعَلْنَا نَحْنُ معه . وَجَدَدْنَا الْعَقْدَ على ما ارتَضِينَاهُ ٥ من مُعَاوَضَاتٍ ، سِوَى ما كان قَدِيمًا بِيَدِهِ ، مِمَّا خَرَجَ عَنَّا في أَيَّامِ الْمُظَفَّرِ ، وَأَخَذَتِ الْفِتْنَةُ عَلَيْهِ حَقَّهَا ، ولم يوجَد في طَلَبِ ذَلِكَ خَيْرٌ ، ولا إلى غير المصالحَةِ سَبِيلٌ ،

فَقَرَّرَتِ الْأَحْوالُ قَرَارَهَا ، وَتَهَيَّي كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِمُلْكِهِ إِلَّا ما كان ١٠ من سَيْفِ بَرَّانِيٍّ يَعْترِضُ بِلادَنَا من الرُّومِ؛ فَكان الرُّزْءُ فيه واحداً والمشاركة سواءً ؛ وإن كُنَّا لا نَقْدِرُ على ذلك بالإمدادِ بَعْضُنا لِبَعْضٍ لضعفِ الحالِ ، فَكُنَّا نَتَشَارَكُ بِالْمُدَاخَلَةِ وإِعمالِ الرَّأْيِ والتحذيرِ من أَمْرٍ عَسَى أن يكون خفي عن الآخر وما أشبه ذلك .

## ٤١ - المؤلف يتحدث عن منهجه في كتابة مذكراته

١٥ وإذا أَتَيْنَا على ذِكْرِ جُمْلَةٍ من أحوالِ الْأَنْدَلُسِ الحادِثَةِ فيها ، المشهورِ خَبَرُها حسبما استفاض ، وَتَرَكْنَا وَصَفَ الاختلافاتِ ، إذ يوجد الحقُّ في طرفٍ واحدٍ ، ولم يكن منها ما طَوَّلَعَ بِالمُشاهدةِ ولا بِالْمَعَاينةِ أَكْثَرَ من إِشاعةِ خَبَرٍ ، ذَكَرْنَا منه ما يَنْقاسُ في العقلِ ، وَحَذَفْنَا منه الإكثارَ والمُشْتَبَهاتِ . وإِنَّهُ ، متى أَتَيْنَا على ذِكْرِ خَبَرٍ حادِثٍ في دَوْلَتنا مِمَّا حاوَلْنَاهُ

أو شاهدناه\* أَطَنَّبْنَا فِي وَصْفِهِ ، وَقَتَلْنَاهُ عِلْمًا إِلَى آخِرِهِ ، وَأَخْبَرْنَا بِسَرِّهِ ٣٤ (ب)  
 عَنْ جَهْرِهِ ، وَبَارَقَ الْأَسْبَابَ فِيهِ . وَالْإِطْنَابُ فِيمَا يَحَاوِلُ الْإِنْسَانُ أَبْلَغُ  
 وَأَنْعَتْ مِنْ وَصْفِ الْمَشَاهِدَةِ لَغَيْرِ مَا يَخْصُهُ ، كَمَا أَنَّ وَصْفَ الْمَشَاهِدَةِ ، وَإِنْ  
 كَانَ لَا نَعْنِيهِ ، أَبْلَغُ مِنْ ذِكْرِ الْمُسْتَفَاضِ الَّذِي لَمْ يُوقَفْ عَلَى حَقِيقَتِهِ ؛ فَإِنَّمَا  
 يُذَكَّرُ مِنْهُ مَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ ، ثُمَّ يَجْتَزِي وَاضِعُهُ عَلَى أَنْ يَضَعَ فِيهِ مِنْ عَقْلِهِ  
 دُونَ الْأَغْلَبِ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعَامَةِ ؛ فَيَصِيرُ مُكَذَّبًا .

ولهذا مَا اخْتَصَرْنَا مِنَ الْكَائِنَاتِ الْمَشْهُورَةِ بِالْأَنْدَلَسِ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ  
 عَنْهَا ، وَاقْتَصَرْنَا عَلَى الْإِطْنَابِ فِيمَا يَخْصُنَا مِنْهَا ، مِمَّا حَاوَلْنَاهُ أَوْ رَأَيْنَاهُ عَيَانًا .  
 وَالْحَقِيقَةُ مِنَ الْخَبَرِ عَوْنٌ كَبِيرٌ عَلَى مَا يَرُومُ الْإِنْسَانُ مِنْ صِفَةٍ فِي مَنْظُومٍ  
 أَوْ مَنْثُورٍ ، كَالْمَادِحِ أَوْ الذَّامِّ ؛ فَإِنَّهُ ، إِذَا وَجَدَ إِلَى الْمَقَالِ سَبِيلًا ، أَطَنَّبَ  
 وَأَبْلَغَ ، وَإِنْ كَانَتْ بَعْضُ زِيَادَةٍ ، فَإِنَّهَا لَا تُمْكِنُ إِلَّا فِي الْأَغْلَبِ وَالْأَكْثَرِ ،  
 وَيَكُونُ فِي ذِكْرِ الْأُمْرَيْنِ مُصَدِّقًا لِمَعْرِفَةِ النَّاسِ بِهِ ؛ وَلِأَنَّ كِتَابَنَا لَمْ يَكُنْ  
 مَبْنِيًّا إِلَّا عَلَى وَصْفِ مَمْلَكَتِنَا خَاصَّةً ، « وَالْحَدِيثُ ذَوْ شُجُون » ؛ فَلَا بُدَّ  
 مِنْ ذِكْرِ جُمَلٍ مِنْ غَيْرِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى وَصْفِهِ أَوْ ضَرْبِ مَثَلٍ بِهِ ،  
 تَزِينًا لِلْكَلَامِ وَإِقَامَةً لِلْبُرْهَانِ وَدُورَانًا عَلَى الْحَقِيقَةِ . ١٥



## الفصل السادس

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٢) مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

٤٢ — عزل الوزير سِمْجَاة

ثمَّ إجلأؤه واستقلال عبد الله في الأمر

وإنَّه ، لما تهَدَّنتْ لنا الأحوال وقرَّ مُلْكُنَا قَرَارَه بِمُصَالَحَةِ الْمُعْتَمِدِ ،  
وَمُعَاقَدَةِ الرُّومِيِّ عَلَى الْمُهَادَنَةِ ، وَتَوَطُّبِنِ النَّفْسِ عَلَى مَا نَعْطِيهِ<sup>(١)</sup> فِي الْعَامِ ،  
انصرفَ نَظَرُنَا إِلَى إِصْلَاحِ أَمْرِ بِلَادِنَا ، وَالْفَتْشِ عَلَى رَعِيَّتِنَا ، وَالكَشْفِ  
عَلَى الْعُمَّالِ إِنْ كَانُوا عَادِلِينَ أَوْ ظَالِمِينَ . وَلَمَّا شَعَرَ بِذَلِكَ خَدَمَتُنَا وَمَنْ كَانَ  
لَهُ مَذْهَبٌ فِي نَصِيحَتِنَا ، انتدبَ جَمِيعُهُمْ إِلَى الْإِعْلَامِ بِمَا عِنْدَهُ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى  
مَا خَفِيَ عَنَّا زَمَانَ تِلْكَ الْفِتْنَةِ ؛ فَكُنَّا لَا نَقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ عَلَى الْآخِرِ إِلَّا بَعْدَ  
رُويَّةٍ وَهَجُومٍ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، حَذَرًا أَنْ يَكُونَ مَقَالُ أَحَدِهِمْ حَسَدًا لِلْآخِرِ  
أَوْ طَلَبًا لَا يُتَّقَى اللَّهُ فِيهِ .

وكانَ سِمْجَاةَ ، وَزَيْرُ دَوْلَتِنَا الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرَهُ ، قَدْ شَعَرَ بِذَلِكَ وَأَحْسَنَهُ  
مِنَّا ؛ فَاعْتَمَّ لِلْأَمْرِ\* وَعَمِلَ فِي نَفْسِهِ ، وَشَكَاهُ إِلَى إِخْوَانِهِ ؛ وَكَانَ فِيمَا قَالَ ٣٥ (١)  
لَهُمْ : « إِنَّمَا كُنَّا نَطْمَعُ بِالتَّحْكُمِ عَلَى هَذَا الرَّئِيسِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ دَوْلَتِهِ مَدَّةَ

(١) أصل : « نعطوه » .

- أَيَّامَ صَبُوتِهِ ، بِعَنَى صَغَرِ سَنَةٍ . وَأَمَّا الْآنَ ، فَلَسْنَا نَجِدُ سَبِيلًا إِلَى رَدِّهِ  
عَنْ دَوْلَتِهِ ، لَا بِفَيْتَةٍ تَحْمِينَا ، وَلَا بِصَغَرِ سَنَةٍ نَجِدُ بِهِ السَّبِيلَ إِلَى صَرْفِهِ عِنْدَ  
الْعَامَّةِ وَتَسْفِيهِ رَأْيِهِ ، لَا سِيَّامًا إِذْ كَانَ رَأْيُهُ النَّظَرَ مِنْ دَوْلَتِهِ وَالْبَحْثَ عَنْهَا .  
فَقِيلَ لَهُ : « لَسْتُ <sup>(١)</sup> نَجِدُ سَبِيلًا إِلَى أَكْثَرِ مِنَ الْمُدَارَاةِ لَهُ ، وَالْإِتْيَانِ لِمَرْغُوبِهِ ،  
وَقَلَّةِ الْخِلَافِ عَلَيْهِ لَثَلَا يَتِمَكَّنْ عَدُوُّكَ مِنْكَ ، وَيَشْتَفِيَ حَاسِدُكَ عَلَيْكَ . فَهُوَ ،  
إِذَا وَجَدَ مِنْكَ الَّذِي يَرْغَبُ ، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُعِلَّ النَّظَرَ وَالْخِدْمَةَ وَيُفَوِّضَ  
الْأَمْرَ إِلَيْكَ ! ثُمَّ أَنْتَ بِالْخِيَارِ عِنْدَ غَفْلَتِهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى رَاحَتِهِ ! وَعَلَيْكَ  
بِإِشْغَالِهِ بِالنِّسَاءِ ، وَعَجَّلْ لَهُ ابْتِيَاعَ الرِّقِيقِ ! وَلَسْنَا نَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ إِشْنَاكَ مِنْ  
تَحْجِيرِكَ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ نَظُنُّ بِهِ مَا يُظُنُّ بِمَنْ كَانَ فِي سَنَةِ ! »  
فَفَعَلَ ذَلِكَ . وَكَانَتْ هَذِهِ الْفَتْرَةُ الَّتِي دَبَّرَهَا مِنْ سَعَادَتِنَا وَتَمَكُّنِنَا مِنْ  
أَمَالِنَا فِي الَّذِي ذَهَبْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْتِبْدَادِ بِمُلْكِنَا ؛ فَإِنَّهُ شَبَّكَ عَلَيْنَا الْمَعَاقِلَ  
بَيْنِي عَمِّهِ ، وَأَشَدَّهَا عَلَيْنَا مَدِينَةُ الْمُتَنَكِّبِ . فَجَعَلَ يَطْلُقُ لَنَا الْعِنَانَ فِي كُلِّ  
مَا نُرِيدُهُ ، وَاشْتَرَى الرِّقِيقَ ، وَجَعَلَنَا نَخْرُجُ إِلَى الزَّهَاةِ فِي الْبِلَادِ ، يُرَى  
بِذَلِكَ الْإِنْصَافِ وَالنَّائِي ، إِذْ كَانَ الرَّجُلُ مُتَنَبِّتًا ، خَائِفًا مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ،  
مَعَ أَنَّهُ كَانَ خَائِفًا مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ كُتُبِ اسْتِعْمَالِهَا عَلَى أَلْسِنَتِنَا  
أَقْوَامٌ مِنْ أَعْدَائِهِ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ صِنَاهَاةٍ يَأْمُرُونَ فِيهِ بِقَتْلِهِ ، وَنَحْنُ بَرَاءٌ  
مِنْهَا ؛ فَظَفَرْنَا بِالْكَتُوبِ ، وَأَنْزَلْنَا بِنَا التَّهْمَةَ ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ أَوْلَئِكَ الْمُسَمِّينَ فِي  
الْكَتُوبِ ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ اتَّهَمُوا مِنْ كِرَائِمِ بَادِيسَ — رَحِمَهُ اللَّهُ .  
وَكَانَتْ تِلْكَ الْمَعَانِي مَقَدِّمَاتُ تَغَازِلِهِ لِعَزْلِهِ . فَلَمَّا كَانَتْ وَجْهَتُنَا إِلَى  
وَادِي آشَ عَنْ اخْتِيَارِهِ ، وَقَدْ كُنْتُ عَلِمْتُ مُعْتَقَدَهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِالْقِيَاسِ

والميز مع بعض الأخبار ، قلتُ في نفسي : « هذا رجلٌ قد اعتاد الأمر\* ٣٥ (ب) والنهي ، ورأى من يَقْظَتْنَا للدولة ما لم يكن يُريده ؛ وليس فعله هذا بهواه ؛ وكلُّ شيء يضطرُّ فيه الإنسان ، فإليه لا يؤمن خلافه ، والرجعة عنه ، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه ! فنكون أبداً نكابد منه ما لا يوافق ! وإن فاتتني هذه المرة ، أكن كمن نُبِّه على أمرٍ وحذر من نفسه ، ثم أوبق نفسه إلى المضرات . وإن أغضينا هذه المرة وعاد إلى ما كان ، ثم نرى منه خلافاً ، لم نقدر عليه بشيء ، إذ يكون نظره لنفسه أجود من هذا النظر ، فإنَّ هذا الأمر ممَّا جاءه فجأةً لم يحتسبه ولا ظنَّ به ؛ والفرصُ تمرُّ مرَّة السحاب ! فما دُمنا<sup>(١)</sup> نَحْن بالخيار عليه ، لا نتربص حتى يكون هو بالخيار علينا ! » ١٠

فأراد إشاعة عزَّلتَه بالحضرة عند إمكان السفر ؛ فلم ترَ لذلك وجهاً إلا ونحن خارجون عنها ، ليكون أشنع في الناس وأقطع ليأس الرعايا ، مع أنَّي ، إذا حركتُ هذا بالحضرة ، دخلته الصناعة ، وكتم عن الناس ، وشغبت امرأته من الدار . فلما وصلنا وادي آش ، جعلتُ من يدوس إلى الرعيَّة أن ترفع بمظالمها ؛ وكان عاملها ابنُ أبي جوش ، صنيعة سِماجة المذكور ؛ فأمرتُ عند شكواها ١٥ بثقافه . فأنكر الناس ذلك ، وهان عليهم أمره . وجعتُ الرعايا والوزراء ، وحددتُ لهم حداً يَقِفون عنده ألا يجعلوا بيني وبينهم واسطةً ؛ وأمرته هو بالتزام ما يخصه لنفسه ، وأن لا وزير لدولتي إلا نفسي ؛ وحددت لكلِّ خادم ما تكون طريقته أن لا يتعدى سواها . فسرَّ بذلك جميع الوزراء ، ٢٠ إذ تساوت أقدامهم ، وانكشف حجابي لهم ، لكي تكون حوائجهم إلى

دون مَنْ هو مِثْلُهُمْ أَوْ دُونَهُمْ . واغْتَبَطَ الرعايا بعزلة الظلْمَةِ عنهم . وعزلتُ كلَّ مَنْ يُتَبَّه بِخِيَانَةٍ ، وَقَدَّمْتُ عُمَّالاً إِلَى الجِهَاتِ ، أُرِيدُ تَجْدِيدَ الدَّوْلَةِ . وعزلتُ بنى عَمِّهِ مِنَ الحِصُونِ ؛ وَلَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ، لَمَّا سَمِعُوا بِذَلِكَ ، يَفِرُّونَ مِنْهَا وَيَتْرَكُونَهَا حَتَّى يَوْجَهَ إِلَى جُنْدِهَا عَنْ قَائِدٍ . وَلَمْ نَلْقَ فِي ذَلِكَ \* كُلَّهُ مَشَقَّةً . وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ابْنُ عَمِّ لَه ، صَاحِبُ الْمَنْكَبِ ؛ ٣٦ (١) ٥

فَجَزَعُ ، إِنْ تَرَكَهُ ، أَنْ يَوْجَدَ إِلَيْهِ السَّبِيلَ بِسَبَبِهِ ؛ فَأَخْبَرَنِي بِالْأَمْرِ ، وَسَأَلَنِي إِرسَال قَائِدِي إِلَيْهِ ، فَعُزِّلَ . وَسَأَلَ زَاوِيُ زَوَالَ أَخِيهِ بَلْبَارَ عَنْ وَادِي آش . فَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى أَمْكَنَ سَعَادَةٍ وَأَجْوَدَ تَقْدِيرٍ ، لِلَّذِي شَاءَ اللَّهُ مِنْ تَمَامِ أَيَّامِ وَزَارَتِهِ .

١٠ ثُمَّ أَمَّنْتُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَأَبْقَيْتُ عَلَيْهِ جَمِيعَ أَمْوَالِهِ إِلَّا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ، وَسَوَّغْتُهُ إِنْزَالاً يَنْعَاشُ فِيهِ ، وَأَمَرْتُهُ بِلُزُومِ مَجْلِسِي وَأَنَّهُ مُكْرَمٌ طَوِيلُ حَيَاتِي . فَقَبَّلَ الرَّجُلُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَأَطَاعَنَا فِي كُلِّ أَمْرٍ أَرَدْنَاهُ دُونَ خِلَافٍ وَلَا إِظْهَارٍ لِمَعْصِيَةٍ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ جَزُوعاً ، قَلِيلَ الْجَرَأَةِ عَلَى الْعِظَامِ ، وَلَأنَّهُ لَمْ يَجِدْ فَتَةً تُعِينُهُ . وَاتَّقَيْتُ بِذَلِكَ أَمَّنْتُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَمَضَى عَلَيْهِ دَهْرٌ طَوِيلٌ عَلَى لُزُومِ الْمَجْلِسِ دُونَ خِدْمَةٍ ، فَلَمْ يَتْرُكْهُ . ١٥

وَخَافَ مِنْهُ مَنْ سَعَى فِي أَمْرِهِ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ، وَتَوَقَّعُوا مِنْهُ الْعُودَةَ ؛ فَلَمْ يَزَالُوا يُعْرَوْنَ بِهِ ، وَيَنْقَلِبُونَ عَنْهُ مِنْ قَبِيحِ الْقَوْلِ ، وَيَخَافُونَ مِنْ مَغَبَّةِ أَمْرِهِ ، مَا لَمْ نَزَرَ مَعَهُ وَجْهًا لِإِمْسَاكِهِ فِي الْبَلَدَةِ ، احتياطاً عَلَى أَنْفُسِنَا ؛ وَرُبَّمَا كَدَحْتُ بَعْضُ تِلْكَ الْأَقَاوِيلِ ، فَهَلَاكَ مِنْ أَجْلِهَا . وَلَا اسْتَطَعْنَا حِينَئِذٍ ٢٠ عَلَى مُعَاقَبَتِهِ لِمَا ارْتَكَبَ فِي صَدْرِ الدَّوْلَةِ مِنْ قَتْلِ أَوْلَئِكَ النِّسَاءِ وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُنَّ ، لِشَرِكَتِهِ فِي ذَلِكَ مَعَ سِوَاهُ مِنْ شَبَوَاحِ تِلْكَ كَاتَةِ ؛ فَيَسُوهُ ظَنُّ

الجميع ، وتفسد من سببه الأحوال ؛ فلا يقوم فسادُ المملكة وسوء عاقبة الأمر بما يلزم من إقامة الحدِّ . فرأينا من الصواب أن يرتحل عتّا دون تغيير ولا إبلاغ في عقوبة ، استماله لأنفس الناس ، وبسطة لأموالهم . فخرج بجميع أثاثه وخدمه ودوابه وجميع ثيابه وفرشه ، مشيعاً إلى المريّة . فكان الممتصمُ يُكرمه من أجلنا ، ولا يئأسُ أن نصرفه إلى منزلته ، فيقدم ذلك الإكرامُ عنه . وخرّجت امرأته بختلي كثير من الجوهر ، حاشى ما خفي عتّا من المال ؛ \* وإنما صار إلينا ما أعطيناه بأيدينا من الذهب والفضة أولَ (ب) ولايتنا ، وقتَ فتح بيت المال ؛ ولم تتحقق ما اكتسب منها مدّة خدمته لنا ، ولا بحشنا عن ذلك .

١٠ ٤٣ — النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المريّة .  
تعاقب أحداثه وحله

ثمّ قمنا من بعده في أمور البلاد والرايا بأحسن قيام وأتمّة ، وجعلنا الأمناء على البحث والتعقب ورفع المظالم إلينا . ودام الأمرُ على ذلك دهرًا طويلاً .

١٥ وإنّه ، في إثر مضي سِمَاجة المذكور إلى المريّة ، بلغنا أنّه حقر الدولة لابن صمّادح وطمّعه فيها ، لِمَا كان يرى من طمع الرجل الذي قد شهر به — رحمه الله — ؛ فإنّه كان كثير الطمع ، قليل الجسر ، ضعيف المنّة . فعمل قَوْلُه في نفسه ، ورَجَا أن ينال على يديه فرصةً بمداخلة أو إدلالٍ على مَوْضِعٍ فائدةٍ ، كالذي تهيّأ له مع اليهودي\* .

٢٠ ووافق ذلك أن وقعت بين قائدي النّظر ما بين فنيانة والمنثوري

مُشَاجَرَةٌ عَلَى الْجِهَاتِ ؛ وَلَمْ يَتَهَيَّأْ حِيَازَةً ذَلِكَ النَّظَرُ إِلَّا بِبُنَيَّانِ الْمُنتَوَرِي الْمَذْكُورِ . وَقَدْ كُنْتُ ، عِنْدَ وَجْهَتِي إِلَى فَنِيَانَةٍ ، أُرْسَلْتُ إِلَيْهِ رَسُولًا يُعَلِّمُهُ بَوْرُودِي عَلَيْهِ ، وَسَأَلْتُهُ تِلْكَ الْقُرَى الْمَصَاقِبَةَ لَهَا وَإِنَّهَا أَوْلَى بِذَلِكَ الْمَعْقِلِ لِقُرْبِهَا ، وَتَطَارَحْتُ عَلَيْهِ فِي الْمُكَارَمَةِ بِهَا ؛ فَكَانَ مِنْ جَوَابِهِ لِلرَّسُولِ :

« هَيْهَاتَ ! لَيْسَتْ <sup>(١)</sup> تُمْلِكُ الْأَقْطَارُ إِلَّا بِالْبُنَيَّانِ وَالسَّيْفِ ! » فَلَمَّا عَلِمْتُ مِنْهُمْ ذَلِكَ الْحِصْنَ عَلَى الْمَرِيَّةِ ، وَبَلَغَنِي مَا كَانَ مِنْ تَطْمِيعِ سِمَاجَةٍ ، وَتَذَكَّرْتُ مُرَاجَعَتَهُ عَنِ الْقُرَى ، أَغْضَبْنَا ذَلِكَ وَلَمْ نُؤَخَّرْ أَنْ عَاجَلْنَا بِبُنَيَّانِ ذَلِكَ الْمَعْقِلِ . فَقَامَ عَلَى الْمَقَامِ بِالْجِدِّ وَالْقُوَّةِ ، وَجَعَلْنَا فِيهِ حُمَاةَ الرِّجَالِ ؛ وَضَاقَتِ الْمَرِيَّةُ مِنْ أَجْلِهِ ؛ وَاحْتِيجَ إِلَى بُنَيَّانِ مَعَاقِلَ غَيْرِهَا ، تَوَقُّعًا أَنْ نَسْبِقَ إِلَيْهَا ، فَيَكُونُ عِوَضًا عَنِ الْمُنتَوَرِي . فَقَامَ بُنَيَّانُهَا عَلَى سَاقٍ ، وَصَارَتْ كُلُّهَا حَرْزًا لِلجِهَاتِ الَّتِي لَنَا ، وَأَقْفَالًا عَلَيْهَا ، وَضَرَرًا عَلَى جِهَاتِ الْمَرِيَّةِ . فَعَمِلَ بِالْأَمْرِ ، وَضَاقَ بِهِ ذِرْعًا ؛ وَكَانَ لَا يُوجِّهُ \* عَسْكَرًا إِلَى مَوْضِعٍ إِلَّا هُزِمَ ؛ وَأَسْرَنَا <sup>٣٧</sup> (١) كِبَارَ رِجَالِهِ عَلَى طَرَلَبَشِ .

وَكَانَ عِدَّةُ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ سَبْعَةُ حِصُونِ . وَكُنْتُ مَعَ هَذَا أَمْرٍ <sup>(٢)</sup> أَهْلَهَا بِالرَّفْقِ وَحَرْزِ جِهَاتِهَا إِلَّا يَنْطَرِّقُ إِلَيْنَا طَالِبُ شَرٍّ . وَإِنِّي إِنَّمَا بَنَيْتُهَا صَوْلَةً وَتَهَيُّبًا ، حَتَّى نُصَالِحَ الرَّجُلَ عَلَى مَا يَقَعُ بِمَوَاقِفَتِنَا ، وَيَعْرِفَ أَقْدَارَنَا . وَإِنَّهُ ، لَمَّا ظَهَرَ مِنْ كَلْبِ الرُّومِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ مَا ظَهَرَ ، وَرَأَيْتُ نَفْسِي ظَافِرَةً مَتَى رُمْتُ مَعَ ابْنِ صُمَادِحِ فِتْنَةً ، وَتَبَيَّنَ لِي ضَعْفُهُ عَنِ الْمُنَاطَرَةِ ، صَرَفْتُ نَفْسِي عَنِ التَّمَادِي وَالْإِلْحَاحِ ، وَقُلْتُ : « أَنَا فِي مِثْلِ هَذَا مُذْرِكٌ ! لَا يَفُوتُ مِنَ الْأَمْرِ مَتَى أَرَدْنَاهُ شَيْءٌ . وَحَسْبُنَا مَا قَدْ ظَهَرَ إِلَيْنَا ؛ فَلَا بَقَاءَ

(١) أصل : « ليس » . (٢) أصل : « نأمر » .

أُولَى ، وإصلاحُ الأمر مع الجار — وجارٌ ضعيفٌ يُبْقَى عليه — خَيْرٌ من تَهْيِئَتِنَا لِقَوِيٍّ لا يُرام ! ولقد كان المظفرُ على بصيرةٍ من إثباته لدولته وإبقائه عليه ؛ ولنا فيه أسوةٌ وقدوة ! »

فصَالَحْتُ الرَّجُلَ ، وَأَمَرْتُ بِهِدْمَ تِلْكَ الْحِصُونِ ؛ وَنُشِرَتِ الْمَرِيَّةُ مِنْ كَفَنِ . وَتَمَكَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَدَنَا ، وَصَارَ أَصْدَقَ النَّاسِ لَنَا :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا  
فَلَمْ نَزَلْ مُتَعَاقِدِينَ مُتَشَارِكِينَ فِي الْحُلُوِّ وَالْمُرِّ إِلَى انْصِرَامِ الْأَجَلِ ،

٤٤ — تَوْجِيهِ عَسْكَرٍ ضِدَّ تَمِيمِ بْنِ بُلْقَيْنَ صَاحِبِ مَالِقَةَ  
وَأَخِي الْمَوْلَفِ ، وَنَصْرَهُ إِيَّاهُ

١٠ ثُمَّ لَمْ نَلْبَثْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَنَا مِنْ أَخِينَا تَمِيمٍ فُحْمَةٌ لَمْ نَحْتَسِبْهَا  
بَعْدَ أَنْ رَأَى ظَهْرَنَا ، وَصُلَحْنَا مَعَ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمَا صَنَعْنَاهُ بِجِهَاتِ  
الْمَرِيَّةِ ، لَمْ يَفْرَقْ بَيْنَ هَذِهِ الْحَالَةِ وَالْحَالَةِ الْأُولَى ، لَغَرَارَةِ الصَّبَا وَقَتِ اصْطِكَاكِ  
الْفَتَنِ وَالشَّغْلِ الشَّاعِلِ . فَحَسِبَ الزَّمَانَ كُلَّهُ وَاحِدًا . وَلَمَّا سَكَّتِ عَنْهُ قَبْلُ ،  
لِهَذِهِ الْعِلَّةِ عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ مِنْ بَدْءِ أَمْرِهِ ، تَمَادَى عَلَى تِلْكَ الْأَفْعَالِ . فَأَرْسَلَ  
١٥ قَطَائِعَهُ إِلَى حَرْبِ الْمُنْكَبِّ وَشَاطِطٍ ، وَخُويلَةَ فِي إِثْرِهَا لِلضَّرْبِ عَلَى النَّظَرِ  
الْمُصَاقِبِ لَهَا . وَأَتَانِي أَهْلُ تِلْكَ الْجِهَاتِ شَاكِينَ بِالْأَمْرِ ؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

« هَذَا إِنْسَانٌ لَمْ يُبْصِرْهُ الدَّهْرُ ، وَلَا حَكَمَتُهُ التَّجَارِبُ : وَمَتَى تَرَكَنَاهُ \* عَلَى ٣٧ (ب)  
هَذَا ذَاتِبًا ، وَلَمْ نُوَدِّبْهُ عَلَيْهَا ، تَمَادَى شَرُّهُ ، وَحَسِبَ أَنَّ ذَلِكَ لِهَيْبَتِهِ ؛ فَازْدَادَ ،  
وَلَا تَنْفَعُ فِيهِ مَوْعِظَةٌ وَلَا قِيلٌ ! » فَلَمْ نَجِدْ بُدًّا مِنْ تَأْدِيبِهِ وَزَجْرِهِ ، فَإِنَّ الشَّيْءَ تَحْمَرَهُ  
٢٠ وَقَدْ يَنْبَغِي ! وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْإِغْضَاءُ لِمَعَانٍ تَوَقَّعْتُ ، وَانْتِظَارًا بِهِ لِحَسَنِ الْعُودَةِ

وروية البصيرة . فإذا قد يئسنا من هذا وأمنّا ما يُشغلنا عنه ، فتركه على هذه الضلالة من العجز والخرق ! »

ووافق ذلك الزمان اشتغال المعتد بأمر ألفونس ؛ فإنه نازل إشبيلية لتباعات تسبب بها ؛ وضاعت الحال من أجله . فاتفق الأمر وتهيات الأسباب على حين غفلة وانتهاز فرصة . فهضنا بأنفسنا إلى ذلك القطر ؛ فوالله ! ماسمع بنا أهل حصونه ، ولم تتدارك بالخروج صبيحة ذلك اليوم ، حتى ورد علينا عن حصن القصر بجهة صالحة أنه صار في ملسكنا وطاعتنا رعيته ؛ وهو حصن أول من يطوع وآخر من يعصى لذوى الغلبة والظهور ؛ فاستبشرنا بذلك ، وصيرنا إلى الحمة ، نروم منها أمر ذلك النّظر . فأعلّمت بصخرة دؤمس (ولا معنى لريه إلا بها ، وهي موسطة البلد) ، وقد اجتمع فيها جلّ عساكر مألقة مع قواد صاحبها ؛ فلو انتزعت تلك الشوكة ، كان أمر غيرها يسيراً هيناً . فاستعددنا لقتالها ، وضاربناهم في أول النزوع عليها . فخرج من فيها من الجند ، وأرسلوا إلينا تلك الليلة يطلبون الأمان ، ويخرجون بخيلهم سالمين في مهجهم . فأجبهم إلى ذلك ، عسى أن نكون نستميل غيرها بهذه الأيادي ؛ وأخلوا الصخرة ، وصار فيها جندنا .

وانتقلنا عنهم إلى حصن كان صاحب مألقة قد بناه لقطع الطريق بيننا وبينه أول قيامه ، على ما رسمناه ؛ فلم يكن إلا ساعة قدومنا عليه وتخاذل من فيه ، ودخل قسراً ، وهو حصن أشنير . ثم نهضنا إلى مريّة بلش ؛ فألقت بيدها . وأردت التمدى إلى بزيانة .

٢٠ وكان كباب\* بن تميم صاحب أرجذونة ، قائدنا ، قد استقل (١) في تلك الجهة ، وزعم أنه لا يتعزل إلينا . فلما رأى ظهورنا في هذه المعاقل ،



خاف أن يَصْفُوَ الجوُّ ويصرف البال إليه ، فرام أن لا نَصِلَ إلى بَزِيَّانَةَ وحذر من ذلك . وكان وراءنا حِصْنُ مُنْتِ مَاس ، رأيتُ أنه لا تَمَكَّنَ لنا مُنَازَلَةُ مَالِقَةَ إِلَّا بِالرَّاحَةِ مِنْهُ ؛ فَإِنَّهُ يَمْنَعُ الْمِيْرَةَ إِلَى الْمَحَلَّاتِ . فانصَرَفْنَا مِنْ بَزِيَّانَةَ نريدُ مُنْتِ مَاسَ الْمَذْكُورَةَ ، وأظهَرْنَا لِكَبَّابِ الْأَخْذِ بَرَأْيَهُ ؛ فَسَرَّ بِذَلِكَ . ٥

ولما نهضتُ إلى مُنْتِ مَاس ، رأيتُ مَعْقِلًا عَظِيمًا ، قد اجتمعت به جميع الرعايا ؛ فَعَرَضْنَا عَلَيْهِمُ الطَّاعَةَ ؛ فَأَبَوْا ، خِيفَةً مِنْهُمْ أَنْ نَكُونَ غَدًا نُصَالِحَ أَخَانًا وَيُعَاقِبُهُمْ ؛ فَأَمَّنَّا مِنْ ذَلِكَ . واجتمع فيه كلُّ فاسِقٍ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ ، وَأَعْرَضْنَا عَلَيْهِمُ الْحَرْبَ بِأَنْفُسِنَا ، وَتَرَكْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَرَتَبْنَا عَلَيْهِمُ الرُّتَبَ ١٠ وَانصَرَفْنَا إِلَى غَرْنَاطَةِ . وفي انصرافنا ، طاعتُنا لَنَا غَيْرُهَا مِنَ الْمَعَاقِلِ ، مِثْلَ أَيْرُشَ وَصَخْرَةَ حَبِيب . وَكُنَّا فِي أَوَّلِ وَجْهَتِنَا قَدْ أَخَذْنَا رُيْبِيْنَةَ بِالسَّيْفِ قَسْرًا ؛ وَطَاعَتِ لَنَا جُطْرُونُ ؛ وَهُمَا قَصَبَتَا مَالِقَةَ . وَطَارَتْ فِي تِلْكَ الْمَدَّةِ عَنْ يَدِهِ عَشْرُونَ مَعْقِلًا . وَانصَرَفْنَا إِلَى مُنْتِ مَاسَ ثَانِيَةً ؛ وَيُئْسُوا مِنْ تَرَكِّهِمْ ، وَطَاعَ أَهْلُهَا ؛ وَثَقَّفْنَاهَا ؛ وَهَدَمْنَا مِنَ الْحِصُونِ مَا نَسْتَعْنِي عَنْ إِمْسَاكِهَا بغيره ؛ وَأَمَّنْتُ الْجِهَةَ وَبَحَثْتُ عَنْ فَوَائِدِهَا ، وَصَارَ ذَلِكَ مُقَيَّدًا ؛ وَأَوْسَقْنَا أَهْلَهَا خَيْرًا . ١٥

ولما رأى أَخُونَا مَا دَهَمَهُ مِنَ الْأَمْرِ ، وَقِيَامَ رَعِيَّتِهِ عَلَيْهِ ، خَافَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ ، مَعَ تَبَرُّزِنَا نَحْنُ عَنْ مَالِقَةَ فِي حِينِ أَخْذِ مُنْتِ مَاس . وَاشْتَغَلَ بَعْضُ النَّاسِ بِقِتَالِ انْحَازُوا إِلَيْهِ دُونَ مَوْضِعِنَا ، وَتَبِعَهُمْ أَكْثَرُ عَسَكِرِنَا ، فَاتَهَزَّ أَهْلُ مَالِقَةَ الْفُرْصَةَ ، لَمَّا رَأَوْهُ مِنْ قَلَّةٍ مَنْ فِي الْمَوْكَبِ مَعَنَا ، وَخَرَجُوا ٢٠ عَلَى بَابِ فُنْتَنَالَةَ ، وَحَمَلُوا عَلَى \* الْعَسْكَرِ حَمْلَةً اخْتَلَطَ فِيهَا الْفَرِيقَانِ . وَلَمَّا رَأَيْتُ ٣٨ (ب)

فِرَار مَنْ مَعَنَا وَاجْتِلَاؤُهُمْ بِجُنْدِ مَالِقَةَ ، أَمْسَكْنَا عَلَى الْعَلَامَاتِ ، وَأَمَرْنَا بِضَرْبِ  
الطُّبْلِ بَعْدَ تَوَلَّيْهِ ، حَتَّى اجْتَمَعَ إِلَيْنَا بَعْضُ النَّاسِ لَمَّا رَأَوْا ثُبُوتَ الْعَلَامَاتِ .  
ثُمَّ كَانَتْ لَنَا عَلَيْهِمُ الْكُرَّةُ ، بَعْدَ أَنْ أُسِرَ بَعْضُ رِجَالِنَا ؛ فَأَنْقَذُوهُمْ ، وَهَزَمُوا  
عَسْكَرَ مَالِقَةَ ؛ وَكَانَ بِهَا مِنْ جُنْدِ الْبَرْبَرِ نَحْوُ ثَلَاثِمِائَةِ فَارِسٍ أَجْبَادَ ، إِلَّا أَنَّ  
الْحَزْمَ دَاخَلَهُمْ ، وَنَزَعَ إِلَيْنَا أَكْثَرَهُمْ .

وَلَمَّا رَأَى بَعْضُ مَنْ مَعَنَا تِلْكَ الْهَزَّةَ ، أَشَارَ عَلَيْنَا بِالْانْصِرَافِ ، وَخَوْفَنَا مِنْ  
تَقْوِيَةِ ابْنِ عَبَّادٍ أَنْ تَدْخُلَهَا مَا لَا يُمَكِّنُ ؛ فَقُلْتُ : « إِنَّ الْانْصِرَافَ عَلَى  
هَذِهِ الْحَالَةِ عَجْرٌ ! وَسَيَشِيعُ فِي الْجِهَةِ كُلِّهَا أَنْ رَجَوْعَنَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَنْ هَزِيمَةٍ !  
فَالْأَوَّلَى أَنْ نَكْسِرَ يَوْمَيْنِ نُبَرِّزُ فِيهَا كُلَّ يَوْمٍ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي التَّحَمَّتْ فِيهِ  
الْخَيْلُ ، نُرِيهِمْ : إِنْ كَانَتْ بِكُمْ قُدْرَةٌ ، فَعَاوِدُوا مَا فَعَلْتُمْ ! » وَثَقَّتْ الْعَسْكَرُ  
لثَلَاثَةِ يَطِيشٍ مِنْهُ أَحَدٌ . فَكَانَ ذَلِكَ . وَأَقْلَعْنَا بِعِزَّةٍ حَتَّى وَصَلْنَا نَظَرَنا عَلَى  
أَتَمِّ مَا يُمَكِّنُ . وَلَوْ رَفَعْنَا أَوَّلَ تِلْكَ الْوَهْلَةِ ، خَلَّتْ جَمِيعُ الْمَعَاقِلِ الَّتِي طَاعَتْ  
لَنَا ، وَكَأَنَّنا مَا صَنَعْنَا شَيْئًا .

فَبَقِيَّتِ الْحَالِ ضَيْقَةٌ عَلَى مَالِقَةَ . وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا أَخُونَا ، يَسْتَغْفِرُ وَيَسْأَلُ  
الْعَفْوَ وَإِقَالََةَ الْعَثَرَةِ . فَدَبَّرْنَا أَمْرَهُ فِي أَنْفُسِنَا ، وَعَمَلْنَا فِيهِ رَأْيًا سَدِيدًا ،  
وَعَلِمْنَا مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَرَصِ وَالشَّرِّ وَالْخَدَّةِ ، وَأَنَّ صَرْفَ الْمَعَاقِلِ إِلَيْهِ  
تَقْوِيَةٌ لَشَرِّهِ ، وَأَنَّهُ ، إِنْ عَاوَدَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ ، لَمْ يَقْدِرْ لَهُ عَلَى شَيْءٍ ،  
وَلَا تَطْوَعُ بَعْدَهَا رَعِيَّتُهُ إِنْ أَرَدْنَا هُمْ بَعْدُ ، لِمَا يَرَوْنَ مِنْ إِسْلَامِنَا لَهُمْ  
إِلَيْهِ ، وَخَافُوا أَنْ يُعَاقِبَهُمْ ، مَعَ مَا كَانُوا يَنْتَقِمُونَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الطَّرِيقَةِ  
مَعَهُمْ ، يُعْلِنُونَ بِذَلِكَ ؛ وَأَخَذُوا مِنَّا مِيثَاقًا غَلِيظًا أَلَّا نُسَلِّمَهُمْ إِلَيْهِ ، وَعَاهَدْنَا هُمْ  
عَلَى ذَلِكَ بِأَيْمَانٍ مَغْلَظَةٍ . وَظَهَرَ مِنْ أَقَاوِيلِهِمْ أَنَّهُمْ ، مَتَى رُدُّوا إِلَيْهِ ، لَمْ

يجيئوا\* ، وأدخلوا الداخلة ، وصيروها إلى رئيس غَيْرنا . فخِفْنَا من هذه ٣٩ (١)  
الوجه ما يجب أن يتوقع .

٥ ثُمَّ لَمْ نَرَ وَجْهًا فِي الْإِلْحَاحِ عَلَيْهِ ؛ فَرُبَّمَا أُخْرِقَ ، وَصِيرَهَا إِلَى سِوَانَا ،  
كَالَّذِي صَنَعَ مَا كَسَنَ عَمَّنَا بِجَيَّانٍ ؛ فَتَكُونُ مُصِيبَةً لِلْبَلَدَةِ ، وَعَارًا عَظِيمًا ،  
من تَوَلَّيْجِ أَخِينَا وَشَقِيقِنَا إِلَى غَيْرِنَا ، وَتَغْرِيبِهِ فِي الْبِلَادِ ، وَأُمِّهِ فِي قَيْدِ الْحَيَاةِ ؛  
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ ، فَأَبْقَيْنَا عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَدَّبْنَاهُ<sup>(١)</sup> بِمَا كَفَى ، وَوَسَّعْنَا عَلَيْهِ فِي  
النَّظَرِ مِمَّا لَمْ تَبْقَ فِيهِ مِنَ الرِّعْيَةِ ، وَكَانَ مُهِمًّا عَلَيْهِ ؛ وَأَخْلَيْنَا لَهُ رِيْدِنَةَ  
وَجُطْرُونَ ؛ فَإِنَّ رَعِيَّتَهَا نَصَارَى ، وَهُمْ بَيْنَ النَّظَرَيْنِ ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى نِفَاقٍ  
مَعَ أَحَدٍ ؛ وَأَعْطَيْنَاهُ قُرَى يَتَسَّعُ فِيهَا لِمَرَاقِهِ . وَبَقِيَتْ يَدُهُ حُصُونُ الْغَرْبِيَّةِ  
١٠ مِثْلَ قَرْطَمَةٍ ، وَمِيشَشَ ، وَحَارِشَ ؛ وَأَعْطَيْنَاهُ قَامَرَةَ ، بَلَدَ الزَّرْعِ ، لِيَتَسَّعَ  
فِيهَا لِلْحَرْثِ . وَحَرَّمْنَاهُ غَيْرَهَا ، الَّتِي يَتَوَقَّعُ مِنْ أَهْلِهَا وَمِنْهُ : إِنْ اسْتَأْسَدَ  
بِهَا ، لَمْ يُوْثَمِنْ شَرُّهُ .

وَبَقِيَتْ حَالُهُ فِي أَفْضَلِ الْأَحْوَالِ ، مَا رَضِيَتْ بِهِ الْوَالِدَةُ وَحَمَدَهُ جَمِيعُ  
النَّاسِ ، صِلَةً لِلرَّحِمِ ، وَعَفْوًا عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ ، وَتَأْدِيبًا لِمَا يَخْشَى عَاقِبَتَهُ . وَقَرَّ  
١٥ حَالُهُ قَرَارَهُ ، وَنَفْسُهُ فِي هَذَا عَلَيْنَا حَاقِدَةٌ ، تَبْلُغُنَا عَنْهُ أَقَاوِيلَ سَيِّئَةٍ ؛  
وَنَحْنُ لَا نَعْرِجُ عَلَيْهَا وَنَقُولُ : « إِضْرَارُهُ بِالْقَوْلِ خَيْرٌ مِنْ إِضْرَارِهِ بِالْفِعْلِ ،  
لَوْ صَرَفْنَا إِلَيْهِ الْمَعَاقِلَ ! وَعَلِمْنَا أَنَّهُ فِي عَافِيَةٍ وَنِعْمَةٍ طَائِلَةٌ مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ  
الَّتِي تَرَكَ جَدُّهُ بِمَالَتِهِ ، لَمْ يَحْجُجْ قَطُّ إِلَى نَفَقَةِ دِرْهَمٍ مِنْهَا ، وَلَا نَالَتَهُ فِتْنَةٌ ،  
وَلَا بَلَغَهُ مَكْرُوهٌ ؛ وَكُنَّا نَحْنُ أَمَامَهُ نُقَاتِلُ عَنْهُ الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ ، وَنُعْطِي عَنْهُ  
٢٠ الْجِزْيَةَ ، وَهُوَ فِي دَعَاةٍ ؛ فَإِذَا كَانَ يَدُهُ فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ لِقَلَّةِ تَمَوُّنِهِ وَاحْتِيَاجِهِ

إلى نفسه في التَّوَنُ<sup>(١)</sup> والنِّفَقَات ؛ فَإِنَّ هَذَا كَثِيرٌ ، وَهُوَ تَحْتَ نِعَمِ جَمَّةٍ ! »  
 فَطَابَتْ أَنْفُسُنَا عَلَى ذَلِكَ . وَكَفَّ هُوَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا كَانَ يَرْتَكِبُ مِنَ الْقَتْلِ  
 وَالظُّلْمِ ، حَتَّى أَنَّهُ لَا يَرِدُنِي مِنْ عِنْدِهِ رَسُولٌ مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ أَوْ جُنْدِهِ \* ٣٩ (ب)  
 إِلَّا وَيَوْصِي أَنْ نَشُدَّ يَدَيَّ عَلَيْهِ ، وَيَقُولُ لِي : « بَتَأْدِيبِكَ لَهُ فَلَحْنَا وَكَفَّ  
 عَنَّا ، وَإِنَّهُ ، مَتَى يَأْمَنُ مِنْكَ أَمْرًا ، طَغَى عَلَيْنَا ، وَشَقِينَا بِهِ . وَمَا فِي الدُّنْيَا  
 أَشْعَرُ مِنْكَ فِي إِمْسَاكِ تِلْكَ الْمَعَاقِلِ عَنْهُ ؛ فَإِنَّكَ كُنْتَ بَعْدَ هَذَا لَا تَلْجِمُهُ  
 أَبَدًا ! » فَخَرَجَتِ الْأُمُورُ خَيْرَ خَرَجٍ ، وَأَمَّنَّا جِهَتَهُ بِسِتْرِهِ فِي مَكَانِهِ ، وَلَمْ  
 نَفْجَعْ فِيهِ أُمَّه .

## ٤٥ — ذِكْرُ ثَوْرَةِ كِبَّابِ بْنِ تَمِيمٍ وَثَوْرَةِ بَنِي تَائِقُنُوتَ

وَنَهَايَتَهُمَا

وَأَنَّ كِبَّابَ بْنَ تَمِيمٍ ، قَائِدُنَا بِأَرْجُذُونَةَ وَأَنْتَقِيرَةَ ، لَمَّا رَأَى ظَهْرَنَا  
 عَلَى مَالِقَةَ ، أَكْبَرَهُ ذَلِكَ وَشَقَّ عَلَيْهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْأَمْرَ مُنْجَزٌ إِلَيْهِ ، إِذْ  
 كَانَ قَدْ أَضْمَرَ نِفَاقًا وَطَاعَةً فِي مَعْصِيَةٍ ، لَمَّا تَأَسَّسَ لَهُ هُنَاكَ فِي حِينِ الْفِتْنَةِ  
 مِنْ ضَمِّ الْأَطْعِمَةِ ، وَالِاسْتِحْوَاذِ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ بِقَطْعِهِ السُّبُلِ ، وَانْقِطَاعِ  
 أَهْلِ الشَّرِّ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ قَطْرِ . وَكَانَ أَمْرُهُ مِنْ ذُنُوبِ سِمَاجَةِ عِنْدَنَا ،  
 الَّذِي سَوَّغَهُ الْبَلَدُ ، وَجَعَلَهُ مِلْكًا فِي يَدِهِ وَيَدَى بَنِي عَمِّهِ ، حَتَّى شَقِيَ بِهِ .  
 وَلَمَّا تَمَّ صَلُحُنَا مَعَ الْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ ، خَالَفْنَا فِيهِ ، وَجَعَلُ يُفْسِدُ وَبِنَقُضِ  
 مَا أَبْرَمْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَقْرَأُ عَنِ الضَّرْبِ . فَجَعَلْتُ أَقْدُمُ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ  
 الْمَرَّةِ ، وَأَنْذَرُهُ عَاقِبَةَ اتِّبَاعِ هَوَاهُ ، وَأَقُولُ لَهُ : « إِنَّ لِلْمُصَالِحَةِ وَقْتًا يَنْبَغِي

لِلأَمْرِ حِفْظُهَا ؛ فَإِذَا أَفْسَدَتْهَا ، فَأَنْتَ مِنَ الْمُطَالِبِينَ لِي ! » فَلَا يَزِدُّ جِرْءَ مَعَ هَذَا كُلَّهُ ، وَلَا يَنْفَعُ فِيهِ وَعْظٌ ، لِإِعْجَابِهِ وَتَحَامُّقِهِ . وَكَانَتْ كُتُبُ الْمُعْتَمِدِ أَبَدًا تَرِدُ بِالشَّكْوَى مِنْهُ ؛ فَأَضْمَرَ لَنَا مِنْ كَفِّهِ غَائِلَةً . وَكَانَتْ مِنْ سَعَادَتِنَا أَنَّهُ لَمْ يَحْمِلِ الْمُعَامَلَةَ مَعَ أَحَدٍ الْفَرِيقَيْنِ .

٥ فَلَمَّا طَالَ الشَّكْوَى بِهِ ، قُلْتُ لِرَسُولِ الْمُعْتَمِدِ : « لَا أُسْتَطِيعُ عَلَى عَزْلِ

كِبَابٍ إِلَّا بِالْمُجَاهَدَةِ فِي مُفَاسَدَتِهِ ؛ فَإِنْ اسْتَوْثَقْنَا مِنْكُمْ أَنْ يَتَرَامَى عَلَيْكُمْ وَلَا تَقْبَلُوهُ ، فَخَنُّ ضَامِنُونَ لِعَزْلَتِهِ ! » فَارْتَبَطَ مَعِيَ عَلَى أَنْ لَا تُقْبَلَ لَهُ رَجْعَةٌ وَلَا تُتْقَالَ لَهُ عَثْرَةٌ . فَأَلْحَحْتُ عَلَى كِبَابٍ فِي أَنْ يَنْزِلَ عَنِ الْمُعْتَمِلَيْنِ ، ثِقَّةً مَنَى بِمَا رَبَطَتْهُ مَعَ الْمُعْتَمِدِ ، فزَادَ طُغْيَانَهُ ، وَخَاطَبَ عَلَى الْمَقَامِ إِلَى ابْنِ

١٠ عَبَّادٍ ، \* يَرْغَبُ فِي تَصْيِيرِ الْحَصُونِ إِلَيْهِ . فَأَرْسَلَ إِلَى الْمُعْتَمِدِ بِكِتَابِهِ ، ٤٠ (١)

وَحَضَّنِي عَلَى شِدَّةِ الْيَدِ عَلَيْهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ ؛ فَفَعَلْتُ ذَلِكَ . وَهَذَا جَمًّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ إِنْصَافِ الْمُعْتَمِدِ لَنَا وَقَلَّةِ خِلَافِهِ عَلَيْنَا مُذْ فَارَقَ ابْنَ عَمَّارٍ ، كَالَّذِي أَجْمَلْنَا نَحْنُ مَعَهُ فِي أَمْرِ بَيَّاسَةَ ، وَقَدْ نَفَاقَ أَهْلُهَا وَأَرْسَلْتُ كِتَابَهُمْ إِلَيْهِ .

وإِنْ كِبَابًا قَبْلَ ذَلِكَ ، لَمَّا رَأَى صَنِيعَنَا بِمَالَقَةٍ ، عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ ، نَظَرَ

١٥ — فِي زَعْمِهِ — لِنَفْسِهِ وَقَالَ : « هَذَا مَا صَنَعَ بِأَخِيهِ ! وَطَاعَتْ لَهُ الرِّعَايَا !

فَكَيْفَ بَيْنَ هُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِهِ ؟ » وَأَحْسَنَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ابْنُ تَأَقُّوْتٍ ، صَاحِبُ مَدِينَتِنَا ؛ وَكَانَ أَمْرُهُ سَوَاءً ، كَثِيرِ الطُّغْيَانِ ، بَعِيداً مِنَ الْخَيْرِ ، مُؤَثِّراً لِلشَّرِّ ، وَكَانَ لَهُ أَخٌ بِحَصْنِ جَرِيْشَةِ ، قَدْ سَوَّغَهُ أَيْضاً سِمَاجَةً إِقْلِيمَ نَيْمَش كُلَّهُ ، وَطَالَ مَكْنَتُهُ فِي الْحَصْنِ سَبْعَةَ أَعْوَامٍ ؛ فَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ ، مِثْلَ مَا أَضْمَرَ

٢٠ كِبَابٍ مِنَ النِّفَاقِ ؛ فَتَعَاقَدَا جَمِيعاً وَتَحَالَفَا أَنْ لَا يَنْعَزِلَ أَحَدُهُمَا إِلَّا

بِعِزَّةِ الْآخَرِ .

فشعرتُ للأمر ؛ فأولُ ما ابتدأتُ به النظرُ في أمر ابن تاقنوت ، إذ كان أهمّ علينا من أجل مدينتنا التي كانت بيده ، وجريشة بيد أخيه . ورأيتُ معاقدةَ المُعتمدِ عليه أكَّدَ ، إذ علمتُ من حنقه على كَبَّاب أنه لا يقبل له معذرة . فعاملتني على ذلك أيضاً بأحسن مُعاملة ، وتسرح بعسكره قُوَّة إن احتيج إليه لحرب جريشة ، وشارك غاية المشاركة في التوسُّط بيننا وبينه ؛ وأرسل إليه رسوله ، يقول له : « إن كنت جَزَعْتَ من رئيسك ، فاترك حصنه ! وأضمن لك عنه الحال الصالحة والأمان والإحسان ، وإن كنت لا تثق بهذا كله ، فانزل إلى بعد أن أعطيك عهدَ الله وميثاقه ألا أُسلمك إليه أبداً ! » فما كان جوابه إلا إن قال : « وما تصنعون بالحِصن ؟ » قال : « أُصيرُه إلى صاحبه ! » فأبى وقال : « إنَّما أريد أن أجعل المَعْقِل بيد من يُذيقه الشرَّ ويتولَّى فِتْنَتَه ! »

فأتاني ابنُ\* الأصبَحيّ رسولُ المُعتمد ، المتوسِّط لخبره ؛ فقال لي : ٤٠ (ب) « اعزِّم على مُنازلة الرجل ! فليس فيه إلى الخير طريقٌ ؛ وهو متأهَّبٌ للشرِّ ، لا يقنعه إلا الإضرارُ بك ! » وكان في هذا كله يقطع السُّبُل ، ويُخيف الناس ، ويقتل أهل الرِّفق ، ويُطْلِع أموالهم إلى الحِصن ، ما كان أشهرَ في الناس من الشمس ، حتى لا يتجرأ أحدٌ أن يختار بشيء من تلك الجهات .

فاستخَرْتُ اللهَ على مُنازلته ، ومكثتُ عليه ستَّة أشهر ، لا نُبالى عما تنفق عليه من الأموال ، إلى أن رقتُ حاله ؛ وأنا في هذا كله أقدمُ إليه وأبلى العذرَ عنده ، وأخوه في ثقافي . وأمرتُ أخاه بأن : « اكتبْ إليه أني متى أخذته على غيرِ عهدٍ ، برَّختُ بقتله ؛ وإن كان نزل على الأمان قبل

أخذه ، ولو بساعة ، لم يتوقع مَتَى شيئاً ! » فوالله ! ما تَرَدُّ عليه هذه الكتبُ إلَّا ويزداد طغياناً وشمًا وحقاً ، حتى يَسَرَ الله أخذه ، ودُخِلَ الحِصْنُ ، وكفى الله شرَّهم ، وطهرهم من البلاد ، وأراح منهم العباد .

وشاورتُ كبارَ البلدة وفقهاءها في خبرهم ؛ فخيروني في الذي حضَّ الله

٥ عليه من قوله تعالى <sup>(١)</sup> : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ الآية . فرأيتهم مستوجبين للصلب ، وأنه

أذهى وأمرُّ من أن يُنفُوا من الأرض . فإن شرَّهم لا يؤمن . وكثيراً ما كان

المسلمون مُرتقبين لما حلَّ بهم ! ووالله ! ما صرفتُ وجهي لأحدٍ خاصَّةً

وعامةً من أهلِ بلادِي إلَّا ووصف لي من أفعالم القبيحة ما وترواها جميع

١٠ الناس . ولقد كان يومُ قتلهم للناس عيداً كبيراً من سرورهم وابتهاجهم

بالراحة من شرِّهم .

وإنَّ كَبَّابَ بن تَمِيمَ المذكور ، لما رأى ما صُنِعَ بيني تَأَقَّنَوْتُ ،

زاده ذلك حفاقةً واستيحاشاً ، وخاطبَ الْمُعْتَمِدَ على ما قدَّمنا ذِكرَه .

فأرسلنا إليه نُعرض عليه التخلِّي عن المَعْقِلَيْنِ ؛ فأبى ذلك ، وأعدَّ ، واستعدَّ

بآلِه الحرب ، وضمَّ الحِرَّاسَةَ وأخاف السَّيْلَ ، وقطعَ \* الطُّرُقَ وأتى بما هو

١٥ مشهور من شرِّه . فاستخرتُ الله على مُنازلته ، وأمرتُ بضمِّ الأجناد

واجتماع الأنداب لقتاله ؛ فكان ذلك على أتمِّ ما يمكن . ولما أحسن من

نفسه بالضعف ، وأنَّه لا ملجأ له ولا مَهْرَبَ إلى أحدٍ بقلَّةِ إقبال السلاطين

عليه ، تَرَامَى علينا ، وسأل العفوَّ ، خوفاً أن يحلَّ به ما حلَّ بيني تَأَقَّنَوْتُ

٢٠ إذ لم يقبلوا الأمان قبل الغلبة ؛ فأعطيته من العفو ما سأل ، ليكون ذلك

قدوة لمن سألَ مِنَّا العَفْوَ بعدَ الإِسَاءَةِ ، فلا يَتَيَأَسُ منَ فعلِها ، إنَ دفعنا إلى مثلِها بعدها ؛ وكاتِ الأولى عِظَةً وشُعْفَةً لمنَ نَفَرَ ، ولم يقبل الأمان ، وتمادى على الطغيان .

وَكُنَّا لَا نُقَدِّمُ شَيْئًا وَلَا نُؤَخِّرُهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ إِلَّا بَعْدَ رُويَةٍ وَفِكْرَةٍ  
 ٥ في العاقبة ، وَنَدْعُ مَشُورَةَ النَّاسِ ؛ فَإِنَّا بَلَوْنَا مِنْهُمْ قَلَّةَ التَّحْقِيقِ ، وَالنُّطْقِ  
 عَلَى الْهَوَى : فَإِنَّمَا مَقْتُونٌ بِأَمْرِ يُزَيِّنُهُ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا كَارِهٌ لَخَيْرٍ أَوْ  
 مَطَالِبٌ لِأَحَدٍ ، فَيَجْعَلُنَا نَحِيرُ عَنْ مَا لَا يَطَابِقُ هَوَاهُ ، ﴿ وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ  
 أَهْوَاءَهُمْ ، لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ <sup>(١)</sup> . فَلَمَّا بَلَوْنَا مِنَ النَّاسِ هَذِهِ  
 الشَّمَائِلَ ، وَأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَحِبُّ أَنْ تَجْرِيَ الْأَحْكَامُ عَلَى اخْتِيَارِهِ ، رَجَعْنَا  
 ١٠ إِلَى إِثَارِ اخْتِيَارِنَا ، إِذْ كَانَ نَظَرُنَا لَأَنْفُسِنَا أَرْشَدَ مِنْ نَظَرِ غَيْرِنَا ؛ « وَمَا حَكَ  
 ظَهْرُكَ مِثْلُ ظَهْرِكَ ! » <sup>(٢)</sup>

وَكُنَّا مَعَ هَذَا نَصْغَى إِلَى قَوْلِ النَّاسِ بِالْأُذُنِ ، لَا بِالْعَقْلِ ؛ فَفَنَقِيسُ عَلَيْهِ  
 وَنُخْتَبِرُ مُرَادَهُ ، وَلَا نُزِيهِهِ الْخِلَافَ ، فَنُوحِشُهُ ، غَيْرَ أَنِّي أَوْسِعُ لَهُمْ صَدْرِي  
 وَيَسْعُ جَهْلُهُمْ حِلْمِي ، وَأَقْضِي بَعْدَ ذَلِكَ مَا أُرِيدُ ، إِذْ لَمْ أَكُنْ عَلَى أَمْرٍ  
 ١٥ مُجْبُورًا وَلَا مَقْهُورًا ، إِلَّا مَا قَهَرْتَنِي عَلَيْهِ السِّيَاسَةُ ، وَمَا تَحَمَّدَ لَهُ الْعَاقِبَةُ ، كَمَنْ  
 يَتَجَرَّعُ الدَّوَاءَ لِبُرْءِ الدَّاءِ ، وَلَمْ أَكُنْ أَغْتَبِنِ لِأَحَدٍ فِي الْحَقِّ مِنْ جِهَالَةٍ وَلَا  
 غَفْلَةٍ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَسَاحَةً وَتَغَافُلًا لِأَمْرٍ يُرَادُ ، أَوْ مُتَبَاعَةً لِلْقَوْلِ فِي  
 حِينِهِ تَلَطُّفًا وَقَلَّةَ خِلَافٍ عَلَى قَائِلِهِ ؛ ثُمَّ أَصْرَفَهُ تَارَاتِ \* فَالْجَاهِلُ عِنْدَنَا مَنْ ٤١ (ب)  
 إِذَا أَشَارَ بِرَأْيٍ ، ثُمَّ رَأَى أَنَّهُ صُنِعَ ضِدُّهُ ، أَنْ يَعَاوِدَ الْقَوْلَ فِيهِ : فَإِنْ كَانَ

(١) سورة المؤمنون : ٧١ .

(٢) راجع « مجمع الأمثال » للسيداني (ط القاهرة ، ١٣١٠) ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .



فَطِنًا ، من العَيِّ التكرار ؛ وإن كان لم يعلم ، فالتذكيرُ به غفلةٌ منه أو استنقاصٌ لخدمته ؛ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لم يسمع منه الأولى ، فتجربى عن الأخرى ؛ ولعلَّ خلافَ الرئيسِ عليه الأمرَ قد ظهر له ، وخفر عن القائل ، ولم يُردِ إطلاعه عليه ؛ فيكون في رأيه البركة والخير للفريقين ؛ وهو يلوم على ما لا يعلم أضله ويتبادى جهالةً ، وينطق هذراً ، وتنحرف نيته على غير معنى ؛ فيكون ظالماً لنفسه .

فأودعنا كِتَابًا حِلْمًا ، وأَمَّنَّا ، وبقي في جملة الجند تحت إحسان وإحمال ، غيرَ أنِّي لم أَسْتَعْمِلْهُ بعدها في مَعْقِلٍ ، ولا مَكْنَتُهُ من صَخْرَةٍ ، إذ « لا يلدغ مُؤْمِنٌ » من جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ<sup>(١)</sup> .

## افصل السابع

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٣) قدوم المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزَّلَّاقَة ومحاصرة

حِصْن لِيَّيْط

٤٦ — مقدّمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس

وَبَقِيَتْ أحوالنا على أَفْضَل ما يُمْكِن ، وَبَلَّغْنَا من آمالنا غايتها ، إلى أن  
حَدَّثَ أَمْرُ المُرَابِطِينَ — أَعَزَّهُمُ اللهُ — . وَكُنَّا رَأَيْنَا كَلَبَ النِّصْرَانِيَّ عَلَى  
الجزيرة وأَخَذَهُ لَطْلِيظَةً ، وَقَلَّةَ رَفَقِهِ ، بَعْدَ ما كان يَقْنَعُ مِنَّا بِالجزيرة وصار يروم  
أَخَذَ القَوَاعِدَ ، وَأَنَّ أَخَذَهُ لَطْلِيظَةً لِلضَّعْفِ المتوالى عليها عاماً بعد عامٍ ؛ وكذلك  
كان من شأنه في أَخْذِ البلاد ، إِذْ كان مَذْهَبُهُ أَلَّا يُنْازِلَ مَعْقِلًا ، وَلَا  
يُفْسِدَ أَجْنَادَهُ على مَدِينَةٍ ، لِبُعْدِ مَرَامِهَا وَمَنْ فِيهَا من مُخَالِفِي مِلَّتِهِ ، وَإِنَّمَا  
كان يَأْخُذُ مِنْهَا الجزية عاماً بعد عامٍ ، وَيَعْنِفُ عليها بما شاء من أَصْنَافِ  
التَّعَدَّى ، إلى أن تَضَعِفَ وتَلْقَى يَدَهَا كما فَعَلَتْ .

فوقع من ذلك في الأندلس رجّةٌ عظيمةٌ ، وأُشْرِبَ أَهْمَا خَوْفًا وَقَطَعَ  
رجاء من استيطانها . وَجَرَتْ بين الْمُعْتَمِدِ وَالْفُونَشِ مُخَالَفاتٌ كَثِيرَةٌ ، وَسَأَلَهُ

أن يتخلى له معاقِلَ كان الموتُ عنده أولى من إعطائها. فوجست نفسه منه بالجملة ،  
ورام كسره بطوائف الموابطين ، وضربَ بعضهم ببعضٍ للقدَر الذي شاء الله :  
إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأكثرُ ما ينجي عليه اجتِهادهُ  
\* وقد كان أخونا صاحبُ مائقة ، للفتنة التي كانت بيننا وبينه ، قد ٤٢ (١)  
داخلهم قبلُ يستغيثُ بهم ، ويرجو الانتقامَ مِنّا بهم ، وأن يُذكرُ كوهُ  
ما فاتهُ من مملكة جدّه ؛ وظنّ أنّه ، عند ظهورهم ، يقسم الأموال بيني  
وبينّه . وكان هذا الخِلافُ كُلّه من سعادة أمير المسلمين ، ورأى من تشنّتنا  
أنّه لا مشقة تكون عليه في أخذِ بعضنا ببعضٍ متى شاء ، فلم يُجبههُ الأميرُ  
إلى شيء ، ولا كان وقته ، وهو يُليحُ عليه بقلة الدربة .

٤٧ — إرسال سفارات أندلسيّة إلى مرّاكش . احتلال ١٠

### الموابطين الجزيرة الخضراء

وقد كان رُسُلُ المُعتمد قبل هذا قد وردت عليه ، نعلمه أن يتأهبَ  
للجهاد ، وتعدّه بإخلاء الجزيرة الخضراء ، وأنه لا يصلُ إلى سبّته إلا ويضعها  
في يديه . فلمّا وصل متأهباً لذلك ، بمن احتفل به من جيشه ، قدّم رُسُلُه إلى  
المُعتمد ، منهم عبدُ الملك القاضي . وابنُ الأحسن ؛ فأَمْسَكَهُمْ بِإِشْبِيلِيَّة مُدَّة ١٥  
طويلة ؛ وأميرُ المسلمين في ذلك مُتَقَلِّقٌ لورودهم ؛ فأرسل معهم من شيوخ  
إِشْبِيلِيَّة من يقول له : « تَرَبَّصْ من سبّته مُدَّة من ثلاثين يوماً ، إلى أن  
نُحْلِي لك الجزيرة . » فأجابهم إلى هذا ، وسألوه خطَّ يده وبالترُّبُّص .  
فأشعرَ الأميرُ بذلك ، وقيل له : « لم يَجْعَلْكَ ابنُ عَبَّاد في هذا الالتواء إلا  
لأنّه يُريد أن يرسل إلى ألفونس يُعلمه بقدومك ؛ ولعلّه يتأتّى له منه ما يرغب ، ٢٠

ويهدده بك ، ويسأله أن يعاقده على أن يهبه الجزيرة أعواماً . فإن فعل ، استجاش عسكره على الجزيرة ، ومنعك الجواز ، فأُسبِّقهُ إليها ! وإن كان النصراني لا يتأتى له ، أُرْسِلَ إليك في الجواز !

ولما انفصل الرُّسُلُ عنه بنية التَّربُّص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يوماً ،  
 ٥ جَهَّزَ عسكراً مُقَدِّماً من نحو خمسمائة فارس ، وأرسلهم في أثرهم ؛ فلم تَصِلْ  
 الرُّسُلُ إلى الجزيرة آخر النهار إلَّا والعسكر في أثرهم قد عَدَوْا ونزلوا بدار  
 الصَّنَاعَةِ . فالتفت القومُ إلى حَيْلٍ قد ضَرَبَتْ مَحَلَّتَهَا ، لم يُدْرَ متى أَقْبَلَتْ ؛  
 ولم يُصْبَحْ لهم إلَّا وطائفةٌ أُخْرَى بعدها ، يزيدون ويتراذفون ،\* حتى انكَل (ب) ٤٢  
 العسكر كُلُّهُ على الجزيرة مع داود بن عائشة ، وأحْدَقُوا حَوَالِيهَا يحرسونها .  
 ١٠ ونَادَى داود بالراضى ، وقال له : « وَعَدْتُمُونَا بِالْجَزِيرَةِ ! وَنَحْنُ نَأْتِ لِأَخْذِ بَلَدٍ  
 وَلَا ضَرَرَ بِسُلْطَانٍ ! إِنَّمَا أَتَيْنَا لِلْجِهَادِ ! فَأَمَّا أَنْ تُخْلِيَهَا مِنْ هُنَا إِلَى وَقْتِ  
 الظُّهْرِ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا ، وَإِلَّا ، فَالَّذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَأَصْنَعْ ! »

وخاطبَ أميرُ المسلمين ابنُ (١) عَبَّاد ، يُعْلَمُ بِمَا صَنَعَ ، ويقول له :  
 « كَفَيْنَاكَ مَوْنَةَ الْقَطَائِعِ وَإِرْسَالَ الْأَقْوَاتِ لِأَجْنَادِنَا كَمَا وَعَدْتَ ! » فَأَرْسَلَ  
 ١٥ الْمُعْتَمِدُ لَابَنَهُ الرَّاضِيَ فِي إِخْلَائِهَا لَهُمْ ، وَحَصَلَ فِيهَا دَاوُدُ . وَأَتَى الْأَمِيرُ  
 إِلَيْهَا ، وَدَخَلَهَا نَاطِرًا إِلَيْهَا ؛ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى سَبْتَةِ إِلَى وَقْتِ إِقْبَالِهِ . وَأَمَرَ  
 دَاوُدَ بِالتَّقَدُّمِ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ ؛ فَاسْتَوَفَتِ الْعَسَاكِرُ عَلَى إِشْبِيلِيَّةَ .

وقد كان رُسُلُنَا مَضُوعًا مَعَ رُسُلِ الْمُعْتَمِدِ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، عَلَى اتِّفَاقٍ ضَمَّ بَعْضُنَا  
 فِيهِ بَعْضًا إِلَى حَقِيقَةٍ ، وَعَاقَدْنَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنْ تَتَّصِلَ الْأَيْدَى عَلَى غَزْوِ الرُّومِ  
 ٢٠ بِمَعُونَتِهِ ، وَأَلَّا يَعْزُضَ لِأَحْدَانَا فِي بَلَدِهِ ، وَلَا يَقْبَلَ عَلَيْهِ رَعِيَّتُهُ مِنْ يَرُومِ الْفَسَادِ عَلَيْهِ .

## ٤٨ - تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد

وأرسل [ أمير المسلمين ] ، عند خُلوله بإشبيلية ، عن جميع الرؤساء ؛ فأما ابن صُمَادِح ، فأبى عليه [ وبقى ] مُتَرَبِّصًا ليرى كيفية الأمر وتخرجه مع الرُوم ؛ واعتذر بكبر السن مع الضعف ، وأرسل ابنه مُعْتَذِرًا . وبأدْرْنَا نَحْنُ إلى الخروج ، وسررْنَا بذلك ، وأعدَدْنَا ما اشتَطَفْنَا عليه للجهاد بأموالنا ورجالنا ؛ وقدَّمْنَا الهدية إلى أمير المسلمين ، وأمرْنَا بضرب الطَّبْل وما يُسْتَعَدُّ به للفرح ، عند مُحَاطَبَتِهِ لَنَا بدخول الجزيرة . وظننَّا أَنَّ إقباله إلى الأندلس مِنَّةٌ من الله عَظُمَتْ لَدَيْنَا ، لا سِيَّما خاصَّةً من أَجْلِ القِرابَةِ ، وللذي شاع من خيرهم ، وإقبالهم على طَلَبِ الآخرة ، وحُكْمِهِم بِالْحَقِّ ؛ فنعمل أنفُسَنَا وأموالَنَا في الجِهاد معه كلَّ عامٍ : فمن عاش مِنَّا كان عزيزًا ، تحت سترٍ وحمايةٍ ، ومن مات كان شهيدًا . والعجبُ في تلك السفرة من حُسْنِ النِّيَّاتِ ، وإخلاصِ (١) الضمائر ، كَأَنَّ القلوب إنما جمعت على ذلك .

ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بَطْلَيْوُس بِجَرِيْشَة ، ورأينا من إكرامه لنا وتحفُّيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبةً ، لو استَطَفْنَا أن نمنحه لحومنا ، فضلًا على أموالنا . ولقينا المُتَوَكِّلَ ابنَ الأَفْطَسِ مُحْتَفِلًا بعسكره : كلُّ يرغب في الجهاد ، قد أعمل جَهْدَهُ ، ووطن على الموت نفسه .

## ٤٩ - موقعة الزَّلَّاقَة وانتصار المسلمين على أَلْفُونْشِ السادس

وتَلَوْنَا بِبَطْلَيْوُس أَيَّامًا ، حتَّى صَحَّ عندنا إقبال أَلْفُونْشِ في حفلة ، يروم المُلَاقاة ، ويظنُّ أنه يهزم الجيش لقلة معرفته به قبل . وساقه القَدَرُ

إلى أن توغَّل في بلاد المسلمين ، وأبعد عن أنظاره ؛ ونحن بإزاء المدينة ، مترَبِّصون : إن كانت لنا ، فيها ونِعْمَتْ ، وإن لم تكن ، كانت وراءنا حرزاً ومَعْقِلاً نَأْوِي إليها . وأمير المسلمين يُدبِّر هذا الأمر بحُسْنِ رأيه ، ويلتوى ، عسى [ أن ] تقع المُلَاقاة بتلك الناحية ، دون أن يَخُوج إلى التوغُّل في بلادهم . وهم ، كما دخلوا الأندلس ، ولا يعرفون مَنْ لَهمْ أو عليهم ؛ ورجا بأن يكون الرومى لا يَخْرُجُ إليه أحدٌ ، فَيَنْصَرِفَ طريقَه ، ويكفى الله المؤمنين القتال ، إلى أن تُرِيَهُ الأمور وجوهها . فلا يُسْمَعُ إِلَّا الأَمِيرُ مترَبِّصاً لَلتِّيَاثِ طافَ به ، ولولا ذلك ، لكان في أرض النصارى مُدَوِّخاً لها . والنصرانيُّ في هذا كَلَّه يقرب متعاطياً ، لا يعمل حساب مَنْ يُغْلَب ، إن كانت عليه أن يكون بعيداً من أنظاره ، فيستأصله السيف ؛ ولولم يكن إِلَّا يَأْكُلُه الطريق وَبَعْدُ المسافة .

ثمَّ أَرْسَلَ ، على يدى ابن الأَفْطَس ، إلى أمير المسلمين ، يقول له : « ها أنا قد أَقْبَلْتُ أريدُ ملاقاتك ، وأنت تترَبِّص وتختبئ لأَصْلُ المدينة ! » فلم يكن بُدُّ أن يُنْتَقلَ إليه ، ليكون الجيش على مقربةٍ منه . وتَوَاعَدَا اللِّقَاءَ في يومٍ سَمِّيَاهُ . ولم يكن يَبْنِي المَحَلَّتَيْنِ إِلَّا نحو ثلاثة أميال ، فاستاغ المسلمون إلى ذلك الوَعْدِ ، \* وحلَّ الناس عن أنفُسِهِمْ ؛ وكانت ٤٣ (ب) خَيْرَةً أن لو رَكِبَتِ الفِئَتَانِ ، لم تَفْصِلْ إِلَّا عن فَقْدِ الأكثر من عسكر المسلمين ، حسبما تُوجِبُهُ الموافقة للقتال .

فَفَجَّاهُمْ عَسْكَرُ الرومى ، وهم على غير إعداد . وكان مختلساً : إِنَّمَا له ٢٠ ما أُلْقِيَ في تلك الساعة ، وأُلْقِيَ سُمُّهُ في الرَّحْلِ ؛ ومات منهم خلانق ممن لم يكن يقدر على نفسه . فلم تَقَعِ الصِّحَّةُ على الجيش [ إِلَّا ] وركبوا في

طَلَبَهُمْ ؛ وَهُمْ قَدْ كُلُّوا وَنَقَلَهُمُ السَّلَاحُ مَعَ بُعْدِ الْمَسَافَةِ . فَاقْتَنَى الْمُسْلِمُونَ  
آثَارَهُمْ ، وَرَكِبُوهُمْ بِالسَّيْفِ ؛ وَمَاتَ مِنْ جَيْشِهِمْ خَلَّاقٌ ، وَتَبَدَّدُوا فِي الطَّرِيقِ  
فَمِنْ بَيْنِ قَتِيلٍ وَمَيِّتٍ مُثْقَلٍ ضَرِيعٍ . وَلَوْ أَنَّ تِلْكَ الْوَقِيعَةَ تَكُونُ عَلَى إِعْدَادِ  
مِنْ وَقُوفِ الْفِئَتَيْنِ وَمَنَاطِحَتَهُمَا فِي اللَّقَاءِ ، لَفُقِدَ مِنَ الْعَسْكَرَيْنِ الْأَكْثَرُ ،  
كَالَّذِي تَوَجَّهَ الرِّتْبَةُ ؛ لَكِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ، وَلَمْ يَفْقَدْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا  
الْأَقْلَ . وَانْصَرَفَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ رَاجِعًا إِلَى إِشْبِيلِيَّةٍ عَلَى حَالِ سَلَامَةٍ وَنَصْرِ .

٥٠ — يَوْسُفُ بْنُ تَاشُفَيْنِ يَعْقِدُ مَجْلِسَ رُؤَسَاءِ الْأَنْدَلُسِ

بَعْدَ الْمَعْرَكَةِ . بَدَأَ الْخِلَافَ بَيْنَ الْمُتَحَالِفِينَ

وَلَمَّا انْقَضَتْ غَزْوَتُهُ تِلْكَ، جَمَعْنَا فِي مَجْلِسِهِ ، أَعْنَى رُؤَسَاءِ الْأَنْدَلُسِ ،  
وَأَمْرَنَا بِالِاتِّفَاقِ وَالِاتِّحَافِ ، وَأَنَّ تَكُونَ الْكَلِمَةُ وَاحِدَةً ، وَأَنَّ النَّصَارَى  
لَمْ تَفْتَرِصْنَا إِلَّا لِلَّذِي كَانَ مِنْ تَشَتُّتِنَا وَاسْتِعَانَةِ الْبَعْضِ بِهِمْ عَلَى الْبَعْضِ .  
فَأَجَابَهُ الْكُلُّ أَنَّ وَصِيَّتَهُ مَقْبُولَةٌ وَأَنَّ ظَهْرَهُ مِمَّا يَجْمَعُ الْكُلَّ عَلَى الطَّاعَةِ  
وَالْجَرَى إِلَى الْحَقِيقَةِ .

وَاتَدَبَّ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْوَقْتَ أَخُونَا صَاحِبُ مَالَقَةِ ، وَقَالَ مِنْ غَيْرِ رُويَةٍ :  
« إِنَّ أَحْوَالِي قَدْ ضَاقَتْ بِتَعَدِّي أَخِي عَلَى بِلَادِي وَمِيرَاثِ جَدِّي ! »  
يُشِيرُ بِذَلِكَ أَنَّ يَأْخُذَ لَهُ الْأَمِيرُ بِحَقِّهِ مِنَّا . فَلَمَّا قَضَى كَلَامَهُ ، قَالَ لَهُ أَمِيرُ  
الْمُسْلِمِينَ : « هَلْ لَقِيتَ أَخَاكَ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، وَتَرَامَيْتَ عَلَيْهِ قَبْلَ مُخَاطَبَتِكَ  
لِي ؟ » فَلَمَّا قَالَ لَهُ : « لَا ! » رَدَّ عَلَيْهِ : « مَا يَنْبَغِي لَنَا ذَلِكَ إِلَّا  
بِرِضَاهُ ! » وَلَمْ يُمْكِنَّا فِي ذَلِكَ الْحِينَ السَّكُوتَ لَمَّا يُلْزَمُ مِنْ شُكْرِ الْأَمِيرِ ،  
و[كَانَتْ] فُرْصَةً لِتَبْيَإْنِ الْحِجَّةِ ، وَإِقَامَةِ عِذْرِنَا أَلَّا يَنْتَسِبَ إِلَيْنَا بَعْدُ نَسَبُهُ .

- \*فقلتُ له : « إِنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ تَكُنْ غَايَتُهُ إِلَّا مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ الْجِهَادِ ؛ ٤٤ ( ١ ) وهو لا يَرْضَى أَنْ يَنْقُضَ مَا أَخْكَمَهُ آبَاؤُنَا مِنْ قِسْمَةٍ مَا قَسَمُوهُ مِنْ بِلَادِهِمْ بَيْنَ أَوْثَانِهِمْ . وَلَيْسَ مِنْهَا أَحَدٌ حَصَلَ عَلَى شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ ، إِلَّا بِمَا تَهَيَّأَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْآبَاءِ مِنْ بَعْدِهِ ، مَعَ إِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الرِّضَى بِمَنْ تَخَيَّرُوهُ . وَقَدْ كَانَ الشَّيْخُ جَدُّنَا — رَحِمَهُ اللَّهُ — رَتَّبَ ذَلِكَ ، وَرَأَى أَنَّ مَالِقَةَ لَا غِنَى ٥
- بِهَا مِنْ غَرْنَاطَةِ ؛ فَجَعَلَ أَمْرَهَا مَصْرُوفًا إِلَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ ، كَالَّذِي كَانَتْ فِي حَيَاتِهِ . فَأَنْقَضْتَ مِنَ الْأَمْرِ مَا أْبْرَمَ ، وَقَطَعْتَنَا ، وَأَرَدْتَ الْإِسْتِبْدَادَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ وَلَا أَصْلٍ . وَلَوْ رَأَى جَدُّكَ فِي ذَلِكَ صِلَاحًا ، لَأَعَدَّ لَكَ لَذَلِكَ عُدَّةً تَغْنِيكَ عَنَّا ! وَلَمَّا تَعَدَّيْتَ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ ، سَعَيْنَا فِي صَرْفِ بَعْضِ الْحَالِ ١٠
- إِلَى مَا رَتَّبَهَا عَلَيْهِ الْجَدُّ ؛ وَلَمْ نَبْلُغْ فِي ذَلِكَ الْغَايَةَ الَّتِي تَجِبُ بِأَنْحِيَاشِكَ وَنِفَارِكَ . وَهَذَا مَا وَقَعَ ! فَإِنْ شَاءَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَبْتَنِيَ مِنْ جَدِيدٍ ، وَيَنْقُضَ مَا رَتَّبَ الشَّيْخُ ، فَهُوَ لَنَا بِمَنْزِلَتِهِ : أَمْرُهُ نَافِذٌ ! وَإِنْ رَأَى مَا فُعِلَ مِنْ ذَلِكَ سِدَادًا وَصِلَاحًا ، فَلَأَيَّ وَجْهِ نَكْلِفُهُ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ ؟ » فَلَمَّا تَكَلَّمْتُ بِهَذَا ، وَقَعَتْ مُسَاكَنَةٌ . وَأَمْرُ الْأَمِيرِ بِانْصِرَافِنَا ، وَلَمْ يُعِدْ ١٥
- فِي ذَلِكَ بَعْدَهَا مَجْلِسًا إِلَّا فِي سَفَرَةٍ لِيُطِيطَ الْمَلْعُونَةُ .
- وَأَخَذَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْإِنْصِرَافِ إِلَى بِلَادِهِ ، وَهُوَ قَدْ أَطْلَعَ عِيَانًا وَسَمَاعًا مِنْ اخْتِلَافِ كَلِمَتِنَا مَا لَمْ يَرَ وَجْهًا لِبَقَائِنَا فِي الْجَزِيرَةِ . وَأَنْسَ الْجَمِيعَ ؛ وَلَمْ يَتَرَبَّصْ فِي الْبِلَادِ إِلَّا يُوحِشَ سَلَاطِينَهَا مِمَّا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ أَنْحِيَاشِ رَعِيَّتِهِمْ إِلَيْهِ ؛ فَكُلُّ مَنْ شَكََا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْوَقْتَ مِنْ رَعِيَّةٍ ، يَقُولُ لَهُ : « لَمْ نَأْتِ لِهَذَا ! ٢٠
- وَالسَّلَاطِينُ أَعْلَمُ بِمَا يَصْنَعُونَ فِي بِلَادِهِمْ ! » حَتَّى أَزْدَادَ بِذَلِكَ مَحَبَّةً إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي قُلُوبِنَا ، وَإِلَيْهِ اسْتِنَامَةٌ وَمِيلًا . وَرَجَعَ الْكُلُّ إِلَى وَطَنِهِ .



## ٥١ - عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس .

## حصار حصن لييط .

وبقيت الحال على ذلك : قد أشرب الرُّومُ من تلك الواقعة خوفاً وانسكاشاً . ولم تزل الحالُ صالحةً إلى سفرة لييط .

وإنَّ الْمُفْتَمِدَ بنَ عَبَّادَ ، لما رأى من خلاف ابن رَشِيق عليه ، وأنَّه أراد أن يَصْعَ ابنه الراضى بِمُرْسِيَةِ عَوْضاً عن الجزيرة ، صار بنفسه إلى أمير المسلمين ، وجاز إليه البحر ، يريه الطمأنينة ، ويحكم معه\* ماشاء من ٤٤ (ب) عملٍ في مُرْسِيَةِ وغيرها . وعَظَّمَ له شَأْنَ لِيِيطَ ، وأنَّه في قَلْبِ البَلَدِ ، وأن لا راحة للمسلمين إِلَّا بِفَقْدِهِ ؛ وعاقَدَهُ على أن يَأْتِيَ عليه بنفسه ورجاله ، لِكَيْ يَنْهَيَّا سَلَاطِينَ الأَنْدَلُسِ حَرْبَهُ بِعُدَدِهِمْ وَأَجْمَاعِهِمْ ؛ فَيَأْمَنُوا مِنْ يُقْلِعُهُمْ عنه .

وَأَتَتْنَا كُتُبُ الأَمِيرِ ، يَأْمُرُنَا عِنْدَ جَوَازِهِ ، بِالاستعداد للقتال وما شاكَلَ ذَلِكَ . ففَعَلْنَا ، وبَادَرْنَا ، رَغْبَةً في الجهاد ، وَمَحَبَّةً فِيهِ ، وإِثَاراً له ؛ وَخَرَجْنَا إِلَيْهِ ، وَلَقِينَاهُ في حَيْرٍ من بَلَدِنَا ، بما يُطَابِقُ مِثْلَهُ من الهدايا والتَّحَفِ . وَأَجْمَعْنَا على المِسيرِ إلى لِيِيطَ . ١٥

فَنَارَئِنَاهُ على أَتَمِّ ما يُمْكِنُ من الرجال والعُدَدِ ، كُلِّ رَئِيسٍ يَقَاتِلُهُ على حِسابِ مَجْهُودِهِ ، وما تَبْلُغُ اسْتَطَاعَتُهُ وَحِيلَتُهُ ؛ وَهُوَ قد اِمْتَلَأَ بِرَعِيَّةِ الجِهَةِ ، كُلِّهَا من النصارى ، وَأَعَدُّوا فِيهِ ما يَحْتَاجُ من كُلِّ شَيْءٍ ، ففَعَلَ مَنْ نَظَرَ على سَعَةٍ ؛ وَهُمْ في ذَلِكَ يَهْدِدُونَ بِمَجِيءِ الْفُونُسِ ، وَيُرِيْعُونَ الحِيلَةَ بِالنَّذِيرِ كُلِّ لَيْلَةٍ ؛ وَالْقِتَالُ عَلَيْهِمْ كُلَّ يَوْمٍ لا يَفْتَرُ ، مع البُنيانِ في المواضع ٢٠

المُهَمَّة عليهم ، وَنَضَبِ الْمَجَانِيقِ وَالْمَرَّادَاتِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ عَمَلٌ يُرَامُ بِهِ اقْتِرَاصُ الْمَعَاوِلِ إِلَّا وَصُنِعَ . وَأَتَى ابْنُ صُمَادِحِ بِفِيلٍ أَقَامَهُ ، وَخَرَقَ بِهِ الْعَادَةَ : أَصَابَهُ مِنَ الْحِصْنِ قَبَسٌ نَارٍ ، فَأَحْرَقَهُ . وَفِي كُلِّ ذَلِكَ لَا يَنْجَحُ عَمَلٌ ، وَلَا تَظْهَرُ فِيهِ لِلْمُسْلِمِينَ فُرْصَةٌ ، لِمَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ اخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ . ٥

## ٥٢ - مُحَاصَرَةُ لَيْطٍ تَصَوَّرَ فَوْضَى مَلُوكِ الطَّوَائِفِ

فِي ذَلِكَ الْحِينِ

وَكَانَتْ تِلْكَ سَفَرَةً أَخْرَجَ اللَّهُ فِيهَا أَضْفَانَ سَلَاطِينَ الْأَنْدَلُسِ . وَرَعِيَّتُهُمْ فِي ذَلِكَ يَأْتُونَ أَفْوَاجًا ، شَاكِينَ لِمَا وَجَسَدُوا لِمَنْ أَسْنَدُوا إِلَيْهِ : فَالِرَاضِي مِنْهُمْ يَلْتَمِسُ الزِّيَادَةَ ، وَالسَّاخِطُ يَرْجُو الْإِنْتِقَامَ ؛ وَجَعَلُوا فِي شُكَاوِيهِمْ فَقَهَاءَهُمْ ١٠ وَسَائِطًا ، يَقْصِدُونَ نَحْوَهُمْ : مِنْهُمْ الْفَقِيهَ ابْنَ الْقُلَيْعِيِّ ، قَدْ صَارَ خِبَاؤُهُ بِتِلْكَ الْمَحْدَلَةِ مَغْنَطِيسًا لِكُلِّ صَادِرٍ وَوَارِدٍ ، يَجِدُ بِهِمُ السَّبِيلَ إِلَى الطَّلَبِ ، لِلْقَدَرِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ .

وَرَأَى سَلَاطِينُ الْأَنْدَلُسِ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ تَحَامُقِ رَعَايَاهُمْ وَامْتِنَاعِهِمْ مِنْ مَغَارِمِ الْإِقْطَاعِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، مَعَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَى الْإِنْفَاقِ ، مَا قَلَقَ بِهِ ١٥ وَسَاءَ الظَّنُّ مِنْ أَجَلِهِ : \* جَيْشٌ يَكْلِفُونَهُ كُلَّ عَامٍ ، وَمُجَاهَلَاتٌ تَلْزَمُ (١) ٤٥ (١) الْمُرَابِطِينَ كَثِيرَةً ، وَتُحَفُّ مُتَوَالِيَةً ، لَوْ فَرَطَ مِنْهَا فِي شَيْءٍ ، لَانْخَرَمَتْ عَلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ ؛ ثُمَّ رَعَايَا تَمْتَنِعُ مِنْ تَأْدِيَةِ مَا تَقُومُ بِهِ الْحَالُ الْمَوْصُوفَةُ ؛ فَلَا حِيلَةَ إِلَّا بَيْنَ صَبْرٍ يُوْدَى إِلَى مَلَامَةٍ تَوْجِبُ عَقُوبَةً ، أَوْ امْتِنَاعٍ يُوْدَى إِلَى ٢٠ اسْتِنْصَالٍ ، كَالَّذِي جَرَى .

ونسَمِعَ في هذا كُلِّهِ من أَهْلِ جِهَاتِنَا تَهْدُداً وَعَصياناً أَنْكَرناه ، لَا تَمُتْ  
بِهِ مَمْلَكَةً ، وَلَا يَتَهَيَّأَ مَعَهُ قِضَاءُ حَاجَةٍ . وَلَقَدْ كَانَ الْقُلَيْمِيُّ الْمَذْكُورُ فِي  
تِلْكَ الْمَحَلَّةِ يَخَاطِبُ إِخْوَانَهُ بِخَضْرَتِنَا أَلَّا يَعْطُونَا شَيْئاً ، وَيَعِدُّهُمْ بِمَا كَانَ ؛  
فَلَمَّا كَانَ يَأْتِيهِمُ الْخَفَرُ مِنَّا ، يَقْعُدُونَ بِنَا ، وَنَحْنُ أَحْوَجُ مَا كُنَّا إِلَيْهِ  
لِلْإِنْفَاقِ ، لَا سِيَّامًا فِي تِلْكَ الْحَلَّةِ الَّتِي عُذَّتْنَا فِيهَا الْأَقْوَاتُ إِلَّا بِالشَّرَاءِ كُلِّ  
يَوْمٍ . فَدَخَلَ عَلَيْنَا مِنْ ذَلِكَ ضَرَرٌ شَنِيعٌ .

وَطَالَتْ تِلْكَ الْمَحَلَّةُ الْمَلْعُونَةُ ؛ فَكَأَنَّمَا مِثْلُ أَبَانَ الطَّيِّبِ مِنَ الْخَبِيثِ ،  
وَكُشِفَ الْعُورَاتُ ؛ فَلَمْ يَزِدْدِ الرُّؤْسَاءُ إِلَّا تَوَحُّشًا ، وَلَا الرِّعْيَةُ إِلَّا تَسَلُّطًا ،  
وَلَا الدَّاخِلُونَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ النَّصْبَةِ إِلَّا طَمَعًا ؛ وَحَقٌّ لَهُمْ ، مَعَ اخْتِلَافِ  
كَلِمَةِ الرُّؤْسَاءِ ، وَهُمْ فِي أَسْبَابِ الْفَرَقِ : فَمَنْ اغْتَرَّ مِنْهُمْ طَالَبَ صَاحِبَهُ ،  
وَهُوَ الْمَطْلُوبُ ، وَشَغَلَهُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ فِي سَبِيلِهِ ؛ وَمَنْ مَيَّزَ ، انْفَرَدَ ، لَمْ يَجِدْ  
مُعِينًا حَتَّى تَوَعَّلَ فِي اللَّجَّةِ وَأَخَذَتْهُ الْحَمَلَةُ . وَكَانَتْ مَقَدِّمَاتُ سُوءٍ ،  
وَزَمَانًا عَلَى السَّلَاطِينِ عَسِيرًا ، وَسَعْدًا لِلْمُرَاطِبِينَ مُقْتَبِلًا .

### ٥٣ — النزاع بين ابن عباد وبين ابن رَشِيق

وَأَتَى ابْنُ رَشِيقٍ عِنْدَ ذَلِكَ مُفْسِدًا بَرُّعَهُ لِمَا عَقَدَهُ ابْنُ عَبَّادٍ مَعَ  
الْأَمِيرِ ؛ وَبَذَلَ الْأَمْوَالَ لِلْمُرَاطِبِينَ ، وَسَارَعَ إِلَى قِضَاءِ الْحَاجَاتِ . وَاصْطَنَعَ  
إِلَى الْأَمِيرِ سِيرَ — أَعَزَّهُ اللَّهُ — وَعَوَّلَ عَلَيْهِ ؛ فَأَكْرَمَهُ الْإِكْرَامَ الشَّيْنِيعَ .  
وَأَلْقَى ابْنُ عَبَّادٍ يَدَهُ فِي قَرُورٍ ، مُعَوَّلًا عَلَيْهِ فِي الْقَضِيَّةِ ، وَبَذَلَ لَهُ أَمْوَالًا  
جَسِيمَةً ؛ وَالْمَكْتَرِ عَلَى كُلِّ حَالٍ يَغْلِبُ الْمُقِلَّ ، وَإِنْ شَفَّ عَلَيْهِ بِالْيَسِيرِ .  
وَأَعْطَى ابْنُ رَشِيقٍ الْأَمَانَ ، وَبُولِغَ لَهُ فِي التَّأْنِيسِ ، حَتَّى غَرَّهُ ذَلِكَ

وانبسط له ؛ وتاهَ على ابن عبَّاد ، وأظهر مَعْصِيَتَهُ والانْخِشَافَ منه ، قائماً في ذلك بدعوة الأمير ومُسْنِداً إليه ، حتى أفضى ذلك به ، إلى أن أمر أن تكون الخطبة بِمُرْسِيَةٍ على اسمِ أمير المسلمين دون ابن عبَّاد .

- والمُعْتَمِدُ ، \* في هذا كله ، يَرَى من الأمر ما يغيظه ويكرهه ويتقطع ٤٥ (ب) منه حسرات ؛ وحقَّ له ؛ فلم يَنْمَ عن القضية ؛ وأَحْكَمَهَا مع القَهَّاء ، واحتجَّ عليه بأحكام السُّنَّة ؛ وكان مَنَّ اصطنع على ذلك ابنُ القُلَيْعِيّ ، وهو يفخر بالأمر عندنا ، ويقول : « سَبَرَى ابن رَشِيق ما يحلُّ به ! فقد شُوِرْنَا في أمره . وإنْ جُعِلَ لنا جَلِيسٌ لغيره ، فَعَلْنَا به مِثْل ذلك ! » وكانت هذه الكلمة مِمَّا أَوْحَشَتْنا وَغَيَّرَتْ أَنْفُسَنَا عليه ، مع تهْدُده تلك السفرة ، وَضَرْبه الأمثال ، وَحِدَّةِ مَعَانِيهِ ، واستطالته بلسانيه ؛ وأميرُ المسلمين لا يشعر بشيء من ذلك ، ولا نقدر نَحْنُ نشكو به بلا بَيِّنَةٍ ولا إقامة بُرْهان : فتكون له الحُجَّةُ ، ونَقَعَ نَحْنُ في الخزي ، لاسيَّما بما كان يَنْتَحِلُ من [ أهل ] العِلْمِ .

- وإنَّ أمير المسلمين ، لما رأى حالَ ابن عبَّاد مع ابن رَشِيق ، واختلاف ١٥ ما بينهما ، أعمل في ذلك عَقْلَهُ ، ودَبَّرَهُ برأيه ، وقال : « ما تنبغي لنا مُفَاسَدَةُ ابن عبَّاد من أَجْلِ ابن رَشِيق ، لاحتياجِنَا إليه فيما نَحْنُ بسبيله ، ونَحْنُ لم نَأْمَنَ أَمْرَ الرُّومِيِّ . والأوْكَدُ علينا في هذا الوقت مُدَارَاةُ ابن عبَّاد ، حتَّى تُرِينَا الأمور وَجُوهَهَا ! » فتعسَّف على ابن رَشِيق في الذي أظهر من الخِلاف على صاحبه ، وقال له : « ما كان يَجِبُ لك أن تُقَدِّمَ بدَعْوَتِي للقيام على رئيسك ، فتَوَقَّعَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ الشَّخَاء ! » وقال في نفسه : لم يفعل ذلك ابنُ رَشِيق إِيثاراً لي ولا مَحَبَّةً لِحِجَّتِي ! اكثر من اضطرامِ

النار على صاحبه وإشغاله بي عن نفسه ؛ ولا سيّما أنّ معونته للرّوم يلبّي  
لم تخف على أحد ؛ يعتدّ أنّ ببقائها يثبت في مُرسيّة ! » فكان أبداً يميزهم  
ويقوّمهم بما يعجزون عنه ، إبقاءً لرمقهم ، وخوفاً من الداخلة عليه بفقدهم .  
وصحّ ذلك عند الأمير ، والمُعتمد في هذا كلّ لا ينامُ عنه ، ويستفتي  
فيه الفقهاء ، لنفاقه بعد دخوله في البيعة له أوّل أخذه لمُرسيّة . فانفقت  
عليه الأسباب ، وصنّع له مجلسٌ أفتوا فيه بإزاحته عن المسلمين ،  
وإسلامه لسلطانهِ . فاستغاث عند ذلك \* بالأمير ؛ فأجابهُ : « إنّ لو كان لك (١) ٤٦  
عندى حقٌّ ، لو هبته لك ، غير أنّها أحكام السنّة ، لا أستطيع على إزاحتها  
عن مراتبها ! » وأمر بتنقيفه وإسلامه إلى المُعتمد . وقيد في الحديد ،  
ورأى هواناً عظيماً . وأمر المُعتمد الراضى ابنه أن ينزل في محلّته على المقام ؛  
وكأنّه لم يكن بالأمس . وأرسل الأمير إلى أهل مُرسيّة يأمرهم بالرجوع إلى  
صاحبهم والطاعة له ؛ فخالف كلّ من فيها من ابنه وقرابته ، وثقفوا مدينتهم  
وجفّوا كلّ من مضى إليهم . وامتنعت الحال على ذلك ، بعد وسائط كثيرة  
تكرّرت بينهم ؛ فلم يقدر معهم على شيء .

## ٥٤ — رفع الحصار عن لييط .

١٥

### تفرّق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم

وشاخت المحلّة ، وطال مكثها ، وملّ الناس إلى أن ورد الخبر  
بقُدوم ألفونس إليها ؛ فساءت الظنون من أجل ذلك . ورأى أمير المسلمين  
أنّ الرجوع عنها والانصراف أولى ، لطول مكث الناس وفشلهم ، مع  
جُهام القادمين من الرّوم ومع خلاف مُرسيّة ، لئلا يسندوا إلى ميرها ومرافقها  
٢٠

إِذْ أَنَّهُمْ أَرْسَلُوا عَنْ أَلْفُونَشَ وَقَتَ خِلَافِهِمْ . فَأَحَذَ فِي الْانْصِرَافِ .

وَوَقَعَتْ بَيْنَ الْمُعْتَمِدِ وَالْمُعْتَصِمِ ، صَاحِبِ الْمَرِيَّةِ ، مُشَاجَرَاتٍ وَتِبَاعَاتٍ  
بَارِدَةٌ فِي مَعَاقِلٍ مِنْ نَظَرِ الْجَبَلِ وَفِي أَمْرِ شُرْبَةٍ ، مَا وَقَعَ فِيهِ الشَّكْوَى  
إِلَى الْأَمِيرِ . وَانْفَصَلَ عَلَى غَيْرِ مَوَاقِفَةٍ : كُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْمُنْحَسَةِ الْمُقْضِيَّةِ عَلَيْهِمَا .

وَمِثْلُ ذَلِكَ جَرَى لَنَا مَعَ أَخِينَا صَاحِبِ مَالِقَةٍ ؛ وَجَعَلَ يُكَرِّرُ فِي ذَلِكَ

النَّظَرَ الَّذِي تَكَلَّمَ فِيهِ سَفَرَةُ بَطْلَيْوُسَ ؛ وَحَفَزَ فِي ذَلِكَ بَزَعْمَهُ ، وَقَالَ لِي  
بِقَلَّةِ دُرْبَتِهِ : « إِنَّمَا مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ السَّفَرَةَ الْأُولَى ذِكْرِي لَهُ عِنْدَ انْفِصَالِ

الْأَمِيرِ ، فَلَمْ يُذْرِكْ وَلَا أَذْرَكُنَا الْوَالَانَ ، فَلَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهِ عَلَى سَعَةٍ ؛  
وَالَا ، فَالْحَقُّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ! » فَلَمْ نُنْخَفْ لِقَوْلِهِ ، وَلَا كَابَرْتُهُ ، لِعِلْمِي أَنَّ

الْأَمِيرَ لَا يَحْفَلُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا كُلِّهِ . وَلَمَّا رَأَى أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ كَثْرَةَ طَلَبِهِ لَنَا ،

أَرْسَلَ إِلَيْنَا قُرُورًا ، يَقُولُ لَنَا : « لَا يَرِبُكَ شَكْوَى أَخِيكَ ؛ فَإِنَّ  
السُّلْطَانَ لَا يَسْمَعُهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ : « اسْكُتْ عَنْ طَلَبِكَ ! » ، وَلَا يَعْطِيهِ

عَلَيْكَ يَدًا ، غَيْرَ أَنَّنَا نُلَوِّى الْقِصَّةَ مَرَّحَلَةً \* بَعْدَ مَرَّحَلَةٍ ، حَتَّى يَقَعَ  
الْانْفِصَالُ . » فَشَكَرْتُهُ عَلَى ذَلِكَ . وَقَالَ : « إِنَّ غَرْنَاطَةَ عَلَيْهِ آكَدُ مِنْ

مَالِقَةٍ لَاحْتِيَاجِهِ إِلَى الْاجْتِيَازِ عَلَيْهَا فِي غَزَوَاتِهِ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْمَرَافِقِ ؛

فَتَقَدَّمَ أَنْتَ الْآنَ ، وَأَعِدَّ جَهْدَكَ مَا يَجِبُ مِنْ ضِيَافَةِ السُّلْطَانِ إِذَا [ كَانَ ]  
خَطُورُهُ عَلَيْكَ ؛ وَهُوَ مَارٌّ بِكَ عَلَى غَرْنَاطَةَ فِي انْصِرَافِهِ ! » فَسَرَّتْنِي ذَلِكَ ،

وَتَقَدَّمْتُ إِلَى وَادِي آشَ ، وَأَعَدَدْتُ لَهُ مَا كَانَ جَدِيرًا بِهِ .

## الفصل الثامن

إمارة عبد الله بن مُبَلِّق بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

( ٤ ) سياسة عبد الله بعد عودته من ليّط : إجراءات

### دفاعيّة وسياسيّة

٥٥ — تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار ليّط . مسلك قرور .

٥ ولما وصلت وادي آش ، وقد ظهر إلىّ قبل في ليّط من جفاه قرور وتخويفه لي ، وتهديدي على لسان الأمير ، والأمير عند ذلك غافل ، غير أنني حسبت ذلك من قبله لما رأيت من مكانته عنده . فأذركني من ذلك رعب شديد . وعابنت مع هذا ما حلّ بابن رشيّق ، وسمعت وعيد القليعي لي ، وجفاهه على ، وإزالة رقبتى عنه ، ما زادني ذلك جرّعا ، لاسيّما أنّ الجزع والسوداء متمكّنة من نفسي ، وأجدّها في طباعى ؛ كدّت أن أموت غمّا . ١٠ ولم أر قط قبل ذلك ذلّا ولا كدرا ؛ فأنكرت الأمور كلّها مع السلطان ، على حسب ما كان يُكرمني سفرة بطليوس ، ورأيت ضدّ ذلك كلّهُ ؛ وقرور يُناصبني العداوة ، ويرسل المشاورين إلى هوانى ، ويأمرني في حال تلك الحرب بأوامر باردة ، يريد بها إذلالى ، ويُظهر إلىّ فيها التعنيف ١٥ والتعسف .

فلما دخل نظري ، أراد إصلاح ما أفسد معى . فعلمت أنّ ذلك ليس

لَنِيَّةٍ صَلَحَتْ ، بل لحاجةٍ عَرَضَتْ وَدَفَعَتْ إِلَيْهَا ضَرُورَةٌ مِنْ قَبْلِ الاجْتِيازِ عَلَى .  
 ولأجلِ ذلك ، قال لى على لسان الأمير فى خَبَرِ أَخِي ما قال ؛ وتبين لى أنه ،  
 لو كان ذلك من عند الأمير ، لم يَطْلُبُ قُرُورٌ مِنِّي عليها رشوةً . فإنه مع  
 ذلك لم يُخَذِّلْنِي مِنْ مُؤَنَّتِهَا ، وعمل لى حُجَّةً فى دَفْعِ ضَرَرِ أَخِي عَنِّي ،  
 ٥ وَأَخَذَ مِنِّي عليها ألفَ دينارٍ مُرَاطِيةً ، لم أَتَجَرَّأُ قَطُّ على ذِكْرِها مَدَّةَ حَيَاتِهِ ،  
 لئلاَّ يَطْلُبَنِي عند الأمير ؛ ثُمَّ لم تَنْفَصِلْ ساعةً أَنْ انصَرَفَ ، وَطَلَبَ لِرَبِيبِهِ  
 خمسمائة دينارٍ ؛ فَأَعْطَيْتُهَا لَهُ ، وكذلك كلَّ ما يَطْلُبُ بِأَمْرِهِ وَتَهْدِيدِهِ ، مع قَلَّةِ  
 رَحْمَتِهِ وَرِفْقِهِ ، \* وَخَشُونَةِ لَفْظِهِ . ثُمَّ أُعْطِيَتْهُ فى غِرْنَاةِ ألفَ دينارٍ أُخْرَى ٤٧ (١)  
 بِاسْمِ كِسْوةِ خَيْلِهِ . وَأَمَّا الَّذِي صارَ إِلَيْهِ فى سَفَرَةِ بَطْلَيْوُسَ وَمُدَّةِ كَوْنِهِ على  
 ١٠ لَيْيَظٍ مع الرُّسُلِ ، فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى ؛ وَهُوَ فى ذلك كُلِّهِ لا يَزْدَادُ إِلَّا  
 نِفَارًا وَاسْتِكْبَارًا . ومثل هذه الواسطة تُفْسِدُ على الرئيس كثيرًا ، وَتُبْغِضُ  
 إِلَيْهِ جَمَاعَةً .

[ أُرْسِلَ فى ] أميرُ المسلمين ، وَأَنَا بِمَكْنَسَةِ ؛ فَسَأَلَنِي عَمَّا صارَ إِلَى قُرُورٍ  
 مِنْ قَبْلِي ، فَرَوَيْتُ الْأَمْرَ بِأَخْزَمِ ما يُمْكِنُ ، وَقُلْتُ فى نَفْسِي : « إِنْ أَعْلَمْتُهُ  
 ١٥ بِذَلِكَ ، وَهُوَ على حالِ التَّمَكُّينِ عِنْدَهُ ، فَرُبَّمَا أَخْرَجَهُ كِتَابِي عَلَيْهِ . وَتَقَرَّعَهُ بِهِ ؛  
 ثُمَّ اسْتَقَرَّهُ على مَرَّتَبَتِهِ ؛ فَيَكُونُ حَتْفِي على يَدَيْهِ ؛ وَلَوْ أَتَى نَأْمَنَ مَكْرَهُ ،  
 لِأَعْلَمْتُهُ بِالْحَالِ ، أَوْ رُبَّمَا يَقَعُ الْكِتَابُ إِلَى يَدِ قُرُورٍ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ ، وَالغَرَرُ  
 لا يَدْخُلُهُ إِلَّا أَهْوَاجٌ ؛ وَكثِيرٌ مِنَ الْحَقِّ يَجِبُ تَرْكُهُ ، [ وَفِيهِ فَائِدَةٌ ] بِصَاحِبِهِ ؛  
 فلم يَسَعْنِي أَنْ أَقُولَ فى جوابي لِلسُّلْطَانِ إِنَّهُ لَمْ يَصِرْ إِلَيَّ [ بِغَيْرِ رَشْوَةٍ ] ؛  
 ٢٠ فَيَكْذِبُنِي ؛ إِذْ كَانَ يَعْلَمُ بِلا شَكٍّ أَنَّنَا لَمْ نُخَلِّهِ مِنْ ذَلِكَ . . . . . الدَّفْعِ الَّتِي



أعلمنى رُسُلِي . وَصَحَّ عِنْدِي أَنَّ قَرُورًا . . . . . حَيْثُ بِصَدَّقْنِي ، وَلَا يَقَعُ قَرُورٌ عِنْدَهُ فِي . . . . . (١) »

## ٥٦ - بعض المؤامرات وتحاذل ابن القليعيّ

- (ب) ٤٧ [ أَمَّا أَخُونَا تَمِيمٌ ، صَاحِبُ مَالَقَةٍ ، \* فَإِنَّهُ أُرْسِلَ إِلَى الْقَاضِي ابْنِ سَهْلٍ خَمْسِينَ مِثْقَالًا ، يَسْتَغْفِرُهُ عَلَى الْقِيَامِ عَلَيْنَا بِالْحُجَّةِ مَعَهُ فَرَدَّهَا إِلَيْهِ ابْنُ سَهْلٍ الْمَذْكُورُ ، وَتَنَزَّاهُ عَنْ ذَلِكَ .
- وقال لى ابنُ القُليعيّ : « هذا وقتُ اقتراضك لهذا الرجل ، بأن تكتبَ إليه ، وتَعِدَّه بالقضاء عند انصرافك ، وهو يسمح فى قصّة أخيك ، على أن تجعلنى معه فى أحكامه . فإذا ألصقتنى به ، رأيتَ عجائبَ مِنْ تَأْتِي الْأُمُور على مرغوبك عند المرابطين وفى بلادك ؛ فَإِنَّكَ ، لو شئتَ أن تأخذَ مِنْ أَحَدٍ دِرْهَمًا بغير الناموس ، أَسْمُجَ عند الناس ؛ وإذا أخذتَ أَلْفًا على وَجْهِ الْحَقِّ ، حلَّ لك أخذُهُ ، ولم يَسْتَبْشِرْهُ أَحَدٌ . ولا أُجِدُّ أَحَدًا [ يَنْفَعُ لَكَ ] مثل هذا الرجل ! » ولم يُبارِحنى حتّى دفعتُ إليه بَخْطَ يَدِي رُقْعَةً تَتَضَمَّنُ لَهُ الْقَضَاءُ ، وما يترتّب له عليه من مُسَانَهَةٍ ومُشَاهَرَةٍ .
- ١٥ ورأيتُ إجابته إلى ذلك صلاحًا بى وخطأً بأخى ، وَلِمَا تُوجِبُهُ السِّيَاسَةُ مِنْ مَسَايِرَتِهِ ومُدَارَاتِهِ على تلك الحال . [ وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ ] قد حرص على الأمر والنهى ، ولا أراه يَبْتَدِئُ إِلَّا بى ، مالم . . . . . وفى هذا فسادُ مُلْكِي وخَلْعِي ، ويقدّر على ذلك . . . . . (٢)

(١) خرم نحو نصف صفحة فى الأصل .

(٢) خرم نحو نصف صفحة فى الأصل .

« . . . \* وبك واثقٌ غير أنك قد جعلت لي بقولك هذا من الحرص ٤٨ (أ) على هذا المال ما أريد أن تعلمني مِن يُقبَض ! » فَإِنِّي لَا أَكَادُ أَنْ أُصَدِّقَهُ ، لاحتياجي إلى مَانَحْنُ بسبيله من النفقات ، وإقامة هذا الجيش كلَّ عام . فجعل يُسمِّي لي أقواماً لَا يعشرهم في الخير والفضل ، وقَدَّم ذِكْرَ صَاحِبِ الْأَحْبَاسِ ابْنِ سَلْمُون ، وتسبَّب إليه برسم الأَحْبَاسِ ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يَنْبَلْ مِنْهُمْ إِلَّا الطَّاعَةُ وَالنَّصِيحَةُ . فقلتُ في نفسي : « اللَّهُ أَكْبَرُ ! مَا قُصِدَ هَذَا إِلَّا إِلَى هَذِهِ الْحَاشِيَةِ لَنَا وَلِأَبَائِنَا ، إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ إِفْرَادَنَا دُونَهُمْ ، لِيَتِمَكَّنَ بِمَا شَاءَ ، وَلَا نَجِدَ صَدِيقًا نَسْتَرْجِي إِلَيْهِ ، مَعَ مَا تَبَيَّنَ مِنْ إِنْفَاسِهِ ، وَحَدَّةِ مَقَاطِعِهِ ، وَأَغْرَاضِهِ الْقَاتِلَةِ ! »

١٠ وَالْعَيْنُ تُبْصِرُ فِي عَيْنِي مُحَدِّثُهَا إِنْ كَانَ مِنْ حِزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا وَجَعَلَ يَطْلُبُ بَنِي السَّنَيْدِي وَالْكَتَبَةِ وَغَيْرَهُمْ مِمَّنْ قَدْ اصْطَنَعْنَاهُ [ وَنَأْمَنَ ] أَمَانَتَهُ ؛ ثُمَّ قَالَ لِي : « كُلُّ مَا رَأَيْتَ مِنَ السُّلْطَانِ فِي لَيْلِي . . . . . كَانَ مُتَفَلِّتًا أَنْ يَجْعَلَ لَكَ كَجُلَسَاءٍ وَلَغَيْرِكَ تَسْتَعِينُ . . . . . وَأَنْتَ عَلَى سَعَةٍ ، وَأَفْعَلُ شَيْئًا تَبْطُلُ بِهِ حُجَّتُهُ [ عَلَيْكَ ] . . . . . (١) »

١٥ « . . . \* كُنْتُمْ عَلَيْهَا مِنَ التَّرَقُّبِ وَالْإِنْذَارِ بِالْعِيَالِ نَفْثَةً حَاقِدَةً . ٤٨ (ب) وَكَانَ هَذَا الْقُلَيْبِيُّ مُخْوَلًا فِي أَيَّامِ الشَّيْخِ جَدِّنا — رَحِمَهُ اللَّهُ — ؛ وَكَانَ لَا يَدَعَاهُ فِي الْمَدِينَةِ ، وَيَأْمُرُهُ بِسُكْنَى ضَيْعَتِهِ ، لِمَا كَانَ يَرَى مِنْ شَرِّهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى الدَّوَاخِلِ . فَلَمَّا ظَهَرَ أَمْرُ الْمُرَابِطِينَ ، اصْطَنَعَ إِلَى مُؤَمِّلٍ وَغَيْرِهِ ، وَوَسَّيَ لِي بِسِمَةِ الْخَيْرِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْكَلَامِ ، وَأَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَقْدِرُ عَلَى اسْتِمَالَةِ الْمُرَابِطِينَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ . فَوَجَّهْتُهُ رَسُولًا ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ ،

ويسعى في هلاكى في الباطن ، وينفت بذلك ، على ماصحّ عندى ، ويقول :  
« والله ! لأبلغنّ حَفِيدَ باديس الطينة السوداء ، ولأشوقه إلى دِرْهمٍ ينفقه ،  
[ وذلك ] على صنيع جدّه بى وبغيرى ! »

وأخبرنى أبو بكر بن مُسَكَّن أنه [ كان كتب ] إلى أمير المسلمين في  
أوّل سفره معه ، ولقى في الطريق خَبرَ دخوله [ الأندلس ] ، وقال :  
« هذا على رَغَمِ أنوفِ الفَسقة سلاطين الأندلس ! » فقال أبو بكر بن مُسَكَّن :  
« وتَحَلَّطُ معهم سُلطانك ؟ » فقال : « نَعَمْ ! وهو المُقدَّم إن شاء الله !  
..... مات لَتَنَفُذِ الأقدار ! » فلما أذن الله بانصرافه . . . . . تكلم  
ابن سَهْل إلى الأمير وقال له : « أنت على . . . . . » (١)

١٠ « . . . . \* نحن بحال لا يرضى عنّا فيه لارعيةٌ ولا جندٌ ؛ وفي هذا  
الفسادُ والقطعُ . فقال لى المُلقى : « إن تُعِنْ عليك الجندَ ، استنجدت  
من العدو من يغنيك عنهم . ودعنى ورأى بعد إشاركى مع ابن سَهْل ،  
ولا عليك من حيث يقوم لك المال ! »

فرايتُ أمراً مُعمى ومستأثراً به دونى ، مع ما كان ينطق به لسانه أبداً  
من الوعيد ، والتَّهديد عند أصدقائه ومن ينقل ذلك إلى عنه أنه يقول :  
« والله لا أبُلِغنّ من حَفِيدِ باديس ما كان يبلغ جدّه منى ومن غيرى ! »  
يسرح بذلك لقلّة تحفّظه وإرساله لسانه ، ولاحتِقاره لنا واحتياجنا إليه . فزاد  
ذلك الجندَ قلقاً ، وهُموا بالانتقال مُجتمعين على ذلك .

فلما بصرتُ هذه الحالة ، قلتُ فى نفسى : « أنا بسبيل ، إن استفسدتُ  
٢٠ إلى الجند ، وهم جناحائى ، أن بقيتُ وحدى مع يرومُ خلى . فالأولى على

كلَّ حال أطباؤهم، واستِصلاحُ ما فسد من أنفسهم؛ وإسْخاطُ القُلَيْعَى وخِذْهُ واجبٌ في رَضَى عَامَّةِ عبيدى وأجنادى. « فجمعتهم بمحضره، وأعلمتهم أنى راجعٌ عن ذلك المذهب، وراؤ عليهم إنزالاتهم. فقام الكلُّ على القُلَيْعَى، وهموا باختِطافِهِ من بين يديَّ لولا إمساكى لهم؛ وخشيتُ مع هذا عليه أن يقتلوه، فتكون شهرةً وعقوباً، وينجرَّ الأمر إلى غير المحمود. ٥

فقلتُ لهم: «أنا أكيفكم أمره!» وأمرتُ بثقافه على أجل الوجوه في بيتٍ بقرب من القصر؛ وكان تحت برٍّ وإكرام، وأنا في ذلك أعتذرُ إليه من قيام العَامَّةِ، وأعيدُهُ بالانطلاق عند إطفاء النائرة، كالذى صَنَعْتُ.

فلما توطدت الأحوال وقررت قرارها، أمرتُ بإخراجه، وأنهيتُ إليه ١٠ أن يكفَّ لسانه، ويدعَ فضولَ القول والعمل إلا فيما يعنيه ويُشاكل طريقته. فقال لى: «نعم! أنا ألتزم الروابط، وأسلكُ سبيلَ العافية إن شاء الله!» فلم يكنْ إلا أن انطلق، وطار\* إلى أمير المسلمين بالشكوى، ٤٩ (ب) وزادَ في الطين بلةً. فقال لى الجُند: «لو أنك أمسكتَه، لم يُهَيِّج عليك النار! وستندمُ عاقبةَ انطلاقِهِ!»

١٥ ٥٧ — سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين. تشييد الحصون

وأراني جميعُ الجُند من التأتى والانتقياد والمناجحة ما حسبتُ أنهم يُقاتلون غنى الدَّجَال. فسررتُ بهذه الحالة، واطمأننتُ إليها، وقلتُ: «هؤلاء أمةٌ لا يروُن بى بديلاً لإنصافى لهم ورغدِ عيشهم معى؛ ومهمٌ قد رأوا جُندَ العدو، وأنَّ أقلَّ عَبدٍ لهم أغنى من غيرهم، وأصلحُ حالةً. ٢٠

فلا يمكن استبدال الأذنى بالأفضل!» ثمَّ علَّمتُ قياسَ المغاربة أهل

الخصون ، وَعَلِمْتُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ ؛ وَلَمْ نَظُنْ قَطُّ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَبِيعُ أَيَّامِي . وَإِنَّمَا وَجَسَتْ نَفْسِي مِنَ الرِّعْيَةِ لَطْمِعِهِمْ فِي حِطِّ الْمَغَارِمِ ، وَلِلَّذِي شَاعَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالْعُشْرِ عِنْدَ الْمُرَابِطِينَ . فَقُلْتُ : « إِنَّ بِهِذِهِ الْعِقْبَانِ الَّتِي عَلَى رِوُوسِهَا ، لَا تَجْتَرِي عَلَى شَيْءٍ ! وَإِذَا تَنَقَّصَتِ الْمَاعِيقُ ، كَانَ أَمْرُ الرِّعْيَةِ يَسِيرًا . وَكَمْ عَسَى يَسْتَطِيعُ الْجَيْشُ الْقَادِمُ عَلَى أَنْ يَغْمَّ جَمِيعَ الْبِلَادِ ؟ وَحُمُولَةُ مَعْقَلٍ وَاحِدٍ مِنْهَا تَطُولُ ، وَتَخْذُثُ فِي خِلَافِهِ أَخْوَالٌ . »

فَصَرَفْتُ وَجْهَ اهْتِبَالِي إِلَى تَشْيِيدِ الْخَصُونِ وَبُنْيَانِهَا ، وَإِعْدَادِ مَا يُضْلَحُهَا لِإِخْصَارِ إِنْ كَانَ . فَلَمْ أَدْعُ وَجْهًا مِنْ وَجُوهِ الْحَزْمِ إِلَّا وَفَعَلْتُهُ : مِنْ إِقَامَةِ الْأَجْبَابِ ، وَإِعْدَادِ الْمَطَاحِنِ ، وَأَنْوَاعِ الْعُدَدِ مِنَ التَّرَاسِ وَالنَّبْلِ وَالرَّعَادَاتِ ، وَجَمِيعِ الْأَقْوَاتِ ؛ وَقَلَعْتُهَا مِنَ الْقُرَى ؛ وَأَعَدَدْتُ لِكُلِّ حِصْنٍ قُوَّتَهُ لِأَزِيدَ مِنَ الْعَامِ . وَفَعَلْتُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ حَضَرَتِي ، مَا اسْتَفْنِي عَنْ تَحْدِيدِهِ لِاسْتِهَارِهِ .

وَقُلْتُ : « لَيْسَ مِنَ الْمُمَكِّنِ أَنْ يَتَعَرَّضَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا مِنْ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ إِبْرَامِهِ لِأَمْرِ الرُّومِيِّ ! وَلَا بُدَّ عِنْدَ مُنَاطَرَتِهِمْ مِنْ فَرَجٍ : إِنْ غَلَبَ الْمُرَابِطُ ، لَمْ يَفُتْنَا الدَّخُولُ فِي طَاعَتِهِ ، وَلَا أَسَدَيْنَا إِلَيْهِ مَا تَذَمُّ عَاقِبَتُهُ أَكْثَرَ مِنَ الْاِحْتِيَاظِ عَلَى بِلَادِنَا وَالْمُدَارَاةِ عَلَيْهَا ؛ « فَلَا الْحِمَارُ سَقَطَ ، وَلَا الزُّقُّ انْخَرَقَ ! » نَحْنُ مُدْرِكُونَ : لَا يَنْبَغِي تَقْدِيمَ يَدٍ سَيِّئَةٍ إِلَيْهِمْ . \* وَإِنْ غَلَبَ الرُّومِيُّ ، كُنَّا مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ ، وَقَدْ نَفَعْنَا ٥٠ (١) مَا أَبْرَمْنَاهُ مِنْ هَذَا الْبُنْيَانِ وَالتَّشْيِيدِ ، وَاتَّخَذَ الْعُدَدَ ؛ فَسَيَكُونُ بِذَلِكَ لِلْمُسْلِمِينَ حِمَايَةً وَانْجِرَارًا إِلَى غَدٍ ، إِذَا الْبُنْيَانُ مِنَ الْمُرَابِطِ لَا يَنْفَعُ ! »

وَلِذَلِكَ أَعَدَدْنَا الْمُنْكَبَّ : إِنْ تَغَلَّبَ الرُّومِيُّ ، فَأَكُونُ عَلَى الْبَحْرِ مُتَّصِلًا

بالمسلمين ، تُدافع منها جُهْدَنَا ، إلى أن نُضْطَرَّ إلى الجواز وطلَب السلامة  
بُحْشَاشَةِ أَنْفُسِنَا وَنُتَفِّ من أموالنا . فشيَّدَتْهَا لذلك ، كالذى شهر عنا .

والجاهِلُ لا يدرى ما أوَّلُ هذا ولا آخره ، إلَّا ويخبط [خَبَطَ] عَشْواء :  
فكلُّ يتكلَّم على شهوته . ولم نَمْتَقِدْ في أمر المُرابِطين — يعلم الله ذلك —

٥ صَدَّهم عن جهادٍ ، ولا تَظَافَرُ مع أَحَدٍ عليهم ، ولا أَرَدْتُ بهم شيئاً من  
مساءةٍ نُسِبَتْ إلينا ، أَكْثَرُ من أنى جَزِغْتُ الجزع الشديد ممَّا تقدَّم  
ذِكْرُهُ من تلك المعانى التى أبْصَرْتُهَا ، وما جرى على ابن رَشِيق ، مع  
هَلَمِّ لذلك ، وتمكَّن السوداء مِنِّى ، وسوء الظنِّ مع معاينة اليقين .

فقلت : « ما دام تَتَلَقَّى الْفِئْتَانِ ، نخشى حملة السيل على هذه المدينة :  
١٠ فَتَحْصِنُهَا أَوَّلَى ، ولن يُضِرَّ ذلك » فتى دعانى أمير المسلمين إلى إعطاء  
عسكرٍ أو مالٍ ، أو ما أشبه ذلك ممَّا يَجِبُ من مُشَارَكَتِهِ وإِنْجَادِهِ ، لم  
نتأخَّرْ عنه ، فتقيم على نفسى الحُجَّة ؛ وتَجَلِبِ إلى المَضْرَّةِ إن فعلتُ غَيْرَهُ ؛  
غَيْرَ أَنِّى ، متى دعانى إلى الخروج إليه بنفسى ، نَعْتَذِرُ وَنُدَافِعُ ذلك  
جُهْدِي . فعسى [أن] يتركنى ويقبل عَذْرَى ؛ ومتى لم يقبل لى عَذْرًا ، نعلم

١٥ أنه يُريدُ إخراجَ أَمْرِي إلى حدود الفعل ؛ فهو إِذَا عَلَى مَتَعَسِّفٍ لِكَلَامِ الْأَعْدَاءِ  
والكذب ؛ فلا بُدَّ لى عند ذلك من الاحتياط على مُهْجَتِي والتحصين على  
نفسى ، ونجعله إذ ذاك كسائر مَنْ يُريدُ إخراجى من السلاطين ؛ وَلِى مَعَهُ  
اللهُ ، إِذَا لم أَنُوبْ به سوءًا ، ولا وَاسَيْتُ عليه أَحَدًا ، ولا صَدَدْتُهُ عن  
جِهَادِهِ . فَبَأَى شَيْءٌ يَنْسَبُّ إِلَى إلَّا إِنْ شَاءَ التذنيب مع القدرة ؟ فلا

٢٠ طاقة لى بذلك ، \* كالذى صَنَعَ إِنْسَانٌ دَخَلَ على بعض الملوك ، وقد أَعَدَّ ٥٠ (ب)  
لكلامه جواباً ؛ فَلَمَّا خُرِجَ إلى الثَقاف ، سُئِلَ عن إعدادِهِ الجواب وزَعَمَهُ

أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُ ؛ فَقَالَ : « لِكُلِّ كَلِمَةٍ وَجِدْتُ جَوَابًا إِلَّا لِقَوْلِهِ :  
« خُذُوهُ ! » فَلَمْ أَذِرْ مَا أَقُولُ فِيهَا ؛ فَوَكَّلْتُ الْأَمْرَ إِلَى الْأَقْدَارِ ! »  
وَكُنْتُ ، أَيَّامِي تِلْكَ ، بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ ، إِلَّا أَنِّي وَاقِعٌ بِكُلِّ  
مَنْ مَعِيَ مِنْ رَجَالِي وَخَدَمَتِي أَنَّهُمْ لَا يَغْدِرُونِي . فَقَوَّيْتُ نَفْسِي لِذَلِكَ بِمَعْصَ  
الْقُوَّةِ ، مَعَ مَا كُنْتُ أُعَدِّدُهُ .

## ٥٨ - معاودة عبد الله مع البرهان

### وكيل ألفونس السادس

ولما حان انصرافنا من لييط ، كلمنا أمير المسلمين في عسكر يترُكه  
عندنا بالأندلس ، خوفاً من الرومي أن يكلب عليها ، ويطلبنا بثأر تلك  
السفرة وغيرها ؛ فلا يكون عندنا بمن ندافع ؛ فقال : « أصلحوا نيّاتكم ،  
تُكفّوا عدوّكم ! » ولم يعطينا عسكراً . فأيقنّا أن الرومي لا يدعنا على  
هذه الفرصة دون طلب . كالذي كان . فلم يلبث أن احتفل وأتى طالباً  
للمال ، مُتَجَنِّياً على من خالفه أن يُفسد بلاده . وعاقده صاحب سرّ قسطة  
ومن يليه من الشرق ؛ فدافعوا شرّه ودفعوا إليه ما سلف له عندهم .  
وبلغني الخبر ، وزاد ذلك في غمي ، وعلمتُ أنّي فيه كراكي الأسد :  
إن أسلمت البلد ، ولا عسكر عندي ، هُتِكَ ، ولم ينجر لي فيه درهم ،  
ولم أغذر مع هذا ، ولا يقرّ المطالب بأن يقول عني إني ضيعته أو  
سُتّ إليه العدو ، كالذي رأيتُ وسمعتُ قبلُ عن ابن رشيّق — وخسارة  
بلدي زائدة — ولا نقيم أوداً بذلك لكلّ ما نحاوله من الغزو كلّ عام  
وضيافات المرابطين ؛ فتجتمع على الخسارة من وجهين . وإن واسيت القوم

وَأَصْلَحْتُ عَلَى نَفْسِي ، قِيلَ : « قَدْ عَاقَدَ الرُّومِيُّ ! » وَيُشْنَعُ عَلَى مَا لَمْ أَفْعَلْ ، كَالَّذِي كَانَ . فَلَمْ أَنْجُ مِمَّا تَوَقَّعْتُ لِلْقَدَرِ الْمُفْضِي .

- وكان أَلْبَرْهَانِش زَعِيمَ جِهَاتِ غَرْنَاطَةِ وَالْمَرِيَّةِ ؛ وكان الْفُونْشُ قد وكله أَمْرَ الْجِهَتَيْنِ ،\* من إِنْقَادِ أَمْرِهِ فِيهَا لِفَسَادٍ عَلَى مَنْ تَعَذَّرَ لَهُ عِنْدَهُ (١) ٥ شَيْءٌ ، وَلَقَبْضِ مَالٍ وَتَوَسُّطٍ مَا يَنْفَعُهُ فِيهَا . فَأَرْسَلَ إِلَى أَوَّلًا عَنْ نَفْسِهِ ، يُنْذِرُ بِدُخُولِ وَادِي آشَ ، وَأَنَّهُ لَا يَرُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا الْفِدَاءُ لَهَا . فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « وَمَعَ مَنْ أَتَقِي رَأْيَهُ ؟ أَيُّ مَقْدَرَةٍ بَنَى عَلَى مُدَافَعَتِهِ ؟ لَا عَسْكَرُ تُرِكَ لَنَا نُدَافِعُ بِهِ ! فَكَمْ يَأْخُذُ فِي هَذِهِ النَّصْبَةِ مِنْ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ ! وَكَمْ يَفْسُدُ فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ ! مَا لَا يَعْشُرُ قِيَمَةَ مَا يُعْطَى كَالَّذِي عَهَدْنَاهُ مِنْهُمْ ! اللَّهُمَّ لَوْ كَانَ ، وَنَفَذَ ذَلِكَ ، وَبِيلَغْنَا عَنْ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ ! أَلَيْسَ مِنَ الصَّلَاحِ إِفْدَاؤُهُمْ<sup>(١)</sup> بِمَا عَزَّ ؟ فَتَحْنُ جُدْرَانَهُ أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ قَبْلَ رِحْلَتِهِمْ دُونَ فِسَادٍ فِي الْبَلَدِ ! وَتَحْتَسِبُ ذَلِكَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهُوَ الْعَالَمُ بِالضَّمَائِرِ ! فَإِنَّا لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ أَشْرًا وَبَطْرًا ، وَعِنْدَنَا بَيْنُ نُدَافِعَ ، لَكَانَ فِيهِ الْحُجَّةُ عَلَيْنَا ! »

- ١٥ فَاجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى إِرْضَائِهِ بِالْيَسِيرِ ، مَعَ مُعَاقَدَتِهِ إِلَّا يَقْرُبَ لَنَا بَلَدًا بَعْدَ أَخْذِ هَذِهِ الدَّفْعَةِ ، فَارْتَبَطَ إِلَى ذَلِكَ . فَلَمَّا حَصَلَتْ عِنْدَهُ ، قَالَ : « هَا أَنَا قَدْ صَلَحْتُ جَانِبِي ! وَالْأَوَّلُ كَدُّ عَلَيْكُمْ أَمْرُ الْفُونْشِ ، الَّذِي هُوَ عَلَى الْحَرَكَةِ عَلَيْكُمْ وَإِلَى غَيْرِكُمْ ؛ فَمَنْ أَنْصَفَهُ نَجَا ، وَمَنْ حَادَ عَنْهُ ، فَسَلَطَنِي عَلَيْهِ ! إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ ، لَا بُدَّ مِنْ إِيْتَانِ مَرْغُوبِهِ ، وَالْوَقُوفِ عِنْدَ أَمْرِهِ . وَلَا يَنْفَعُكُمْ هَذَا الَّذِي أُعْطِيتُمُونِي إِنْ خَالَفْتُمُوهُ . وَلَيْسَ بِنَافِعٍ إِلَّا فِيمَا يُخْصُنِي دُونَ رَأْيِي ٢٠



إِنْ حَدَّ لِي ضِدَّه ! » فَعَلِمْنَا أَنَّ قَوْلَهُ حَقٌّ يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ . فَقُلْنَا : « لَا يُمْكِنُ أَنْ نَوْجَّهَ نَحْنُ إِلَيْهِ وَنَبْدَأَهُ ؛ فَنُوقِظُهُ لِأَكْلِنَا ! وَلَكِنْ ، مَتَى أَرْسَلَ بِأُذْنِ بَذَلِكَ ، سَنَعْتَذِرُ إِلَيْهِ ؛ فَعَسَى [أَنْ] يَقْبَلَ رَغْبَتَنَا ، وَلَمْ نَفْتَحْ لَهُ بَابًا فِي إِعْطَاءِ شَيْءٍ إِلَّا يَزِيدَ طَمَعُهُ ! أَكْثَرُ مِنْ تَلَوَّى الْقَوْلَ ، عَسَى مِنْ هُنَا إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ ، [أَنْ] يَأْتِيَ عَسْكَرٌ يُكْسِرُ بِهِ ؛ فَلَا يَعْأُ بِقَوْلِهِ . وَإِنْ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ ، لَمْ نَكُنْ نَقْدِّمُ إِلَيْهِ قَبِيحًا ، فَتَشَقَّى عِنْدَ ذَلِكَ . »

وَدَافَعْنَا الْأَمْرَ عِنْدَ الْبَرْهَانِ ، وَأَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ نَعْطِيَهُ <sup>(١)</sup> شَيْئًا ، \* وَاعْتَذَرْنَا بِالْمُرَابِطِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَزِمْنَا مِنَ النِّفَقَاتِ عَلَيْهِمْ . فَسَكَتَ عَنَّا ٥١ (ب) الْخَنْزِيرُ ، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبِهِ ، كَالَّذِي يُلْزِمُهُ مِنَ التَّخَدُّمِ لَهُ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَوْجَّهَ لِي رَسُولًا يُطْلَبُ جِزْيَتُهُ ؛ فَإِنْ انْصَرَفَ دُونَ شَيْءٍ ، كَانَ هُوَ الْمُتَنَقِّمَ مِنْ جِهَاتِهَا . ١٠

## ٥٩ — التَّزَامُ عَبْدَ اللَّهِ عَلَى أَدَاءِ الْجِزْيَةِ لِلْأَفُونُشِ السَّادِسِ وَعَقْدِ اتِّفَاقٍ جَدِيدٍ مَعَهُ

وَتَأَهَّبَ الْأَفُونُشُ إِلَى الْحَرَكَةِ ، وَقَدَّمَ رَسُولَهُ بَيْنَ يَدَيْ حَرَكَتِهِ . فَلَمَّا صَحَّتْ عِنْدَنَا ، أَنَا نَا مِنْهَا الْمُقِيمُ الْمُقْعِدُ ، وَلَمْ تَدْرِ أَيْنَ الْخَيْرَةُ : إِنْ كَانَ فِي رَفْضِ الْبَلَدِ وَتَرْكِهِ لَيَعْبَثَ فِيهِ ، أَوْ مُدَارَاتِهِ بِمَا تَيْسَّرُ . وَوَقَعَتْ مِنْ ذَلِكَ هَيْبَةٌ فِي النَّاسِ وَرَجَّةٌ ، حَتَّى بَلَغَ مِنَ الْجَزَعِ أَنَّنَا لَمْ نُصَدِّقْ أَنْ يَقْبَلَ مِنَّا الْمَالَ دُونَ الْمُلَازِمَةِ لَنَا ، طَالِبًا لِإِخْنَةٍ لَيِّطٍ وَمُعَاوَدَةِ الْمُرَابِطِينَ . وَطَمَعْنَا أَنْ يَقْنَعَ رَسُولُهُ بِالْيَسِيرِ ؛ فَقَالَ لِي : « لَمْ آتِ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ،

- إِلَّا أَنْ تَعْطِيَهُ مَا فَاتَهُ عَنْكَ مِنْ جِزْيَةِ ثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا ! لَا يُنْقَصُ مِنْهَا شَيْءٌ ؛ وَإِلَّا ، فَهَا هُوَ مُقْبِلٌ ! وَالَّذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَأَصْنَعْ ! »
- فَرَوَّيْتُ الْأَمْرَ فِي نَفْسِي ، وَرَأَيْتُ أَنَّ التَّعَاطِيَّ حِمَاقَةٌ لَا تَفِيدُ ، وَقُلْتُ : « إِنْ أَخَذْتُ هَذِهِ مِنَ الرِّعْيَةِ ، ضَجَّجْتُ وَشَكَّيْتُ ، وَيَكُونُ مُقَدِّمَتُهَا بِمَرْوَكْشٍ <sup>(١)</sup> شَاكِينَ ، يَقُولُونَ : « أَخَذَ أُمُؤَالَنَا وَأَعْطَاهَا لِلنَّصَارَى ! »
- وَلَكِنْ لِهَذَا الْوَقْتُ يَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ مَا ادَّخَرَ لِيَصُونَهُ بِبَلَدِهِ وَعِرْضِهِ . وَأَنَا جَدِيرٌ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ مِنْ بَيْتِ مَالِي ، بِحَيْثُ يُسَلِّمُ الْبَلَدُ ، وَبِحَيْثُ تُشْكِرُ الرِّعْيَةُ بِمَدْفَعَةٍ عَدُوَّهَا دُونَ تَكْلِيفِهَا شَيْئًا ، وَلَا تَقَعُ الشُّنْعَةُ ! »
- فَفَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ الثَّلَاثِينَ أَلْفًا ، لَمْ أَرْزَأْ أَحَدًا فِيهَا دِرْهَمًا . وَرَأَيْتُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ أُجَدَّدَ مَعَهُ عَقْدًا أَلَّا يَعْتَرِضَ لِي بَلَدًا ، وَلَا يَغْدِرَنِي
- بَعْدَهَا ، خَوْفًا أَنْ يَقْتَلِبَ عَلَيَّ ؛ فَأَجَابَ إِلَى الْعَقْدِ . وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « إِذَا لَا بُدَّ مِنْ دَفْعِهَا ، فَبِالْعَقْدِ أَوْلَى . فَإِنْ حُوجِّجْنَا إِلَيْهِ ، وَجَدْنَاهُ ، وَلَمْ يَضُرَّ ؛ وَإِنْ أَسْتَفْنَيْ عَنْهُ ، كَانَ مَكَانَهُ سُمرُ الْقَتَى وَالْبَيْضِ الرِّقَاقِ ، إِنْ تَدَارَكْنَا \* اللَّهُ بِعَسْكَرٍ يَدْفَعُهُ ؛ وَالْحَرْبُ خُدْعَةٌ ! » وَإِذَا لَمْ تَغْلِبْ ، ٥٢ (ب)
- فَأَخْلَبَ ! ١٥

فَأَجَابَ إِلَى تِلْكَ الْمُعَاقَدَةِ ، حِرْصًا عَلَى اخْتِذِ الْمَالِ ، وَنَحْنُ لَا نَشْكُ أَنَّهُ يَغْدِرُ ، كَالْخَاطِرِ لِنَفْسِهِ لِلضَّرُورَةِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى سِوَاهَا . وَقَالَ لِي عِنْدَ ذَلِكَ رَسُولُهُ : « يَقُولُ لَكَ أَلْفُونُشُ : « إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ تُخَلِّطُ مَعَ هَذِهِ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، عَوْضُ « مَرَكَش » ؛ وَلَيْسَ بِتَصْحِيفٍ ، إِذْ عِبَارَةٌ « مَرْوَكْش » كَانَتْ

تَسْتَعْمَلُ دُونَ غَيْرِهَا أَيَّامَ الْمُرَابِطِينَ مُؤَسَّسِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ ؛ وَهِيَ الَّتِي انْتَقَلَتْ إِلَى اللُّغَةِ الْإِسْبَانِيَّةِ دُونَ عِبَارَةِ

« مَرَكَش » ؛ وَاسْمُهَا بِالْإِسْبَانِيَّةِ إِلَى الْيَوْمِ Marruecos .

المُعَاذَةُ استعانته به على شيء من بلادك التي عند ابن عَبَّاد ، فهو يَجِدُ لك فيها في وجهته هذه . « فَأَجَبْتُهُ : « إِنِّي لَا أَعِينُ عَلَى مُسْلِمٍ أَحَدًا ! وإنَّ الذي دعاني إلى هذه المُعَاذَةِ المُدَافَعَةُ عَلَى بَلَدِي وَأَهْلِ مِلَّتِي . فَإِنْ وَفَّقْتُمُ بذلك ، فهو المرادُ الذي إليه قَصَدْنَا . « وكان من نيَّته أن يَخْلُطَ الفِتْنَةُ بَيْنَنَا وَيَبْنِي ابن عَبَّاد ، لِيَجِدَ بذلك السبيلَ إلى بلاده ، ويقوى عليها بأموالنا ، ويتسبَّب إلى طَلَبِ كثيرٍ من أموالنا ، إذ كانت تلك الثلاثةون ألفًا على وَجْهِ الدِّينِ لِلْمُسَالَمَةِ فَقَطْ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ اسْتِثْنَاءَ عَمَلٍ .

وكان مع هذا لَا يَثِيقُ بِقَوْلِنَا <sup>(١)</sup> ، ويحسب ذلك مِنَّا خُدْعَةً . وَقُلْنَا له : « إِنَّا مُعَرَّرُونَ فِي هذه الفعلة مَعَكُمْ ، وَسَتُدْرِكُنَا تَبَاعَاتُهَا عِنْدَ المُرَابِطِينَ ، وَنُطَالِبُ بِذلك ! » فقال ، تسهيلًا لِأَخْذِ ماله : « متى أَدْرَكَكُمْ فِي ذلك منه طَلَبٌ ، فَعَلَيَّ الذَّبُّ عَنْ مَدِينَتِكُمْ . « فَأَجَبْنَاهُ : « بل ، هو يرى عذرنا ؛ وقبوله وعطفه أَرْجَى عِنْدَنَا مِنْ مَعُونَتِكُمْ . »

فَانْفَصَلَتِ الحال على ذلك ، وقال [ لِي رَسُولُهُ ] : « لَا بُدَّ لَهُ مِنْ تدويع سائر البلاد من نَظَرِ ابن عَبَّاد وغيره ، إِنْ لَمْ يُعْطَ ! » فَقُلْتُ : « هذا أَمْرٌ لَا يَسْأَلُنَا اللهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! كُلُّ أَحَدٍ مُسْوُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ! نَحْنُ قَدْ اخْتَلَنَّا عَلَى مَنْ قَلَدْنَا اللهُ أَمْرَهُ ، وَفَدَيْنَا أَرْوَاحَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ! وَمَنْ لَهُ حَاجَةٌ مِنْ سَائِرِ السُّلَاطِينِ يُقَابِلُ أَمْرَكُمْ حَسَبَ مَقْدَرَتِهِ ، إِنْ شَاءَ بِفِدَاءٍ أَوْ قِتَالٍ . لَا نَتَكَلَّمُ نَحْنُ فِي شَيْءٍ مِنْ هذا ، وَلَا يَنْبَغِي لَنَا ؛ وَلَا أَنْتُمْ وَاقِعُونَ تَحْتَ أَوْامِرِنَا ، فَتَهْلِكُمْ عَنْ \* ذلك . وَنَحْنُ لَمْ نَتَخَلَّصْ مِنْ ٥٢ (ب)

التحصين على ما يَخْصُنَا إِلَّا بَعْدَ كَدٍّ ؛ وَمَا كَدَدْنَا ، فَشَأْنُكُمْ ! وَأَنَا ٢٠

بَرِيءٌ ، لا أُنْغِسُ في ذلك يداً ولا لساناً . »

ولم أجدَ وَجْهاً نرجو به بعضَ الدِّفاعِ عن إخواننا المسلمين أَكْثَرَ من مُحَاظَبَةِ الْمُعْتَمِدِ ، نُعَلِّمُهُ بِحِلَّةٍ حَالِنًا مَعَهُمْ ، وما ذَكَرُوهُ من إِطْأَاءِ بِلادِهِ ، وَتُنْذِرُهُ بِذلِكَ ، لِكَيْ يَقْلَعَ ، وَيَدَّرِعَ الحَزْمَ ، وَيُقَدِّمَ لِلأَمْرِ أَهْبَتَهُ .

٦٠ — تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله

عبد الله يبرّر مسلكه

ثُمَّ خَاطَبَنَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، نَنصُّ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا وَقَعَ وَمَا دَفَعَتِ الضَّرُورَةُ إِلَيْهِ ، وَأَنَّ الْحَاضِرَ أَبْصَرَ مِنَ الْغَائِبِ ، وَلَوْ الْحَالُ يَقْتَضِي بِمَطْلِحِهَا ، وَلَوْ بِمِقْدَارِ وَصُولِ الْخُطَابِ بِمَشُورَتِهِ سَلَامَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، لَمْ أَقْدَمْ شَيْئاً فِي ذَلِكَ وَلَا أَخَرْتُهُ إِلَّا عَنْ رَأْيِهِ ، كَالَّذِي يُلْزَمُ ؛ غَيْرَ أَنَّ الْحَفَرَ كَانَ أَشَدَّ ، لَمْ أَرَ التَّغْيِيرَ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّ الْإِسْتِقَامَ مِنْهُمْ مُدْرِكٌ بِحَوْلِ اللَّهِ عَلَى يَدَيْهِ . وَلَمْ نَشْكُ فِي أَنَّ الْجَوَابَ يَرِدُنَا بِالشُّكْرِ عَلَى مَا نَظَرْنَاهُ وَسَدَدْنَاهُ ، لَا سِيَّامَا إِذَا كَانَ الْقَدَاءُ مِنْ عِنْدِي وَلَا أَكَلَّفُ فِيهَا مُسْلِماً دِرْهماً . فَوَرَدَنِي جَوَابُهُ مَعَ مَا أُمْلِيتُ نَفْسُهُ مِنَ الطَّلَبِ لِي ، وَصَوَّرْتُ عِنْدَهُ الْأُمُورَ عَلَى غَيْرِ حَقَائِقِهَا ، بَمَا زَادَ فِي جِزْعِي ، يَقُولُ : « أَمَّا مُدَاهَنَتُكَ وَقَوْلُكَ الْبَاطِلَ ، قَدْ عَلِمْنَاهُ ! وَسَنَعْلَمُ عَنْ قَرِيبٍ كَيْفَ تَرْضَى الرِّعْيَةَ ، وَمَا تَصْنَعُ إِذْ زَعَمْتَ أَنَّكَ نَظَرْتَ لَهَا . وَلَا تُسَوِّفُ : فَإِنَّ هَذَا قَرِيبٌ غَيْرُ بَعِيدٍ ! »

فَلَمْ أَقْنَطْ مَعَ هَذَا ، وَقُلْتُ ، عِنْدَ الْحَقَائِقِ وَتَثْبِيَانِ مَا وَقَعَ ، عَلَى لِسَانِ رَسُولٍ : « يَزِيلُ عَنْ بَالِهِ كَلَامَ الْأَعَادِي ! وَهَذَا مِنْ بَغْيِ الْقُلُوعِ » وَأَبَى بَكْرُ بْنُ مُسَكِّنٍ ! فَإِنَّهُمْ لَا يَنْقُلُونَ إِلَّا عَلَى شَهَوَاتِهِمْ ! « وَكَانَ

- أبو بكر بن مُسَكِّن قد بلغ من طغيانه علىَّ ، وسَبَّو لي ، وَرَجَانِه (١) في أن يسهمه أمير المسلمين من البلد ما يكون قِرْنِي أو أَكْثَرَ ؛ فَإِنَّهُ اتَّعَمَى إلى بني زيرى ، وجعل يهذى بذلك ويفتخر به ، لا يَرَى لأَحَدٍ عليه فضلاً ، ويسعى في نقض ما نبرم من أحوال الدولة ما لا يَتَمُّ معه مُلْكٌ ولا أَمْرٌ . فجعلتُ الذنب فيه سَوَاءً كما في \* القُلَيْعِيَّ ، إذ مقاتلته لا تطفئ (١) ٥ ما أشعلَ القُلَيْعِيَّ لو أراد الخيرَ ، كما أن تَرْكَه لا ينقص ولا يفتقر عن ذلك . فجعلتُ الهَمَّ فيهما كَهَمًا واحدًا .
- ولمَّا تشدَّدتُ عليه ، وأمرته بالكفِّ ، أحرقتُ ، وهرب دون نَفْيٍ ، ومضى قاصداً إلى الرُّابِطِ ، بغرى فيَّ ، ويسمى علىَّ ، ويكذب ، ويصوِّر ١٠ الأمور على غير وجوها . فتكرَّرتُ مُخاطَبَتِي على أمير المسلمين ، نبيِّن له جميع ما وقع ، ونشكو بما دهيت به من هؤلاء الفسَّقة . وهو ، في ذلك كله ، لا يراجعني إلَّا بالشَّدَّةِ ، وقبول قولهم علىَّ . فبقيتُ تلك الأيام على أسوأ حال ، لا ندرى أين الخيرة ، ولا كيف التخلص .
- وساء ظنُّ الْمُعْتَمِدِ بِي في دخول النصرانيِّ إلى بلاده ، وكفَّه عن بلادنا ؛ واعتقد أن ذلك عن اتِّفاقٍ ؛ ولو كان عن اتِّفاقٍ ، لأدَّيتُ عليه ١٥ مَالًا فوق الجزية ! فليس لهم إلَّا بني الكِرَى غير منطاعين لقول أَحَدٍ . ولم ياتِ عسكر المُرابطين إلى إشبيلية إلَّا والبلد قد أفسد .
- والله تعالى يعلم أني ما واسيت في تلك النِّصبة ، ولا يسألني الله عن كلمة طعنتُ فيها على مُسْلِمٍ . فاتَّفقت الأقاويل عند أمير المسلمين بكثرة ٢٠ الطلب ؛ ولو أتى أريد ذلك ، والانحياشَ إلى النصارى ، كالذى قيل ، لم

يَصِلُ الْمُرَابِطُونَ إِلَى سَبْتَةِ إِلَّا وَمَدِينَةُ غرناطة مَمْلُوءَةٌ مِنْهُمْ ؛ وَكَانَتْ  
 أُسْتَطِيعَ عَلَى ذَلِكَ ، وَكَانَتْ لِي فِي الْمَدَّةِ بَرَهَةٌ وَفَسْحَةٌ طَوِيلَةٌ ؛ إِلَّا أَنَّ  
 الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ ، وَتِلْكَ الْقَالَةُ إِنَّمَا كَانَتْ سَبَبًا لِلَّذِي قُدِّرَ ؛ وَلَوْ أَنَّ قَضِيَّتِي  
 تُسْتَوْضَحُ ، لَوُجِدَ فِيهَا مَا لَا مَطْعَنَ فِيهِ ، وَلَا مَقَالُ بَيِّنَةٍ ، وَلَا إِسْرَارَ فِي  
 مَيْلٍ عَلَى مُسْلِمٍ ، وَلَا إِدْخَالَ دَاخِلَةٍ . وَكَيْفَ يَصِحُّ هَذَا قَبْلَنَا ، وَأَوَّلُ  
 سَيْفِ سُلٍّ عَلَى الرُّومِ إِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَهِيَ الْوَقِيعَةُ الْمَشْهُورَةُ بِالنَّبِيلِ ،  
 مِنْ طَاعَتِنَا ، فِي حِينَ تَطَرَّقَ النِّصَارِيُّ إِلَيْهَا عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ ؛ وَوَافَقَ ذَلِكَ  
 أَوَّلَ ظَهْوَرِ الْمُرَابِطِينَ وَوُصُولِهِمْ سَبْتَةَ ؛ وَوَرَدَنَا إِذْ ذَاكَ \* رَسُولُ الْفُونَشِ ٥٣ (ب)  
 مُعْتَذِرًا مِنَ الْأَمْرِ ؛ فَصَرَفْنَاهُ عَنِ الطَّرِيقِ ، قَطْعًا لَهُ ، وَإِشَارًا لِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ .  
 ١٠ وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ !

## الفصل التاسع

إمارة الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

( ٥ ) الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة

### ٦١ — ثورة يهود مدينة اليُسَّانة

ولما كنتُ في تلك الفترة ، بدتُ أمورٌ وأسبابٌ دلتُ على ما كان من  
 ٥ الانتقال ومُقدِّماتٍ آذنتُ بالزوال . فأوَّل ذلك نفاق أهل اليُسَّانة لِعِسلَّةٍ  
 نذكرُها ، وأرقَّ سببٍ لم يُوبةَ له . وذلك أني ، لما أمرتُ ببنيان السُّور  
 المتَّصل بالحِراء ، ودبرتهُ على تلك النِّصبة التي أضربتُ عن شرحها لاشتهارها  
 هيأتُ السعادة أن وجَدَ البَنَّاؤون في الأساس مُعقوماً مملوءاً ذهباً أعلموني به .  
 فلما وقفت عليه ، لقيتُ فيه ثلاثة آلاف مثقال جعفرية . فاستبشرتُ بها  
 ١٠ وتفاءلتُ بنجاح الطلبة ، والدنيا تسخرُ بنا كما سخرتُ بمن كان قبلنا . فقلتُ :  
 « من أساسه يكون بُنيانه ! »

وكانت دارُ أبي الربيع اليهودي الخازن للأموال في دولة جدِّي  
 — رحمه الله — مبنيةً على ذلك الأساس ؛ فعلمنا أنه من ماله المدفون .  
 فأتى ابن المرأة متنصِّحاً بالأمر ، ويقول : « أرسلوا عن ابنه ، يكشف لكم  
 ١٥ سائر دَفائنه » فخاطبنا عنه ليردَّ علينا في بعض الأمر . وكان صهره ابن  
 ميمون ، كنَّا قد قدَّمناه على يهود اليُسَّانة بوجه الأمانة ، وأسدينا إليه جيلاً

من التنويه به ؛ فاستمال بها أقواماً من الغرباء ، يصول بهم على أهل ملته ؛ وكان خبيثاً . فأحسن بالقصة ، ووجست نفسه منها ، واعتذر عن صهره ، وساء لذلك ظنه ، وخشى أن يعذب على مال أبيه .

ووافق قبل ذلك ، عند انصرافنا من لييط ، أن فرَضنا على أهل اليُسَّانة ذهباً كثيراً باسم التَّقوية ، لم تجرِ عادتهم به ، وحملناهم في ذلك على الصَّحة والانطباع ؛ فنَفَرَت لذلك أنفُسُهم . ووجد ابن ميمون المذكور السبيل إلى إغرائهم وحملهم على النفاق ؛ فأجابوه ، ودخلوا في السلاح ؛ ونادى فيهم أن : « جدُّوا ، معشرَ بني إسرائيل ، في حماية أموالكم ! » وافترض بذلك ابن ميمون . وسبقت له جناية في قتل \* عامِلنا ابن أبي لؤلؤ (١) ٥٤ (١) على المُستَخْلَص رياسة وعدواناً . وامتنعت اليُسَّانة بالجملة .

فلما رأيت ذلك ، لم أجد بُدّاً من مُداراة الأمر . واشترط بمؤمل بإصلاحه ، ونهص . ثمَّ إنِّي عملت رأيي بعده ، وعلمت أنه لا يلتقى إلّا أحد وجهين : إمّا طاعة على غشٍ ، أو عصياناً ؛ وأيهما كان ، فإرسالُ العسكر إليه واجبٌ ، وشدةٌ وترهيبٌ ، ليعلموا قدر ما جنّوه . وخرجتُ بنفسى في أثره ، وقد اجتمعت إلى الأنداب . فإذا بمؤمل قد أقبل مُنصرفاً ، وردّنا عن ذلك المذهب ، وقال لي : « قد أضلحتُ الأمر مع ابن ميمون . ونهوضك إليه لا يزيد القوم إلّا نفاراً ، وربما استعانوا بعسكر ابن عبّاد ، لاسيّما أنه الآن بقرطبة ، وليست تؤخذ بإحصار ولا قتال ! » على أنّي قد علمت أن ابن عبّاد لا يجهيهم في ذلك الوقت كلّهُ ، ولا اشتهر بذلك إلّا ما كان الناسُ يذكرونه ، وابن ميمون يفتخر به ويُطمع به أهل اليُسَّانة .



فقبلتُ قولَ ابنِ مُؤمِّلٍ ، وانصرفتُ على مقربة من الحضرة ؛ وقلتُ :  
 « خُروجي إلى هنا أو وصُولي إليهم سَوَاء ! إذا أردنا التَّهْيِيبَ ، فقد  
 وَصَلْنَاهُ ! » ثُمَّ قَلْتُ لِمُؤمِّلٍ : « صِفْ عَلَيَّ مَا انفَصَلْتَ ! » فقال :  
 « إِنَّ ابنَ مَيمُونٍ زَعِيمُهَا عَدَدَ أَشْيَاءٍ أَنْكَرَهَا مِنَ الْإِرْسَالِ فِي صَهره ،  
 ٥ وهذه الفِرْضَةُ الْعَظِيمَةُ ، وسائرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْقَابِ اللَّازِمَةِ . فَضَمَنْتُ لَهُمُ  
 الصَّكُوكَ بَرَفْعِ ذَلِكَ عَنْهُمْ ، ولابنِ مَيمُونٍ فِي خَاصَّتِهِ . » وَأَمَرْتُ بِعَقْدِهَا  
 وَالْإِرْسَالِ بِهَا . وَقَرَّتْ الْجِبَالُ قَرَارَهَا .

ووجستُ نَفْسِي مِنْ ابنِ مَيمُونٍ لِإِظْهَارِهِ الْخِلَافَ وَالْإِعْلَانِ بِذَلِكَ ،  
 وَعَلِمْتُ أَنَّ هَذِهِ هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنِ ، وَأَنْ لاطَاعَةَ نَصْحِي لِي مَعَهُ ، وَسَيُؤْتِرُ  
 ١٠ أَمْثَالَ هَذِهِ . فَدَبَّتْ إِلَى الْمُدَاخَلَةِ مِنَ الْيَهُودِ الْمُخْمُولِينَ فِي زَمَانِهِ ، وَوَعَدَتْهُمْ  
 بِالْإِحْسَانِ ؛ وَتَكَرَّرَ فِي الْوَسَاطَةِ ابنُ سَيِّقِي ، حَتَّى أَبْرَمْتُ مِنْ ذَلِكَ  
 مَا أَمَلْتُهُ . وَكَانَ أَخْذُ ابنِ مَيمُونٍ يَسِيرًا ، لَا عُصْبَةَ لَهُ ، وَهُوَ غَافِلٌ . وَكَانَ  
 الْوَسَاطَةُ أَيْضًا ابنُ الْمَرَّةِ مَعَ أَبِي الْعَبَّاسِ الْحَكِيمِ . وَكَانَ \* ذَلِكَ مِمَّا نَقِمَهُ ٥٤ (ب)  
 مُؤمِّلٌ لِأَنْحِيَاشِهِ عَنْ ذَلِكَ ، إِلَى أَنْ وَرَدُوا الْحَضْرَةَ عَلَى عَادَتِهِمْ ، وَأَمَرْتُ  
 ١٥ بِشَقَافِهِ مَعَ ابْنِهِ بَرِضَاءٍ مِنَ الشَّيُوخِ ، وَأَمَرْتُ أَنْ لَا زَعِيمَ فِيهِمْ بَعْدَ الْيَوْمِ  
 إِلَّا الْكُلُّ مِنْهُمْ أَمْنَاءُ مَنَوَاهُ بِهِمْ ؛ فَشَكَرُوا وَرَضُوا . وَخَاطَبْتُ عَامَّتَهُمْ  
 نُعْلِيهِمْ بِمَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّلَاحِ . وَتَهَدَّيْتُ الْأَحْوَالَ وَقَرَّتْ ، إِلَى أَنْ  
 تَلَفَ الْكُلُّ .

## ٦٢ - قضية زناة

وقضية أخرى بعد هذه في أمر زناة : إنه ، لما أعلتُ الفكرة في عاقبة الأمر في هذه الفتن<sup>(١)</sup> العارضة ، رأيت أن الاهتبال بالمعاقل من أكد ما يجبُ النظرُ فيه ، كالذي تقدّم ذكره من النظر في عُدّها وما يُصلِحُها ، وأنّ الأولَى استصلاحُ ما فسد من نفوسِ قَوَادِهَا . وذلك أنه لم يكن يلى لنا مَعْقِلاً قطُّ غيرُ صِنْهَاجَةٍ والوصفان والعبيد ، ما خلا زَنَاتَةً : فإنهم كانوا أجنّاد الحضرة .

وكان الصَّنْفُ المذكور قد ضَعُفَ ؛ واستولى عليه النقصانُ لمطالباتِ جَرَتْ عليهم من قِبَلِ وزراء الدولة كاليهوديِّ وغيره ؛ فإنهم كانوا يرونُ ألا ولاية تهيأ لهم مع صِنْهَاجَةٍ لاحتقارهم إِيَّاهم وأنفَتَهم من توليةِ مثلهم ، فكانوا يميلون إلى الصَّنْفِ البرّانيِّ كُلِّهِ ، ولما جرى على اليهوديِّ ما جرى منهم ، اعتقدَها النّايَةُ في نفسه ، وخشى مثل ذلك ، فجعل نفسه في مطالبتهم ، وتبديدهم ، وإنزالهم على الإنزالات الضعيفة ؛ ومن كان بيده شيءٌ ، تُسَبَّبُ إليه وأزيل عن يده . فأدركهم النقصانُ والقلةُ ، وزاد في زَنَاتَةٍ ، وقويت أحوالهم وإنزالاتهم ، على أنهم كانوا على الحقيقة خيرة جُند الأندلس ، والموثوق بهم في الشجاعة والنجدة . وكان الصَّنْفُ كثيراً ، لا يعدم ضمّهم مَنْ له مالٌ .

فقلتُ في نفسي : « هؤلاء القوَاد الذين على الحصون ، وإذا كانت أنفُسُهم فاسدةً ، ولا يتذكرون معنا على نعمة طائلة ، فكيف يُمكنون المعاقل ، أو بأيِّ قلبٍ يجدّون معي ؟ وإنه لا عِوَضَ منهم في الثِّقَةِ

للحصون \* وَإِنَّ زَنَانَةَ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَصِّلِينَ لَأَثَقَةٌ فِيهِمْ لِلْمَدِينَةِ الْفُوقَى وَلَا ٥٥ (١)  
 للحصون ، أَكْثَرُ مِنْ خِدْمَةِ الْجُنْدِيَّةِ ، لَا يَعْدَمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ . فَأَنَا جَدِيرٌ  
 أَنْ أُشْرِكَ مَنْ ضَعُفَ مِنْ صِنَاهَا بِهَؤُلَاءِ الْأَقْوِيَاءِ الَّذِينَ أَدْرَكَتْهُمْ الْعَنَاءُ  
 وَيُمْسِكُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِنْزَالَ خَمْسَةِ فُرْسَانٍ وَسِتَّةٍ . ثُمَّ مِنْ قَنَعَ بِمَا بِيَدِهِ بَقِيَ ؛  
 وَمَنْ لَمْ يُرِدْ ، لَمْ نَعْدَمْ مِنْهُ الْعِوَضَ ! « فَفَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَأَشْرَكَتْهُمْ . وَكَانَ فِي  
 هَذَا كَأَنَّ تَحْرِيكَ لِلشَّرِّ وَالْقَالِ :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَى فَأَكْثَرَ مَا يَجْنَى عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ<sup>(١)</sup>

فَلَمَّا رَأَى كِبَارُ زَنَانَةِ ذَلِكَ ، قَلَقُوا ، وَسَاءَتْ ظُنُونُهُمْ ؛ فَكُنْتُ ،  
 مَتَى دَعَوْتُهُمْ إِلَى خِدْمَةٍ ، نَجِدُهُمْ عَنْهَا عَاجِزِينَ : مَنْ أُشْرِكَ وَمَنْ لَمْ يُشْرِكَ ؛  
 فَامْتَحَنْتُ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَقِيلَ لِي : « إِنَّ كِبَارَهُمْ يَفْسُدُونَ صِفَارَهُمْ ! وَلَوْ أَنَّكَ  
 تَخْرِجَ غَوْغَاهُمْ<sup>(٢)</sup> مِنَ الْبَلَدَةِ ، لَصَلَحَ لَكَ سَائِرُهُمْ ! »

فَأَمَرْتُ بِإَخْرَاجِ ثَلَاثَةِ أَنْفُسٍ مِمَّنْ يَتَّبِعُهُمْ مِنْهُمْ . وَكَانَ الْمَأْمُورَ بِذَلِكَ كَلِيبُ  
 الْخَصِي ، صَاحِبُ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَثَقَنَاهُ لَتَرْبِيتِنَا لَهُ . وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ  
 أَقْوَامٌ يَحْسُدُهُمْ وَيَتَّبِعُهُمْ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَنْقَلُوا طَرِيقَتَهُ السَّيِّئَةَ ؛ فَأَصَابَ الْفُرْصَةَ  
 لِلْخَرَابِ ، وَأَرْسَلَ مِنْ قِبَلِهِ إِلَى أُولَئِكَ الْمُخْرَجِينَ ، وَإِلَى مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ بَنِي  
 عَمَّتِهِمْ ، يَقُولُ لَهُمْ : « إِنَّ الطَّلَبَ قَدْ وَقَعَ فِيكُمْ مِنْ مَجْلِسِ السُّلْطَانِ ؛ وَأَمَرْتُ  
 بِإَخْرَاجِكُمْ . فَلَا تَوْهِنُوا ، وَأَجْتَهِدُوا فِي التَّعَصُّبِ عَلَيْهِ وَتَرْوِيعِهِ ! وَأَنَا مَعَكُمْ !  
 فَإِنَّهُ ، إِذَا رَأَى جَمَاعَتَكُمْ ، رَجَعَ إِلَى قَوْلِكُمْ ! » فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْدَ الْأَمْرِ  
 بِسَاعَةٍ ، وَإِذَا بِجَمَاعَةِ الْجُنْدِ قَدْ أَقْبَلُوا إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ ، يَقُولُونَ : « إِمَّا أَنْ  
 يَرُدَّ شَرُّ كُنَّا ، وَإِمَّا فَالْكَلُّ رَاحِلُونَ عَنْهُ ، مُنْتَقِلُونَ إِلَى غَيْرِهِ ! » وَأَتَى ٢٠

( ١ ) ورد هذا البيت أعلاه . ( ٢ ) كذا في الأصل ، عوضاً عن « غوغائهم » .

الفاسقُ لَيِّبٌ<sup>٥</sup> وأصحابُه الْمُتَّفِقُونَ معه ، يقيمُ حُجَّتَهُمْ ، وَيُعْضِدُ قَوْلَهُمْ ، وَيَخَوْفُ منهم . فَمَيَّزْتُ الْأَمْرَ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ هَذِهِ جَمْعَةٌ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَّا إِلَى رَأْيٍ ؛ فَأَظْهَرْتُ الشَّدَّةَ ، وَقُلْتُ : « لَسْتُ بِرَاجِعٍ عَمَّا أَمَرْتُ ؛ فَتَكُونُ نَفُوسُ الَّذِينَ أَشْرَكَتُ مَعَهُمْ مُنْصَرِفَةً \* إِلَى مِثْلِ نَفُوسِهِمْ ! فَمَنْ شَاءَ ، فَلْيُمِرَّ ، وَمَنْ شَاءَ ٥٥ (ب) فَلْيَبْقَ ! » فَلَمَّا سَمِعُوا بِذَلِكَ ، خَرَجَ الْكُلُّ .

وَمَوْمِلٌ<sup>١٠</sup> ، فِي هَذَا كَلَّةٌ ، عَلَى اتِّفَاقٍ مَعَ لَيِّبٍ ، يَدْخُلُ فِي رُؤُوسِ الْجُنْدِ وَيَقُولُونَ لَهُمْ : « إِنَّ هَذَا مِنْ قَبْلِ غَيْرِنَا ؛ وَنَحْنُ أَكْبَرُ ! » وَيُرُونَهُمُ الشَّفَقَةَ مِنَ الْأَمْرِ وَالطَّعْنِ عَلَى . وَصَحَّ ذَلِكَ عِنْدِي مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ شِيُوخِ الْعَبِيدِ أَصْحَابِ مَوْمِلٍ ، وَعَلِمْتُ حَسَابَ زَنَاتِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَزُولُونَ بِالْكُلِّ ، وَأَنَّ ذَلِكَ تَرْهِيْبٌ<sup>١٠</sup> ، وَأَنَّ الرُّجُوعَ عَمَّا أَمَرْتُ بِهِ يَضُرُّهُمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُخْلُ بِالرَّأْيِ وَيَكُونُ لَهُمُ الصُّوْلَةُ وَالْحَاقَّةُ فِي الْمَعْصِيَةِ ، وَأَنَّ انْقِيَادَهُمُ لِلْأَمْرِ وَاسْتِعْذَارَهُمْ بَعْدَهُ أَشْبَهُ ، وَلِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ أَعَزُّ وَأَبْهَى .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ آخَرُ ، خَرَجْتُ بِنَفْسِي إِلَى عَرَضِهِمْ كَيْ لَا يُبْطِنَ عَلَيَّ مِنْ تَقَدُّمِ ذِكْرِهِ . فَأَمَرْتُ بِالْبَرِيحِ عَلَيْهِمْ وَإِحْضَارِ الزَّمَامِ ، لِنَعْلَمَ مِنْ صَحِّ مَضِيئِهِ وَقَعُودِهِ . فَوَجَدْتُ الْكُلَّ مُجْتَمِعِينَ ، قَدْ انْصَرَفُوا مُتَقَطِّعِينَ لَيْلًا ، لَمْ يَغِبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ١٥ فَوْقَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ أَمَرْتُ بِإِخْرَاجِهِمْ ، وَجَعَلُوا يَعْتَذِرُونَ وَيَتَنَصَّلُونَ . فَقُلْتُ : « اللَّهُ أَكْبَرُ ! هَذَا أَشْبَهُ وَالْبَيْقُ بِالْمَلِكَةِ ! » وَرَأَيْتُ مَوْمِلًا وَلَيِّبًا وَغَيْرَهُمَا قَدْ عَزَّتْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُمْ مَوْمِلِينَ أَنَّ لَوْ كَانَتْ طَائِفَةٌ لَا تَرْفَعُ .

وَالْعَيْنُ تُبْصِرُ فِي عَيْنِي مُحَدِّثُهَا إِنْ كَانَ مِنْ حَزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا

## ٦٣ - انقلاب مؤمل وثورته في لَوْشَة

- ولَمَّا قرَّ أمرهم قرارَه ، جاء مؤمِّلٌ في إثر ذلك يقول : « إنَّ هذا الانطباعَ منهم ليس لرغبةٍ في البقاء معك ! غير أنهم يُدَارونك حتى يحصلوا على فائدٍ إنزالِهم ، ويتزوّدوا به ! فلا فائدٌ تُنزلُ عليه غيرهم ، ولا رجالٌ بقوا معك ؟ » وكنتُ إذ ذاك ناظرًا منه بعينَ الثقة ؟ فعمل قوله في نفسي ، وقلتُ : « لا يخلو هذا القولُ عن وجهين : » إمّا قد اطلَّع على ذلك منهم ، فهي نصيحةٌ ، أو لم يطلَّعْ ، فهو بغائلته لا يدَعُهُمْ ، ويدخلُ هذا في رؤوسهم ، وتكون على في ذلك الخسارة . وإن احتجَّتُ إلى العِوض ، لم يكن لي على ما نُنزله ولا في بيت المال الكفاية لِمَا نحن بسبيله \* من النفقات على سائر الأمم ! » فلم ٥٦ (١)
- يَأْتِنِي من هذه الكلمة نعاس . وأمرتُ بإخراج كلِّ من في رأسه حماقةٌ . فبلغ عدَّتُهُم نحو المائة فارس ؛ فخرجوا عن المدينة ، وتصفَّتْ ، ولم يَبْقَ فيها إلا مَنْ ينطاع لكلِّ أمرٍ .
- وعَمَلَ في نفسي فِعْلُ كَلِيب وشيوخِ العَبِيد ، وصحَّ عندي منهم وَفِيهِمْ أَنَّهُمْ عَوَّجُوا زَنَاتَهُ ؛ وكانوا أَشدَّ علىَّ من كلِّ أَحَدٍ . وجعل زَنَاتُهُ يَذْكُرُونَ ذلك ، ويقولون وقتَ اعتذارهم : « لا ذنب لنا ! إِنَّمَا نَحْنُ جُنْدٌ ، ولولا ثِقَاتُهُ وَعَبِيدُهُ الذين حملونا على ذلك ، لم نَجْتَرَمْ <sup>(١)</sup> عليه ! » وجَعَلُوهم في وقت قيامهم يمشون على الأسواق ، ويأْمُرُونَ الناسَ بالقيام ، ويقولون لهم : « لم نَدْفَعْ نَحْنُ ، إلَّا وهو يُريد إدخالَ النصرى ! » فلم يَلْتَفَتِ الناسُ إلى قولهم ، إذ لم يروا ذلك من ثِقَاتِ الدولة وصِنَهاجَةٍ .

وَلَمَّا أُخْرِجَ زَنَاتَةُ ، أَمَرْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِخْرَاجِ اثْنَيْنِ مِنْ شِيوخِ الْعَبِيدِ  
الَّذِينَ صَحَّ عِنْدِي إِشْعَاؤُهُمْ لِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، وَتَقَفْتُ لَبِيْبِيًّا . فَوَافَقَ إِخْرَاجَهُمْ  
وَمُوَءَلُّ خَارِجَ الْمَدِينَةِ ؛ فَلَحِقُوا بِهِ ، وَقَالُوا لَهُ : « قَدْ أَخْرَجْنَا ! وَغَدَا  
بِكَ هَكَذَا ! فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ ! » فَخَرَجَ مَعَهُمْ مِنْ فَوْزِهِ ذَلِكَ ، قَاصِدًا إِلَى  
كَوْشَةٍ ، مَعَ مَنْ اتَّفَقَ مَعَهُ مِثْلُ ابْنِ الْبَرَاءِ الْكَاتِبِ وَغَيْرِهِ .

وَكَانَتْ هَذِهِ تَقَفَّةٌ قَدِيمَةٌ بَيْنَهُمْ مَعَ بَنِي مَالِكٍ عُمَالٍ كَوْشَةٍ ، أَنَّهُ ، مَتَى  
دَهَمَهُمْ أَمْرٌ ، أَجَؤُوا إِلَيْهَا . فَهَضَوْا مِنْ فَوْزِهِمْ ذَلِكَ قَاصِدِينَ إِلَى كَوْشَةٍ ،  
وَلَحِقُوا بِهَا لَيْلًا . وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ ، وَلَمْ يَمْنَعْ أَحَدٌ لِمَكَاتِهِ مِنَّا ؛ وَحَسَبَ الْقَائِدُ  
وَمَنْ فِيهَا أَنَّهُ رَسُولٌ . فَصَارَ فِي قَصَبَتِهَا ، وَجَعَ الْجُنْدِ وَالرَّعِيَّةِ ،  
وَصَرَخَ فِيهِمْ بِالْبُسْكَاءِ ، وَافْتَعَلَ الْكَذِبَ ، وَقَالَ لَهُمْ : « لَمْ أَخْرُجْ مِنْ  
غَرْنَاطَةِ إِلَّا كَمَا تَرَوْنَ : « بَطَوَقِي عَلَى عُنُقِي » ! وَتَرَكْتُ فِيهَا النَّصَارَى  
قَدْ اسْتَحْوَذُوا عَلَيْهَا ؛ وَكُشِفَ عَنِّي ! فَأَثَبْتُوا مَعِيَ وَنُوجَّهُ إِلَى كُلِّ  
سَاطِئَانٍ : فَمَنْ أَجَابَنَا ، اعْتَصَدْنَا بِهِ ! » وَخَاطَبَ بِذَلِكَ حُصُونَ الْعَرَبِ ، يَأْمُرُهُمْ  
بِالْخِلَافِ ؛ وَأَرْسَلَ إِلَى زَنَاتَةَ الْمُخْرَجِينَ ، لِيَكُونُوا مَعَهُ مُضَيِّقِينَ عَلَى \* غَرْنَاطَةِ . ٥٦ (ب)

١٥ وَإِنَّ أَهْلَ الْجِهَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَصُونِ ، لَمَّا مَسَمَعُوا ذَلِكَ ، دَبَرُوا رَأْيَهُمْ .  
وَأَرْسَلَ كُلُّ حِصْنٍ مِنْ كِبَارِهِمْ إِلَى الْحَضْرَةِ مَنْ يَطْلِعُ صُورَةَ الْأَمْرِ ؛ فَإِنْ  
وَجَدَ خِلَافَ قَوْلِهِ ، لَمْ يُخْرِبُوا وَجُوهَهُمْ مَعَنَا ؛ وَإِنْ أَلْفَوْهُ حَقًّا ، نَظَرُوا  
لَأَنْفُسِهِمْ . فَأَتَوْنِي أَفْوَاجًا مُعَزِّينَ وَمُهَنِّئِينَ عَلَى السَّلَامَةِ مِنَ النَّصَارَى ،  
وَمُسْتَفْهِمِينَ جَلِيَّةَ الْحَالِ . فَأَخْبَرْتُهُمْ بِالْأَمْرِ عَلَى وَجْهِهِ ، وَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا  
٢٠ مِمَّا ذَكَرَ مُوَءَلُّ . فَطَابَتْ أَنْفُسُهُمْ ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ مُخَالِفٌ مُنَافِقٌ . فَبَادَرَ  
الْكُلَّ إِلَى مُنَازَلَتِهِ ، وَسَأَلُونِي عَسْكَرَ الْحَضْرَةِ .

وَكُنْتُ ، لما صَحَّ نفاقُهُم بِلَوْشَةٍ ، قد أُبْلِيَتْ لَهُمْ عُذْرًا ، وَأُرْسِلَتْ  
إِلَيْهِمْ كُتُبًا ورُسُلًا تَأْمَنُهُمْ مِمَّا خَافُوا ، وَتُحَذَّرُهُمْ قَبِيحِ الْعَاقِبَةِ فِي إِيثَارِ  
الْفِتْنَةِ ، وَأَنَّى مُطْلَقُ إِلَيْهِمْ أَهَالِيهِمْ ، وَيَجْرُؤُونَ عَنِ الْحَصُونِ حَيْثُ شَاؤُوا  
بَأَمَانٍ وَوَثَاقٍ ؛ وَهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ ، لَا يَزِيدُونَ إِلَّا طَغْيَانًا وَتَهْدُدًا ، بَارِنِينَ  
عَلَى الشَّرِّ ، طَالِبِينَ لِلثَّارِ بِلَا ثَارٍ . فَلَمَّا يَلُسْتُ مِنْهُمْ ، مَعَ اتِّفَاقِ الْحَصُونِ  
عَلَيْهِمْ ، أُرْسِلْتُ بِالْعَسْكَرِ ، وَقَوَّدْتُ عَلَيْهِمْ يُوسُفَ بْنَ حَجَّاجٍ ، سَنَدُكُرُ  
وَجْهَ مُصَاهَرَتِهِ لَنَا بَعْدَ هَذَا ؛ فَهَظُ ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا سَاعَةً وَصُولِهِ ، وَجَزَعَ  
مَنْ مَعَهُ فِي الْقَصْبَةِ ، وَخَلَّتْ عَلَيْهِمْ ؛ وَدَخَلَهَا الْعَسْكَرُ ، وَأُسِرَ فِيهَا هُوَ  
وَكُلُّ مَنْ مَعَهُ . وَأَتَانَا مِنْ ذَلِكَ فَتْحٌ عَظِيمٌ .

١٠ وَأَمَرْنَا بِثِقَافِهَا وَسَوْقَانِ الْأَسْرَى ، وَثَقَّفْنَاهُمْ مُسْتَفْتِينَ فِي أَمْرِهِمْ ؛  
فَأَفْتَتِ السُّنَّةُ أَنَّ قَتَلَهُمْ غَيْرُ جَائِزٍ إِذْ كَانَ نَفَارُهُمْ جَزَعًا ، عَلَى أَنَّهُمْ  
كَانَتْ لَهُمْ سَعَةٌ فِي الْأَرْضِ غَيْرِ لَوْشَةٍ ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ؛  
وآخَرُونَ يَقُولُونَ بِقَتْلِهِمْ . فَأَثَرَتِ الْأَلَيَقُ وَالْأَبْعَدُ مِنَ الْإِتَامِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ  
لَا يَفُوتُ ؛ وَمِنْ أَخْلَاقِ الْكِرَامِ التَّائِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ . فَأَوْجَبَتِ  
السياسةُ تَثْقِيْفَهُمِ وَالشَّدَّةَ عَلَيْهِمْ ، لِئَلَّا تَكُونَ طَرِيقَةً لِعَبْرِهِمْ ؛ وَهُوَ بَابُ فَتْحِهِ  
عَلَى الدَّوْلَةِ مِنْ أَضَرِّ الْأَشْيَاءِ ؛ فَلَا غَفْلَةَ لِمَلِكٍ يَقْظَانِ فِيهِ .

وَخَاطَبُوا ، مُدَّةَ كَوْنِهِمْ بِلَوْشَةٍ ، كُلَّ رَئِيسٍ بِالْأَنْدَلُسِ ، حَتَّى صَاحِبِ  
مَالَقَةِ . فَلَمْ يَجِبْهُمْ \* أَحَدٌ . فَلَمَّا يَتَسَّ مُوَمَّلٌ مِنْهُمْ ، أُرْسِلَ إِلَى أَمِيرِ (١) ٥٧  
الْمُسْلِمِينَ ، بِزُورٍ عِنْدَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، وَيَكْذِبُ ، وَيَقُولُ لَهُ : « لَمْ نُؤْتِ  
إِلَّا مِنْ إِنْكَارِي أَمَرَ النَّصَارَى ، وَالْقِيَامُ بِدَعْوَتِكَ » حُجَّةً لَا تَقُومُ عَلَى  
سَاقٍ . وَكَانَ الْعَسْكَرُ إِلَيْهَا مُقْبِلًا مَعَ نُعْمَانٍ ؛ فَانْصَرَفَ لَمَّا عُلِمَ بِأَخْذِهَا .

## ٦٤ - وَصَفَ الثَّائِرُ نَعْمَانَ وَسِيرَتُهُ ضِدَّ عَبْدِ اللَّهِ

وكان نَعْمَانُ المذكورُ مِمَّنْ فَعَلْنَا مَعَهُ جَيلاً ، وَأَحْسَنَّا إِلَيْهِ مُحْرَمَةَ الْقَرَابَةِ  
والانقطاع إلينا من المُرَابِطِينَ ؛ وزال عَنَّا بعد إعماله الدواخِلِ علينا في حصوننا  
الغربيَّةِ ، وَعَقْدِهِ مَعَ أَهْلِهَا أَنْ يَصِيرُوا فِي طَاعَةِ المُرَابِطِينَ مَتَى دُعُوا . وكان  
٥ له بتلك الجهة إِنْزَالٌ ؛ فتمكَّنَ من القُرْبِ والعَمَلِ بذلك ، وخرج عَنَّا  
بَسْرَاحٍ ادَّعَى مِنْ أَجْلِهِ أَنَّ لَهُ بِالْعِدْوَةِ مِيراثاً ومالاً يُريدُ اقتضاءه ؛ فَأَجَبْنَا  
له النهوضَ ؛ وإذا به يَسْعَى علينا . وقال للأَمِيرِ : « نُفَيْتُ مِنْ الْبَلَدِ مِنْ  
أَجْلِ نَصِيحَتِي لَكَ وَمَحَبَّتِي فِي دَوْلَتِكَ ! » أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ حَرْفٌ ، حَتَّى  
إِنْ أَطَوَّقِي ، إِنْ تَكَلَّمْتُ ، لَسَعَتْ عَلَيَّ ، لِلْقَدَرِ الَّذِي شَاءَهُ اللَّهُ ، عَسَى  
١٠ لِعَاقِبَةٍ مَحْمُودَةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَعَمِلْتُ هَذِهِ الْمَعَانِي كُلَّهَا فِي نَفْسِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، مَعَ مَا صُوِّرَتْ عَنْده  
بِكثَرَةِ الْأَمْوَالِ الْمَكْذُوبِ عَلَيْهَا وَالْمُنْتَفَقَةِ فِي طَاعَتِهِ وَالْجِهَادِ مَعَهُ لَوْ بَقِيَتْ الْحَالُ .

## ٦٥ - مَسْأَلَةُ زَوَاجِ الْأَمِيرَتَيْنِ أُخْتَيْ عَبْدِ اللَّهِ

وإِنَّا فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ ، رَأَيْنَا مِنْ الصَّلَاحِ النَّظَرَ لِمَنْ مَعَنَا مِنَ الْبَنَاتِ  
١٥ وَتَزَوَّجْنَهُنَّ قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَ أَمْرٌ ، فَيَكُنَّ عَلَى غَيْرِ عِصْمَةٍ وَلَا كَفِيلٍ .  
فَتَخَيَّرْنَا لَهُمَا مِنْ بَنِي عَمَّتَيْهِمَا شَاكِلَةً ، مِنْهُنَّ مَعَدُّ بْنُ يَعْلَى ، لِلَّذِي كَانَ عَلَيْهِ  
مِنَ النِّجَابَةِ وَالْعَقْلِ وَالْمَحَبَّةِ ؛ فَصَدَدْنَا عَنْ ذَلِكَ أَهْلُ دَوْلَتِنَا ، وَقَالُوا نَصِيحَةً  
وَحَسَداً : « إِنْ أَنْتِ تَصَاهَرْتَ إِلَى بَنِي عَمِّكَ ، كَحَلَّتْهُمْ دَالَّةُ الْقَرَابَةِ مَعَ  
الْمُصَاهَرَةِ عَلَى الظُّهُورِ عَلَيْكَ وَفَسَادِ حَالِكَ بِصِلَاحِهِمْ . فَإِيَّاكَ ! وَعَلَيْكَ بِمَنْ



هو دون قِيَمَتِكَ ؛ فِيرَاعَى إِحْسَانَكَ ، وَيَرَى هَذَا مِنْكَ كَثِيراً ، وَيَرَى  
عِيَالَهُ بَعِيْنَ مَوَلَاةٍ ؛ وَإِنْ هُوَ تَحَرَّكَ إِلَى شَيْءٍ ، قَعَدَتْ بِهِ دَقَّةُ شَأْنِهِ ؛ فَلَا  
أَتْبَاعَ يُهَادِدُونَهُ . « فَقَبَلْنَا ذَلِكَ حَذَرًا \* عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَقُلْنَا : « مَنْ صَلَحَ  
مِنْ قَرَابَتِنَا ، نُذَرِكْ فَعْلَ الْخَيْرِ فِيهِ دُونَ مُصَاهَرَةٍ تُطْفِئِهِ ! »

٥ وكان من بعض خَدَمَتِنَا مَنْ حَضَّنَا عَلَى يَوْسُفَ بْنِ حَبِجَّاجٍ ، لِعِلْمِهِ  
بِأَخْلَاقِهِ مَدَّةَ صَحْبَتِهِ لَهُ ؛ وَوَصَفَهُ بِصِفَاتٍ ظَاهِرُهَا يَشْبَهُ الْمَشَاكِلَةَ . وَذَلِكَ أَنَّهُ  
قَالَ : « فِي الرَّجُلِ انْقِبَاضٌ وَاسْتِيحَاشٌ مِنَ النَّاسِ ؛ وَبِذَلِكَ تَأْمَنُ مِنْ  
إِجْمَاعِهِ عَلَيْكَ ؛ وَفِيهِ شُحٌّ كَثِيرٌ ، لَا يُخْرِجُ خَيْرَهُ مِنْ مَنْزِلِهِ ؛ وَفِيهِ غِيْرَةٌ شَدِيدَةٌ  
تُؤَافِقُ مُعَاشَرَةَ الْعِيَالِ ؛ وَبِهِ حَرَجٌ وَنَزَقٌ ، لَا تَصِحُّ بِهِ وَلَايَةٌ ؛ وَهُوَ مِنْ  
نَقْصَانِ الْبَيَانِ وَعِىِّ الْإِسَانِ مَا لَا يَطْبِى بِذَلِكَ النَّاسُ لَتَأَلُّبٍ ، إِنْ شَاءَ ١٠  
عَلَيْكَ ، وَلَا نَقْضَ لِفَعَالِكَ أَوْ مَقَالِكَ وَالرَّجُلُ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ وَمِمَّنْ لَا يَنْتَمِى  
إِلَى مَلَائِكَةٍ ، وَلَا تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِمَا لَا أَصْلَ لَهُ فِيهِ . فَهُوَ بَيْنَ يَدَيْكَ كَالْكَمَاةِ الَّتِي إِنْ  
شِئْتَ قَلَعْتَهَا ، لَمْ تَعْذُرْ عَلَيْكَ مِنْ أَصْلِهَا ، أَوْ كَالصَّمْغَةِ ، إِنْ شِئْتَ فَرَّغْتَهَا ،  
ظَهَرَتْ ؛ وَكَانَتْ لَكَ الْمَنَّةُ وَالْخِيَارُ ! وَالْآخِرُ هُوَ تَرَبُّبُكَ وَنَشَأُكَ ، وَابْنُ  
وَزِيرٍ جَدِّكَ ، وَلَهُ مِنْ بُعْدِ الْهِمَّةِ وَكَرَمِ النَّفْسِ وَحُسْنِ السَّمْتِ وَالْوَقَارِ عَلَى ١٥  
حَالِ الْخِدَاثَةِ مَا تُرْجَى بَرَكَتُهُ ؛ وَلَيْسَ بِمُنْقَدٍ قَدْرُهُ . وَإِنْ أَنْهَضْتَهُ إِلَى  
أَمْرٍ ، جَدَّ فِيهِ ، وَأَنْتَ آمِنٌ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَنْهَضَ  
ابْنَهُ إِلَى دَرَجَةٍ تُقَرُّ عَيْنُهُ . وَالْأَوَّلَى أَنْ يَدْعُوكَ صِهْرُكَ « مَوَلَايَ » ،  
مَنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلًا ؛ فَتَشْقَى أَنْتَ وَنَحْنُ ، إِذَا الْغَمْدُ لَا يَحْتَمِلُ سَيِّفَيْنِ ،  
٢٠ وَلَا نَدْرَى مِنَ السُّلْطَانِ فِيكُمْ ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَيْتَهُ وَقَدَّمْتَهُ . »

فَعَدْتُ لَهُمَا النِّكَاحَ عَلَى أَتَمِّ مَا يُمْكِنُ ، وَاسْتَعَدَدْتُ فِي سَائِرِ أُمُورِي

بِالْأَحْزَمِ ، وَوَكَلْتُ ذَلِكَ إِلَى الْأَقْدَارِ ، وَقُلْتُ : « هَذَا جُهْدُ الْإِسْطَاعَةِ ؛  
وَدُونَ جُهْدِكَ لَا تُتْلَمُ . وَلِلَّهِ أَنْ يَقْضَى بِمَا شَاءَ ! »

وَلَمَّا صَارَ وَلَدُ حَجَّاجٍ بَنِيكَ الْمَنْزِلَةَ ، شَرِهَتْ نَفْسُهُ إِلَى وَزَارَةِ الدَّوْلَةِ ،  
مَقْطَعٌ مِنْ لَمْ يَمِيزِ الْمَذْهَبَ . وَلَمْ نَكُنْ بَعْدَ وَزَارَةِ سِمَاكِةٍ نَسْتَعْمَلُ لِنَاكَ أَحَدًا .  
فَكَأَنَّهُ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ التَّقْصِيرُ بِهِ ، جَهَالَةً مِنَ الْإِنْسَانِ \* بِقَدْرِهِ لَهُ مُهْلِكَةٌ ، (١) ٥٨  
وَتَرْكُهُ صِيَانَةَ قَدْرِهِ لَهُ فَاضِحَةٌ .

## ٦٦ - حَدِيثٌ مُعْتَرِضٌ عَنْ نَصَحَاءِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ

وَكَانَ أَهْلُ دَوْلَتِنَا عَلَى مَذْهَبِ جَهَالَةٍ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ : إِنْ كُلُّ أَحَدٍ  
مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ بِرَأْيِهِ ، وَأَنْ تَجْرِيَ الْأُمُورُ عَلَى هَوَاهُ ؛ فَإِنْ لَمْ يَتَّفَقْ  
ذَلِكَ لَهُ ، صَارَ فِي حَيْزِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَلَوْ كَانَ عَلَى مَرْغُوبِهِمْ ، مَا اتَّفَقَ لِرَأْسِ  
عَمَلٍ ، وَلَا تَمَّ لَهُ شَيْءٌ . وَكَانُوا قَبْلَ أَيَّامِنَا قَدْ شَغَلَهُمُ الْخَوْفُ مِنْ صَوْلَةِ  
رُؤَسَائِهِمْ : مَا كَانُوا يَرَوْنَ السَّلَامَةَ غَنِيمَةً . وَلَمَّا تَمَّ لَهُمْ فِي أَيَّامِنَا الْأَمْنُ ،  
وَأَسْتَيْتَهُمْ مَا مَضَى ، أَدْرَكَهُمْ الْأَشْرُ وَالْبَطَرُ ، إِلَى أَنْ تَطْمَحَ أَنْفُسُهُمْ لِغَيْرِ  
ذَلِكَ . وَكُنَّا نَحْنُ نَظُنُّ أَنْ بِالْأَمْنِ نَسْلَمُ مِنَ اللَّائِمَةِ وَالْعِدَاوَةِ . وَخَانَنَا  
الْقِيَاسُ ؛ وَكَذَلِكَ الْعَاقِلُ الْمُتَمَرِّنُ لَا يَجِبُ لَهُ أَنْ يَظُنَّ بِالنَّاسِ ظَنَّهُ بِنَفْسِهِ ،  
وَلَا يَعْمَلَ حِسَابَهُ وَحْدَهُ . فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَلَى مَذْهَبِكَ ، وَلَا هَوَاهُ مُطَابِقٌ  
لِهَوَاكَ ! وَلَا مُحَالَةٌ أَنْ بِاخْتِلَافِ الْأَهْوَاءِ تَقَعَ الْعِدَاوَاتُ ، وَبِاتِّفَاقِنَا تَكُونَ  
الْمُصَاحَبَةُ وَحُسْنُ الْمُعَاشَرَةِ . وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَكَ مَنْ يَكَابِدُ مَعَكَ ، وَدِهَاهُ  
مِثْلُ الَّذِي دِهَاكَ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْأَبَاعِدِ ؛ فَلَا تَسْتَرْحِجْ إِلَّا إِلَيْهِ ؛ وَلَا تَشْكُ  
هَمَكَ مَعَ مَنْ لَمْ يَفْنِهِ مَا عَنَّاكَ : فَإِنَّمَا سَأَلَ عَنْ حَدِيثِكَ ، وَقَدْ أَكْثَرَتْ

عليه ، وإِذَا مُخَالَفٌ لِمَذْهَبِكَ ، قد استهدفتَ إلى عَدَوَاتِهِ ، وأُحْدِثْتَ فِي نَفْسِهِ مَا كُنْتَ غَنِيًّا عَنْهُ .

هَذَا طَبْعُ الْبَشَرِيَّةِ : فَلَا تَسْمَعْ مِمَّنْ يُرِيكَ التَّحْقِيقَ بِكَلَامِهِ ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ عَلَى النُّفُوسِ ، وَالْبَاطِلَ إِلَيْهَا أَسْرَعُ ، وَعَلَيْهَا أَخَفٌ . وَلَمَّا عَلِمَ الشَّيْطَانُ حِيلَ الْإِنْسَانِ ، لَمَجْرَاهُ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ الدَّمِّ ، أَتَاهُ مِنْ قَبْلِ هَوَاهُ .

وَلَا سَبِيلَ أَنْ تَلْقَى أَحَدًا عَدِيمَ الْعَقْلِ : كُلُّ قَدْ أَخَذَ مِنَ التَّجَرِبَةِ حِصَّتَهُ ، وَحَازَ اخْتِيَارَهُ ؛ وَعَرَضُكَ عَلَيْهِ مَا يَبْدُو إِلَيْكَ عَجْزٌ وَكَلْفَةٌ : فَإِنْ كَانَ رِيضًا ، فَهُوَ بِشَأْنِهِ أَبْصَرُ ؛ وَلَعَلَّ لَهُ عَذْرًا ، وَأَنْتَ تَلُومُ ؛ فَتَوَلَّدَ عَلَيْهِ انْقِبَاضٌ مِنْكَ وَتَحَفُّظٌ لَثَلَا يُرِيكَ الْخِلَافَ حَتَّى يَأْتِيَ بِمَا اعْتَزَمَ عَلَيْهِ . وَإِنْ

أَلْفَيْتَهُ جَاهِلًا ، فَمِنْ الْعَنَاءِ رِيَاضَةُ الْهَرَمِ ، لَمْ تَزِدْهُ أَكْثَرَ مِنْ نَقْلِهِ\* عَنْ ٥٨ (ب) وَدَّهِ ، وَلَا يَنْتَقِلُ عَنْ طَبْعِهِ .

كَيْفَ مَا رَوَيْتُ فِي الْأَمْرِ ، أَجِدُهُ جَهْلًا مِنْ فَاعِلِهِ وَكُلْفَةً ، إِذْ لَا تَأْدِيبَ يَجْمَلُ بِالْمُعَلِّمِ وَلَا الْمُتَعَلِّمِ . اللَّهُمَّ إِلَّا مِنْ شُورٍ فِي أَمْرٍ ، فَعَلِيهِ أَنْ يَعْطَى مَا عِنْدَهُ مِنْ غَيْرِ الْخَاجِ ، وَلَا يَتَمَرَّنَ فِي انتِظَارِ طَاعَةٍ ؛ فَيَكُونُ النَّاصِحَ ، إِنْ سَمِعَ مِنْهُ ، تَمَادَى عَلَى صِدَاقَتِهِ وَخُوفٍ فِي غِشٍّ . فَمَا قَامَ خَيْرُكَ ، يَا زَمَانَ ، بِشَرِّكَ !

لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ بَخْلَافٍ يَسِيرُ عَلَى الْقَائِلِ يُنْتَقَلُ إِلَى حِزِّ الْعَدَاوَةِ ، لَمْ أَشَاوِرْهُ فِي أَمْرٍ أَبَدًا : وَأَكُونُ قَبْلَ مُشَاوَرَتِهِ مَخَاطِرًا حَذِرًا الَّذِي نَخَشَى مِنْهُ ، أَشَدَّ عَلَى مَنْ عَاقَبَتِ الْأَمْرَ الْمَعْرُوضُ عَلَيْهِ . فَالْعَاقِلُ يَقِيسُ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي وَيَحْزِرُ بِهَا صَدِيقَهُ . فَرُبَّ عَدَاوَةٍ تَتَوَلَّدُ بِأَرْقٍ سَبَبٍ ، أَوْ عَدَاوَةٍ تَعُودُ إِلَى مُوَدَّةٍ ، عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى التَّعَاوُنِ أَوْ الْإِنْخِرَاطِ فِي سَلَكٍ وَاحِدٍ

٥

١٠

١٥

٢٠

من عارضٍ يعمُّ أو مرغوبٍ يُرامُ ؟ تكون الحاجة فيه سواء .  
ولا خيرٌ في عقلٍ لا يتصرف تارات ؛ والمذهبُ السَّرمديُّ رَاكِبُ  
طريقةِ الجَهل ، واقعٌ في الورطات . ومن الحقِّ ما يسمج ، فلا تقوم  
حلاوته وفرضه بما يعقب من المشقة ؛ والعاقِلُ يتخير الأمور ؛ فيتجنَّب معسورها ،  
ويتوخَّى ميسورها .

## ٦٧ - رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختي المؤلف

وللقائل ، إن يحتجَّ على هذا التسكاح : ما الذي أريد به ؟ إن كُنَّا  
غالبين ، فقد استغفينا عنه ؛ وإن كُنَّا مغلوبين ، لم يفِدْ ذلك ! يعترض  
هذا بعد تبيين ما وقع !

وإنما أردنا اكتسابَ الحسنة مع السرِّ ؛ وإنه ، متى عرض عارضٌ ،  
كان البعلُ مكتفياً بامرأته ، يُقلِّمها إذا أخوج ما تكون فيه عند ذلك ،  
وتكون لنا منهم عُدَّةٌ ، ويُقلُّ طمعُ كلٍّ من يشره إلى خطبتهما . فقد  
كان كثيرٌ من سلاطين الأندلس رامَ ذلك ؛ وتوقعنا العاقبة إن فعلنا :  
تنشَّبنا فيما لا مردَّ فيه ، ولا يُنفكُّ عنه إلَّا بالأموال الجسيمة التي هي  
أولى بالبدل في إقامة أود المملكة وما كُنَّا بسبيله من الجهاد ؛ وإن أبينا ،  
وقع الخلافُ والحقْدُ من الطالب ، بحيث لا يوافق ؛ على أنه لم نحسب

حسابَ ما جرى . \* ولو كُنْتُ أعلم الغيب ، لاسْتَكثَرْتُ من الخير . وكان ٥٩ (١)  
زماناً لم نحسب فيه حسابَ خيرٍ خرجَ منه مثقالُ ذرَّةٍ ، ولا قِسْنا على  
شيءٍ من الشرِّ إلَّا ولم نبلغ معشَارَ ما يكون منه ، بل يدهى منه أمرُهُ وأفطعُهُ .  
ولقد قال المطالبون إنَّ أمير المسلمين كان أحقَّ بها ، وإنما فعلنا

ذلك فراراً منه . وهذا من المُحَال أن يكون أَحَدٌ يَتَبَعُ الشَّرَفَ ، وَيُدْعَى إِلَى مَا فِيهِ حَيَاتُهُ ، فَيَأْبَاهُ ! وَلَوْ أَنَّي أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَنَرَى أَنَّ الْمَذْهَبَ فِي هَذَا ، لَكُنْتُ أَشَدَّ النَّاسِ اغْتِبَاطًا بِالْأَمْرِ ، وَإِلَيْهِ مُسَارَعَةً ، وَعَلَيْهِ حَرَصًا .

• ولم يكن مَنْ أُلْحَ في ذلك أَكْثَرُ مِنَ الْمُعْتَصِمِ — رحمه الله — ؛ فَبَادَرْتُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، خَوْفًا مِنْ كُلِّ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَإِنِّهِ ، لَمَّا تَوَاتَرَتْ عَلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الْأَنْبَاءُ ، وَصُورَتْ عِنْدَهُ عَلَى غَيْرِ مَا هِيَ ، عَمِلْتُ فِي نَفْسِهِ .

وَانْقَطَعَ رَجَاءُ مَوْمِلٍ بِلَوْشَةٍ مِنْ أَنْ يَجِيْبَهُ سُلْطَانٌ مِنَ الْأَنْدَلُسِ ؛ وَعِنْدَ ذَلِكَ ، خَاطَبَ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَلَمْ يَصِلِ الْخُطَابُ ، وَهَيَّأَ الْعَسْكَرَ إِلَيْهَا مَعَ نِعْمَانٍ ، حَتَّى انْقَضَى خَبَرُهَا ، عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ . ١٠

## ٦٨ — تَدْخُلُ عَبْدُ اللَّهِ فِي مَسْأَلَةِ مُرْسِيَةِ وَغَضَبِ الْمُعْتَمِدِ

وَاعْتَقَدَ الْمُعْتَمِدُ دُخُولَ النَّصَارَى بِلَدِهِ وَمُحَاشَاتِهِمْ لِلْجَمَاحِ ، مَعَ مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ أَمْرِ مُرْسِيَةِ . فَإِنَّ ابْنَ رَشِيقٍ قَالَ لِي مُشَافَهَةً ، وَنَحْنُ عَلَى ١٥ لَيْيَظُ : « أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ صَدِيقَكَ وَأَدْخُلَ فِي مُجْلَتِكَ . » وَقَالَ لِي رَسُولُهُ بَعْدَ ثِقَافِهِ : « لَوْ أَنَّكَ تَقْبَلُ مَنْ تَخَلَّفَ فِيهَا ، لَأَقَامَ الْخُطْبَةَ بِأَسْمِكَ ، وَكَانَتْ فِي طَاعَتِكَ ! تَجِدُهُ وَيَجِدُكَ ! فَأَيُّتُ هَذَا الْقَوْلَ جُمْلَةً ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « هَذِهِ نَصْبَةٌ لَمْ يَكْدُ أَصْحَابُنَا يَتَخَلَّصُونَ مِنْهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَرَامِ الشَّدِيدِ وَالْكَدِّ الْعَظِيمِ ! رُدَّ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمَشَقَّاتُ ! فَلَا يَفْتَرِضُهَا هَذَا ٢٠ الْوَقْتُ إِلَّا جَاهِلٌ بِالزَّمَانِ ! وَلَيْتَ لَوْ سَلَمْنَا مِنْ هَذَا كُلِّهِ ! وَإِنِّهِ مَنْ أَمَلَّ

أَنْ يُبْقَى بَلَدَهُ بِيَدِهِ ، فَقَدْ شَرِهَ إِلَى كَثِيرٍ ، فَكَيْفَ لِفُضُولِ الْعَمَلِ الَّذِي كُنْتُ أَرَى وَأُمَيِّرُ ؟

وَلَمَّا قَامَتْ عَلَيْنَا الْيُسَانَةُ ، عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ ، كَانَ ابْنُ الْأَحْمَرِ يُدَاخِلُهَا ، وَيَعِدُّهُمْ وَيَأْمُرُهُمْ بِالتَّثَبُّتِ ، حَتَّى تَبْدُو إِلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ ؛ وَيَبْلُغُنِي \* ٥٩ (ب) مِنْ ذَلِكَ مَا يُثْقِلُ . فَأَرَدْتُ بَعْضَ الْمَكَافَأَةِ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْ نُوجِّهَ إِلَى مُرْسِيَةِ مَنْ يَعْقِدُ مَا ابْتَدَأْنِي بِهِ رَسُولُهُمْ ابْنُ يَكُّونَ ، الْمُتَصَرِّفُ فِي خِدْمَتِهِمْ ، وَيَقُولُ لَهُمْ أَنْ يُبَيِّنُوا كَيْفَ يَرِيدُونَ مُحَاوَلَةَ هَذَا الْأَمْرِ : إِنْ أَرَادُوا الْقِيَامَ بِدَعْوَتِنَا لِمِلَّةٍ مَتَى كَانَتْ ، نَغِيثُهُمْ فِيهَا بِأَمْوَالِنَا وَرَجَالِنَا ؛ وَمَا فَائِدَةُ ذَلِكَ وَثَمَرَتُهُ فِيمَا نَشْتَرِطُ نَحْنُ بِهِ ؟

١٠ وَلَمَّا تَوَجَّهَ مِنْ ثِقَاتِنَا لِذَلِكَ مَنْ أَنْفَذْنَاهُ ، اعْتَقَدَهَا الْمُعْتَمِدُ فِي نَفْسِهِ ؛ عَلَى أَنَّهَا لَمْ نَكُنْ نَغْرَمُ عَلَى ذَلِكَ أَبَدًا أَكْثَرَ مِنْ طَلَبِ التَّعَلَّاتِ عَلَيْهِ آخَرَ ذَلِكَ بِأَنْ نَسْمَعَ مِنْهُ مَا لَا يُوَافِقُ ؛ فَيَنْتَقِضُ الْعَمَلُ بِسَبَبِهِ ، أَوْ تُوقَفَ الْحَالُ إِلَى أَمَدٍ مَا ؛ كَالَّذِي يَقَعُ بَيْنَ الْمُلُوكِ مِنَ الْمُدَاخَلَاتِ وَالْأَعْمَالِ : فَهِيَ مَا لَا يَتِمُّ ، أَوْ يَتِمَّ إِلَى حِينٍ .

٦٩ — إِرْسَالُ سَفَارَةٍ إِلَى يُوسُفَ بْنِ تَاشَفِينِ

١٥

بِسَبَبَةِ مَنْ قَبَلَ عَبْدُ اللَّهِ وَإِيقَاعِ الْخَوْفِ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ رَجُوعِهَا

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، لَمَّا أَتَى سَبَبَتَةَ ، وَهُوَ قَدْ أَحْشَدَ وَأَعَدَّ ، قَاصِدًا إِلَى جِهَتِنَا ، لَا يَرِيدُ غَيْرَهَا ، أَرْسَلْنَا إِلَيْهِ رُسُلًا مُقَدِّمَةً ، بَعْدَ عِتَابِ

كبير جرى بيننا وبين المَعْتَمِدِ على خَبَرِ مَرْسِيَةِ ، لم يَرِدْ به مَفاسِدَةٌ أَكْثَرُ مما وصفناه .

وَحَانَ وَصُولُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى سَبْتَةِ ، وَقَدِمَ رُسُلُنَا عَلَيْهِ ، وَهُمْ : ابْنُ سَهْلٍ الْقَاضِي الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرَهُ ، الْمُسْتَعْمَلُ لِلْعَمَلَةِ الْمُوصُوفَةِ ، وَبَادِيسُ بْنُ وَارَوِيٍّ مِنْ تَلْكَاتَةِ ، يَهْتُونُهُ عَلَى سَلَامَتِهِ وَيَتَلَقَّوْنَ بِالرَّحْبِ قُدُومَهُ وَمُسَارَعَتَنَا إِلَى مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ فِي جِهَادِهِ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .

فَانصَرَفَ الرُّسُولَانِ الْمَذْكُورَانِ ، يَعْلَمَانِي أَنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ قَابِلٌ لِكُلِّ مَا ذَكَرْنَاهُ ؛ قَدْ أَعْرَضَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْجَمِيلِ وَلَطِيفِ الْقَوْلِ مَا لَا شَكَّ فِي مَحَبَّتِهِ . فَسَرَّنا ذَلِكَ . وَكَانَ فِيهِمَا قَالُ لَمْ : « يَصْنَعُ مَا شَاءَ ! لَسْتُ مِنْ يَكْلَفُ أَحَدًا إِلَّا طَاقَتَهُ ! » فَكَانَ ذَلِكَ مِنْهُ دَهَاءً وَحَذَقًا ، مَعَ مَا نُبِّهَ عَلَيْهِ قَبْلُ ، مِنْ قَبْلِ ابْنِ سَهْلٍ بِالْمُخَاطَبَةِ وَغَيْرِهِ ، أَنَّ نَفَارَنَا عَنْهُ إِنَّمَا كَانَ مِنْ خَشَوْنَةِ الْكِتَبَةِ الْوَارِدَةِ مِنْ عِنْدِهِ ، وَأَنَّ الْمُدَارَاةَ بِالْقَوْلِ أَوْلَى ، حَتَّى يُظْهِرَ مَا شَاءَ وَيَمْتَدَّ لِعَمَلِهِ بِذَلِكَ .

وَأَنَّ ابْنَ سَهْلٍ \* . لَمَّا رَأَى مِنْ خِلَافِ الْجُنْدِ ، وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْفُسِ (١) ٦٠ أَهْلِ الْبَلَدِ مَا اطَّلَعَ ، قَدَّمَ لِنَفْسِهِ ، وَرَأَى أَلَّا يُخَلِّيَ مِنْ عَمَلِ يَقَرِّبُهُ فَيَمُنْ تَقَرَّبَ . وَأَعْلَمَهُ أَنَّ الْبَلَدَ لَيْسَ عَلَيْهِ فِيهَا مُخْتَلَفٌ ، وَنَفَثَ بِذَلِكَ بِادِيسَ الْمَذْكُورَ . وَصَحَّ عِنْدِي وَقْتَ انْصِرَافِهِمَا أَنَّ ابْنَ وَارَوِيٍّ قَالَ : « أَرْسَلْنَا لِلْخِدْمَةِ لَهُ فِي زَعْمِهِ ، وَلَمْ نَصْنَعْ غَيْرَ أُنِّي كَتَفْتُهُ ، وَالْقَاضِي ضَرَبَ عُنُقَهُ ! » إِلَى أَنْ وَصَلَ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ قُرْطُبَةَ .

## الفصل العاشر

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

( ٦ ) استسلامه للسلطان المرابطي . سجنه .

إخراجه من الأندلس ونفيه

٧٠ - عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس

وبدء مقاتلته إياها

٥

[ وعند وصوله قُرْطُبَة ، [ اجتمع [ أميرُ المسلمين ] بالمُعْتَمِد ، وسأله عما لِهَجَّ الناسُ به من مُدَاخَلَة الروميّ ؛ فشهد بذلك ، للذي كان في نفسه من كلِّ ما وصفناه . وأرسل أميرُ المسلمين إلينا كتاباً يقول فيه : « اقبلُ إلينا ، ولا تتأخَّر ساعةً واحدةً ! »

١٠ فرأبني ذلك ، وهو موضعُ الانقباض ، لِمَا تقدَّم من الطلب ، وأنَّ بمَحْضَرِهِ جميعُ أعدائنا ، وإلحاحُهُ علينا في الوصول . واعتذرتُ إليه بتَوْجِيهِ رُسُلٍ : أحدهما وَلَدُ حَجَّاج ، والآخر ابنُ ما شاء الله . فساعةً وصولهما ، قرَّعَهُما بكلِّ ما نُقِلَ إليه ، وأمر بثقافهما في الحديد على المقام ؛ وقال لهما : « بالله ! إنِّي غَزَوْتُهُ كما نَغْزُو الْفُونْشَ ! والذي يقدر عليه ، فَلْيَصْنَعْ ! »

١٥ وأتاني بعضُ الفرسانِ الناهِضين مع الرُّسُل على أسوأِ حالةٍ ، مضروبين



ملهوفين ، أَطْلَقَهُمْ قَرُورٌ لِيُعْلِمُونِي بِالْقِصَّةِ ، ويقول : « بالله ! أَنْ أَطْلَقَهُمَا  
الأميرُ حَتَّى يَنْطَلِقَ مَوْمِلٌ وَأَصْحَابُهُ ! » فذهمني من هذا الأمر ما لا مَرَفَع  
فيه ولا حيلة . ولا ظَنَنْتُهُ أَنْ يَجْرَى عَلَى هَذِهِ الرِّبَّةِ .

وَأَرْسَلَ عَلَى الْمَقَامِ كُتْبًا إِلَى الْيُسَانَةِ — فَأَوَّلَ مَا طَاعَتْ لَهُ — وَإِلَى

٥ جميع حصون الغرب ، على يدَي نُعْمَانَ الْمَذْكُورِ ، السَّاعِي فِي مُدَاخَلَتِهَا قَدِيمًا .  
وَكَانَ مِنْ كُتْبِهِ إِلَيْهِمْ : « أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ  
إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا <sup>(١)</sup> » . إِنَّ لَمْ تُطَوِّعُونَا ، ﴿ فَأَذْنُوا بِمَجْرَبٍ مِنْ  
اللَّهِ وَرَسُولِهِ <sup>(٢)</sup> » . وَإِنَّ خِطَابَهُ لَمْ يَرِدْ عَلَى مَعْقِلٍ مِنْهَا إِلَّا وَأَلْقَى بِيَدِهِ ،  
وَقَامَ أَهْلُهُ عَلَى إِخْرَاجِ قَائِدِهِمْ ، حَتَّى تَنَاقَرَتِ الْمَعَاقِلُ كُلُّهَا كَانْتِثَارِ الْعِقْدِ ؛  
إِلَى أَنْ وَصَلَ الْأَمِيرُ إِلَى بَلَيْلُشْ ؛ وَمِنْ امْتَنَعَ مِنْهَا ، قَاتَلَتْهُ الرِّعْيَةُ مَعَهُمْ ،  
١٠ حَتَّى يَلْقَى بِيَدِهِ .

فَلَمْ نَذَرِ مَا \* نَصْنَعُ ، « وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ » ؛ وَقُلْتُ : ٦٠ (ب)  
« لَا طَاقَةَ لِي بِجَمِيعِ أَهْلِ الْبِلَادِ ، إِذْ غَدَرُوا وَخَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ ! فَيَمَنْ  
نُمَسِّكُ الْحِضْرَةَ ؟ لَيْسَ فِيهَا خَلْقٌ مِنْ غَيْرِ جِنْسٍ مِمَّنْ كَانَ فِي الْمَعَاقِلِ .  
١٥ » وَلَا يَتِمَكَّنُ لِلْخَبَاءِ أَنْ يَقِفَ دُونَ أَوْتَادِ ! « وَلَا فِي الْأَمْرِ مِنْ مُدَارَاةٍ  
وَلَا حِيلَةٍ مَعَ الرَّجُلِ أَكْثَرَ مِنْ رَغْبَتِهِ فِي خَلْعِنَا ! وَلَا نَمَّ غَيْرُهُ يُسْنَدُ  
إِلَيْهِ ، فَتُسْتَرِيحُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدَّاهِيَةِ الْعُظْمَى وَالطَّامَّةِ الْكُبْرَى ! وَلَا فِي  
الْمُمْكِنِ أَنْ نَوَجَّهَ إِلَى الرُّومِيِّ ، فَيَكُونَ ذَلِكَ فُسَادًا فِي الدِّينِ ، وَاسْتَعْجَالًا  
لِلْمَكْرُوهِ ؟ وَإِنْ شَعَرَ بِذَلِكَ أَهْلُ حَضْرَتِنَا ، كَانُوا أَوَّلَ مَنْ يَقَاتِلُنَا قَبْلَ

(١) سورة الإسراء : ٨١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٩ .

المُرابطين ! ما دام السُترُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، فيكشفون لنا القِناعَ على بصيرةٍ !  
فما عَهِدْنَا أَيَّامًا وليالي كانت أَفْجَعَ لقلوبنا ، وأذهى لنفوسنا من تلك الأيام .

## ٧١ - وصول الجيش المُرابطي قبالة غرناطة

- وقدّم أمير المسلمين عَسْكَرًا إلى غرناطة ، ما دامَ مُحاولتهُ للحصون ،  
٥ يحرسونها من دخول عَسْكَرٍ بَرَّانِيٍّ ، إلى أن يَرِدَ عليها بنفسه . وأرسل  
القَوَادُ إلينا أن نُبَيِّحَ لَهُمُ الْقُوتَ والعلف بالمدينة ؛ فَأَجَبْنَاهُمْ ، لثَلَا يَقَعُ  
مِنَّا شَيْءٌ من الخِلاف ، يَتَسَبَّبُ به إلى ما هو أَكْثَرُ .  
وأرسلتُ آخَرِينَ من الفقهاء إلى أمير المسلمين بِمَالٍ ، وَيُعْلِمُونَهُ أَنِّي  
ابْنُهُ ، وَغَيْرُ مُخَالِفٍ عَلَيْهِ ، والطاعةُ مِنَّا له على مرغوبه ، دون أن يحوج  
١٠ إلى هذا التعب كُلِّهِ . فأرسل إلينا الفقيه ابن سَعْدُون ، يقولُ لنا : « لا طاعةَ  
ولا صَلَاحَ إِلَّا بالخروج إليه ! وهذا أمانُهُ : كِتَابٌ بِحُطِّ يَدِهِ ، يتضمَّن  
الأمان في النفس والأهل دون المال . » فَأَيَقَنْتُ بالغرض . وكان في آخر  
كِتابِهِ لنا : « إِنْ كُنْتَ استوحشتَ من النزول إلينا ، فتَخَيَّرْ من بلادك  
مَوْضِعًا تصيرُ فيه ؛ وَلَتَكُنْ غيرَ غَرْنَاطَةَ ، لِرَآيَ فِيهَا رَأْيًا ! عُدَّةٌ فَاتِرَةٌ  
١٥ لَا تَتِمُّ ! »

فروَّيْتُ هذا الأمر ، وَعَلِمْتُ أَنِّي بِحَالٍ ومكانٍ لا اختيارَ لي فيه ،  
وَأَنَّ المَذْهَبَ فِيَّ إِلَّا إِلَى مَعْقِلًا ، وَأَنَّهُ لَا مَهْرَبَ من بين يديه . فَقُلْتُ :  
« من السَّخَفِ يكون أن أقول : « قد اخْتَرْتُ مَوْضِعَ كَذَا ! » فَإِنْ  
كان لها كَارِهَاً ، لم أَلْبَثْ أن أُرَدَّ منه بِتَعَلُّلٍ وَحُجَّةٍ لِقُوَى عَلَى الضعيف !

- ٢٠ وَإِنْ كان في نفسه العِوَضُ ، فَيَخْرُجُ جِى إِلَيْهِ يُرَبِّي مَا يَعْتَقِدُهُ\* من إحسان . ٦١ (١)

ولا حيلة غير الخروج والتَّرامى عليه ؛ فإن كان قد أَجَلَ وقبل ، فَلَهُ الْفَضْلُ ،  
وعلى الشُّكْرِ آخِرَ الدَّهْرِ . وإن كان قد غدر ، كُنَّا وَاتِّقِينَ بِالْقَدَرِ ، وَأُبْلَيْنَا  
عند الله وعند الناس العَذْرَ ! »

## ٧٢ — الحالة داخل حضرة غرناطة

٥ ولما التفتنا إلى أهل مدينتنا ومذاهبهم وحرّكاتهم ، اطلعنا على أمورٍ  
دليّةٍ على الانتقال ، مؤذنةٍ بالزوال ؛ وقسمناهم أصنافاً على القياس والرتبة ،  
مع المعاينة لما عَمِيَ قَبْلُ ، وإظهارٍ ما خَفِيَ ، إذ لا حَرَجَ ولا هيبة ولا  
صَوْلَةَ تتقَى . أمّا الجُنْدُ من البربر ، فكانوا مُفْتَبِطِينَ بهم ، طامعين في  
الزيادة على أيديهم للجنسية . واتفق رأيهم على ألا يلقوه بحَجَرٍ ، وقدموا  
١٠ كُتُبَهُم بالطاعة ؛ وراجعهم عليها ، يَعِدُّهُمْ بأن يُبْقِيَهُمْ في أُمَاكِهِمْ على  
أَفْضَلِ ما كانوا عليه ؛ فمن كان منهم بالمدينة الفوقى ، تقلّع إلى السفلى  
بأهله وماله ، وبقي هو بنسبته مُنفَرِداً متأهباً للشرِّ ، إمّا بالخروج إليه من  
الطاعة ، أو بإسلامنا إليه والتبرؤ<sup>(١)</sup> منا .

ومن كان من التجّار وأهل البلد ، فكانوا على نيّةٍ أنهم مع مَنْ سَبَقَ ،  
١٥ ولا طاقةَ لهم بالحرب ، ولا هُمْ أَهْلُهُ ؛ وأكثَرُهُم خرج من البلدة يقول :  
« لَأَيِّ وَجْهِ نَحْتَمِلُ الْحِصَارَ ؟ تَاجِرٌ هُنَا وَصَانِعٌ كَمَا فِي غَيْرِهَا ! » وأمّا  
الرعيّة ، فَبَخٍ بَخٍ ذلك ما كانت تبغى ، طمعاً منها في الحرّية ، وإنّما  
لا يُلْزَمُهَا غير الزكاة والعُشْرِ .

وأما الرّقاصة من المغاربة ، الذين كانوا عماد الحضرة ، وبهم كُنَّا

نَمْسِكَ الْحَصُونِ ، فَهَمُّ أَوَّلُ مَنْ طَاعَ ، وَأَعْيُنُ مَنْ بِالْحَضْرَةِ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ :  
« مَا الَّذِي خَالَفَ بَنَا عَنْ صَنِيعِ بَنِي عَمَّنَا ؟ » فَلَمْ نَجِدْ فِي صِنْفٍ مِنْهَا  
رَاحَةً يُرْجَى مَعْوَتُهَا !

وَأَمَّا الْعَبِيدُ وَالصَّغَالِبَةُ ، فَالْعَبِيدُ الْأَعْلَاجُ ، أَوَّلُ مَنْ عَصَا ، كَمَا ذَكَرْنَا ،  
بَلَوْشَةُ ، رَجَوْنَا أَنْ يَكُونُوا عِنْدَهُ فِي أَعْلَى مَرْتَبَةٍ ، وَلَمْ يَفْكُرُوا فِي عَاقِبَةِ  
أَنْ يَخْطِئُوا عِنْدَهُ ، فَيَقُولُ : « مَا نَصَحُوا مَوْلَاهُمْ رَبَّ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ !  
فَكَيْفَ غَيْرُهُ ؟ » إِلَّا أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ بِشَهْوَتِهِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، لِلَّذِي شَاءَهُ  
اللَّهُ — لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ !

حَتَّى الْخَدَمُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْخِصْيَانِ : كُلُّ طَامِعٍ فِي إِقْبَالِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ ،  
وَالْخُرُوجِ عَنْ ثِقَافِ الْقَصْرِ إِلَى رَاحَةِ \* التَّسْرِيحِ ، وَالِاسْتِهْتَارِ بِالرِّجَالِ ، وَمَا (ب) ٦١  
أَشْبَهَ ذَلِكَ . فَجَعَلُوا الْخِصْيَ مِنْهُمْ وَلَبِيبٌ كَانَا زَعِيمَي الْمُدَاخَلَةِ وَرَأْسِ  
الْفَتْكِ ، يَقُولَانِ : « نَحْنُ لَا وَلَدَ لَنَا وَلَا تَلَدَ ! فَعَلَى أَيْ شَيْءٍ نَصْبِرُ عَلَى  
الْقِتَالِ ؟ وَمَا عَسَى نَطْمَعُ أَنْ نَصِيرَ إِلَيْهِ : هَلْ يَجْمَلُ بَنَا سُلْطَنَةً أَوْ قِيَادَةً  
أَوْ قِضَاءً أَوْ فِقْهًا ؟ إِنَّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةِ الْعِيَالِ : مَنْ سَبَقَ اسْتَمْتَعَ بِنَا ، وَكُنَّا  
عِنْدَهُ مِنْ جَمَلَةِ الْفَقِيرِ ، نَرْزُقُ كَسَائِرَ الْكَسْبِ ، فَلَا نَضِيعُ ! تَعَالَوْا بَنَا !  
نُقَدِّمُ لَأَنْفُسِنَا ! » فَوُرِدَتْ عَلَيْهِمْ كُتُبُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِنْزَالِاتِ الْقَوِيَّةِ ،  
وَالْمُنَاقِيلِ ، وَالْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ ، يَعِدُّهُمْ بِذَلِكَ عِنْدَ إِكْمَالِ حَاجَتِهِ وَإِسْلَامِهِمْ لَنَا ،  
حَتَّى اتَّفَقَتْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .

٧٣ — لَا يَجِدُ عَبْدُ اللَّهِ مَخْرَجًا إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ

وَلَمَّا اتَّسَقَ لَهُ مَا أَمَّلَ ، وَعَلِمَ بِمَا مَعَهُ فِي الْبَلَدَةِ ، بَعْدَ تَقْدِيمَةِ عَشْكَرِهِ ، ٢٠

كما ذَكَرْنَا ، إلى فَحْصِ غَرْنَاطَةِ ، وكان أَهْلُ الْبَلَدِ يَتَقَلَّعونَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْبَادِيَةِ ، وَيَخْرُجونَ مِنْهَا <sup>(١)</sup> أَفْوَاجًا ، رَأَيْنَا إِمَارَةَ الشَّرِّ وَعَلَامَةَ السُّوءِ . فَإِذَا بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَثَرِ ذَلِكَ الْعَسْكَرِ مُقْبِلًا إِلَى الْحَضْرَةِ . فَهَاجَ النَّاسُ وَجَزَعُوا . وَاتَّفَقَ رَأْيِي ، مَعَ مَنْ نَصَحَنِي ، أَنَّ الْخُرُوجَ إِلَيْهِ أَوْلَى ، وَالتَّزَامِي عَلَيْهِ ٥ أَنْجَا مِنْ هَذِهِ النَّارِ الْمَوْقَدَةِ . فَلَمَعَهُ ، إِذَا رَأَى بَرَاءَتَنَا مِمَّا نَقَلَهُ الْعَدُوُّ ، وَلَمْ يَجِدْ فِي الْمَدِينَةِ نَصَارَى كَمَا قِيلَ ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا صَرَفْنَا إِلَى أَوْطَانِنَا ، وَإِمَّا إِخْرَاجُنَا . فَلَنْ نَعْدَمَ مَعَهُ جَيْلًا ، إِذْ لَمْ نُهْجِ عَلَيْهِ حَرْبًا ، وَلَا أَنْعَبْنَاهُ فِي أَمْرٍ .

وَكَمْ عَسَا الْعَيْشُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ! وَالنَّجَاةُ بِالنَّفْسِ فِي دَارِ الدُّنْيَا وَتَخْلِيصُهَا مِنَ الْأَوْزَارِ فِي الْآخِرَةِ ، لَا يُبَالِغُ ذَلِكَ شَيْءٌ وَلَا يَعْدِلُهُ ! فَاسْتَعْمَلْنَا الْعَقْلَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ أَمِيرًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ؛ وَكُلُّ قُوَّةٍ لَا يَتَأَنَّبُهَا الْعَقْلُ ضَعْفٌ وَسُكْرٌ ، مَعَ سُوءِ الْعَاقِبَةِ . وَلَا سِيَّأَ أَنَّنَا بِحَالٍ لَا بُدَّ مِنْ إِسْخَاطِ الرُّومِ بِإِرْضَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، أَوْ إِسْخَاطِ الْمُسْلِمِينَ بِإِرْضَاءِ الرُّومِ ! فَالآنَ يَرِيهَا الْمُسْلِمُونَ أَوْلَى وَأَجَلٌ لِلْعَاقِبَةِ ، إِذْ هِيَ نُشْبَةٌ لَا مَلْجَأَ مِنْهَا إِلَّا بِمَا ذَكَرْنَا .

اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَوْ اِمْتَسَكْنَا فِيهَا بِنَفَقَةِ الْأَمْوَالِ ، وَلَا يُمْكِنُ اسْتِبْدَادُ دُونِ ١٥ اِنْتِظَارِ قُوَّةٍ مِنَ النَّصَارَى ، ثُمَّ أَتَى الرُّومِيُّ ، فَيَنْحَاشُ عَسْكَرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْجَزِيرَةِ أَوْ إِلَى قُرْطُبَةَ ، \*مُرْتَقِبًا لِمَا يَكُونُ مِنْهُ ، فَيَقُولُ لِي الرُّومِيُّ : « قَدْ ٦٢ (١) أَقْلَعْتُ عَنْكَ مِنْ أَرَادَكَ ! هَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا نَسْتَحِقُّ مِنَ الْمَكَافَاةِ ! » فَلَوْ قُلْتُ لَهُ : « اتْرُكْ عَسْكَرًا مَعِي ، وَابْقَ أَنْتَ لَنَا يُعَاوِدُنَا ! » ٢٠ مَا كَانَ يَفْعَلُ ، وَيَخْشَى عَلَى عَسْكَرِهِ الْبَوَارِ بَيْنَ أَهْلِ الْبَلَدَةِ وَالْعَسْكَرِ الْخَارِجِ .

ولو انصرف دون أن يترك قُوَّةً ، فساعة انصرافه وإقبال المرابطين ، لم ترتد لهم ساعة ، وينقطع الرجاء عن معونة أخرى : فهناك النكال الأكبر ، وصحَّ لهم قتلنا بالكتاب والسنة .

ولو أن عند إقبال الرُّومي ، يقول لنا : « إن كنت تتقى من

المرابطين ، ولا يمكننا السُّكنى معك من أجلهم ؛ فتخل لنا عنها ،

وتصيرُ إلى كلِّ ما تحبُّه مع النجاة بنفسك وحشَمِك وذخائرِك ، كالذى

صنعتُ بحفيد ابن ذى النُّون ، إذ عاوضته بِلَذْسِيَّة ؛ وإلا ، فلا استيطان

لك عندنا ، إذ لا تفيدنا بالبلدة ، وما يغنى خروجك إلينا وتركك لِمَدِينَتِكَ

مطيةً للمرابطين ؛ فيدخل علينا الحزم منها . » فلو أطمعناه ، لارتكبنا

من الأوزار والخروج عن الدين ما يلعننا الله عليه والناس أجمعون ، وكُنَّا

نترك غرناطة حبساً للرُّوم ، يُضِرُّون منها المسلمين ؛ فلا دماء تُسْفَك منها ،

ولا داخلَةٌ تُدخلُ إلَّا وكانت في صحائفنا . ولا خير في أثره الدُّنيا على الآخرة !

ولو أن يتربَّص المرابط عند إقبال الرُّومي ، ولا ينحاش له ، كما وصفنا ،

ويبنى على لقائه<sup>(١)</sup> ، فلو التقت الفِئتان ، فلا بُدَّ من أن يكون للطائفة

الواحدة على الأخرى ؛ فلو أنها على الرُّومي ، ففي إثر ذلك ، لم يقدم

على قتلنا شيئاً بالحِجَّة أنَّا أُجَلِّيناه ؛ ولو أن الرُّومي يغلب ، فنبقى بعد

ذلك في المُلْك ما شاء الله ، لم يطب لنا مُلْك ، ولا استحينا من الله والناس

أن يكون ذلك ببوارِ المسلمين وهلاكهم ! ثمَّ إنه لا يصحُّ لنا ثبوتُ معه ،

وأى شيء كان يحجره عَنَّا ، ولا شيء نرتجى به نزع أنفسنا منه ، ولا بمن

ننتصر لو همَّ بأخذِ الكلِّ .

(١) أصل : « لقاء » .

كَيْفَ مَارَوْتُ فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ ، لَا خَيْرَ فِيهَا لِمَنْ تَعَقَّبَ الْأَمْرَ  
وَتَدَبَّرَهُ ، إِلَّا مَا صَنَعْنَاهُ مَعَ حِكْمَةِ الْأَقْدَارِ الَّتِي لَا تَجْرِي عَلَى إِهْمَالٍ ! فَخَرَجْنَا ٦٢ (ب)  
إِلَى الرَّجُلِ ، كَأَنَّمَا نُسَاقُ إِلَى الْمَوْتِ ، لَا نَذَرِي مَا نَلْقَى ، إِلَّا كَالْخَاطِرِ  
بِنَفْسِهِ ، مَتَوَكِّلِينَ عَلَى الْقَدَرِ .

## ٧٤ - تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله

وَلَمَّا لَقِينَاهُ ، سُرَّ بِذَلِكَ ، وَأَقْسَمَ لَنَا عَلَى الْأَمَانِ فِي أَنْفُسِنَا وَأَهْلِنَا ، وَلَنَا  
مِنْهُ الْمُرَاعَاةَ وَالْكَرَامَةَ مَا بَقِيَ . ثُمَّ أَشَارَ عَلَى قُرُورٍ بِالْتَرَقِيبِ عَلَيْنَا ، إِلَى أَنْ  
يُثَبِّتَ خَبَرَنَا ، وَيَقِفَ عَلَى أَمْوَالِنَا .

- فَانْتَدَبَ [ قَبْلَ ذَلِكَ ] أَهْلُ دَوْلَتِنَا ، يَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ نُودِعَ  
عِنْدَهُ شَيْئًا ؛ فَلَمْ نَفْعَلْ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « هَؤُلَاءِ يَطْلُبُونَ مَا يَتَزَوَّدُونَ  
بِهِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ شَفَقَةً مِنْهُمْ عَلَيَّ ! وَلَيْسَ تُخْلِي مِنْ دَفْعِ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ مِنْ  
وَجْهَيْنِ : إِمَّا فَاسِقٌ يَسْتَأْثِرُ بِهِ دُونِي ، فَتَكُونُ حَسْرَتُهَا فِي نَفْسِي ، وَلَا تَقْبَلُ  
بِهَا عَنْ وَجْهِ ؛ وَإِمَّا مُتَبَشِّلٌ بِبُعْضِهِ ، يَحْمِلُهُ إِلَى الْأَمِيرِ لِيَتَهَيَّئَ بِهِ مَا يَبْقَى  
لَهُ ؛ وَعِنْدَ ذَلِكَ نَفْتَضِحُ عِنْدَهُ ، وَلَا يَقْبَلُ لِي صَرَفًا وَلَا عَدْلًا ؛ وَرُبَّمَا  
يُخْنَقُ عَلَيَّ ؛ فَيُوَدِّدُنِي بَعْدَ الْأَمَانِ ، مَعَ حُبِّهِمْ فِي الْمَالِ . وَإِنِ هَذَا لَشَيْءٌ نَرْجُو  
بِهِ بَعْدَ اللَّهِ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِالْأَمْوَالِ ؛ وَلَوْ أُمَكِّنِي أَنْ أَزِيدَ فِيهَا ، فَتَمَلَّأْتُ  
أَعْيُنُهُمْ ! وَأَنَا لَا أَبْتَغِي إِلَّا الْعَيْشَ لِنَاصَةِ نَفْسِي وَأَهْلِي . وَقَدْ خَفَّفَ اللَّهُ  
عَنِّي بَقِيَّةَ الْعِيَالِ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي الْغَرَرِ بِمَالٍ لَا أَدْرِي إِنْ يَبْقَى مَعِي ، مَعَ  
اِخْتِلَاطِهِ وَكَثْرَةِ شُبُهَاتِهِ : وَكَثْرَةُ الْمَالِ إِنَّمَا يَحْتَاجُ لِلْمَمْلُوكَةِ وَالْأَجْنَادِ . فَالآنَ  
٢٠ قَدْ أَزَاحَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنِّي ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا طَلَبُ السَّلَامَةِ بِحُشَاشَةِ النَّفْسِ ،

وهي غنيمة في مثل هذا الوقت الحاد !

فَخَرَجْتُ إِلَى الرَّجُلِ بَعْدَ ثَقَافِ الْقَصْرِ ؛ وَلَا خَوْفَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْوَقْتُ ،  
إِذْ كَانَ النَّاسُ بَيْنَ يَأْسٍ وَطَمَعٍ فِي الرَّجُوعِ ؛ فَلَا جُرْأَةَ مِنْ أَحَدٍ فِي  
اعْتِرَاضِ شَيْءٍ مِنْ سَاقَتِنَا . وَلَمَّا أُتْرِلْتُ بِتَوَلَّى قَرُورَ لِلأَمْرِ ، جَعَلَ الْحَرَصَ  
عَلَى الْخِبَاءِ ، وَأَمَرَ بِطَرْدِ الدَّخْلِ وَالْخَارِجِ ؛ وَحِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَيْبِدْنَا  
وَصِنَانَعْنَا : كُلُّ يَفْتَشُ عَلَيْهِ وَيُبْحَثُ عَلَى مَا لَدَيْهِ مِنْ مَالٍ كَسَبَهُ فِي وَلَايَتِنَا .

ثُمَّ أَنَا الْفَقِيهُ ابْنُ سَعْدُونَ مِنْ عِنْدِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، يَقُولُ : « أَخْضِرِ  
الْأُمُوالَ وَالْأَزِمَةَ بِهَا ! فَإِنْ مُؤَمَّلًا قَدْ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَكَ دِرْهَمٌ إِلَّا بِزِمَامٍ

وَذِكْرٍ . » فَقُلْتُ لَهُ : « نَعَمْ ! كَانَ \* ذَلِكَ ، قَدْ تَرَكَتُهُ فِي دَارِي ؛ ٦٣ (١)

فَإِنْ أَبَاحَ لِي الْمَسِيرَ بِنَفْسِي لِاسْتِخْرَاجِ الْكُلِّ ؛ وَإِلَّا ، فَهَذِهِ أُمِّي ، تَتَوَلَّى  
ذَلِكَ مَعَ ثِقَاتِهِ حَتَّى لَا يُغَادِرَكُمْ مِنْهُ خَيْطٌ ! »

وَكَانَ ، عِنْدَ خُرُوجِي ، قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ خَوْفِ الثَّقَافِ مَا خَشِيتُ  
الْفِرْقَةَ مِنْهَا إِنْ تَرَكَتُهَا فِي الْقَصْرِ ؛ فَخَرَجْتُ مَعَهَا ، وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَى مَا سِوَاهَا .

وَأَنَا مَعَ ذَلِكَ فِي حَيْرَةٍ لَا أَدْرِي لِمَا يَصِيرُ أَمْرِي ؛ قَدْ أَشْرَبَ قَلْبِي مِنَ الْخَوْفِ  
وَالْجَزَعِ مَا لَمْ أَعْهَدُهُ قَطُّ ، وَلَا كَانَ فِيهِ عِزَاءٌ . فَإِنَّ الْأُمُورَ الَّتِي يَنْبَغِي لَهَا

الِاسْتِثْبَاتُ وَالصَّبْرُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرٍ دُونَ أَمْرٍ ؛ وَإِنْ جَلَّ خَطْبٌ ، يُرْجَى  
فِي غَيْرِهِ الرَّاحَةُ ؛ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ ؛ وَإِنَّمَا هَذِهِ النَّصْبَةُ لَمْ

يَكُنْ لَهَا عِزَاءٌ وَلَا اسْتِرَاحَةٌ إِلَى أَمَلٍ وَرَجَاءٍ لِيُسْرٍ ، إِلَّا بِحَيْثُ يُحْتَسَبُ .  
فَأَذْهَلَنِي ذَلِكَ عَنْ كُلِّ مَالٍ فِيهِ صَلاَحٌ مِنْ تَقْدِمَةِ النَّظَرِ فِي مَالٍ أَوْ غَيْرِهِ ؛

بَلْ ، كَانَتْ نَفْسِي آكَدَ عَلَى ، لَمْ تَعْمَلْ حِسَابَ مَنْ يَعِيشُ ، لَا سِيَّامًا مِنْ  
لَمْ تَجْرَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ مِحْنَةٌ ، وَلَا أَكْرَبَهُ الدَّهْرُ بَرَزِيَّةً . فَجَاءَتْ جُحْلَةٌ ،

٥

١٠

١٥

٢٠



أُبْهِتَتْ وَخَانَتْ الْقِيَاسُ ، وَحَادَتْ عَنْ سَبِيلِ الْمَعُودِ .

وقد كان أرسل إلى قَرُورٍ يَطْلُبُ خَطًّا يَدَى بِإِسْلَامِ الْمَدِينَةِ وَإِخْرَاجِ  
مَنْ لِي فِيهَا مِنَ الْحَشَمِ . فَبَادَرْتُ عَلَى الْمَقَامِ ، إِذِ الْتَوَاهُ عَنْ ذَلِكَ مَمًّا  
لَا يَنْفَعُ ؛ وَلَوْ فَعَلْتُ ، لَكَانَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي الْهَوَانِ ، وَلَمْ يَفِدْ شَيْئًا ، وَأَنَا  
٥ قَدْ حَصَلْتُ فِي الْقَبْضَةِ .

وَكُنْتُ أُخْرِجْتُ مَعَ نَفْسِي أَسْبَابًا مِنْهَا سَقَطُ ذَهَبٍ فِيهِ عَشْرَةُ عُقُودٍ  
مِنْ أَنْفَسِ الْجَوْهَرِ ، وَذَهَبًا مَبْلُغُهُ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ مُرَابِطِيَّةٍ ، وَخَوَاتِمَ ؛  
وَتَأَوَّلْتُ فِي إِخْرَاجِهَا مَعِيَ أَنْ قُلْتُ : « إِنْ كَانَ الْأَمْرُ يَسْدُو مِنَ الْأَمِيرِ  
بِثِقَانِي ، فَهَذِهِ حَاصِلَةٌ لَا تَنْفَعُ ، مُجْمَلٌ كَسَوَاهَا ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ، وَرُبَّمَا تَأَخَّرَ  
فِي الْأَمْرِ بَعْدَ قَضَاءِ غَزْوَتِهِ ، دَارَيْتُ مِنْهَا وَأَعْدَدْتُهَا لِمَا يَنْوِبُ عَلَى الْعَسْكَرِ  
وَمُتَاحِفَةِ الْمُرَابِطِينَ . »

وَلَمْ يُتْرَكْ لَنَا خَادِمٌ إِلَّا حَيْلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا . وَفُتِّشَ عَلَيْهِمْ أَلَّا تَكُنْ  
فِي أَوْسَاطِهِمْ خَبِيثَةٌ . وَجَمَلُ قَرُورٍ يَقُولُ لِي وَلَأُمِّي : « اكْشِفَا لِي عَنْ  
ثِيَابِكُمَا . \* فَقَدْ أَخْبَرَ السُّلْطَانُ أَنَّ خَيْرَةَ الْجَوْهَرِ عَلَى أَوْسَاطِكُمَا . » فَتَبَرَّأْنَا (ب)  
١٥ لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَنَزَعْتُ لَهُ عَنِ الثِّيَابِ . ثُمَّ جَمَلُ يَنْفُضُ الْمَخْدَاتِ عَنْ  
الصُّوفِ ، وَيَفْتِّشُ بَيْنَهَا ، وَيُقَلِّبُ التَّوَايِيتِ عَلَى وَجُوهِهَا ، وَيَحُلُّ طَيَّ  
الثِّيَابِ ، فَتَشًّا لَمْ يُعْهَدِ مِثْلُهُ قَطُّ . ثُمَّ أَمَرَ بِحُفْرِ الْأَرْضِ الَّتِي عَلَيْهَا الْخُبَاءُ ،  
خَوْفًا مِنْ أَنْ نَدْفِنَ فِيهِ شَيْئًا ؛ وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ يَقُولُ لِي : « إِنْ سَلِمَتْ  
بِرُوحِكَ ، فَمَا فِي الْأَرْضِ أَوْجَهَ مِنْكَ ! »

٢٠ وَصَارَ الْكُلُّ فَيِّنًا مِنْ خَادِمٍ وَغُلَامٍ ، مَا خَلَانِي وَأُمِّي . وَكُنْتُ وَقْتُ  
خُرُوجِي قَدْ أُخْرِجْتُ مَعَ أُمِّي صَبِيَّةً طَمَعْتُ أَنْ أَنْجُو بِهَا ، فَلَا يُؤَبِّهَ لَهَا ،

ألاً أنفرد دون أحدٍ من أهلى ، لتكون لى عُدَّةٌ لما بعد ذلك ؛ فأتى  
 قرور ، وألقى يده فيها ، وأخرجها ، وفَتَش ثيابها على المقام ، وتحملها . ثم  
 أتى إلى أثاث الخباء كله وفَتَشه ظاهراً وباطناً ، فكلُّ ثوبٍ أو حاجةٍ  
 استحسنها ، أخذها لنفسه . وكاد أن يُعَرِّبنى من الكلِّ . وأصاب الدنانير المذكورة ؛  
 ٥ فقال لى : « ما أردتُ بإخراجها ؟ » قلتُ : « لأتأخّر بها الأمير ! »  
 فهددنى وأدخلنى تحت وعيد ؛ ثم أمر بانتقالها على المقام ، وأخذ السقط  
 بما فيه من الجوهر والخواتيم : هو من جهةٍ ، ورَبِيبُهُ من أخرى ؛ وأنا فى  
 هذا كله لا أرجو شيئاً إلا السلامة فى الروح ، ولم نَشْكُ إلا أنه لا يكون  
 بعد هذا إلا القتل .

١٠ ثم إنه أمر والدتى بالطلوع إلى القصر لاستخراج الأموال . فتكدّرتُ لذلك  
 أياماً ، ما منها يومٌ إلا ونظنُّ أنها لا ترجع إلى ، حتى دَفَعْتُ إليهم الكلَّ  
 بالأزيمة ، لم يُعادرهم من ذلك قليلٌ ولا كثيرٌ ، حتى أن الحاجة اليسيرة ربّما  
 كانت عندى فى الخباء ، فيشدُّ فيها على الوالدة ، فتأتى عنها وتحملها إليهم .  
 ولم يتبّنين لى خلافُ أهل بلدى ، إلا والأمرُ قد فات ، من النظر  
 ١٥ فى الزمام أو غيره . ولم يتقدّمنى أحدٌ إلى مثل هذا ، فناخذَ حذرى  
 وتأخّر له ؛ ولم يكن إلا ما شاء الله ، إذا أعطى ، فلا مانع ، كما أنه  
 لا يتهيبُ ، مع ما سلبَ وضاع ، ثُبوتٌ ولا بقاء ، ولو رُفِعَ إلى أعنان السماء .

فلما تَقَصَّوْا\* الجميع ، وتبين الحقُّ ، جاءنى قرور بوصية السلطان ، مع ٦٤ (١)  
 أبى بكر بن مُسَكِّن ، وهو فى ذلك على مُنْتَقِمٍ شانىء ، وهو يقول لى :  
 ٢٠ « الأميرُ يُنْهَى إليك أن لا يَبْقَى لك عند أحدٍ ودِعةٌ ؛ وإنَّ ما فى قصرِكَ  
 قد نَزَلَتْ عنه بالأزيمة ؛ وما فى خِبانِكَ قد صار إلينا وفَتَشْنَاهُ ؛ وبَقِيَ لنا

أَنْ نَدْرِي مَا لَكَ مَوْدُوعًا ؛ وَإِذَا ، لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، إِنْ خُرَجَ  
قَبْلَكَ دِرْهَمٌ عِنْدَ أَحَدٍ ؛ وَلَا تَكُونُ عُقْبَاكَ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَكَ فِي  
الصَّخْرَاءِ بَحِثَ لَا تَرِيحَ ذَلِكَ الْمَالُ ، وَيَبْقَى عِنْدَ مَنْ أَوْدَعْتَهُ . « فَرَجَعْتُ  
إِلَى نَفْسِي أَنْ نَعْلَمَ لَهَا عِنْدَ أَحَدٍ دِرْهَمًا وَدِيعَةً ؛ فَلَمْ أَجِدْ . وَأَقْسَمْتُ  
لَهُ عَلَى حَقِّي .

وَرَجَعْتُ إِلَى الْوَالِدَةِ ، أُعْظِمُهَا ، وَأَقُولُ لَهَا : « أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ ! إِلَّا  
مَا أَشَقَقْتُ عَلَى ؟ فُرُبَّمَا قَدْ أَخْرَجْتَنِ شَيْئًا لَا أَعْلَمُهُ ؛ فَيُظْهِرُ بَعْدِي ،  
وَيَكُونُ فِيهِ هَلَاقِي ، وَهَلَاقُكَ ! وَاللَّذْنِيَا أَقْلُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ! وَالْقَوْمُ ، كَمَا  
تَرَيْنَ ، مُتَعَلِّقُونَ بِشَعْرَةٍ ، يُطْلِقُونَ مَعْنَا أَرْقَ سَبَبٍ ! فَإِيَّاكَ أَنْ تَشْتَقِيَ بِي !  
وَإِذَا تَبَرَّأْنَا لَهُ ، لَا يُمْكِنُ لَهُ تَضْيِيعُنَا . وَلَيْسَ يُدْخَرُ الْمَالُ إِلَّا لثَلَاثٍ :  
سُلْطَانٌ يَجُورُ ، أَوْ فِتْنَةٌ تَدُومُ ، أَوْ عُمرٌ يَطُولُ . وَنَحْنُ فِي نَفَرٍ بَسِيرٍ ! »  
فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ ، بَكَتْ وَقَالَتْ : « نَخْشَى أَنْ نَبْقَى فَقَرَاءَ ! وَالْمَوْتُ

أَهْوَنُ مِنَ الْفَقْرِ ! » فَسَهَّلَتْ عَلَيْهَا الْأَمْرَ ؛ وَقَالَتْ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ  
مَنْ خَلَقَ ! » فَكَتَبَتْ تَسْمِيَةً بِمَا أَوْدَعَتْ مِنْ مَتَاعِهَا ، تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي  
حَانَ خُرُوجِي فِي غَدِهَا : ذَكَرْتُ أَنَّ لَهَا عِنْدَ لَذَّةِ خَادِمِ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ  
كَاتِبِنَا سُبَيْبَاتٍ لِبَعْضِ جَوَارِيهَا ، وَلَهَا عِنْدَ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ الْقَرَوِيُّ أَرْبَعَةُ  
آلَافٍ مِثْقَالٍ ، وَحَلِيًّا أُرْسَلَتْ فِيهِ عَلَى الْمَقَامِ : نَحْوُ خَمْسَةِ عَشَرَ عِقْدًا ؛  
فَأَمَّا الْحَلِيُّ ، فَأَتَانَهَا وَأَعْطَتْهُ لِقَرُورٍ ، وَلَمْ تَوْخِزْ بِهِ سَاعَةً ؛ وَأَمَّا الذَّهَبُ ،  
فَانْهَارَ ، لَمَّا جَلَبْتَهُ مِنْ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ ، بِأَدْرَ بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ وَتَحَمَّلَهُ لِنَفْسِهِ .

وَكَذَلِكَ فَعَلْتُ خَادِمُ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ ، وَأَتَتْ إِلَى قَرُورٍ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ\* ؛ ٦٤ (ب)  
فَوَقَعَ إِلَيْنَا الْخَبْرُ ، وَزَادَنَا ذَلِكَ هَمًّا أَنْ بَدَرُوا بِهِ لِلشَّرْطِ الَّذِي اشْتَرَطَ عَلَيْنَا ؛

فأخذتُ على المقام تلك التَّسْمِيَةَ ، وأرسلتها إلى قَرُور ، قبل أن يبدأ بنا ؛ فقال : « قد أخرجوه لنا . فإيّاكم أن يبقى لكم شيء عند غيرهم ! » فاستفهمتُ والدتي ثانيةً ، وبكيتُ لها ؛ فقالت : « مالى شيء عند أحدٍ أكثرُ ! » فأخذنا المصاحفَ ، وحلفنا فيها لقُرُور أنه مالنا شيء أكثرُ ، لا مُودَعٌ ولا مَرْفُوعٌ . « فأعلم السلطان بما أقسمنا به ، وجعل مع هذا يبحث ويستقصي . فما وجد لنا أكثرَ كما قالت الوالدة .

ولمّا لم يجد شيئاً ، أتانا قُرُور ثانيةً ، وقال : « أنه قد ظهر أنه لا ودعة لكم أكثر . ولكنَّ إيّاك أن يكون لكم مالٌ مدفونٌ ! » فقلتُ : « ما علمنا قطُّ بدفني ، ولا حسبنا هذا الحساب ؛ ولا كان الدفنُ شأننا ! وغيرُ مُتَعَذِّرٍ على الأمير أن يحفر القصر كله ، حتّى يرى ! » فقال لى : « إيّاك بالمنكَب ! » فقلت : « مالى بالمنكَب إلا شيء من الأثاث عدّدته ليزولى فيها : جميع ذلك بزمامٍ بخطّ يدي . يُرسل فيه الأمير ويأخذ به ! » فقال لى : « هاتِ خطّ يدك بإخلاء المنكَب ! » فبادرتُ على المقام . وأصاب الزّمام بالمنكَب على الصّفة التى وصفتُ . وكان الجندُ بها قد ترَبَّصُوا ، وقامت الرعيّة ؛ فطلب خطّ يدي بالإخلاء .

ولمّا صحَّ عنده براءتُنا من جميع الأشياء ، أتانا قُرُور لتحصيل ما بقى . والعجبُ منه فى تلك المدة أنه أتانى بسيفٍ كبيرٍ ، وقال لى : « أقرأه ! فإن فيه جميع الأعلام التى رأى الناسُ لنا بِمُلْكِ الأندلس ، وفيه عباراتها ! » ولا أدري ما أقرأ ، [ ولا أسمع ] ، أكثر من قوله لى بهذا اللفظ : « ليس كذا هو ؟ فجيبت الأموال ،

لا [ بقى لك ] منها شيء ! » ولمّا وقف على جميع ما فى الخباء من وطاء وثياب ،

رفع بذلك كتاباً إلى الأمير ، وأعاد الفتنش ؛ يَحِذُ غيرَ ما رآه \* أولاً . ٦٥ (١)

## ٧٥ - نفي الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى

فَلَمَّا خَبِرَ بِمَا فِي التَّسْمِيَةِ أَنَّهُ لَا غِنَى لِلْإِنْسَانِ عَنْهُ ، سَوَّغَهُ لَنَا مَعَ ثَلَاثِمِائَةِ دِينَارٍ وَثَلَاثَ خَدَمٍ ، أَمَرَ لَنَا بِهَا ، وَأَعَارَنَا دَوَابَّ<sup>(١)</sup> خَمْسَةً لِنَقْلَانَ الْأَثَاثَ كُلَّهُ ، وَأَمَرَنَا بِالنُّهُوضِ إِلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ ، وَقَالَ :

« تَنْتَظِرُوا بِهَا السُّلْطَانَ حَتَّى يَرِدَ عَلَيْكُمْ . » وَأَعْطَانَا مِنَ الْمُرَابِطِينَ مُشَيِّعِينَ مَنْ يُؤَيِّسُنَا وَيَتَكَفَّلُ أُمُورَنَا . فَشَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَتَحَرَّكْنَا عَلَى الْمَقَامِ ، إِذْ كَانَ الْحَفَرُ مِنْهُ فِي ذَلِكَ شَدِيدًا .

وَكُنَّا طَوْلَ طَرِيقِنَا جَازِعِينَ ، لَا نَدْرِي مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ بَنَا ، وَلَا مَا الْإِشَارَةُ فِينَا . وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى الْمُرَابِطِينَ يَنْزِلُونَ بِمَنْزِلٍ ، أَوْ يَحْتَلُونَ فِي مَوْضِعٍ ، فَأَقُولُ : « إِنَّ ذَلِكَ لَشَيْءٌ أَمَرُوا بِهِ ! » فَكُنْتُ طَرِيقِي ذَلِكَ تَحْتَ جَزَعٍ وَهَلَعٍ ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُكَفِّرَ بِهَا السَّيِّئَاتِ ، رِيحَ لَهَا آخِرَ مَصَائِينَا بِعِزَّتِهِ ؛ إِلَى أَنْ وَصَلْنَا الْجَزِيرَةَ .

فَأَرْسَلْنَا إِلَى سَبْتَةِ ؛ وَدَخَلْنَا الْبَحْرَ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ، أَدْرَكْتُنَا فِيهِ أَهْوَالٌ لَمْ نَكُنْ نَسْلَمُ مِنْهَا إِلَّا بِالْأَجَلِ الَّذِي لَمْ يَحْضُرْ ؛ حَتَّى خَرَجْنَا إِلَى سَبْتَةِ ، بَعْدَ أَنْ قِيلَ لَنَا : « فِيهَا تَنْتَظِرُوا الْأَمِيرَ ! » كَمَا قِيلَ عَنِ الْجَزِيرَةِ . فَرَادَنَا ذَلِكَ قَلَقًا .

ثُمَّ نُقِلْنَا إِلَى مَكْنَسَةِ الرِّيَّتُونَ . وَتَلَقَّانَا الْأَمِيرُ سِيرُ ، وَأَنْسَنَا ، وَأَخْبَرَنَا أَنَّ مُقَامَنَا عَنْدهُ إِلَى أَنْ يَرِدَ السُّلْطَانُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ . وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا مِائَةَ دِينَارٍ . وَعِنْدَ حُلُولِنَا بِهَا ، أَيقَنَّا بِالْمَقَامِ فِيهَا . وَبَقَيْنَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، قَدْ

(١) أصل : دواباً .

فَقَدَّ مَا كَانَ بِأَيْدِينَا ، وَأَحْوَجْنَا إِلَى بَيْعِ ثِيَابِنَا الَّتِي تَرَكْتُ لَنَا بَعْدَ أَنْ  
اسْتَحْوَذَ قَرُورٌ وَحَاشِيَتُهُ عَلَى أَكْثَرِهَا ( فَكُلُّ يَدٍ وَمَا نَهَبَتْ ! ) ، لَمْ  
يَتْرَكُوا لَنَا إِلَّا مَا لَا نَظَرَ لَهُ عَلَى نِزَارَةِ مَا أُبْقِيَ . وَالسُّلْطَانُ — أَيْدُهُ اللَّهُ ! —  
غَافِلٌ عَنْ ذَلِكَ ، لَمْ يُمْكِنِ الشُّكْوَى إِلَيْهِ ، إِذْ كَانَ قَرُورٌ وَاسِطَةً ، وَمَا كُنْتُ  
أَتَشَقَّى مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرَ . ٥

وَمَنْ أَعْجَبَ الْأَشْيَاءَ أَنَّهْ ، عِنْدَ حُلُولِي بِمَكْنَسَةِ ، [ كَتَبَ إِلَيَّ ] يَقُولُ  
لِي : « أَخْبِرْنِي عَنِ الْخَاتَمِ الَّذِي خَرَجْتَ بِهِ ! » [ وَقَدْ كُنْتُ ] أَخْرَجْتُهُ  
مِنْ إِبْصَعِي وَبَعْتُهُ بِعَشْرَةِ دَنَانِيرٍ ؛ فَرَاغَعْتُهُ نَعْلَمُهُ \* بِحَاجَتِي إِلَى تَمَنِّهِ . وَإِنَّمَا ٦٥ (ب)  
أَرَادَ أَخْذَهُ لَثَلًا يُبْقَى لَنَا شَيْئًا ، وَيَتَقَصَّى الْجَمِيعَ ؛ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ  
لِي غَيْرُهُ . ١٠

ثُمَّ إِنَّهُ وَافَانِي مِنْ عِنْدِ السُّلْطَانِ ثَلَاثُمِائَةِ دِينَارٍ أُخْرَى ، وَأَنَا بِمَكْنَسَةٍ ؛  
وَخَاطَبَنِي بِكِتَابٍ يَمْدُنِي بِكُلِّ جَمِيلٍ ، وَيَقُولُ لِي : « لَا أَنْسَاكَ مَا بَقِيَتْ »  
فَسَرَّنِي ذَلِكَ — أَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَهُ ! — ؛ فَلَقَدْ كَانَ أَرْفَقَ بِي بَعْدَ اللَّهِ  
مِنْ كُلِّ أَحَدٍ . وَأَعْلَمَنِي أَنَّهُ ، إِذَا وَرَدَ مَرْثُوكُش<sup>(١)</sup> ، أَكُونُ مَعَهُ حَيْثُ  
مَا كَانَ ، إِكْرَامًا لَنَا وَإِشَارًا . فَعَلِمْتُ أَنِّي مُنْتَقِلٌ عَنْ مَكْنَسَةِ ، إِلَّا أَنْ  
الرُّوعَ كَانَ أَفْتَرًا ، إِذْ لَمْ يُمْكِنَ أَنْ تُؤَخَّرَ الْعُقُوبَةُ إِلَى ذَلِكَ الْأَمَدِ . وَقَرُورٌ ،  
مَعَ هَذَا ، لَا يَدْعُ طَلَبِي عِنْدَ السُّلْطَانِ ، عَلَى إِحْسَانِي إِلَيْهِ ، جِيلَةً قَدْ جَبَلَهُ اللَّهُ  
عَلَى بُغْضِي ، مَعَ قَلَّةِ رَحْمَتِهِ ، وَقِسَاوَةِ قَلْبِهِ ، وَدَنَاءَتِهِ وَلَوْ مِهِ . ١٥

## ٧٦ - عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله . نفيه

وَبَلَّغْنَا فِي طَرِيقِنَا ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ ثِقَافِ أَخِينَا تَمِيمٍ بَعْدَنَا ، وَأَنَّهُ ،  
 لَمَّا كَانَ فِي مَدَّةِ كَوْنِنَا بِغَرْنَاطَةِ إِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ ، وَنَحْنُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ  
 مُرَقَّبِينَ فِي الْخَبَاءِ ، كَانَ تَمِيمٌ الْمَذْكُورُ يَزُورُنَا ، وَيَتَكَدَّرُ عَلَيْنَا لِلَّذِي يَلْزِمُ  
 ٥ مِنْ حُبِّ الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ . وَكَانَ قَرُورٌ ، فِي هَذَا كُلِّهِ ، يَرْمِقُهُ بَبَصَرِهِ ،  
 وَيَعْتَقِدُ فِي نَفْسِهِ لَذَلِكَ شَرًّا ؛ وَصَوَّرَ عِنْدَ السُّلْطَانِ أَنَّ مَا لَا أَخْرَجْنَاهُ مِنَ الْمَالِ  
 مَوْدُوعٌ عِنْدَهُ ، لَيْسَلَمْ لَنَا بِسَلَامَتِهِ ، مَعَ مَا زِيدَ فِيهِ مِنَ الطَّلَبِ ، أَنَّ قِيلَ  
 لِلْسُّلْطَانِ : « تَقَفَّتْ صَاحِبَ غَرْنَاطَةِ ؛ وَأَخُوهُ مِنْهُ ! وَإِنْ تَرَكْتَهُ يَنْصَرِفُ  
 إِلَى بَلَدِهِ ، طَلَبَكَ بِالْثَّارِ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ مَا تَرْجُو صِلَاحَهُ ، مَعَ شَرِّتِهِ وَحَدَّتِهِ !  
 ١٠ فَهُوَ بِذَلِكَ مَرْسُومٌ مَعْرُوفٌ ! فَعَاجِلُ بِنِقَافِهِ ، يُصْنَفِي لَكَ مَا تَوْمَلُ ! »  
 وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ ، عَلَى مَا أَعْلَمْنِي أَخِي الْمَذْكُورُ ، قَدْ أَنْسَهُ السُّلْطَانُ ،  
 وَوَعَدَهُ بِصَرْفِ بِلَادِهِ إِلَيْهِ الَّتِي صَارَتْ إِلَيَّ ، وَقَالَ لَهُ : « لَسْتُ مِنْ  
 أَخِيكَ [ بِالْمَسْئُولِ ؛ وَأَنْتَ أَظْهَرْتَ لِي ] الطَّاعَةَ ، وَأَجَلْتَ الْمُعَاشِرَةَ ،  
 وَإِنَّكَ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدَّرَاهِمَ [ الْمُرَابِطِيَّةَ ] . وَالْآنَ تَسْتَعْمِدُ عَاقِبَةَ رَأْيِكَ ،  
 ١٥ وَنَجْعَلُ لَكَ بَتْلَكَ الْمَزِيَّةَ عَلَى أَقْرَانِكَ ! » فَطَمَعَ الصَّبِيُّ بِذَلِكَ ، وَشَرِهَ إِلَيْهِ :  
 كُلُّ ذَلِكَ خِذْلَانٌ [ اغْتَرَّ بِهِ ] \* مُلُوكُ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَسْعَدُ مِنْ أَجْلِهِ الْمُرَابِطُونَ ؛ ٦٦ (١)  
 فَعَمِيَّتِ الْبَصَائِرُ ، وَقَوِيَّتِ الشَّهَوَاتُ ، وَامْتَدَّتِ الْأَمَالُ بِحَيْثُ يَتَبَغَى لَهَا  
 أَنْ تَقْصُرَ .

فَلَمَّا هَمَّ بِهِ ، أَخَذَ فُجْأَةً لَثَلَا يَشْمُرُ ، فَيَغِيبُ الْمَالُ الَّذِي أَتَمَّهُ بِهِ ،  
 ٢٠ وَيَفِرُّ . وَنَالَ مِنْ قَرُورٍ هَوَانًا كَثِيرًا ؛ وَلَمْ يَتْرُكْ لَهُ سَقَطًا ؛ وَبِعَتْ أَسْبَابُهُ

في موضع مَحَلَّتِهِ : قِيمَ لَهَا نَمَّ سَوْقٌ . وَأُلْقِيَ فِي الْحَدِيدِ ، وَأُمِرَ بِهِ إِلَى الشُّوسِ . وَلَمَّا كَانَ طَرِيقَهُ عَلَى مِكنَاسَةٍ ، لَقَيْنَاهُ ؛ فَأَخْبَرَ بِهِوْلَ مَا قَاسَى ، وَبَصُرْنَا بِهِ ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ قَدْ شَقِيَ بِالسَّكْبَلِ لِعِظَمِهِ ، لَا يَقْدِرُ أَنْ يَتَحَرَّكَ بِهِ . فَأَوْجِبَ ذَلِكَ مَا وُسِمَ بِهِ مِنَ الشَّرِّ ؛ وَأَنَّ أَهْلَ مَالَقَةٍ رَفَعُوا إِلَيْهِ ٥ حِينَئِذٍ أَفْعَالًا قَبِيحَةً ، وَأَبَازِيَّ سَيِّئَةً أَسَدَاهَا إِلَيْهِمْ ، عَلَى مَا ذُكِرَ ؛ فَاتَّفَقَتْ الْأَسْبَابُ . فَلَمْ يُرِدِ الْأَمِيرُ أَخْذَهُ إِلَّا بَيِّنَةً ؛ إِلَى أَنْ وَصَلَ الشُّوسَ ، وَوَصَّى بِهِ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بَزْلَفَ ، وَبَالِغَ فِي إِكْرَامِهِ . وَكَانَ مَعَهُ فِي عَافِيَةٍ وَرَغْدٍ مِنَ الْعِيشِ . وَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى وُلَاةِ الشُّوسِ بَعْدَ بَزْلَفَ .



## الفصل الحادي عشر

عزل بقيّة ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك

٧٧ — موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة

وَحَانَ انصرافُ أمير المسلمين إلى بلاده بِالْعِدْوَةِ ، بعد أن أكمل ما شاءه من أمر بني عُبَّاد وصاحبِ المَرِيَّةِ :

وَنَحْنُ ذَاكِرُونَ مِنْهَا مَا بَلَّغْنَا مِنْهَا ، مِمَّا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ ، لَا بِتَخْلِيْطِ النَّاسِ ؛  
وَنَحْتَصِرُ مِنَ الْوَصْفِ مَا يُفْنَى عَنْهُ إِلَّا كَثَارٌ : فَإِنَّهَا أُمُورٌ لَمْ نُشَاهِدْهَا ، فَنُخْبِرَ  
عَنْ يَقِيْنٍ وَإِطْنَابٍ ؛ وَلَا غَابَتْ عَنْهَا كُلُّ الْغِيَابِ ، فَتَجْهَلُ مَصْدَرَهَا  
وَمَوْرِدَهَا ، أَنَّ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ أَشْغَلُ وَأَكْرَبُ مِنَ التِّفَاتِ مَا حَدَثَ  
بَعْدُنَا لِقَلَّةِ الْمِبَالَةِ بِمَا لَا يَغْنِينَا مِنْهَا ، وَلِشُغْلِ خَوَاطِرِنَا بِمَا دَهَيْنَا بِهِ ، عَلَى أَنَّ  
ذِكْرَ مَا سُمِعَ ، وَنَحْنُ قَدْ أَمِنَّا مِنَ الْمَوْتِ ، أَيْمَرُ مِنْ ذِكْرِ مَا عَيْنَاهُ ،  
وَنَحْنُ جَازِعُونَ مِنْهُ . لِحَقِّ لَنَا أَنْ نَذْهَلَ عَنْ عِلْمِ جَلِيَّتِهِ بِالْمُعَايَنَةِ ، وَعَنْ  
وَصْفِهِ بَعْدَ الْأَمَانِ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ ذِكْرِ الْهَوْلِ ، فَكَأَنَّهُ فِيهِ .

وقد كان أمير المسلمين ، قَبْلَ تَجَبُّئِهِ إِلَى غرناطة ، قد وعد الْمُعْتَمِدَ بها . ، وقال له : « أَنَا رَجُلٌ مَغْرِبِيٌّ ؛ وَلَيْسَ قَدَمَتْنِي أَخْذُ مَالٍ وَلَا

بلاد !\* وقد ترى ما رُفِعَ على صاحب غرناطة ؛ وتتوقع عليها من الرومى . وليس ٦٦ (ب)  
غَرَضِي أَكْثَرَ مِنْ تَخْلِيصِهَا ؛ فَإِذَا صَارَتْ فِي يَدِي ، وَلَا يُمَكِّنُنِي إِمْسَاكُهَا  
لِتَيْنِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْعِدْوَةِ ، وَضَعْتُهَا عِنْدَ ذَلِكَ فِي يَدِكَ : فَتَكُونُ أَعْلَمَ  
بِمَا تَصْنَعُ بِهَا ، وَأَقْعَدَ لِمَا يُصْلِحُ الْمُسْلِمِينَ . »

٥ قَلَمَ يَشْكُ الْمُعْتَمِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُ كَائِنْ ؛ وَعَمِلَ حَسَابًا آخَرَ أَنْ قَالَ  
فِي نَفْسِهِ : « إِنْ لَمْ يَتَهَيَّأْ لَهُ أَخْذُهَا بِقَعُودِ صَاحِبِهَا عَنِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِ ، فَلَيْسَتْ  
بِمَا تَتَوَخَّذُ مِنْ وَفْقَةٍ وَاحِدَةٍ ! سَتَنْجَرُّ الْحَالُ مِنْ أَجْلِهَا ، وَتَشِينُ عَلَيْهَا  
الْمَحَالَاتُ ، كَمَا صُنِعَ بِلَيْطٍ ؛ وَتَدْخُلُ الشُّتُو ، فَيَحْتَاجُ إِلَى الْإِنْصِرَافِ ، وَتَبْقَى  
هَذِهِ الْمَعَاقِلُ الَّتِي طَاعَتْ لِلْأَمِيرِ أَوْ كُنْ زَعِيمَتِهَا . وَفِي خِلَالِ مَا يَتَلَوَّى أَمْرُ  
١٠ غَرْنَاطَةَ ، اخْتِيجَ إِلَيَّ ، وَكَانَ لِي بِذَلِكَ الصَّوْلَةُ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ ، وَلَا نُحْطَى  
مِنْ بَرَكَتِهَا ! »

وكان الحبيبُ إليه أَنْ تَبْقَى عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ ، إِذْ لَا يَعْلَمُ ، عِنْدَ حَصُولِهِ  
عَلَيْهَا ، مَا تَكُونُ قَرَعَتُهُ مَعَهُ ، كَالَّذِي كَانَ . وَسَكَتَ عَنِّي فِي الْأَمْرِ ؛ وَلَمْ  
يُزَلِّ الْإِنْكَشَافُ بَسْرَهُ إِلَى رَأْسِي يَفْشَى عَلَيْهِ ، غَيْرَ رُمُوزَاتٍ ، إِذْ ذَاكَ  
١٥ لَا تَنْفَعُ . وَلَوْ قَالَ لِي : « اْمْتَسِكْ ! » فَأَنَا أَخُوْتُ عَلَى حَالِي ، أَوْ :  
« اْخْرُجْ ! » لَمْ أَطْفِئْ مَا تَهْمُهُ ؛ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْطِنِي تَقْوِيَةً ، فَيَفْتَضِحَ  
عِنْدَ الْمُرَاطَبِ . إِنَّمَا كَانَ صَنَعَ الْأَمِيرِ أَنْ يَطَّلِعَ وَيَرَى ، عَسَى يَتَهَيَّأَ لَهُ فِي النَّصْبَةِ  
شَيْءٌ ، أَوْ يَسْلَمَ مِنْ مَعَرَّتِهِ ؛ قَدْ تَنَشَّبَ ، وَلَمْ يَجِدْ حَيِّصًا غَيْرَ مَا كَانَ بِسَبِيلِهِ .  
وكَذَلِكَ ابْنُ الْأَفْطَسِ مَعَهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . وَصَاحِبُ الْمَرِيَّةِ فِي الْمَرِيَّةِ  
٢٠ لَمْ يَتَحَرَّكَ : كُلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَى مَا يَنْقُضُ مِنْ أَمْرِ غَرْنَاطَةَ ؛ قَدْ أَبْهَتَهُمْ  
أَمْرُهَا . وَأَقْلَقَهُمْ .

ولمّا بصرتُ تَأَلَّبَهُمْ عَلَىَّ مع الأمير، خَاطَبْتُ كُلَّ واحدٍ منهم بِكِتَابٍ أَقُولُ لَهُمْ : « هَذَا الأَمْرُ مُنْجَرٌّ إِلَيْكُمْ ! وَاليَوْمَ بى وَعَدًا بِكُمْ ! » فلم يَمَكِّنْهُمْ قِرَاءَةَ الكُتُبِ دُونَهُ ، وعرضوها عليه . فَنَحْنُ عَلَىَّ ؛ وَكُتِبَتْ الأَجُوبَةُ بِأَمْلَانِهِ ، يَقُولُونَ : « إِنَّمَا تُرِيدُ أَنْ تَلْطَخُنَا بِأَفْعَالِكَ ، \* وَنَحْنُ قَدْ بَرَأْنَا اللَّهَ مِنْهَا ! » وما أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الوَعِيدِ وَالتَّذْنِيبِ : فَعِلُ مِنْ قَدْ وَحِلَ ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَكْثَرِ مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ ، مع الطَّمَعِ وَغَمِّ البَصَائِرِ ، كَمَا وَصَفْنَا قَبْلَ :

وكان رُسُلُهُمْ إِلَىَّ قَبْلَ ذَلِكَ يَحْضُونِى عَلَى الامْتِسَاكِ وَالتَّجَلُّدِ . وقال ابن الأَفْطَسِ : « انا أَعْتَذِرُ عَنْهُ ! » وَلَمْ يَرَوْا كُتُبَ كِتَابِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُونَ ظَهِيرًا عَلَيْهِمْ ، غَيْرَ إِهْذَاءِ ذَلِكَ عَلَى الأَلْسِنَةِ . فَعَلِمْتُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ قَدْ أَسْلَمُونِى إِلَى طَاقَتِى ؛ فَإِنْ كَانَتْ لِى ، لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهِمْ دَاخِلَةً ؛ وَإِنْ كَانَتْ عَلَىَّ ، لَمْ يُفْسِدُوا وَجُوهَهُمْ مَعَ المُرَابِطِ ؛ وَحَسْبُهُ اجْتِهَادُهُمْ مَعَهُ بِأَنْفُسِهِمْ وَرَجَالِهِمْ .

فَرَأَيْتُ حَالِى فِي هَذَا كُلِّهِ تَالِفَةً ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ ، طُولَ مَدَّةِ امْتِسَاكِى لَوْ امْتَسَكْتُ ، لَكَانَ سُلَاطِينُ الأَنْدَلُسِ أَجْمَعُ مُتَأَلِّبِينَ عَلَى فِتْنَتِى مَعَ رَعِيَّتِى ، لَمَّا يَلْزَمُهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ لِلْمُرَابِطِ وَالطَّمَعِ ، عَسَى يَحْضُلَ لِأَحَدٍ مَزِيدٌ فِي بِلَادِهِ ، وَلَا تُمْكِنُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مَعُونَتِى وَلَا الاسْتِفْسَادُ مِنْ أَجْلِى . فَنَحْنُ لَمْ يُعَيْنْ بَعْضُنَا بَعْضًا عَلَى الرُّومِ ! فَكَيْفَ عَلَى المُسْلِمِ ، مَعَ حَرْبِ الكَانُونِ وَرِقِيَامِ أَهْلِ الْبَيْتِ ! هَذَا مَا لَا طَاقَةَ بِهِ لِمَنْ عَقْل ! وَلَمْ نَظُنْ نَحْنُ أَنَّ الأَمْرَ يَنْفَتِقُ إِلَى هَذَا كُلِّهِ ، وَلَا نَعَايِلُ هَذِهِ المُعَاجَلَةَ . وَلَوْ عَلِمْنَا ذَلِكَ ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَتَقَدَّمُنِى إِلَى الخُرُوجِ إِلَيْهِ ، إِذْ مَا سِوَى ذَلِكَ عَلَى هَذِهِ الرِّتْبَةِ لَا يَنْفَعُ .

وإِنَّمَا طَمَعْنَا بِمَا قَصَصْنَاهُ قَبْلُ ، وَحَسْبُكَ !  
وإِنَّهُ ، لَمَّا آلتَ الْحَالُ إِلَى مَا لَمْ يُجَزَّ عَلَى قِيَاسٍ ، خَرَجْنَا إِلَيْهِ ، وَلَمْ نَلْتَوِ سَاعَةً .

## ٧٨ — حركات المُرابطين على المَرِيَّة

ولم يُقَدِّمَ أميرُ المسلمين شيئاً ، وَقَتَ خُرُوجِي إِلَيْهِ ، عَلَى إِرسَالِ جَيْشٍ  
إِلَى صَاحِبِ المَرِيَّةِ ، قَبْلَ ابْنِ عَبَّادٍ ، إِذْ كَانَ بِتَخَلُّفِهِ مَوْسُومًا بِالنِّفَاقِ ، وَلِأَنَّهُ  
مُعَاقِدِي عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْ تَحَلُّفَهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ اتِّفَاقٍ .

فَلَمْ يُحَرِّكْ مِنْهَا مَوْضِعًا إِلَّا وَأُجَابَ . وَتَنَاقَرَتِ مَعَاقِلُهُ أَجْمَعُ ، حَتَّى بَلَغَ  
الْعَسْكَرُ إِلَى بَابِ المَرِيَّةِ . وَكَانَ الرَّجُلُ — رَحِمَهُ اللَّهُ — سَاعَةً وَرُودَ الْخَبَرِ  
عَلَيْهِ بِخُرُوجِنَا ، انْطَبَقَ لَهُ ، وَاعْتَلَّ لَمَّا رَأَى مِنْ هَوْلِهِ وَسُوءِ عَاقِبَتِهِ . وَقَضَى  
عَلَيْهِ وَصُولَ الْعَسْكَرِ إِلَى الْبَابِ ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ؛ فَأَقْرَعَ لَهَا وَمَاتَ .

\* وَوَلَّى بَعْدَهُ ابْنُهُ مُعِزُّ الدَّوْلَةِ ، النَّاهِضُ إِلَى قَلْعَةِ حَمَّادٍ عَلَى مَا نَصَفَهُ بَعْدَ هَذَا . ٦٧ (ب)  
وَقَدْ كَانَ ، لَمَّا رَأَى مِنْ طَلَبِ [ الْمُرَابِطِ لِبِلَادِهِ ] ، قَدْ وَجَّهَ إِلَيْهِ ابْنَهُ  
الْآخِرَ ، يَمِظُهُ وَيُعَلِّمُهُ بِوَجْهِ الْحَقِّ فِيهِ ، إِذْ كَانَ يَنْتَحِلُ فَقْهًا ؛ وَذَلِكَ مِمَّا  
ذَكَرْنَا مِنْ قَلَّةِ الْمَيْزِ بِالْأَحْوَالِ ، إِذْ يَرَى هَذِهِ الْأُمُورَ مُشْتَعِلَةً ، وَيَطْمَعُ  
إِطْفَاءَهَا بِالْوَعظِ ! فَسَاعَةً وَصُولَهُ ، أَمَرَ الْأَمِيرُ بِتَقَاتِفِهِ عَلَى الْمَقَامِ فِي الْحَدِيدِ . وَتَحْيِيلِ  
أَبَوِهِ فِي انْطِلَاقِهِ ، حَتَّى انْصَرَفَ إِلَيْهِ فَارًّا مِنَ الْمُرَابِطِ : اخْتَلَسَهُ مِنْ مَوْضِعِهِ  
رَجُلٌ لَهُ شَبَابُكَ ، قَذَفَ بِهِ فِي الْبَحْرِ حَتَّى سَلِمَ إِلَى وَالِدِهِ .

وَفَتَرَ الطَّلَبُ عَلَى المَرِيَّةِ لِلشَّغْلِ بِمَا حَدَثَ بِأَمْرِ ابْنِ عَبَّادٍ ، وَأَنَّهُ أَوْكَدَ  
الْأَشْيَاءَ . وَإِنَّ ابْنَ صَمَادِجَ ، لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ ، وَصَّى ابْنَهُ هَذَا الْمُسْتَخْلَفَ ،  
٢٠ وَقَالَ لَهُ : « أَمْنَسِكَ فِي هَذِهِ الْقَصَبَةِ طَوْلَ مَقَامِ ابْنِ عَبَّادٍ فِي مُلْكِهِ

بِإِسْبِيلِيَّةَ مَا اسْتَطَعْتَ ! فَإِنْ رَأَيْتَ ابْنَ عَبَّادٍ قَدْ خَرَجَ ، فَلَا تَتَرَبَّصْ سَاعَةً  
وَاحِدَةً ، وَأُنْجُ بِنَفْسِكَ إِلَى الْقَلْعَةِ ، وَأَدْخُلِ الْبَحْرَ بِمَا قَدَرْتَهُ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِكَ ،  
إِذْ لَا مَطْمَعَ لَكَ فِي الْبَقَاءِ بَعْدَهُ ! »

فَحَفِظَ وَصِيَّةَ أَبِيهِ ؛ وَسَاعَةً مَا انْقَضَى فِي إِسْبِيلِيَّةَ مَا انْقَضَى ، تَخَيَّرَ قِطْعَةً  
أَشْحَنَ فِيهَا جَمِيعَ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِهِ ، وَكَتَمَ أَمْرَهُ ، وَخَرَجَ بِاسْمِ أَنَّهُ نَاهِضٌ  
إِلَى أَمِيرِ الْمَسَامِينِ بَهْدِيَّةً لِيُهْدَنَ بِذَلِكَ أَهْلُ الْمَرِيَّةِ ؛ فَسَرُّوا بِفِعْلِهِ ، وَقَالُوا : « هَذَا  
هُوَ الصَّوَابُ ، قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ بِكَ مَا حَلَّ بِغَيْرِكَ ! » حَتَّى تَوَسَّطَ الْبَحْرَ ،  
وَأَعْطَى لِلنَّوَاتِيَّةِ مَالًا جَسِيمًا ، وَأَخْبَرَهُمْ غَرَضَهُ . وَخَرَجَ بِالْجَزَائِرِ ، وَأَكْرَمَهُ صَاحِبُ  
الْقَلْعَةِ ، وَأَمَّنَهُ فِي ذَخَائِهِ ، وَأَكْرَمَ ضِيَافَتَهُ ، وَخَيَّرَهُ حَيْثُ يَحِبُّ السُّكْنَى ؛  
فَاخْتَارَ تَدَلَّسَ ، لِأَنَّهَا عَلَى الْبَحْرِ ، وَلِيَغِيبَ عَنِ عَيْنِ السُّلْطَانِ ، خَوْفًا مِنْ  
الطَّلَبِ . وَانْحَمَلَ فِي ذَاتِهِ ، وَأَخَذَ لِنَفْسِهِ بِالْأَرْجَحِ فِي أَكْثَرِ أَخْوَالِهِ .

## ٧٩ — تَوَثَّرَ الْعِلَاقَاتُ بَيْنَ الْأَمِيرِ الْمُرَابِطِيِّ وَالْمُعْتَمِدِ

وَإِنَّ الْمُعْتَمِدَ بْنَ عَبَّادٍ ، لَمَّا بَصَرَ بِدُخُولِ الْأَمِيرِ غُرْ نَاطَةَ ، وَأُسْتَنْجَزَ وَعْدَهُ ،  
فَلَمْ يُلْتَفِتْ ، وَرَأَى ثِقَافَهَا بِالْمُرَابِطِينَ وَإِخْرَاجَ مِنْ فِيهَا مِنَ الْحَشَمِ وَكُلِّ مَنْ  
طَمِعَ بِالْبَقَاءِ عَلَى حَالِهِ ، جَزَعَ جَزَعًا شَدِيدًا ، وَخَافَ أَنْ يَثْنَى بِهِ ، إِذْ رَأَى  
الْأَمِيرُ مَذْهَبَهُ فِي الْبِلَادِ وَاسْتَصْرَاخَهُ . \* وَلَمْ يُمْكِنَ لِلْأَمِيرِ أَنْ يَأْخُذَهُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ : ٦٨ (ب)  
فَيَقْبَحُ ذِكْرَهُ . وَأَشَارَ إِلَيْهِ الْمُرَابِطُونَ بِثِقَافِهِ ؛ فَأَبَى حَتَّى يُلَوِّحَ قَبْلَهُ ذَنْبٌ يُوْخَذُ  
بِهِ . ثُمَّ إِنَّهُ ، بَعْدَ أَنْ نَهَضَ وَاتَّبَعَهُ قَرُورٌ يَقُولُ لَهُ : « الْأَمِيرُ يَحْتَاجُ إِلَى  
تَذْكَارِكَ بَعْضُ الْأُمَرَاءِ ! » فَأَبَى ، وَمَضَى لَوَجْهَتِهِ ، فَارًّا بِنَفْسِهِ ؛ وَأَطْوَى  
الْمَرَاحِلَ ، حَتَّى وَصَلَ قُرْطُبَةَ . وَقَالَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى ابْنِ الْأَفْطَسِ : « انْجُ

بَنَفْسِكَ ! فقد ترى ما حلَّ بصاحبِ غَرْناطة ، وغَدًا بنا ! »  
 ثمَّ إِنَّه ، بعد أن ظَهَرَ للأمير نُفُورُهُ ، وَجَّهَ إِلَيْهِ يَأْمُرُهُ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ،  
 ويقول له : « نُرِيدُ الاجْتِمَاعَ بِكَ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ . » : ليقولَ : « لا ! »  
 فَيَجِدَ السَّبِيلَ ، كما فَعَلَ . فَرَاغَهُ ابْنُ عَبَّادَ : « إِنَّ ذَلِكَ كَانَ وَقْتًا  
 ٥ كُنْتَ ضَيْفًا ، وَتُرِيدُ الْغَزْوَ ؛ فَلَزِمْتَنِي مَعُونَتِكَ بِنَفْسِي وَجَمِيعِ أَمْوَالِي ! وَالْآنَ  
 إِنَّمَا أَنْتَ لِي جَارٌ مِثْلُ بَادِرِيسَ وَحَفِيدِهِ ؛ وَأَنْتَ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى الشَّرِّ بِجُنُودِكَ !  
 فَلَا يُمْسِكُنِي التَّغْيِيرُ بِنَفْسِي ، عَسَى أَنْكَ تُرِيدُ أَخْذَ بَلَدِي ، إِذْ لَا تَصِحُّ لَكَ  
 غَرْناطَةُ إِلَّا بِمَا يُضَافُ إِلَيْهَا مِنَ الْأَنْدَلُسِ ! » فشرط عليه أميرُ المسلمين أن  
 يلتزم الرِّبَاطَ ، وَيَقْطَعَ الْقَبَالَاتَ ؛ وَتَحَامُلًا كَثِيرًا عَليَّ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ ؛ وَفِي تَرْكِهِ  
 ١٠ أَوْ فَعَلَهُ قَطْعُهُ . فامْتَنَعَ ابْنُ عَبَّادَ جَهْدَهُ ، وَبَنَى عَلَى الشَّرِّ .

وبدأ [ المُرَابِطُ ] بِمُدَاخَلَةِ مَعَاقِلِهِ ؛ فانتَهَرَتْ ، كما جَرَى لغيرها ؛ وقامت  
 عليه الرعايا بكلِّ قَطْرِ . فأرسل إِذْ ذَاكَ إِلَى الرُّومِيِّ ، يَسْتَغِيثُ بِهِ ؛ فقعده عنه ،  
 خَيفَةً مِنَ التَّغْيِيرِ ، وَهِيَ حُجَّةُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ابْنِ عَبَّادَ ، أَنْ قَالَ لَهُ :  
 « ظَفَرْتُ بِكَتْمِكَ إِلَى الرُّومِيِّ . وَإِسَالِكَ عَنْهُ ! » فقال الْمُعْتَمِدُ : « لَوْ فَعَلْتُهُ  
 ١٥ قَبْلَ أَنْ تُؤْخَذَ بِلَادِي بَطَرًا وَاشْرًا ، كُنْتُ أَلَامٌ ! وَأَمَّا بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُ  
 طَلَبِي فِي الرُّوحِ ، اضْطَرَرْتُ الضَّرُورَةَ إِلَى ذَلِكَ لِلْمُدَافَعَةِ ، وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا ! »  
 وَهِيَ كَانَتْ عِلَّةَ الْجَمِيعِ ؛ وَبِذَلِكَ هَلَكَ ابْنُ الْأَفْطَسِ ، وَمِنْهُ أُتِيَ .

#### ٨٠ — الاستيلاء على قُرْطُبَةَ وإشبيلية ونفى ابنِ عَبَّادَ

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِلأَمِيرِ خِلَافُهُ وَقُعُودُهُ عَنْهُ ، شَاوَرَ الْعُقَهَاءَ فِي أَمْرِهِ ؛ فَأَشَارُوا  
 ٢٠ عَلَيْهِ بِغَزْوِهِ . فَكَانَ غَزْوُهُ بَعْدَ إِبْلَاءِ عُذْرٍ ؛ وَلِهَذَا مَا أُخِرَ <sup>(١)</sup> بِهِ لِئَهْلِكَ

من هلك عن يَبْنَةٍ ولتكون له الخُجَّة على من يُريدُ إخراجَه . فأمرَ الأميرَ سِير\* بالخروج إليه . ونَهَضَ ، ونَحْنُ بِمِكنَاسة . ونازلهُ مُدَّةً طَوِيلَةً ؛ ٦٨ (ب) ومَعاقِلُهُ قد ذهب أكَثَرُها بالطاعة .

٥ وافتتح الأميرُ بِحلال هذا مدينةَ قُرْطُبَة ، واستشهدَ فيها ابنُه المأمون وزيراهُ ابنُ زَيْدُون وابنُ بَكْرٍ — رحمهم الله — بِمُدَاخَلَةٍ من أَهْلِ البَلَدِ ، مع انخراق المدينة ، وأَنَّهُ لم يَمِكنَ ضَبْطُها إِلَّا بِأَهْلِها . وكان المُتَمَدِّ حَذِرًا على قُرْطُبَة ، يرجو بقاء حاله بِثبوتها ، ويوصى ابنَه بالصبر ، ويقول له : « لا تجزع ! فالموتُ أَهْوَنُ من الدَّلِّ ! وَلَيْسَ السُّلْطانُ إِلَّا من القَصْرِ إلى القَبْرِ ! »

١٠ فلَمَّا أُخِدتْ قُرْطُبَة ، انقطع الرجاء . وضاقَتْ إِشْبِيلِيَّةٌ ؛ ونفذ ما كان بيده من أَجْلِ النفقات ، إلى أن دخلها الأميرُ سِيرَ عُنُوَةً بِمُدَاخَلَةٍ من بَعْضِ أَهْلِها . وهلك فيها عَالَمٌ ، وانكشف الحَرَمُ ، إِذْ للجَيْشِ مَعَرَّةٌ لا تُملَكُ بَعْدَ صَبْرِهِم على مَلِكِهِم . وظهر لِسِير من اجتهادهم فى القتال ما أَعجبه ذلك ، وقال : « لو أَنَّى أَقصد<sup>(١)</sup> مدينةَ الشَّرْكِ ، لم تَمْتَنَعُ هذا الامْتِناع ! » ١٥

وكان دخولُها من ناحية الوادى ، وهو أَسهَلُ الأَمَكن . ولولا صَبْرُ أَهْلِها وكَثْرَةُ أَقاربِ ابنِ عَبَّاد ، لم يَسْتَطِيعَ [ المُتَمَدِّ ] على شىء ؛ فَكَانَهُ غُلِبَ بالثِّقَاتِ الذين كانت الأبوابُ بِأَيْدِيهِم ، ووَكَلَهُم بِمَنْ سِوَاهِم ، إلى أن لم يَكُنْ مع القضاء مَدْفَعٌ . وكان دُخولُها يوم الأحد فى [ ٢٢ ] رَجَب [ سنة ٤٨٤ ] ، فى التَّارِيخِ الذى دُخِلَتْ فيه غَرَنَاطَة بَعْدَها بِعامٍ كَامِلٍ . ٢٠

(١) أصل : « نَقصد » .

وَدُخِلَتْ قَبْلَهَا قَرْمُونَةٌ ؛ ومات فيها عالمٌ كثيرٌ . ثُمَّ التَوَى أَمْرُ  
رُنْدَةٍ ؛ وَنَازَلَهَا قَرُورٌ ، إِلَى أَنْ ظَفَرَ بِالرَّاضِي ، وَخَدَعَهُ ، وَحَصَلَ عَلَى  
أَمْوَالِهِ ؛ ثُمَّ قَتَلَهُ ، خَوْفًا مِنْ أَنْ تَفْتَضِحَ تِلْكَ الْأَمْوَالُ ؛ وَقِيلَ إِنَّ ذَلِكَ  
لَمْ يَكُنْ عَنْ رَأْيِ السُّلْطَانِ . وَأَمَرَ بِقَتْلِ كُلِّ مَنْ ظَفَرَ بِهِ فِي رُنْدَةٍ  
المذكورة من الأحرار والجنود المقاتلين . وَقُتِلَ فِيهَا رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ يُعْرَفُ  
بِأَبِي الصَّمَّامِ ، جَرَأَةً عَلَى اللَّهِ ، لِيَأْخُذَ بِنَتِّهِ ؛ وَنَكَحَهَا مِنْ بَعْدِهِ ،  
وَحَصَلَ عَلَى مَالِهِ . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ ﴾ <sup>(١)</sup> . وَامْتَسَكَ بِالْعَبِيدِ ، وَصَيَّرَهُمْ  
إِلَى السُّلْطَانِ .

وَلَمَّا ظَفَرَ بِابْنِ عَبَّادٍ ، فَيَا أَمِيرُ سِيرُ خَدَمَتِهِ وَعَبِيدِهِ ، حَاشَى أُمَهَاتِ  
الأولاد . وَأَمَرَهُ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ بِإِرْسَالِهِ إِلَيْهِ . فَقَدِمَ إِلَيْنَا بِمَكْنَسَةٍ مَعَ دُخْلَتِهِ ؛  
\* وَبَقِيَ فِيهَا إِلَى أَنْ سَبَقَ مَعَنَا إِلَى آغَمَاتِ .

(١) ٦٩

## ٨١ - قفول يوسف بن تاشفين إلى مراکش

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ لَهُ فِي هَذَا كُلِّهِ ، أَخَذَ فِي الْإِنْصِرَافِ  
إِلَى مَرْوُكُشٍ ؛ وَقَدْ بَلَغَ مِنْ آمَالِهِ غَايَتَهَا ، وَامْتَلَأَتْ يَدَاهُ بِالْأَمْوَالِ ؛ وَقَسَمَ  
عَلَى أَجْنَادِهِ بَعْضَ مِنَ الْفَيْءِ ، وَأَهْدَى إِلَى الصَّحْرَاوِيِّ عَمَّهُ مِنْ تِلْكَ الذَّخَائِرِ .  
وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْتَوْطِنَ آغَمَاتِ ؛ فَأَتَيْنَاهَا ، وَلَقِينَا مِنْ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ كُلِّ  
جَمِيلٍ ، وَأَنْزَلَنَا بِدَارِهِ الصُّغْرَاوِي فِي الْحَرِيمِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَفْتَقِدُنَا مِنْ إِنْعَامِهِ ،  
كَيْفَ مَا هَيَّا اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ ، وَوَجَدْنَاهُ بَعْدَ اللَّهِ أَرْقَى بِنَا ، وَأَحْسَنَ  
مَذْهَبٍ فِينَا مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ، وَمِنْ كُلِّ مَنْ سَبَقَ إِلَيْهِ مِنَّا إِحْسَانٌ .



## ٨٢ - عزلُ المتوَكِّل بن الأَفْطَس

صاحبِ بَطْلَيْوُس ومهالكه

وَبَقِيَ ابْنُ الْأَفْطَسِ يَتَخَدَّمُ أَمْرَهُ ؛ وَكَانَ يُدَارِي ابْنَ الْأَحْسَنِ ، وَيَنْفَعِلُ لَهُ فِي كُلِّ مَا أَرَادَ ، طَمَعًا مِنْهُ فِي الْبَقَاءِ لِحَيِّئِهِ ؛ وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، يُنْهَشُ ، وَيُرَى آيَاتُ تَدَلُّ عَلَى الشَّرِّ ، وَأَنَّ الْمَذْهَبَ فِي أَخْذِهِ . وَدَاخَلَ عَلَيْهِ ابْنُ الْأَحْسَنِ فِي بَلَدِهِ ؛ فَشَعَرَ بِذَلِكَ ، وَتَيَقَّظَ لَهُ ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الْمُرَابِطِينَ ، وَدَاخَلَ الرُّومِيَّ ؛ فَخَفَّتْ عَلَيْهِ الْمُطَالَبَةُ ؛ وَسُعِيَ عَلَيْهِ جَهْرًا ، بَعْدَ السَّعْيِ سِرًّا ؛ وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، مِثْلُ السَّمَكَةِ الْعَاجِزَةِ الْمَوْصُوفَةِ فِي « كِتَابِ دِمْنَةِ » : لَمْ تَزَلْ فِي تَقَلُّبٍ وَتَرَدُّدٍ ، حَتَّى أَخَذَهَا الصَّيَّادُ ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يُخَلِّطَ : يُخَاطِبُ الْأَمِيرَ بِإِظْهَارِ الطَّاعَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي أَمْرِ الرُّومِيِّ ، وَيُخَاطِبُ الْفُؤُوشَ لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى مُلِمَّةٍ ، إِنْ دَهَتَهُ مِنَ الْمُرَابِطِينَ . وَكَانَ ابْنُهُ الْمَنْصُورُ دَاهِيَةً بِالْأُمُورِ ، قَدْ أَشْرَبَ قَلْبُهُ الْحِذْرَ وَالْخَوْفَ ، وَقَدْ رَأَى طَرِيقَةَ ابْنِ الْأَحْسَنِ ، وَسُعِيَ عَلَى أَبِيهِ ؛ وَهُوَ رَجُلٌ سَجِلْمَاسِيٌّ فَقِيهٌ ، مُتَصَرِّفٌ فِي أُمُورِ الْأَمِيرِ ، اسْتَوْطَنَ بَطْلَيْوُسَ ، وَاکْتَسَبَ فِيهَا مَالًا ؛ يَرَى أَنَّ كَوْنَهُ فِي النَّفَرِ لِمَا يَنْفَعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ يَعْمَلُ فِي خَلْعِ صَاحِبِهَا .

وَكَانَ ابْنُ الْأَفْطَسِ الشَّيْخُ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ ؛ لَوْ سَأَلَهُ رُوحُهُ مَا لَا يَحِلُّ عَلَيْهِ ، [ عَمَلٌ ] بِهِ ، مُتَوَقِّعًا لَشَرِّهِ . وَكُلُّ شَيْءٍ يَحْذَرُهُ الْإِنْسَانُ وَيَكْرَهُهُ بِقَلْبِهِ ، وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِ بِالْخِيَارِ ، فَهُوَ مُتَوَرِّطٌ لَا مَحَالَةَ ، فِيهِ ؛ فَإِنْ الْمُدَارَاةُ فِيهِ مِمَّا لَا تَنْفَعُ ، وَالِاسْتِئْثَالُ مُنْقَطِعٌ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي مُجَاوَرَةِ عَدُوِّكَ عِنْدَ ٢٠

\* الحاجة إليه ، إِلَّا أَنْ تَدْرِي عِنْدَ ذِمِّ الْعَاقِبَةِ مَعَهُ أَنَّكَ مُسْتَفْنٍ عَنْهُ بَغَيْرِهِ ؛ ٦٩ (ب) وَإِلَّا ، فَأَنْتَ لَهُ طُعْمَةٌ .

فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ الْمَنْصُورُ : « هَذَا التَّرَدُّدُ لَا يَجْزِيكَ ، وَلَا يَغْنِي عَنْكَ مَا تُرَى مِنْ إِظْهَارِ الطَّاعَةِ لِلْمُرَابِطِ ! وَلَا طَاعَةَ أَهْلِ بَلَدِكَ لَكَ وَحُبَّتِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَعْضُونَ عَلَيْكَ ! فَلَوْ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ بَعْضَ حَقِيقَةٍ فِي عَزِيمَةٍ ، كَمَا أَبْقَوْا عَلَيْكَ ؛ كَالَّذِي رَأَيْتَ صُنِعَ بِغَيْرِكَ ! فَإِنَّمَا أَنْ تُضْفِيَ لِلْمُرَابِطِ ، فَلَنْ تَبْلُغَ مَرْضَاتِهِ إِلَّا بِالْإِخْلَاعِ لَهُ وَوَضْعِ الْبَلَدِ فِي يَدَيْهِ ؛ وَتَقْنَعُ بِأَنْ تَكُونَ مُتَحَرِّيًا ، مُتَخَلِّيًا عَنِ الرِّيَاسَةِ ؛ فَمَا جِلَّ ذَلِكَ ، تَجِدُ عِنْدَهُ الْأَمَانَ ! وَإِنْ نَفَرْتَ نَفْسُكَ عَنْهُ ، فَلَا تَتَأَخَّرُ عَنِ الْفِرَارِ مِنْهُ بِنَفْسِكَ وَأَهْلِكَ وَجَمِيعِ أَمْوَالِكَ ! يَجْعَلُكَ الرُّومِيُّ فِي أَىِّ بَلَدٍ شِئْتَ ؛ وَرُبَّمَا سَوَّغَهَا لَكَ ، كَمَا فَعَلَ بَابَن ذِي الثُّونِ فِي بَلَدِ نَيْسَابُورِ ؛ وَتَتْرُكُ مَدِينَةَ بَطْلَيْوَسَ ، لَا تَدْخُلُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ دَاخِلَةً ؛ فَيَحْصِلُ لَكَ النِّجَاجُ بِمُهْجَتِكَ ، وَسَلَامَةُ الْبَلَدِ لِلْمُسْلِمِينَ ! » فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ ، وَسَفَّهُ رَأْيَهُ : « لَا أَتْرُكُ مَوْضِعِي ! وَعَسَى أَنْ تَهَيَّئَ الْأَقْدَارُ ضِدَّ مَا تَظُنُّ ! » فَخَرَجَ عَنْهَا ابْنُهُ ، وَنَجَا بِمَالِهِ وَأَهْلِهِ ، وَأَخَذَ لِنَفْسِهِ بِالرَّأْيِ الَّذِي أَشَارَ بِهِ عَلَى أَبِيهِ . وَبَقِيَ الشَّيْخُ لَحَيْنَهُ ، حَتَّى نَفَذَ أَمْرُ اللَّهِ فِيهِ .

وَأَنَّ الْأَمِيرَ سِيرَ ، لَمَّا أَرَادَ مِنَ التَّخَذُّمِ لِأَمْرِ بَطْلَيْوَسَ وَالْحِيلَةِ فِيهَا ، لَمْ يَثِقْ بِنَفْسِهِ فِي ذَلِكَ ، لِحُدُوثِ وَلَايَتِهِ الْأَنْدَلُسِ ، وَرَأَى أَنَّ الدَّاءَ لَا يُعَالَى إِلَّا بِدَوَائِهِ ، وَلَا يُبَلِّغُ أَحَدٌ إِلَّا بِحَجَرِهِ ؛ فَتَخَيَّرَ لِذَلِكَ ابْنَ رَشِيقٍ ، لِأَنَّهُ أَنْدَلُسِيٌّ ، عَالِمٌ بِالْمَسَاكِيدِ فِي الْفَتُونِ ، مَعَ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيَادِي قَبْلُ فِي رِيَّاطٍ ، وَأَنَّ ثِقَافَهُ ذَلِكَ الْوَقْتَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَلَى رَغْمٍ مِنْهُ بِمُضَادَّةِ قُرُورِ

له . فانهز الفرصة فى إطلاقه ، والمكافأة له على صنيعه بما يأمره من أمر بطلانيوس .

وخطب السلطان فى أمره ، بعد أن أطنب فى صفة حاجته إليه . فقبل قوله ، وأمر بإرساله ، وألطف له القول ، واعتذر إليه بما جرى ، وأمر له بمال جسيم . ونهض ، بعد أن حد له الوقوف عند أوامر سير ، وأنه مستخيه ؛ فمضى . ونفى الناس من انطلاقه\* ما تعجبوا منه وخلطوا القول (١) ٧٠ فى ذلك ، كل أحد على مقدار عقله أو شهوته .

فلما وصل ، تخدّم أمر بطلانيوس بكل وجه من المداخلة لأهل البلد ومن معه فى القصة من الحرس وغيرهم ، حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها ليلاً ، ويفتحون له [ الباب ] . فكان من ذلك ما حاولوه ، وتعلقوا بالسور عند الإمارة التى كانت مع من داخله . وتقبض على الشيخ وابنيه الفضل والعباس ، واحتوى له على أموال جسيمة . وأمر سير بإخراجه للقتل ، بعد أن رأى فى نفسه هواناً عظيماً ، وشده على المال ، ونقم عليه ما كان من عمله مع النصارى والمعاقل التى أعطاهم ؛ فأمر بقتله مع ابنيه الفضل والعباس — رحمهم الله — . ١٥

وطاع جميع ذلك الثغر للمرابطين ، كأنه لم يكن قط لغيرهم . وفى أهله وبناته ، وجميع ما تركه . ثم صار ابنه المنصور فى جملة الروم ، حنقاً لما جرى على أبيه ، يطلب الثأر ، ويتطرق معهم بلاد المسلمين .

## ٨٣ — نشاط المرابطين ضدّ النصارى .

استيلاء « السيد » لندريق على بِلَنْدَسِيَّة

وصرف المرابطون وجوههم إلى فِتْنَةِ الرُّومِ ومَقاصِّها ، بعدد إكْمالِهِمْ  
لأَخْذِ سُلْطَانِ الأَنْدَلُسِ ؛ يقولون : « إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَنَا قِتَالُ الرُّومِ ، وَتَرْكُ  
وَرَاءِنَا<sup>(١)</sup> الأَغْدَاءَ ، يَمْنَنُ يُوسَى عَلَيْنَا مَعَهُمْ ! » فَكَلَّمَهَا تَهَيَّآتُ بِلَا مَشَقَّةٍ  
غَيْرِ إِشْبِيلِيَّةٍ ؛ فَوَقَعَ فِيهَا بَعْضُ التَّفَدُّرِ ، كَمَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ . فَسُبْحَانَ الْمُقَدَّرِ  
الَّذِي إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : « كُنْ ! » فَيَكُونُ . هَذَا نَصُّ مَا كَانَ  
وَلَا نَعْلَمُ مَا يَكُونُ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمِ  
١٠ ثُمَّ نَشَأَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ بِلَنْدَسِيَّةٍ مَا لَمْ يَذْبُلْجْ بِهَا مَا يَوْصَفُ ؛ فَإِنَّ  
الْحَدِيثَ لَا يَحْسُنُ ذِكْرُهُ إِلَّا بَعْدَ تَقْضَى آخِرِهِ ؛ وَالْقَوْسُ لَا تُسَكَّبُ إِلَّا  
بِقَبْضِ طَرَفَيْهَا ؛ فَإِذَا اسْتَكْمَلَ الْخَبَرَ ، طَابَ إِرَادُهُ وَحَسُنَ مَوْقِعُهُ ، وَنَمَّقَ  
بَعْضُهُ بَبَعْضٍ . وَلَوْ أَنَّنَا نَدَّعُ هَذَا التَّالِيفَ إِلَى مُدَّةٍ يَتِمُّ فِيهَا خَبَرُ بِلَنْدَسِيَّةٍ ،  
لَأَثَبْنَا بِهِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الظُّهْرُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَتُرِكَ\* هَذَا الدِّيَّوَانُ نَحْرُومًا ، ٧٠ (ب)  
١٥ اِنْتِظَارًا لِمَا يَكُونُ فِيهِ أَمَلٌ بَعِيدٌ .

وَاسْتِثْنَاؤُ تَأْرِخِ لَهُ فُصُولٌ لَا يُعْنَى ، لَا سِيَّأَ أَنَّنَا أَخَذْنَا أَنْفُسَنَا فِي  
حَيْرٍ تَمَامِهِ بِمَا يَلِيقُ بِالزَّمَانِ ، وَرُضْنَاهَا بِمَا نَسْتَمِرُّ عَلَيْهِ مِنْ تَرْكِ الشَّرِّهِ  
وَالْتَنَزُّهِ عَمَّا فَاتَ ، وَإِعْمَالِ قَطْعِ الْيَأْسِ عَمَّا قِيلَ ؛ وَالْيَأْسُ عَمَّا فَاتَ يُعَقِّبُ  
رَاحَةً ؛ وَلَكَرْبٌ مُطْعَمَةٌ نَعُودُ دُرَّأَخًا .

فإذا كان ذلك كذلك ، فأوّل ما يَجِبُ أَخْذُ أَنْفُسِنَا بِهِ إِخْلَاصُ النِّيَّةِ  
لأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ — أَيَّدَهُ اللهُ ! — وَتَمَنَّى الْخَيْرَ لَهُ ، لِأَنَّ صَلَاحَ الْمُسْلِمِينَ  
بِصَلَاحِهِ . وَمِنَ الدِّينَانَةِ اغْتِنَادُ ذَلِكَ ، لِمَا أُمِرَ بِهِ مِنْ طَاعَةِ الْأَيْمَةِ وَالنَّصْحِ  
لِكُلِّ مُسْلِمٍ ، لَا سِيَّامَا أَنَّهُ مُحْسِنٌ إِلَيْنَا . ثُمَّ اقْتَصَرْنَا عَلَى النَّظَرِ فِيهَا يَخْصُنَا  
وَأَنْزَلْنَا أَنْفُسِنَا بِمَنْزِلَةٍ مِنْ لَمْ يَكُنْ قَطُّ إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ ، وَاعْتَبَرْنَا بِمَنْ كَانَ  
قَبْلَنَا ، وَنَظَرْنَا لِمَنْ هُوَ دُونَنَا .

## ٨٤ — تَأْمُّلَاتٌ فِي تَقَلُّبِ الْأَقْدَارِ

- وما حلَّ بَابِنِ الْأَفْطَسِ ، فَشَكَرْنَا اللَّهَ عَلَى مَا تَجَنَّبْنَا مِنْهُ ، وَصَرَّفْنَا وَجْهَ  
اهْتِبَالِنَا إِلَى مَا نَنْتَفِعُ بِهِ ، وَغَلَبْنَا النَّفْسَ النَّاطِقَةَ عَلَى الْحَيَوَانِيَّةِ ؛ فَإِنَّهَا  
تَحْمِلُ عَلَى الْفَضَائِلِ وَالْإِنْصَافِ ، وَمَعْرِفَةِ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ ، كَمَا أَنَّ الْحَيَوَانِيَّةَ  
تَحْمِلُ عَلَى الْغَلَبَةِ ، وَإِثَارِ الشَّهَوَاتِ ، وَالْحَيْدَةِ عَنْ سُبُلِ الْمَعْرِفَةِ .
- وَرَأَيْنَا أَنَّ شُغْلَ الْبَالِ بِمَا مَضَى لَا يَرُدُّ شَيْئًا غَيْرَ الْهَمِّ وَالْكَرْبِ اللَّذَيْنِ  
يُنْحِلَانِ الْجِسْمَ وَيُذْهِبَانِ اللَّبَّ ، وَأَنَّ الْحَرْجَ عَلَى مَا لَا يَكُونُ تَعَبٌ لِلْبَدَنِ  
وَمَشَقَّةٌ لِلْإِنْسَانِ ؛ لِأَنَّ تَقْوِيلَ الْفَلَاسِفَةِ : لَا يُلْتَمَذُ بِمَا مَضَى ، وَلَا يُدْرَى  
مَا يَكُونُ فِيهَا بَقِيٌّ ؛ وَإِنَّمَا لَهُ لَذَّةُ سَاعَتِهِ الَّتِي هُوَ فِيهَا ، أَوْ عَمَلُهُ الَّذِي يَجِدُهُ  
لِمَعَادِهِ . فَإِنْ أَعْقَبَ اللَّهُ بِخَيْرٍ ، فَلَنْ نَحْسَرَ مَا سَلَفَ مِنْ أَيَّامِنَا ، فَهَرَمَ  
قَبْلَ أَوَانِ الْهَرَمِ ؛ وَإِنْ كَانَ الَّذِي يَأْتِي أَشَدَّ مِنْ هَذَا ، فَيَحَقُّ اغْتِنَامُ  
مَا نَحْنُ فِيهِ ، وَنَعْدُهَا أَعْيَادًا ، وَنُحَدِّثُ اللَّهَ عَمَلًا يَرْضَاهُ ؛ وَإِنْ كُنَّا أَبَدًا  
عَلَى هَذِهِ الرِّقْبَةِ بِلَا انْتِقَالٍ ( وَغَيْرِ مُتَمَكِّنِينَ مِنْ ذَلِكَ ) ؛ فَتَوَطِّينُ النَّفْسَ  
عَلَى مَا يَعْلَمُ أَنَّهَا عَلَيْهِ دَائِمَةٌ ، أُخْرَى وَأَرْوَحُ لِلْبَالِ .

نَمْ إِنِّي اعْتَبَرْتُ جَمِيعَ مَا فِي الدُّنْيَا ، الَّتِي إِلَيْهَا يَسْعَى النَّاسُ ؛ فَوَجَدْتُ  
 نَفْسِي مُبْلِغَةً مِنْهَا كُلَّ أَمَلٍ ؛ \* وَإِنْ انْقَطَعَتْ ، فَلَمْ نَصَحْبِهَا ، وَنَحْنُ مِنْهَا ٧١ (١)  
 عَلَى يَقِينٍ بِتَخْلِيدِهَا . بَلْ ، لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةٌ ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَرْكِهَا .  
 وَالخُرُوجُ مِنْهَا فِي مُدَّةِ الْعُمُرِ خَيْرٌ مِنْ مَيِّتَةٍ عَلَى فِتْنَةٍ أَوْ غَرَقٍ ، عَسَى  
 ٥ بِذَلِكَ أَنْ يُعْظِمَ اللَّهُ الْأَجَرَ ، وَيُكْفِرَ السَّيِّئَاتِ . وَيَكُونُ ذَلِكَ لِلْإِنْسَانِ زَاجِرًا  
 عَنِ الْآثَامِ ، وَيَعْتَبَرُ فَقَدْ مَالَهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَكْتَسِبْهُ بَرَزِيَّةٍ نَفْسُهُ إِذْ حَانَ حِينُهُ ،  
 فَيُقَدِّمُ لَهَا النِّظَرَ ، بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَبْلَ الْمَوْتِ وَحُلُولِ الْفَوْتِ . وَاللَّهُ  
 الْمُسْتَعَانُ ! لَا شَرِيكَ لَهُ !

سُئِلَ النَّبِيُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — عَنْ عَلَامَةِ انْشِرَاحِ الْقَلْبِ لِلْإِسْلَامِ ؛  
 ١٠ فَقَالَ : « هُوَ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالِاسْتِعْدَادُ  
 بِالْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ الْفَوْتِ . »

## الفصل الثاني عشر

### تأملات أخيرة بعد النفي

#### ٨٥ - المؤلف والشعر

- وإذ قد أتينا على وصف بعض الحادثات بالأندلس ، ورتبة دولتنا ،  
وما انتهت إليه فيها أحكامنا ، حسبما ساعدتنا عليه أذهاننا ، ونالتة  
مقدرتنا ، إلى انصرام الأمد ، فلنرجع الآن إلى ذكر بعض ما يتعلق  
بذلك من شعر نظمناه وقت فراغ البال وجمام النفس ، مع ما أعان على  
ذلك من النظر إلى كل مستحسن ، والشروع بطيب كل خير .
- على أنني لم أنتحله قبل ، ولا كان من شأني الأخذ به ، إلا على  
سبيل الاستطراف والإطناب في وصف شيء أريد نعتة . فربما صنعت  
في البيت أو البيتين أياماً ، أحضر لها ذهني ، وأحدت فكري ؛ فتصدع  
بعد كد ، وما أكاد ، كالشيء المستغرب من غير معدنه . فيؤشدها  
الكتبة في مجالس الاحتفال للراحات ، تقطع بذلك الزمان عند الفراغ  
من الشغل ، كالذي يأخذ به الملوك أنفسهم في ساعات الدعة ؛ ونضيف  
معهاماً من آداب وسير تحضرنى ، مما يختلج في خاطر ويجرىها الإنسان  
بصحة الزمان وتنقله في الحالات . وقيل لرجل : « من أين لك هذا  
العلم ؟ » فقال : « قلباً عقولاً ، ولساناً سوؤلاً ! »

## ٨٦ — استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره

وَكُلُّ شَيْءٍ إِنَّمَا يَنْطَبِعُ فِي النِّشْأَةِ وَحِينَ الْمَوْلِدِ . وَلَقَدْ طَالَعْتُ مِنْ مَوْلَدِي  
 أَشْيَاءَ مَيَّزَتْهَا مِنْ طِبَاعِي وَأَخْلَاقِي ، عَلَى أَنَّ وَاضِعِيهِ الْقُوَّةُ وَنَحْنُ فِي حَالِ  
 الطُّفُولِيَّةِ ، \* لَمْ يُوصَلْ إِذْ ذَاكَ إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِي . وَكَتَمَهُ ٧١ (ب)  
 عَنِّي سِمَاجَةً مُدَّةً ، حَتَّى وَقَعَ السَّفَرُ إِلَى يَدِي عَلَى غَيْرِ ظَنٍّ ؛ فَشَقَّ ذَلِكَ  
 عَلَيْهِ ، خَوْفًا عَلَى مِنَ الْعُجْبِ بِمَا كَانَ فِيهِ مَنْصُوصًا مِنَ السَّعَادَةِ . فَطَالَعْتُ  
 مِنْهُ عَجَائِبَ وَغَرَائِبَ ، إِذْ كَانَ الْمَوْلِدُ رَضْدِي ؛ وَكَانَ الطَّالِعُ الْحَوْتَ  
 بِأَرْبَعِ دَرَجٍ ، وَصَاحِبُهُ الْمُشْتَرَى فِي الْحَادِي عَشَرَ مِنَ الزُّهْرَةِ ؛ وَسَقَطَتْ  
 الشَّمْسُ فِي الدَّلْوِ مَعَ عُطَارِدِ ؛ وَاتَّفَقَتِ النَّحْسَانِ فِي الثَّوْرِ بَيْتَ الْأُخُوَّةِ  
 وَالْقَرَابَةِ ؛ وَصَارَ الْقَمَرُ هَيَلَاجًا إِذْ كَانَ فِي السَّابِعِ مِنَ الْبُرُوجِ ، فَصَلَحَ ١٠  
 لِذَلِكَ لِأَجْلِ سُقُوطِ نَيِّرِ النَّوْبَةِ ؛ وَالزُّهْرَةِ كَدَخْدَاهُ ، دَلَّتْ بِمَكَانِهَا  
 — وَاللَّهُ أَعْلَمُ — عَلَى قَوْلِهِمْ ، عَلَى سِنِيهَا الْوُسْطَى خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً  
 يَزِيدُهَا الْمُشْتَرَى سِنِيهِ الصَّغَرَى اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا ؛ فَجَمِيعُ ذَلِكَ سَبْعَةٌ  
 وَخَمْسُونَ عَامًا . وَاللَّهُ بِغَيْبِهِ أَعْلَمُ !

١٥ وَتَكَلَّمَ ( الطَّالِعُ ) عَلَى أَرْبَابِ مُثَلَّثَاتِ النَّيِّرِ الدَّالَّةِ عَلَى تَقْسِيمِ  
 السَّعَادَةِ لِلْمَوْلُودِ ؛ فَكَانَ رَبُّ الْمَثَلَّةِ الْأُولَى زُحْلَ ، وَمَعَهُ الْمَرِيخُ فِي  
 بَيْتِ غُرُوبِهِ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الثُّلُثَ الْأَوَّلَ فِيهِ بَعْضُ التَّقْدِيرِ وَالتَّنْغِيصِ  
 وَالتَّكْدِيرِ ؛ وَمِثْلُهُ الثُّلُثُ الثَّانِي الَّذِي لِعُطَارِدِ ، إِذْ كَانَ فِي بَيْتِ الشَّقَاءِ  
 وَالْهُمُومِ ، مَحْشُورًا بَيْنَ النَّحْسَيْنِ ؛ فَدَلَّ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَأَشَدَّ ،  
 ٢٠ كَالَّذِي تَبَيَّنَ الْآنَ ؛ وَالْقِسْمَةُ الثَّلَاثَةُ الْمُشْتَرَى ، وَهُوَ فِي بَيْتِ الرَّجَاءِ



وَالسَّعَادَةِ ؛ فَدَلَّ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ كُلُّهُ ، وَأُطْنَبَ فِي وَصْفِ السَّعَادَةِ فِيهِ ، لَا أَذْرَى كَيْفَ هُوَ ، إِذْ هُوَ بَعِيدٌ فِي الْقِيَاسِ ، قَرِيبٌ فِي قَدْرَةِ اللَّهِ .

٥ ثُمَّ وَصَفَ خَبَرَ الْأَمْرَاضِ ؛ فَدَلَّ عَلَى الْأَمْرَاضِ النَّفْسَانِيَّةِ مِنَ السَّوْدَاءِ وَحِدَثَانِ النَّفْسِ بِأَشْيَاءٍ مُحَوِّفَةٍ .

وَذَكَرَ خَبَرَ الْبَنِينَ ؛ فَقَالَ : بِحَيْثُ شَهِدَ شَاهِدٌ ، يَكُونُ الْوَلَدُ ؛ وَشَهِدَ آخَرُ بَأَنَّ لَا وَلَدَ . وَدَلَّ عَلَى الْقِلَّةِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ كَوْنِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرْنَاهُ دَلِيلًا عَلَى قِلَّتِهِمْ ؛ وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي نِصْفِ الْعُمُرِ . فَظَهَرَ ذَلِكَ بِنَشَأَتِهِمُ الْآنَ .

١٠ وَذَكَرَ خَبَرَ الزَّهَادَةِ فِي الْحَرَامِ كُلِّهِ ؛ وَحَقَّ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِي يَتَهَيَّأُ فِي نَصْبَةِ الْمَوْلِدِ أَغْلَبُ عَلَى الطَّبَعِ ؛ ثُمَّ نَظَرَ فِي وَجْهِ التَّعَفُّفِ ، وَابْتَحَثَ عَلَى مَا أَوْجَبَ ذَلِكَ ، وَأَنَّ تِلْكَ الزَّهَادَةُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ مَعَ سَلَامَةِ الْمُعْتَقَدِ ؛ فَإِنَّ الزُّهْرَةَ ، إِذْ كَانَتْ فِي أَحَدِ بَيْوتِ زُحَلٍ ، ظَهَرَ عَلَى الْمَوْلُودِ قُبْحُ ذَلِكَ الشَّرِّهِ ؛ فَتَعَفَّفُ . وَقَالَ إِنَّ حِكْمَتَهُ فِي يَدَيْهِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي لِسَانِهِ .

وَرَأَى صَاحِبَ بَيْتِ الْعُرْسِ ، وَهُوَ عُطَارِدٌ ، فِي بَيْتِ زُحَلٍ ؛ فَدَلَّ عَلَى الْمَيْلِ إِلَى الصَّغَارِ ذَوِي الطَّبَائِعِ الْعُطَارِدِيَّةِ ، مَعَ مُنَافَرَةٍ لَا تُبِيحُهُ الشَّرِيعَةُ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ صَاحِبِ الْعُرْسِ وَصَاحِبِ الطَّالِعِ مُوَاصَلَةً وَلَا مُشَاكَلَةً .

٢٠ كُلُّ هَذَا قَدْ عَلِمْنَاهُ مِنْ أَنْفُسِنَا ، كَأَنَّهُ حَاضِرٌ مَعَنَا ، وَمُطَّلَعٌ

علينا . فلم نَشْكُ في صِحَّتِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، فَسُبْحَانَ مُصَرِّفِ الْأَيَّامِ وَمُجَرِّى الْأَفْلاكِ !

( اَلْفَلَكَ مَا اسْتَدَارَ مِنَ الْأَشْيَاءِ ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « كُلُّ شَيْءٍ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُون » <sup>(١)</sup> . وَسَمَّاها سَمَاءً ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ تَدْعُو كُلَّ مَا ارْتَقَعَ سَمَاءً ؛ فَهِيَ ، لَارْتِفَاعِهَا عَلَيْنَا ، سَمَاءٌ ؛ وَهَيِّنَمَتُهَا : فَلَكٌ ، لَا سَمَاءً . )

## ٨٧ - أراء المؤلف في التنجيم

وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ الْعَقْلِ مِنْهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا هِيَ دَلَائِلُ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَا يُعْلَمُ بِهَا الْجَلِيَّةُ ، كَالْفَيْثِ الْمَنْزَلِ دَلِيلٌ عَلَى نَبَاتِ الزَّرْعِ بِهِ ، أَوْ كَالنَّارِ الْمُشْتَعِلَةِ بِمَكَانٍ عُلِمَ أَنَّهَا مُحْرِقَةٌ . وَيَحْتَجُّونَ بِحَدِيثِ الزُّسُولِ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — فِي قَوْلِهِ : أَقْبَلْتُ بِحَرِيَّةٍ ، فَتَشَاءَمْتُ ، فَتَلَكَ عَيْنٌ غَدِيقَةً . وَمُعَانَاةُ الْحَكِيمِ الْمَاهِرِ دَلِيلٌ عَلَى بُرْئِهِ ، يَرْجَى لَهُ ذَلِكَ إِنْ أَخَّرَتْهُ الْمُدَّةُ . وَجِئْتُ بِطَبِيبٍ عَالِمٍ إِلَى أَحَدِ الْعُظَمَاءِ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ، فَلَمَّا شَكَا الْمَرِيضُ إِلَيْهِ ، قَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : « قَدْ بَرِيتَ بِحَوْلِ اللَّهِ ! » فَلَمَّا أَعْلَمَهُ التَّرْجُمَانُ بِقَوْلِهِ ، قَالَ الْعَلِيلُ : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ ! » ، فَأَجَابَهُ الْحَكِيمُ : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَدْ شَاءَ : لَمْ يَسْقُنِي إِلَيْكَ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ إِلَّا وَقَدْ قَضَى بِصِحَّتِكَ ! »

وَقَدْ أَغْلَى <sup>(٢)</sup> أَهْلُ الْهِنْدِ فِي هَذَا الْعِلْمِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ اتَّخَذَهُ شَرْعًا ، حَتَّى

( ١ ) سورة الأنبياء : ٣٣ = سورة يس : ٤٠ .

( ٢ ) أصل : « اغلوا » .

إن فيهم من لا يؤلّى مَمْلَكَتَهُمْ إِلَّا مَنْ شَاكَلَ طَالِعَهُ طَالِعَ الدَّوْلَةِ ؛  
 وهم يزعمون أَنَّ طَالِعَ الْمَلِكِ ، إن لم يكن وَتَدًّا من أَوْتَادِ الْمَمْلَكَةِ ،  
 أو كان منها ثَانِي عَشَرَ أو سَادِسًا ، وَأَمَكِنَةُ الْكَوَاكِبِ غَيْرُ مُتَّفَقَةٍ \* ٧٢ (١)  
 لذلك ، فَإِنَّهُ يَنْحَسِبُهَا ، ولو بلغ الْجُهْدُ من الْاِحْتِيَاظِ عَلَيْهَا : إِمَّا تَهْلِكُهَا ،  
 أو يُهْلِكُهَا ، ضَرُورَةً تَسَوِّفُهُ الْأَقْدَارُ إِلَيْهَا . فَكَانُوا يَتَخَيَّرُونَ الطَّوَالِعَ قَبْلَ  
 اخْتِيَارِ الْعُقُولِ وَالْمَذَاهِبِ ، يَرَوْنَ أَنَّ الْقَدَرَ أَغْلَبُ مِنَ الرَّأْيِ ، ويقولون :  
 « لَكَ سَعَادَةُ الدَّوْلَةِ وَمُسَاعَدَةُ الْأَقْدَارِ ! هَيَّأْتُ لَنَا هَذِهِ الْأَرْءَاءَ لَطُولِ  
 الْمُدَدِ . »

نَحْمُ إِتْمَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْعُمَرَ الطَّبِيعِيَّ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ عَامًا ، وَأَنَّ الْقَوَاطِعَ  
 الَّتِي تَكُونُ قَبْلَهُ إِنَّمَا هِيَ مِنْ أَحْدَاثٍ دَاخِلَةٍ عَلَى الْإِنْسَانِ ، عَرَضِيَّةٌ ،  
 إِمَّا مِنْ فُسَادِ الْمَزَاجِ ؛ فَتَخَوُّرُ الطَّبِيعَةِ ، إِذْ جَعَلُوا الْأَرْبَعَ طَبَائِعَ الَّتِي فِي  
 الْإِنْسَانِ قَوَامَهُ كَأَرْكَانِ الْبَيْتِ ، فَتَنَى فَسَدَتْ مِنْهَا طَبِيعَةٌ ، اعْتَلَّتْ  
 الْجِسْمُ ؛ وَإِنْ تَغَيَّرَتْ كُلُّهَا ، مَاتَ . وَجَعَلُوهَا مُشَاكَلَةً لِلْأَزْمِنَةِ : فَالْدَّمُ  
 رَبِيعِيٌّ ، وَالْبَلْغَمُ شَتَوِيٌّ ، وَالصَّفْرَاءُ صَيْفِيٌّ ، وَالسَّوْدَاءُ خَرِيفِيٌّ ؛ فَمَنْ  
 عَالَجَ كُلَّ زَمَانٍ مِنْهَا بِضَدِّهِ مِنَ الْأَغْذِيَةِ وَالْأَدْوِيَةِ ، فَقَدْ أَصَابَ . وَلَا  
 بَاقِيَ مَعَ اللَّهِ !

و[لَمَّا] احْتَجَّ عَلَيْهِمُ بِالَّذِي يَمُوتُ فَجْأَةً ، أَوْ فِي زَحْمَةٍ ، أَوْ بَارَقَ  
 سَبَبٍ ، وَهُوَ يَظْهَرُ صَحِيحَ الْجِسْمِ ، أَضَافُوا إِلَى الطَّبِّ مِنْ عِلْمِ النُّجُومِ ،  
 وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ أَنَّ لَا فَلَاسَفَةَ تَتِمُّ حَتَّى يَجْمَعُهَا ، وَأَنَّ لَا قَوَامَ لِأَحَدٍ الْعِلْمَيْنِ  
 ٢٠ دُونَ الْآخَرِ ؛ فَقَالُوا : إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الْهَيَالِيجِ السَّاقِطَةِ ؛ فَإِنَّ الْمَوْلُودَ ، إِذَا  
 كَانَتْ هَيَالِيجُهُ سَاهِرَةً ، صَحَّ ارْتِبَاطُ نَفْسِهِ بِجِسْمِهِ ؛ فَلَا تَخْرُجُ إِلَّا عَنْ

مَشَقَّةٌ مع تمامِ المَدَّةِ التي تدُلُّ عليها العَطِيَّةُ . وإن كانت هَيَالِجُهُ ساقِطَةً كُلَّهَا ، عرض للموت بَأَرَقِّ سببٍ . فإن لم يكن له هَيَالَجٌ ، سِيرَتِ المَطْلَعِيَّةُ وَعُدَّ لها أعوامٌ ؛ ويكون القَطْعُ عند تمامِها ، وقد يكون في تَحَاوِيلِ السَّنِينَ ؛ وإن تَمَّ العَطِيَّةُ عند انْتِهَاءِ صَاحِبِ حَدِّ الدَّرَجَةِ إلى موضعِ نَحْسٍ ، قَطْعٌ أو شبه القَطْعِ ، إن لم تُسَاعِدْهُ النجومُ السعيدةُ .  
وَسَمَوُهُ الجَانِ بِخَتَانٍ ، وهو دليلُ الحياةِ بإذنِ الله .

- ومَنهم من رأى ذلك قوَّةً لنفسه\* ، ورضيَ بما قسمَ له البارئُ — عزَّ ٧٢ (ب) وَجَلَّ — ؛ فلا ينقد على نفسه ، ويعيش طيبَ العيشِ ، يدرى أن لا قاطِعَ يقطع به في تلك المَدَّةِ ، وَيُشَجِّعُ لقولِ عَليٍّ — رضى الله عنه — لرجُلٍ قد أَسَنَّ : « آيَةُ شِجَاعَةٍ قد فَاتَتْكَ ! » يعنى : لو أَنَّكَ قَبْلَ اليومِ تدرى أَنَّ هذا يكون عُمُرُكَ لم تُبَالِ .
- وأَمَّا أَنَا ، فأقولُ إِنَّه تَأْنِيسٌ ما لم تقرب المَدَّةُ ، وزيادةً في أَلَمِ المَنِيَّةِ إذا اقْتَرَبَتْ . ولا يكون الطَّبُّ إِلَّا لِيُصَحَّ البَدَنُ مُدَّةَ الحياةِ لكرَاهِيَّةِ العيشِ في نكدٍ . وأَمَّا لِذِفْعِ أَجَلٍ ، فلا ينفع شئٌ .

## ٨٨ — آراء طِبِّيَّة في الأغذية والنبيد

١٥

قال بعض الحكماء : « الناس يعيشوا<sup>(١)</sup> ليأْكُلُوا ، وَنَحْنُ نَأْكُلُ لِنَعِيشَ ! » فتَأَمَّلْ مَعْنَاهُ .

وجمع أحدُ الملوك أطِبَاءَهُ ، فقال لهم : « أَعْلِمُونِي بالدواءِ الذي لا داءَ معه ! » فكلُّهم تكلم على الأدوية والمُعَاناةِ بِهَا ، غَيْرَ واحدٍ منهم كان

(١) كذا في الأصل .

أَكْبَرَهُمْ سَنًا ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِمْ أَنْ : « لَيْسَ عَنْ هَذَا سَأَلَكُمْ الْأَمِيرُ ! وَلَكِنَّهُ يُأْذَنُ لِي فِي الْكَلَامِ ؟ » قَالَ : « قَلِّ ! فَأَنْتُمْ مَعْدِنُ الْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ ! » فَقَالَ « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ! إِنَّ الدَّوَاءَ الَّذِي لَا دَاءَ مَعَهُ أَنْ تَكُونَ ، عِنْدَ أَخْذِكَ لِلْغَدَاءِ ، تَتْرُكُ مِنْهُ بِقَدَرٍ مَا تَتَمُّ بِهِ الشَّبْعَةُ ، وَلَوْ لُقْمَتَيْنِ ، وَلَا تَمَلَأُ ! فَذَاكَ دَوَاءٌ لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى طَيِّبٍ ! »

وَذَكَرَ هَذَا عَنِ الرَّشِيدِ ، إِنَّهُ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ قِصْعَةً بِطَعَامٍ ؛ فَلَمَّا أَكَلَ قَالَ : « هَذَا غَدَاءٌ وَدَوَاءٌ ! فَمَا زِيدَ عَلَيْهِ كَانَ دَاءً ! » وَعَلَى أَنَّهُ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَ .

وَقَالَ النَّبِيُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبُرُودَةُ ، وَأَصْلُ كُلِّ دَوَاءٍ الْحُمَّى ! » وَقِيلَ : « أَقْلِلْ طَعَامًا ، تَحْمَدَ مَنْامًا ! » وَقَالَتِ الْحُكَمَاةُ : « إِنَّ الْكَثْرَةَ وَالْقَلَّةَ عَدُوَّ الطَّبِيعَةِ . »

قَدْ نَرَى<sup>(١)</sup> فِي الْخَمْرِ مَا ، إِذَا اعْتَدَلَ مَزَاجُهُ مِنْهُ بِالْكَثِيرِ ، لَمْ يَجِبْ أَنْ يُقَالَ لَهُ : « قَلِّ ! » وَلَا مِنْ شَارِبٍ وَاقْفَهُ الْقَلِيلُ ، أَنْ يُقَالَ لَهُ : « ازْدَدْ ! » غَيْرَ أَنَّ الْعَاقِلَ يَرَى ذَلِكَ بِحُسْنِهِ ، وَيَعْلَمُ مَا لَمْ يُوَافِقِ طَبْعَهُ ؛ فَلَا يَزِيدُ عَلَيْهِ شَيْئًا .

وَسُئِلَ حَكِيمٌ عَنِ الْخَمْرِ ؛ فَأَعَابَهَا ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا أَخَذْتَ كَيْفَ يَنْبَغِي وَمَعَ مَنْ يَنْبَغِي ، فَلَا بَأْسَ بِهَا : تَفْرِحُ النَّفْسُ ، وَتَذْهَبُ بِالْهَمِّ ، وَتَشَجُّعٌ ، وَتَحْمَلُ عَلَى الْفَضَائِلِ . وَالتَّزْيِيدُ مِنْهَا شَرٌّ كَثِيرٌ ، \* كَمَا أَنَّ التَّقْلِيلَ مِنْهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ ! »

وشبهوا كثيرها في الأبدان مثل الترموس الذي إذا أُكثِرَ عليه بالماء و طال مَكثُهُ ، استحال وذهب نوره .

وقيل فيها :

سَأَلْتُ الشَّيْخَ بُقْرَاطًا وَبُقْرَاطٌ لَهُ عَقْلٌ  
فَقَضَلُ مَا لَهُ شَبَهُ وَطَبُّ مَا لَهُ مِثْلُ  
فَقُلْتُ : الْحَمْرُ تَعْجِبُنِي ! فَقَالَ : كَثِيرَهَا قَتْلُ !  
فَقُلْتُ : كَمْ تَقْدِرُ لِي ! فَقَالَ ، وَقَوْلُهُ فَضْلُ :  
وَجَدْتُ مِنْ طِبَائِعِ أَرْبَعَةٍ هِيَ الْأَصْلُ  
فَأَرْبَعَةٌ لِأَرْبَعَةٍ لِكُلِّ طَبِيعَةٍ رِطْلُ

٥

١٠ هذا ما قاله الناس . ولا خيرَ فيما لا تبيحه الشريعة . ولا بأسَ بعلمِ الشيء عند الحاجة إلى وضعه ؛ وبعضُ الشرِّ أهونُ من بعضه لمن ابتلى بها أن يأخذها على حقها .

وقالوا إنه ممَّا يؤلِّدُ فرحَ النفس الشربُ بآنية الذهب وشمُّ الزَّجَسِ ، كما أنَّ الشربَ بآنية القَزْدِيرِ وشمَّ البَنْفَسَجِ ممَّا يؤلِّدُ الحزنَ .

١٥ وقالوا إنَّها من أكبر أدوية السَّوداءِ في تلك الساعة ؛ وتعقَّبُ سَوْدَاءُ

أشَرَّ من الأولى إن أُكثِرَ منها . والعلةُ في ذلك أنه لا خيرَ فيها إلَّا مارقٌ منها ، وحالٌ عليها الحولُ ، وعطرت رائحته ، وهي حارَّةٌ يابسةٌ ، ثمَّ تستحيلُ إلى البردِ عن شربِ الماء للضرورة ، وتجدُ الرطبةَ منها ، كبديَّةِ اللَّوْنِ ، غليظةَ الرَّوْتَقِ ، مؤلِّدةً للدمِ والنَّوْمِ ؛ وهي الموافقةُ لزمانِ الشتاء . ولتتخذُ منها لكلِّ زمانٍ ما يوافقُ طبيعته ، ويخالفُ هواه .

٢٠ ورأوا أنَّ أخذها بعد الغداءِ بساعةٍ ، ليتنامَ الإنسانُ قبلها ويروى

من الماء أَنْجَعُ لَهُ وَأَنْفَعُ . وكذلك الْجَمَاعُ أَنْفَعُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ سَكُونِ  
الأعضاء وتودُّعِهَا بالنوم بعد الطعام ، في صبيحة تلك الليلة ، عند تملي  
الأعضاء ، واحتياجها إلى إخراج الفضول ، ونشاطها . ولا يكون ذلك عن  
\*تَكْلُفٍ ، حَتَّى تَمِيلَ الطَّبِيعَةُ إِلَيْهِ ، لَا سِيَّامَا إِنْ سَاعَدَتْهَا النَّفْسُ ؛ وَيُؤَافِقُ ٧٣ (ب)  
٥ ذلك الشَّخْصُ هَوَاهَا ، إِذِ النَّفْسُ وَالْجِسْمُ شَكْلَانِ مُرْتَبِطَانِ : مَتَى اعْتَلَّ  
أَحَدُهُمَا ، تَضَعُضَعُ الْآخَرُ ؛ وَمَتَى صَحَّأَ جَمِيعًا ، قَوِيَّتِ الْمَنَّةُ وَتَكَامَلَتِ  
الصَّحَّةُ . وَيَكُونُ ذَلِكَ أَسْرَعَ فِي الْبَاهِ ، كَمَا أَنَّ الْمَعِدَّةَ مَتَى اشْتَهَتْ  
شَيْئًا ، فَقَدْ ضَمِنَتْ هَضْمَهُ .

قال جَالِينُوسُ : « إِنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي يَشْتَهِي أَرْجَى مِنِّي لِلصَّحِيحِ  
١٠ الَّذِي لَا يَشْتَهِي ! » أَلَا تَرَى أَنَّ الطَّبِيبَ الْمَاهِرَ ، إِذَا عَانِيَ الْعَمَلِ ،  
وَقَاسَ بَيْنَ دَوَائِيْنِ يَكُونُ نَجْعُهُمَا وَاحِدًا ، قَصَدَ إِلَى الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ النَّفْسَ  
عَلَيْهِ أَقْبَلُ فِي حَالِ الصَّحَّةِ ؛ فَيَعْتَمِدُهُ . أَلَا تَرَى أَنَّ شَرَابَ السَّقَرِ جَلَّ  
وشَرَابَ السَّكَنْجَبِيْنِ فَعْلُهُمَا وَاحِدٌ ؛ غَيْرَ أَنَّ شَرَابَ السَّقَرِ جَلَّ أَلْيَقُ بِالنَّفْسِ ،  
وَهِيَ إِلَيْهِ أَشَوْقٌ ؛ فَيَرَى الْحَكِيمُ تَوَقَّاهُ إِلَيْهِ زَائِدًا عَلَى فِي الدَّوَاءِ ، وَيَنْجَحُ  
١٥ فِيهِ بِالشَّهْوَةِ .

وَلَمْ يَرَوْا لَشَرْبِ الْخَمْرِ عِنْدَ الْعَطَشِ شَيْئًا أَنْفَعَ مِنْ شَرْبِ الْمَاءِ ،  
لِلتَّوَقَّانِ وَإِطْفَاءِ الْحَرَارَةِ وَقَمْعِ الْأَبْخَرَةِ .

وَلَيْسَتْ تَعْمَلُ مِنَ الطَّعَامِ مَا خَفَّ ، وَلَوْ عَاوَدَهُ فِي النَّهَارِ مَرَّاتٍ ؛ فَهُوَ  
أَسْرَعُ لِهَضْمِهِ ، وَأَشْهَى لِمَعِدَّتِهِ ، وَأَخَفَّ عَلَى جَوَارِحِهِ . قَالَ بَعْضُ  
٢٠ الْحُكَمَاءِ : لِأَنَّ أَتَمْلَأُ شَرَابًا أَحَبُّ عَلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَمْلَأُ طَعَامًا ! فَإِنْ  
التَّخَمْتُ ، إِنْ تَعَقَّدْتُ ، قَتَلْتُ ؛ وَإِنْ تَحَمَّلْتُ ، أَسْقَمْتُ . « قَالَ بَعْضُ

الفلاسفة : « خففوا هذه الأنفس من أوقار الشهوات ، لتصعدَ إلى عالمِها الأكبر ؛ فتأتِكم بعجائب ما هُنالك ! »

- وقالوا في الشراب إنه يُسكِّى الهموم . وأنا أقولُ إنها تهَيِّجُ الهموم ، إنما هو ما نزل عليه : إن أَلَفْتَ سروراً ، حَرَّكَتْ منه ما سكن الإنسان عنه ؛ وإن أَلَفْتَ هُموماً ، ذَكَرْتَ بما هو فيه وأشدَّ منه ، وفتَقْتَ إلى طُرُقِ السوء . والهمُّ إنما يكون بما ينتظر الإنسان من سوء ؛ فذاك الذى لا يُسْلِيهِ عنه شيء ، ولا يَأْتِيهِ منه نَعاسٌ ؛ والغمُّ إنما يكون بما مَضَى ؛ فربما سَلَتْ الخمرُ عن بعض ذلك . ولا شيء يولِّد النوم مثل الغمِّ بتذكُّرِ ما خَلَفَ ، أو النَّظَرِ فى كتاب لا ينبغى منه تعلُّماً أَكْثَرَ\* من مطالعة (١) ٧٤
- ١٠ ما مَضَى .

ومن الجُهمالِ مَنْ يَعْقِدُ أن العشاءَ قريب المنام يُولِّد الرقادَ من أَجْلِ التَمَلُّىءِ ؛ وأنا أقولُ إنه يمنعه ؛ فإن الحرارة تصعد إلى الدماغ من الأُبْحِرَةِ وكلُّ حارٍّ مانِعٌ للنوم ، كما أنَّ البَرْدَ فى الدماغ مُولِّدُهُ . ألا تَرَى أنَّ الأدمغةَ الباردةَ كثيرةُ النزلات من الرطوبات ، وتولِّدُ النسيانَ ؟ والسريعُ الحفظُ قد يكون فى دماغه مَرَارَةً وَيُبُوسَةً ؟ وَقَلَّ ما تَرَاهُ يَنْزِلُ ، وإن كان ، فلا يدومُ ذلك به ؛ فإنها من فَضَلات الدماغ . وكذلك الجاحِظُ العَيْنَيْنِ يُعرض عن ذلك ، وَقَلَّما يَسْلَمُ من الأمراض والتعَرُّقِ . والغائرُ العَيْنِ عِنْدَهُمْ أَصَحُّ بَصَراً ، مع أنَّها من صفات الجَمالِ ، إذا قالوا : « هو الغائرُ العَيْنَيْنِ ، الأَسِيلُ الخَدَيْنِ ، المُشْرِفُ الحاجِبَيْنِ »

٢٠ كذلك قَوْلِي ، وإنه لا يَتِمُّ لأَحَدٍ جَمالٌ إن خَشَنَتْ أطرافُه وامْتَلَأَتْ خَدَّاهُ . وكانت العربُ تمدح فى الإنسان كِبَرَ رأسِه ، وتقول إنه علامة



السُّؤْدُودُ . وَيَمْدَحُ الْغُلَامَ الْأَبْلَهَ الْعَقُولُ .

وقيل : الجمال في اللسان ، ما كان ناطقاً بالصواب ، ولا خير في التهور والإكثار بما لا يحتاج . ووصف بعض الشعراء رجلاً فيما رثى به ؛ فقال :

لَقَدْ وَارَى الْمُقَابِرُ مِنْ شَرِيكِ كَثِيرٍ تَحَلَّمَ وَقَلِيلَ عَابِ  
صَمُوتًا فِي الْمَجَالِسِ غَيْرَ عَيٍّ جَدِيرًا حِينَ يَنْطِقُ بِالصَّوَابِ

## ٨٩ - رجع الكلام إلى التنجيم

ومما وصفناه من علم التنجيم ، احتججت يوماً ببعض المنجمين أنهم على غير شيء ؛ فقال : إن كنت تقمت بأننا نزعم أن الكواكب فاعلة أو يعلم أحد الغيب ، فمحال ذلك ، لا يدعيه أحد ، غير أننا نقول بأنها مُصَرِّقَةٌ . ألسنت تقول في الشمس إن الله خلقها ضياءً ؟ فكذلك أقول في النجم السعيد أو النحيس إن الله خلقه لذلك ؛ ثم لا يعلم كيفية هذه السعادة وصورتها غير الحملة ؛ والله أعلم بما يتهيأ منها .

« وليس منها شيء إلا موافق للشرائع إذ النصبه كلها مخلوقة من مدبر واحد ، لا إله غيره ؛ فمتى كان في العالم دولة أو ملة ، لم تدل النجوم على غيرها ، إذ الحكم من لدن الواحد \* . فأول ما نبئت لك به أنه (ب) ما من طالع القران ملة ومولد نبي إلا وقد شا كل ، واتفقت له من السعادة في الهيئة ما خرج به من القوة إلى الفعل .

« وأخرى . أليس تقول اليهود إنهم زحليون ؟ لاشك في ذلك !

٢٠ ألا ترى اتخاذهم السبت عيداً ؛ وهو زحل ، وأخلاقهم كلها مطابقة لما

يدلُّ عليه زُحَلٌ من البُخْلِ ، والقَذَارَةِ ، والخُبْثِ ، والمَكْرِ ، والخَدِيعَةِ ؟  
 ثُمَّ الرُّومُ من بَعْدِهِمْ شَمْسِيُّونَ ، لا امْتِرَاءَ في ذلك ! أَلَا تَرَى أَنَّ يَوْمَ  
 الْأَحَدِ جُعِلَ لَهُمْ عِيداً ، وهو يَوْمُ شَمْسِيٍّ ، وطبائعهم موافقةٌ للشمس ،  
 وَصُورُهُمْ فيها : الْبَيَاضُ وَالْحُمْرَةُ وَالشُّقْرَةُ ، وَالرَّهْبَانِيَّةُ فِي عِبَادِهِمْ لِعَقْمِ  
 ٥ الشمس ؟ ثُمَّ الْمَسْمُونُ : أَلَيْسَ هُمْ زُهْرِيَّينَ ؟ وَالزَّهْرَةُ دَالَّةٌ عَلَى الدِّينِ ،  
 وَالنِّظَافَةِ ، وَالْمُرُوءَةِ ، وَالضُّوءِ ، وَالظَّهْرِ مِنَ الْجَنَابَةِ ، وَإِبَاحَةِ النِّكَاحِ ، وَالْإِمَاءِ ،  
 وَالطَّيِّبِ وَالزَّيْنَةِ ؟ ثُمَّ أَمَرْنَا بِاتِّخَاذِ الْجُمُعَةِ عِيداً ، وهو يَوْمُ الزَّهْرَةِ !

« ثُمَّ انْظُرْ إِلَى بَرْجِ الْفَلَكَ . تَقُولُ إِنَّ السَّابِعَ بَيْتُ الْعُرْسِ .  
 وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمِلُ النَّاسُ النِّكَاحَ فِي شَهْرِ رَجَبٍ ، وهو السَّابِعُ مِنْ أَشْهُرِ  
 ١٠ الْعَامِ الْمُرَوِّخِ بِهِ ، الَّذِي أَوَّلُهُ الْمُحَرَّمُ ؛ وَالثَّامِنُ مِنَ الْبُرُوجِ بَيْتُ الْمَوْتِ  
 وَالْمَوَارِيثُ ، وَشَهْرُ شَعْبَانَ الثَّامِنُ مِنَ الْأَشْهُرِ الَّذِي تُنْسخُ فِيهِ الْأَجَالُ ؛  
 وَالتَّاسِعُ مِنَ الْبُرُوجِ بَيْتُ الدِّينِ وَالسَّقَرِ ، وَشَهْرُ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ ، تَاسِعُ  
 أَشْهُرِ الْعَامِ . وَجِبَ فِيهِ الصَّوْمُ وَمُحَافَظَةُ الشَّرْعِ ؛ وَالْعَاشِرُ بَيْتُ الْمَلِكِ  
 وَالسُّلْطَانِ . وَاتَّخِذَ الْعَاشِرُ مِنَ الْأَشْهُرِ عِيداً يَظْهَرُ فِيهِ بَهَاءُ الدِّينِ وَعِزُّهُ .

١٥ « وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ <sup>(١)</sup> . وَأَقْسَمَ  
 ﴿ بِالْخُنُوسِ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ﴾ <sup>(٢)</sup> وَهِيَ الْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ . وَيَزْعُمُونَ  
 أَنَّ زُحَلَ هُوَ النَّجْمُ الثَّاقِبُ . لِأَنَّهُ يَفْتَقُ بِضَوْئِهِ سَبْعَ سَمَوَاتٍ . وَأَنَّهُ أَكْثَرُ  
 مِنَ الْأَرْضِ سِتَّةً وَتِسْعِينَ مَرَّةً ؛ وَغَيْرُهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ قَدْ وَصَفُوا قِسْمَتَهَا  
 مِنَ الْعَظَمِ عَلَى الْأَرْضِ . غَيْرَ الْقَمَرِ وَعُطَارِدِ ، فَإِنَّهَا أَصْفَرُ مِنَ الْأَرْضِ . وَأَنَّ

(١) سورة البروج : ١ .

(٢) سورة التكويد : ١٥ - ١٦ .

الشمس أعظمُ من الدنيا مائة وثمانون ضعفاً . ولكلِّ كوكبٍ منها مدَّةٌ  
 \*يقطع فيها الفلك . ورُتْبَةُ هَيَّأَهَا لَهُ بَارِئُهُ — عَزَّ وَجَلَّ — ؛ وَإِنَّ الْعَالَمَ (١) ٧٥  
 السُّفْلَى مُتَعَلِّقٌ بِالْعُلْوَى . مُؤَثَّرٌ بِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ . «

ومنهم من قال : لأىِّ شىءٍ تُنَسَّبُ إلينا الرِّزْدَقَةُ ؟ ولم نُنْكِرِ الْخَالِقَ ؛  
 ٥ وَإِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي الْمَخْلُوقَاتِ ؛ فَيُوصَفُ كُلُّ مَخْلُوقٍ بِمَا يُدْرِكُهُ عِلْمُ الْإِنْسَانِ .  
 كَوَاصِفِ رَجُلٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ جَبَلٍ ! «

وَذَكَرَ عَنْ حَكِيمٍ أَنَّهُ رُئِيَ بِالْمُصْحَفِ عَنْ يَمِينِهِ . وَالْأَسْطُرْلَابِ عَنْ  
 شِمَالِهِ ؛ فَسُئِلَ مَا الَّذِي أَوْجَبَ جَمْعَهَا لَدَيْهِ ؛ فَقَالَ : « أَتَلَوْ فِي الْمُصْحَفِ  
 كَلَامَ اللَّهِ . وَأَعْتَبِرُ فِي الْأَسْطُرْلَابِ خَلْقَ اللَّهِ ؛ وَعِلْمَ الْهَيْئَةِ عِبَادَةً ! »  
 ١٠ وَإِنَّهُ لَمَّا نَصَّ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ ؛ كَانَ جَوَابِي عَنْهَا : « كُلُّ مَا تَقُولُ  
 يَشْبَهُ بِكَوْنٍ مِنْ مَوَاقِفَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ بِمَا احْتَجَجْتُمْ بِهِ ؛ غَيْرَ أَنَّكُمْ خَالَفْتُمْ  
 الْقُرْآنَ فِي قَوْلِكُمْ « يَكُونُ » وَ « لَا يَكُونُ » ؛ وَاللَّهُ يَقُولُ <sup>(١)</sup> ﴿ قُلْ  
 لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ . ﴾ فَقَالُوا : « لَسْنَا  
 نَقْطَعُ عَنِ الْأَمْرِ أَنَّهُ يَكُونُ ؛ وَلَا نَقُولُ إِلَّا أَنَّهُ يَدُلُّ . وَنَأْتِي بِحُجَّةٍ إِلَّا يَتِمُّ  
 ١٥ شَرْحُهَا . اللَّهُمَّ ! إِذْ قُلْنَا : هَذَا مَوْلِدٌ سَعِيدٌ ، هَلْ تَقْدِرُ عَلَى شَرْحِ تِلْكَ السَّعَادَةِ  
 وَالْكَائِنِ فِيهَا . وَمِنَّا مَنْ يَتَحَرَّى ، فَيَعْدِلُ وَلَا يَتَكَلَّمُ عَلَى شَيْءٍ . وَقَوْلُنَا هَذَا  
 كَقَوْلٍ مِنْ رَأْيِ سَحَابٍ ثَقَالاً ؛ فَيَقُولُ : « هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى الْمَاءِ الْكَثِيرِ » . هَلْ  
 قَائِلٌ ذَلِكَ مُلْحِدٌ ؟ ثُمَّ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ .

وَهَذَا أَيْضاً مِمَّا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ صَدَرَ الْكِتَابِ أَنَّ كُلَّ مُفْتَوْنٍ مُلَقَّنٌ  
 ٢٠ حُجَّتُهُ ؛ وَاللَّهُ يَقُولُ <sup>(٢)</sup> : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ؛ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ

عليه نورٌ لا يخفى ؛ تقول العرب : « الحقُّ أبلج ، والباطلُ لجَلج . » .  
قال المأمون : « لم أَغْبِطُ بأيَّامِ السرور مُذْ عَلِمْتُ التنجيم ، ولا استمرتُ  
الطعام مُذْ عَلِمْتُ الطَّبَّ ، ولا طابَ لى النوم مُذْ عَلِمْتُ عبارة الرؤيا ! »

## ٩٠ - مسائل فَلَكيَّة

٥ ويزعمون أَنَّ الليلَ ظِلُّ الأرض ، ولا ضياءَ غير الشمس ؛ فبإشراقِها  
على الأرض عند طلوعها ، كان النهار ؛ وبدخولها تحت الأرض ، رجع  
الظِّلُّ طالعاً ، فأظلمَ الليل .

وبعضُهم من قرأ أَنَّ الشمسَ تجرى ، لا مُسْتَقَرٌّ لها ، إذ يقولون إِنَّ  
الشمسَ لا تَسْتَقِرُّ\* بمكان ، إذ لا يصحُّ أَنْ يكون المكانُ إِلَّا أعظمَ من ٧٥ (ب)  
الذى تحِلُّ فيه ؛ ولا أعظمَ من الشمسِ إِلَّا الفلكُ ، والفلكُ دَوَّارٌ . ١٠

وقالوا فى الكسوفِ إِنَّ الكلامَ فيه ما يمكنُ إِلَّا بالوقوفِ على صورة  
الهيئة ، ولو لا ذلك ، لم يَجِدِ القول . وقد أثبت قوله بما ظهر من الكسوف  
الذى حَدَّ أَمْرُهُ وَقْتَ انْجِلَائِهِ وَمَبْلَغِ الْمُنْكَسَفِ مِنْهُ ؛ وإنَّ الشمسَ فى  
ذاتها لا يعرضها شئٌ غيرُ أَنَّ جرمَ القمرِ يحولُ بَيْنَها وَبَيْنَ الأرضِ متى  
قابلَها ؛ وكُسُوفُ القمرِ من مُقابَلَةِ الأرض . ١٥

وزعموا أَنَّ ضوءَ الكواكبِ والقمرِ من الشمسِ ، وَأَنَّها أَجْرامٌ شَفَّافَةٌ  
تَكْتَسِي النورَ من النِّيرِ الأعظمِ ؛ فيبدو ضوءُها بغيِّها ، ويطمس عليها  
طلوعها . وهو قول الشاعر فى ذلك :

لِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَكَبُ

## ٩١ - تحديد العلوم الطبيعية والطب

وقال أهل الطبيعة : إِنَّ لا حَيَوَانَ إِلَّا بالحرارة والرطوبة ، فَأَيْنَ ما كان الماء والشمس تولد فيه الحَيَوَانَ ، وقد يكون من غير نسل . ونرى حَيَوَانًا يكون في جوف صَخْرَةٍ صَمَاءَ مُلَمَّمَةٍ ؛ والله يخلق ما يشاء . قال تعالى (١) : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وَذَكَرَ عن الحَجَّاج أَنَّهُ رَأَى في المنام على حالةٍ حسنةٍ ؛ فُسِّئِلَ عن ذلك ، على ما كان من جوره ؛ فقال : « رَحِمَنِي رَبِّي بِكَلِمَةٍ قُلْتُهَا : مَرَرْتُ يَوْمًا على زَرْعٍ ؛ قُلْتُ : لو شاء الله ، لَأَنْبَتَهُ في النار واليَفَاع ! » (أى في الصحارى التى لا ماء فيها) وقال تعالى (٢) : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . ١٠

ولم يبلغ الإنسان بعلمه أكثر من معرفة الطبيعة : علاجٌ ضعيفٌ لا يرفع قدرًا أكثر من تقويم المزاج عند انحرافه ؛ فعالجوا الأبدان بما أدركته ، عقولهم ، وجربوه بأعمارهم ، وتركوه سلفًا في الأواخر . فكلُّ يُعَانِي على مقدار تَجَرُّبَتِهِ .... (٣) ولا يوافقُ القراءةَ حظًا حسنًا ومعرفةً بهذا الشأن ، فقد أخطأ وتكلف . \* وقالوا إِنَّ الدَّوَاءَ المُسَهِّلَ للجسم بمنزلة الصابون للشوب : (١) ٧٦ (١) يُنْقِيهِ ويحلِّقه ؛ فاستعماله في زمان الخريف أولى في سلطان السَّوداء فيه ، كما أَنَّ استعمالَ الفَصْدِ في زمان الربيع تخفيفٌ لا يحظى من أخرج فيه الدم . وَإِنَّ أَشْبَهَ شَيْءٍ الأغذية بمزاج الإنسان : فالخُبْزُ النَّقِيُّ واللحم النَّقِيُّ والشراب

(١) سورة الواقعة : ٦٠ - ٦١ . (٢) سورة النحل : ٨ .

(٣) بياض نحر كلمة في الأصل .

الْحَوَلِيَّ ؛ فَمَنْ اقتصَر على هذه دون تخلُّط لم يزل صحيحَ الجسم ، قوَى البِنْيَةِ .  
 وقيل لجالينوس الحكيم ، وكان في زمان المسيح — عليه السلام — :  
 « إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ نَبِيًّا يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ! » فقال : « وأنا  
 أعالِجُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ! » فلَمَّا قيل : « يُخَيِّ الْمَوْتَى » لم يُصَدِّقْ  
 ذلك حتى رآه مُعَايَنَةً حَقًّا .

## ٩٢ - نقض قول من ينكر أن الجنّ تتكلّم

وَتُنْكِرُ الْحُكَمَاءُ مَا يَزْعُمُ النَّاسُ مِنْ رُؤْيَا الْجِنِّ ، وَتُكَذِّبُ مَنْ يَقُولُ  
 بِسَمَاعِ نُطْقِهِمْ أَوْ كَلَامِهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَشَرِ ، وَتَقُولُ إِنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا مَنْ لَهُ  
 لِسَانٌ وَآلَةٌ تُعِينُهُ ، وَإِلَّا ، فَكَيْفَ تَنْطِقُ رِيحٌ تَهْبُ ؟ إِنَّمَا هُوَ بِرِسَامٍ  
 ١٠ يعرض في دماغ مَنْ يَدَّعِي ذَلِكَ ؛ فَيَتَصَوَّرُ فِي دِمَاغِهِ أَمْرٌ مَا يَخَيَّلُ لَهُ بفساده  
 أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ وَيَسْمَعُ ، مَا لَيْسَ مِنْهُ شَيْءٌ عَلَى حَقِيقَةٍ ؛ فَيَهْدِي هَذَا نَا ، ضَرْبًا  
 مِنَ الرُّوحَانِيَةِ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ ، مُفَكَّرًا فِي بِلَدَةٍ أَوْ شَخْصٍ أَوْ صُورَةٍ  
 مِنَ الصُّوَرِ : إِذَا حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِهَا ، صَارَ كَالنَّاظِرِ إِلَيْهَا ، وَإِنْ سَدَّ عَيْنَيْهِ ،  
 أَوْ كَالنَّائِمِ يَرَى مَا تُحَدِّثُهُ بِهِ نَفْسُهُ ، أَوْ كَالنَّاظِرِ فِي الْمِرْآةِ يَرَى مَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ .  
 ١٥ هذا ، لِعَمْرِى مَذْهَبٌ خُولِفَ بِهِ طَرِيقُ السُّنَّةِ . وَاللَّهُ يَقُولُ <sup>(١)</sup> : ﴿ قَالَ  
 عَفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ وَقَوْلُهُ <sup>(٢)</sup> : ﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ؛  
 وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ النَّطْقُ إِلَّا بِلِسَانٍ ، وَلَا الْمَرْوِيَّةُ إِلَّا بِبَصَرٍ  
 لَيْسَ عَلَى خَلْفَةِ الْإِنْسِ ، كُلُّ عَلَى جَبَلَةٍ ، يَرَى وَيَسْمَعُ وَيَعْقِلُ .  
 وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ تَدِنْ ، وَلَا سَبَّحَتْ ، وَلَا اهْتَدَتْ لِمَا يُسَّرُّ لَهُ .

إِنَّ الطَّيْرَ الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا لَا تَعْقِلُ وَصَفَّاهَا اللَّهُ بِمَعْرِفَتِهِ ، فَقَالَ <sup>(١)</sup> : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ؛ وَقَالَ تَعَالَى <sup>(٢)</sup> : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ . وَوَصَفَ بِالسُّجُودِ النِّجْمَ وَالشَّجَرِ وَالنُّوَابِ <sup>(٣)</sup> (ب) الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا جَوَامِدُ . فَكَيْفَ أَحَدُ الثَّقَلَيْنِ الَّذِينَ بَشَّرَا بِالنُّوَابِ ، وَأَنْذَرَا بِالْعِقَابِ ، وَخُوطِبَا بِمَا خُوطِبَ بِهِ الْإِنْسُ . وَقَالَ تَعَالَى <sup>(٤)</sup> : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ .

فَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ وَيَعْقِلُونَ ، فَلَا يُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ ، وَيَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ هَذَا نِسْقًا فِي كُلِّ مَنْ لَيْسَ لَهُ لِسَانٌ وَجَوَارِحُ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِجَوَارِحِ الْإِنْسَانِ ؛ فَالْمَلَائِكَةُ لَا تَوْصَفُ بِيَدٍ وَلَا لِسَانٍ ؛ وَهُمْ الْمَنْزَلُونَ بِالْوَحْيِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُخَاطَبُونَ لَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ : فَلَا يُؤْمِنُ بِالرِّسَالَةِ مَنْ يَتَمَذَّهَبُ بِهَذَا .

### ٩٣ - حديث عن المسرّة وعن هموم الهوى والشباب

وَقَالُوا إِنَّ الْجَمَاعَ مِنْ أَكْبَرِ أَدْوِيَةِ السَّوْدَاءِ لِسُرُورِ تِلْكَ السَّاعَةِ ؛ وَدُخُولِ الْحَمَامِ ، لَمَّا يَعْزُضُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْإِنْطِرَابِ فِيهِ . مَنْ سَرَّهُ أَنْ تَقَرَّ عَيْنُهُ حَيَاتِهِ ، فَلْيَتَمَتَّعْ مَا وَجَدَ سَهْلَةً شَهْوَتِهِ ؛ وَمَنْ اغْتَنَمَ سَاعَةَ لَدَنِهِ ؛ فَقَدْ عَنِمَ ؛ وَمَنْ أَخَّرَهَا ، فَقَدْ عَدِمَ ! فَإِنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ الْآنِ !

وَقَالُوا فِي الْجُلُوسِ عَلَى الْمِيَاهِ وَالزِّيَاحِينَ مِمَّا يُسْلِي الْعَاشِقَ وَيَتَدَاوَى مِنْ أَحْزَانِهِ بِهِ . وَأَمَّا أَنَا ، فَأَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي تَذْكَارِهِ ؛ وَتَقِيمُ الْبُرْهَانَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ لَا تَوَلَعُ إِلَّا بِمَا اسْتَحْسَنَتْ ؛ فَكُلُّ مُسْتَحْسِنٍ تَرَاهُ

(١) سورة النور : ٤١ . (٢) سورة الإسراء : ٤٤ . (٣) سورة الأنعام : ١٣٠ .

يُخْرِجُهَا إِلَى ذِكْرِ الْأُسْنَى فِي خَاطِرِهَا ، وَكُلُّ حَدِيثٍ إِنَّمَا يَسُوقُهُ إِلَيْهِ ؛  
وَكُلُّ مَا زِيدَ تَذْكَارًا زَادَ شَوْقًا ، فَأَعْقَبَهُ سَهْرًا وَقَلَقًا . وَالشَّيْءُ لَا يُعَانَى  
إِلَّا بِضَدِّهِ : فَكَيْفَ يَشْفَعُ بِحُسْنٍ وَيُسَلِّيهُ حُسْنٌ ؟ بَلْ يُوقِظُهُ وَيَشْغَلُهُ !  
أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَكْرُوبَ يَتَفَرَّجُ بِالسُّرُورِ ، وَالسُّرُورَ ، يَضْمَحِلُّ بِالسَّكْدَرِ ؟  
وَلَيْسَ لِعَاشِقٍ مُرَزِّإٌ بِمَالٍ وَلَا أَهْلٌ ، فَيَتَسَلَّى بِمَا يُذْهِبُ غُومَهُ ؛ بَلْ  
هُوَ مِنْ شَأْنِهِ فِي لَذَّةٍ حَلَاوَتُهَا مَشُوبَةٌ بِحَرَارَةٍ : وَهُوَ حُكْمُ الْحُلُوكِ كُلِّهِ فِي  
الْمُدَاقَعَةِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا مَائِلًا إِلَى الْحَرَارَةِ ؟ وَكَذَلِكَ فِي الْمُشْتَهَاتِ : كُلُّ  
مَا تَمَّتْ حَرَارَتُهُ ، طَابَ رِيحُهُ .

- وإذا قاس حالَ أَرْزَمَتِهِ التي كانت تَسُرُّهُ على ضروب من حالات  
الصبوة ، لم يَحِدْ فِيهَا مَدَّةٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَفْضَلَ ، وَأَبْلَغَ فِي السُّرُورِ ، وَأَهْشَّ  
لِلنَّفْسِ وَالْأَلِيقِ\* بِالْحِسِّ وَأَذْكَى لِلْقَلْبِ ، وَأَصْفَى مَشْرَبًا ، وَأَهْنَأَ طَعْمًا ، مِنْ (١) ٧٧  
تِلْكَ الْمُدَّةِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا بَعْضُ جَوِّى ؛ فَإِنَّهُ « لَا بُدَّ بَعْدَ الشُّهْدِ  
مِنْ إِبْرَةِ النَّجْلِ » ، وَدَوَاؤُهُ ، مَا لَا يَرْضَاهُ ، وَلَا يَخْتَارُهُ بَدَلًا مِمَّا هُوَ  
فِيهِ ؛ إِنْ يَشْغَلُهُ مِنْ ذَلِكَ خَطْبٌ كَبِيرٌ ، يَنْسَى بِهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَالَّذِى  
هُوَ بِسَبِيلِهِ عِنْدَهُ أَوْلَى . ١٥

## ٩٤ - تأملات نظرية وأمثلة يضربها المؤلف

من قصّة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا

- وَالصَّبُوةُ تُحَدِّثُ لِلإِنْسَانِ هَيْجَانًا وَهُمُومًا : كَالْمُهَمِّمِ بِالنَّظَرِ فِي مَالِهِ ،  
أَوِ الْمُشْغَبِ بِمُحَاوَلَةٍ مَا يُصْلِحُهُ ؛ فَلَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ ضَارًّا ، بَلْ يُوَلِّمُ مِنْهُ  
مُكَابَدَةَ الْأَعْدَاءِ وَمَقَاسَاةَ طَلَبِ الْعَيْشِ ، الَّذِى ، إِنْ فُتِرَ عَنْهُ شَيْءٌ ، لَا طَلَبَ ٢٠



الزيادة في الرزق . فإن ذلك يَسْعَى كالبَطْرِ الذي هو بالخيار في الكد والراحة .

والنفسُ تَوَاقَّةٌ : متى سَمِعَتْ إلى مَرْتَبَةٍ ، تَأَقَّتْ إلى ما فوقها ؛ فالعَاقِلُ يرى أنَّ كُلَّ كَيْدٍ وَطَلَبٍ دون السَّعْيِ في طَلَبٍ ما لا بُدَّ منه من قِوامِ العيش فَخْرٌ وَأَشْرٌ وَرَغْبَةٌ وَحِرْصٌ . ولذلك هو الإنسانُ عن كُلِّ شَيْءٍ مَسْئُولٌ ، إِلَّا عن ثلاثة : طعامٌ يَسُدُّ جَوْعَهُ ، وثوبٌ يستر عورته ؛ وَبَيْتٌ يَكُنُّهُ من الشمس . ولو أنَّ له الدُّنْيَا أَجْمَعُ ، لم يكن له منها زائداً إِلَّا حَظُّ العَيْنِ الذي يَسْتَوِي به فيه مع غَيْرِهِ من الناظرين ، فلم من تعابه ، وتورَّط هو في حِسَابِهِ وَأَوْزَارِهِ ، وما كان إلى انقِطَاعٍ ونفادٍ . فحقيقٌ على اللبيب أن يزهد فيه ؛ لو آلَتْ حالُهُ إلى السلامة بعد ذهابه ، لا عَلَيْهِ ولا لَهُ ؛ فَكَيْفَ ، وهو قد أَيْقَنَ بالفناء وَبَعَدَهُ الحِسابُ وَالْجَنَّةُ أو النَّارُ ؟ وقال المَسِيحُ -- عليه السلام -- : « الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ : فاعْبُرُوها ولا تَعْمُرُوها ! » على أَنَّهُ لا يُوجَدُ أَحَدٌ يزهد في حالٍ كُلِّ الزَّهَادَةِ ، حَتَّى يَبْلُغَ مِنْهُ أَمَلُهُ أو بَعْضُهُ ؛ فَإِنَّ الزَّهَادَةَ الطَّبِيعِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ فيما تَكْرَهُهُ النَّفْسُ ، ولا بُدَّ من مِيلِهَا إلى ما فيه أَذَى سُرُورٍ . والله يقول في الإنسان ، لِعِلْمِهِ بِهِ <sup>(١)</sup> : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ؛ فَكَأَنَّ الشَّيْءَ ، إِذَا أُدْرِكَ ، انصرفت عنه النَّفْسُ لِبُلُوغِ نَهْمَتِهَا ؛ ومتى تَمَنَّعَ عليها ، كانت به أَشَدَّ (ب) كَلَفًا .

ولقد بَلَوْتُ من نفسي بَعْضَ ذلك ، اذ الطَّبْعُ البَشَرِيُّ وَاحِدٌ ، لا يَكادُ يَخْتَلِفُ إِلَّا في الْأَقْلِ ؛ ولذلك أَمَرَ الإنسانُ أن يحبَّ لأبناء

جنسه ما يحبُّ لنفسه ، حَظًّا على العَدْل والإنصاف .

وأَجِدُنِي فِي كَثْرَةِ الْمَالِ ، بَعْدَ تَمَلُّكِي عَلَيْهِ مَعَ ذَهَابِهِ ، أَزْهَدَ مِنِّي فِيهِ قَبْلَ اكْتِسَابِهِ ، مَعَ شُفُوفِ الْحَالِ إِذْ ذَاكَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ الْآنَ .

وكذلك شَأْنِي كُلُّهُ فِي كُلِّ مَا أَذْرَكْتُهُ قَبْلُ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ؛ وَاكْتِسَابِ الذِّخَائِرِ ، وَالتَّائِقِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَرَاكِبِ وَالْمَبَانِي ، وَمَا شَاكَلَ مِنَ

الْأَحْوَالِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي نَشَأْنَا عَلَيْهَا ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ ذَلِكَ مَا تَتَمَنَّاهُ النَّفْسُ ، وَمَا لَا تَظُنُّهُ ، إِلَّا وَقَدْ بَلَغْنَا مِنْهُ الْغَايَةَ ، وَتَجَاوَزْنَا فِيهِ النِّهَايَةَ ؛ وَلَمْ يَكُنْ

عِنْدَ الْحَصُولِ عَلَيْهِ يَنْتَقِعُ وَيَذْهَبُ وَشَيْكَاً ، فَتَطُولُ عَلَيْهِ الْحَسْرَةُ ، وَيُعَدُّ مِنْ جَمَلَةِ الْأَحْلَامِ ! بَلْ ، تَمَادَى بَرَهَةً مِنْ عِشْرِينَ عَامًا ؛ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ

يَكَادُ أَنْ يُوَازِيَهُ ؛ إِذْ رُبِّينَا فِي حِجْرِهِ .

وَوَجَدْتُنِي ، بَعْدَ فَقْدِ هَذَا كُلِّهِ ، عَلَى الْوَلَدِ أَحْرَصَ مِنِّي عَلَى مَا سِوَاهُ مِنْ كُلِّ مَا وَصَفْنَا ، لِعُدْمِهِ ذَلِكَ الْوَقْتُ ؛ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « الْغَايَةُ الَّتِي

إِلَيْهَا يَسْعَى النَّاسُ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُمْ ، قَدْ أَذْرَكْنَاهَا ، وَشُهِرْنَا بِهَا فِي الْآفَاقِ ؛ وَلَا بُدَّ مِنْ فَقْدِهَا ، بَاكِراً كَانَ أَوْ مُؤَخَّراً ، بِحَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ !

فَنَحْسِبُ هَذِهِ الْعِشْرِينَ عَامًا هِيَ مِائَةُ عَامٍ ، إِذَا تَمَّتْ ؛ سَوَاءً ، وَكَأَنَّ لَمْ تَتَغَنَّ بِالْأَمْسِ ! وَنَحْنُ الْآنَ جُدْرَاهُ بِالنَّظَرِ فِيمَا تَبْتَغِيهِ . وَلِلَّهِ أَنْ يَقْضِيَ مَا شَاءَ ! »

وَقِيلَ لِرَجُلٍ حَرَّاثٍ : « هَلْ زَرَعْتُمْ ؟ » فَقَالَ : حَرَرْنَا . وَاللَّهُ

الزَّارِعُ ! » وَكَذَلِكَ ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ

الْمُزَارِعِينَ ؛ فَإِنَّهُمْ يَدْفَنُونَ فِي الْأَرْضِ أَقْوَاتَهُمْ وَيَطْلُبُونَ فَضْلَ اللَّهِ وَبَرَكَتَهُ .

## ٩٥ - يتحدث المؤلف عن أولاده

وكان تديرنا هذا إلهاماً لينفذ القدر ، بكون من نشأ لنا من الولد .  
لم يتبع وقته ، ولا كان في غير مكانه .

- ( و ذكر \* الفلاسفة أن الوحي يتجزأ على ثلاث : كلام وإلهام ، ٧٨ (١) )  
ومنام ؛ وهو قوله تعالى (١) : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ . وقيل في قوله (٢)  
— عز وجل — ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ إنما كان وحي  
إلهام . وكان النبي — عليه السلام — يقول في بعض أقسامه : « لا !  
ومقلب القلوب ! » فإنها بين يدي الرحمن يُقلبها كيف شاء لينفذ فيه  
أحكامه وتجري عليها أقداره . )

١٠ فما بقي لنا من الآمال غير مالٍ حلالٍ للمعاش ، يغني عن السؤال ،  
وعملٍ صالحٍ للمعاد ، يُنجي من العقاب ويوجب الثواب .

وقد كان سُقراط الحكيم يكره الوطأ مدة عمره ، يعتقد بذلك أنه  
مُهرمٌ للجسم ومُسرعٌ إلى الفناء ، فقد قيل إن فاعل ذلك مُقتبسٌ من  
حياته ؛ فمن شاء ، فليقل ، ومن شاء فليكثر ! ولهذا أرجح الجاحظ  
١٥ في « كتاب الحيوان » بأن الخصى إنما طال عمره من أنه لا يُجامع .

وأما أنا أقول إن تلك الساعة التي يستحيل فيها عن الإنسانية بقطعها  
إلى ..... (٣) أشد استغراباً ، وأذهب لجوهرية ، وأقطع لثروقه من  
أن لو جامع كل يوم في عمره عشر مرات ؛ لأن الجامع مُخرجٌ

(٢) سورة القصص : ٧ .

(١) سورة النحل : ٦٨ .

(٣) بياض كلمة في الأصل ؛ ولعله : « الحيوانية » .

للفضول ، وهذا خُرِّجَ منه الجَوْهَرُ ، وفُرِّغَتْ عروقه ، ولِينَتْ لحمه ، وأُضِعِفَتْ عَصْبُهُ ، وأُرْخَتْ جِلْدَتُهُ .

ولمَّا كَبِرَ سِنَّ سُقْرَاطَ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الْكِبَرِ إِلَّا الْمَوْتُ ، جَامَعَ مَرَّةً مِنْ عُمْرِهِ ، آخِرَ زَمَانِهِ ، وَتَأَوَّلَ فِي ذَلِكَ إِنْتِمَاءً لِحِكْمَةِ الْبَارِئِ — عَزَّ وَجَلَّ — ؛ وَقَالَ : « لَمْ تَكُنْ حِكْمَةُ النَّسْلِ إِلَّا بِهَذَا الْفِعْلِ ؛ وَإِنْ أَنَا مُتُّ تَارِكًا لَهُ أَصْلًا ، كُنْتُ كَالسَّاحِطِ أَوِ الْمُعْنَتِ لِمَا رَبَّاهُ الرَّبُّ ، وَعَسَى بِذَلِكَ نَسْتَوْجِبُ عِقَابَهُ ! » ثُمَّ قَالَ ، إِذَا حَضَرَ الْمَوْتُ : « مَا أَظُنُّ عِيًّا عَلَيَّ إِلَّا مُجَامَعَةَ تِلْكَ السَّاعَةِ ! »

وكان من نعمة الله علىَّ إن رزقني بكَرٍّ أولادى ابنةً ، لم يزل قَبِيلُنَا كُلُّهُ يَتَبَرَّكُ بِهَا ، وَيَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ بَكْرُهُ ابْنًا ذَكَرًا . وقد رأينا في سَيِّفِ الدَّوْلَةِ أَيْنَا — رَحِمَهُ اللَّهُ — أَنْ لَمْ تَتَمَّ لَهُ فَرَحَتُهُ بِذَلِكَ ؛ عَلَى أَنَّ هَذَا\* لَيْسَ (ب) عَلَى الْعُمُومِ ؛ وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهُ لِلتَّفَاوُلِ ، إِذْ قَالَ نَبِيُّنَا — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « تَفَاءَلُوا وَلَا تَطَيَّرُوا ! » فَنَحْنُ قَدْ تَفَاءَلْنَا ، لَا سِيَّمَا بِمَا شَهِرَ عِنْدَ أَهْلَانَا وَقَالُوهُ قَدِيمًا ؛ وَلَوْ كَانَ ضِدَّهُ ، مَا ذَكَرْنَاهُ ، لِلنَّهْيِ عَنْهُ .

ثُمَّ رَزَقْنَا بَعْدَ هَذَا ابْنَيْنِ ؛ فَلَمْ تُبَشِّرْ بِالْاِثْنَيْنِ ، كَتَّى لَا يَجْتَمِعَ عَلَيْنَا حَزَنُ ذَلِكَ مَعَ مَا نَحْنُ فِي سَبِيلِهِ ، لُطْفًا مِنَ الْوَهَّابِ وَإِنْعَامًا وَإِحْسَانًا . فَتَعَدَّادُ نِعَمِ اللَّهِ شُكْرُهَا ، وَالْإِعْلَانُ عَلَى وَجْهِ الشُّكْرِ وَالتَّقْوَى ، لَا عَلَى الْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ ، مِنْ أَوْجَبِ مَا يَأْخُذُ بِهِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ . قَالَ النَّبِيُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، وَلَا فَخْرُ ؛ وَأَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ ، وَلَا فَخْرُ ! »

## ٩٦ - توجه المؤلف الحديث إلى قرآئه ، راضين عنه أو ساخطين عليه

ثمَّ انصرف وَجْهُ اهْتِبَالِنَا إِلَى وَضْعِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَهُوَ أَعْمَرِي بِمَنْزِلَةِ  
الابْنِ الَّذِي يُبْقَى ذِكْرُ أَبِيهِ فِي الْعَالَمِ ، لُنُبَيِّنَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِنَا مَا أَشْكَلَ عَلَى  
الْجَاهِلِ مِنْ مَقَالَةٍ سَوَاءٍ [ فِي دَوَلَّةٍ ، ] زَعَمَ الْحَاسِدُونَ أَنَّ مِنْهَا كَانَ سَقُوطُنَا .  
وَلَنْ نَعْدَمَ مَعَ هَذَا بَرَكَّتْهَا لِمَا نَرْجُوهُ مِنْ ثَوَابِنَا ، وَحَسَنَاتِهِ لِبُعْدِنَا مِنْهَا  
وَنَزَاهَتِنَا عَنْهَا . وَإِنَّمَا وَضَعْنَا هَذَا الْكِتَابَ لِمَنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ مِنْ أَهْلِ  
الْفَضْلِ وَالْحَقِّ ، الْمُحِبِّينَ <sup>(١)</sup> لِلَّهِ فِينَا ، الْوَادِّينَ <sup>(٢)</sup> الْخَيْرَ لَنَا ؛ وَلَا يَزِيدُ  
الْبُغَاةُ إِلَّا طَغْيَانًا وَتَعْنِيَةً .

١٠ فتردُّ على أهل الإنصاف وذوى الألباب :

« إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْخَاطَبُونَ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ! فَعَلَيْكُمْ اعْتِمَادُنَا ، وَإِنَّا كَمْ  
خَاطَبُنَا ، وَلَكُمْ مَا تَكَلَّفْنَا ! فَلَا عَمَى بَكَمِ عَنْ الْمَعْرِفَةِ تَحِيدُكُمْ عَنِ الْمِنْهَاجِ ؛  
وَلَا شَنْآنَ لِرَرَةٍ سَلَفَتْ تُحَرِّفُكُمْ إِلَى نَفْثَاتِ الْحَاقِدِينَ ! وَاللَّهُ يَجْعَلُنَا فِي الْجَنَّةِ  
إِخْوَانًا ، كَمَا جَعَلَنَا عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا ! »

١٥ ونردُّ على من اعترضَ جهلاً أو حِقْداً :

« اخْسَأْ بِجَهْلِكَ ، وَمُتْ بِغَيْظِكَ ! فَلَيْسَتْ الْأَقْدَارُ جَارِيَةً عَلَى  
اخْتِيَارِكَ ، وَلَا أَنْتَ الْمُخَاطَبُ ! بَلْ تَأْخُذُ بِأَدَبِ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ — عَلَيْهِ  
السَّلَامُ — فِي قَوْلِهِ <sup>(٣)</sup> : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ

(٢) أصل : « الوادون » .

(١) أصل : « المحبون » .

(٣) سورة الأعراف : ١٩٩ .

الْجَاهِلِينَ ﴿ . وهل تنقم ، أيها الطاعين لنا ، أن ورثنا مُلْكًا عن آباء  
 كرام ، يَوْمٌ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ عُمْرِكَ كُلِّهِ ؟ إِذْ قَالَتْ \* الْعُلَمَاءُ إِنَّهُ مِنْ عَاشٍ (١) ٧٩  
 ذَا فَضْلٍ عَلَى نَفْسِهِ وَأَصْحَابِهِ ، فَهُوَ ، وَإِنْ قَصَرَ عُمْرُهُ ، طَوِيلُ الْعُمُرِ ،  
 مَعَ أَنَّهُ كَانَ فِي طَاعَةٍ لَمْ تُوصَفْ مُقَدِّمًا ، بِحَمْدِ اللَّهِ ، بِجَوْرِ وَلَا طُغْيَانٍ ،  
 وَلَا سَفَكُنَا دَمًا ، وَلَا غَضَبُنَا مَالًا . وَكَانَتْ مُدَّتُنَا فِيهِ نَحْوَ مِنْ عَشْرِينَ  
 عَامًا خَيْرًا مِنْ سِنِينَ ، إِذْ لَيْلَةُ الْقَدَرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ . وَتَمَامُ الْمَدَدِ  
 عَلَى قَدِيمِ الدَّهْرِ عَادَةٌ لَا تُسْتَعْرَبُ لَنَا خَاصَّةً . وَلَا بُدَّ مِنَ الْفِرَاقِ ! فَلِلَّهِ الْحَمْدُ  
 إِذْ لَمْ نَفْقِدْهَا بِفَقْدِ عَقُولِنَا وَلَا أَدْيَانِنَا ، وَلَا تَمَّتْ بِنْفَادِ أَعْمَارِنَا : فَيَوْمٌ مِنْ عُمْرِ  
 الْإِنْسَانِ يَذْكُرُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرٌ مِنْ تَمَامِ عَمَلِهِ ؛ وَمَيِّتَةٌ عَلَى بَلَاءٍ وَتَذْكَارِ  
 خَيْرٌ مِنْ مَيِّتَةٍ عَلَى فِتْنَةٍ غَفَلَةٍ .

٩٧ - يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه  
 من أخطاء حياته الخاصة .

ثُمَّ أَضْرَبْتُ عَنْ وَصْفِ كُلِّ جَمِيلٍ فَعَلْنَاهُ ، وَحَزَمَ اسْتَشْعَرْنَاهُ ،  
 وَخِدْمَةُ الدَّوْلَةِ تَكَلَّفْنَاهَا .

١٥ وَطَلَبْتُ بُنْيَاتِ الطَّرِيقِ ، وَتَتَبَعْتُ مَا لَا عَارَ فِيهِ عَلَى الْمَلِكِ . وَلَا نَقْصَانَ  
 فِي الْمَمْلَكَةِ ، مِنْ رَاحَةٍ تُخْتَلَسُ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الشَّغْلِ كِي تَعْقِبَ نَشَاطًا ،  
 وَعَمَّا دُفِعْنَا إِلَيْهِ تَسْلِيَةً . فَقَدْ قَالَتْ الْحُكَمَاءُ : « تَرَكُ اللَّذَاتِ يُعْقِبُ  
 الْبَرَكَةَ ، وَيُوَثِّرُ فِي الْجِلْدِ أَدْوَاءَ مُنْكَرَةٍ . وَقِيلَ : إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ  
 عَلَى الْبَقَاءِ مَقْدَرَةٌ ، فَلْيَتَمَتَّعْ ؛ فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ لِلنَّفْسِ .  
 فَهَجَّنَا بِلَفْظِكَ ، وَأَخْرَجْتَهَا مِنْ حِيزِ الْهَزْلِ إِلَى الْجَدِّ ، وَكُنْتُ كَجَارِ

سُبَّة : إِنْ رَأَى حَسَنَةً ، كَتَمَهَا ؛ وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً ، أَذَاعَهَا . فَطَفَفَتْ وَأَرْبَيْتَ إِنْ افْتَرَيْتَ ، وَمَا أَدَعَتْ هَذَا ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ أَكُنْ مَخْلُوعَ الْعَذَارِ ، وَلَا أَخْلَدْتُ إِلَى رَاحَةِ تَوْجِبِ الْغَفْلَةِ ، كَالَّذِي صَنَعَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِنَ الْمُلُوكِ ، وَتَعَفَّفْنَا عَنِ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْحُرْمِ !

٥ ولم يَبْقَ لَكَ مَا تَقُولُ : « إِنْ مَا كَانَ صَاحِبُ غَرْبَاةٍ حَرِيصًا عَلَى جَمْعِ الْمَالِ ، مُحِبًّا فِي الْحِسَانِ ، يُنَادِمُ الصَّبِيَّانِ ! » [ وَإِذَا ] لَمْ تُحْسِنِ الرُّوْيَةَ ، وَلَا ظَنَّنْتُهُ فِكْرًا .

- أَلَسْتُ تَعْلَمُ ، أَيُّهَا الْجَاهِلُ ، أَنَّ الْمَلِكَ لَا يَنْتَفِعُ مِنَ الْمَالِ إِلَّا بِمَا كَانَ أَوْقَارًا ؟ وَهَلْ اسْتَوْجِبَ الْمَلِكُ إِلَّا بِذَلِكَ ؟ وَكَيْفَ لَا يَحْرَصُ عَلَى صِيَانَةِ عِزِّهِ وَالْعُدَّةِ عَلَى عَدُوِّهِ ؟ مَا أَنْسَاكَ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّهُ مَنَعَ مِنْ حَقِّ أَوْ أُعْطِيَ ١٠ فِي غَيْرِ مَا يَجِبُ ؟ فَقُلْ مَتَى ضَاعَ مَعْقِلٌ ، أَوْ رَفُضَ \* جُنْدًا ، وَدَخَلَتْ ٧٩ (ب) دَاخِلَةٌ مِنَ التَّقْيِيرِ أَوْ الْمَنَعِ ؟ أَوْ مَتَى شَكَاهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ أَخَذَ مَالًا بِغَيْرِ حَقِّ ؟ لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَى تَزْوِيرِ ذَلِكَ ! فَالْأَغْلَبُ يَعْلَمُ صِحَّتَهُ . وَأَكْثَرُ مِنْ قَوْلِكَ مَتَى خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ شَاعِرٌ بِصِلَةٍ جَزَلَةٍ ، أَوْ مَتَى خَرَجَ [ مَادِحٌ ] ١٥ بِكِسْوَةٍ سَنِيَّةٍ : أَمْرٌ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى اعْتِذَارٍ ، إِذَا الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَذْبَارِ . وَأَمَّا مُنَادِمَةُ الصَّبِيَّانِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ اسْتِعْمَالِ شَيْءٍ مِنَ الْخَمْرِ ، الَّتِي قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْهَا ، فَمَا لِلْعُقَارِ وَالرِّيَّارِ ؟ لَيْسَ هَذَا بِمَجْلِسِ حُكْمٍ : فَيُتَخَيَّرُ لَهُ ذَوُو الْأَسْنَانِ ، وَلَا يُضَيِّعُ لِنَدِيرِ رَأْيٍ ، فَيُشَاوَرُ فِيهِ أَهْلُ الْعِلْمِ ، وَلَا مَيْدَانُ حَرْبٍ ، فَيُدْعَى إِلَيْهِ أَنْجَادُ الْفُرْسَانِ ! وَلِكُلِّ وَقْتٍ حِكْمٌ : ٢٠ مِنْ اسْتِعْمَالِ فِيهِ غَيْرِ شَاكِلَتِهِ ، فَقَدْ جَهَلَ . وَلَمْ نَكُنْ مَعَ هَذَا نَأْخُذُ مِنْهُمْ فِي جِدِّ ، وَلَا نُمَكِّنُهُمْ مِنْ أَمْرِ ، وَلَا نُنْهَضُهُمْ إِلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهِمْ ؟

والمُسْتَعْمَلُونَ لخدمَةِ الدولة مشهورُونَ ؛ مِمَّنْ لَهُ حِكْمَةٌ وَدَرَبَةٌ :  
والخديمُ لَا يَكُونُ نَدِيمًا : كَيْفَ تَصُولُ الْيَوْمَ عَلَى مَنْ أَطْلَعَ عَلَى عَوْرَاتِكَ  
البارحة ، إِذِ الشُّكْرُ عَوْرَةٌ ؟ أَمْ كَيْفَ تَأْمُرُ بِخِدْمَةِ الْجُنْدِيَّةِ وَالشَّدَقَةِ عَلَيْهِ  
فِي الْخُرُوجِ مَنْ تَعَاطَى مَعَكَ الْكَأْسَ ، وَكَثُرَ مَعَكَ الْمَزَاحُ وَالْعَرَبَدَةُ ؟ ثُمَّ  
تَطْلُبُهُ لخدمَتِكَ ، فَتَجِدُهُ عَشُولًا عَمَّا يَصْلَحُكَ مَشْغُولًا .

- وَبَغَيْرِ هَذَا كُلِّهِ ، فَإِنَّ الدُّوَلَ الْكِبَارَ لَمْ يَزَلْ فِيهَا الْعِلْمَانُ وَأَبْنَاءُ  
الصَّنَائِعِ صِغَارًا وَكِبَارًا ، عَبِيدًا وَأَحْرَارًا ، وَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ الرَّئِيسِ جَمَالٌ ،  
وَعَلَى خِدْمَتِهِ أَعْوَانٌ ؛ وَيتَصَرَّفُ الصَّغِيرُ السِّنِّ فِيمَا لَا يَنْبَغِي لِلْمُسِنِّ أَنْ  
يَتَوَلَّاهُ . وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ وَرُتَبَةٍ . وَهَلِ الْمُلْكُ وَالْمَالُ إِلَّا لِلتَّزْيِينِ وَالتَّجْمُلِ  
بِهِ ، وَاتِّخَاذِ الْحِسَانِ مِنْهُمْ تَلِيقُ بِهِمُ الْكِسْوَةُ السَّيِّئَةُ وَالْمَرَاكِبُ الْفَارِهَةُ ؟  
وَأَخُوكَ مِنْ وَاتَّائِكَ ، إِذْ يَتَعَبَّدُ بِمَالِكَ مِنْ شَتَّى يَتَعَبَّدُ [ خِدْمَتِكَ مِنْ ]  
حُرٍّ أَوْ مَمْلُوكٍ . وَإِنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ ، إِذَا لَمْ يَصْلُحْ لَهُ . . . . . إِنْ يَقُلْ  
هَذَا ، أَيْ عَمَلٍ وَلَيْسَ لَهُ عَلَى بَلَدَةٍ ، أَوْ صَرَّفْنَا إِلَيْهِ حُكْمَ رَعِيَّةٍ ؟ إِلَّا  
مَا وَصَفْنَاهُ ، لَا أَدْرِي غَيْرُهُ \* وَإِلَّا . . . . . فَتَكُونُ مُجْرِحًا ، وَلِإِشَارَتِكَ ٨٠ (١)  
عَاضِدًا ، أَوْ تَكُونُ قَاضِفًا مُسْتَوْجِبًا (١) !

جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَنِ الشَّرِّ مُعْرِضِينَ ، وَبَطَاعَتِهِ عَامِلِينَ ! إِنَّهُ أَكْرَمُ  
الْأَكْرَمِينَ ! لَا رَبَّ غَيْرَهُ ، وَلَا إِلَهَ حَقِّ حَاشَاهُ !



كل الكتاب . والحمد لله . وصلى الله على  
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

## الملحق الأول

مُنتَخَبَات عن « كتاب البيان المُغْرِب »<sup>(١)</sup>

لابن عِذَارِي المَرَّاكُشِيَّ

عن دولة الأمير عبد الله بن مُبلقين بن زيري

( ١ )

٥ وفي سنة ٤٦٥ ، كانت وفاة باديس بن حَبُوس على قول المُرَادِي .  
والأكثر على أن وفاته كانت ٤٦٩ ؛ هكذا ذكر ابن القَطَّان في « نَظْم  
الجَمَان » .

### ذكر يعة حفيد باديس بن حَبُوس

هو عبد الله بن مُبلقين الهالك بتدبير اليهودي المتقدم ذكره . وتسمّى  
١٠ بالمُظَفَّر بالله ، الناصر لدين الله . وكان غلاماً لم يبلغ الحلم ؛ فاتفق على  
مبايعته وزراه جدّه ووجوه صِنهاجة . وانفرد بأمره رجلٌ منهم يُعرف  
بِسِمَاجَة ؛ فاستقلّ بحاله ورياسته . وكان لباديس وَلَدٌ خلف من البنين ،  
وكان قد أعطاه في حياته مدينة جِيَّان ؛ فكان ينهمك في شرب من الخمر ،  
ويحدث أحداثاً قبيحة من القتل ؛ وكانت له كلبة سمّاها لُبُونَة ؛ فمن أحدث  
١٥ له حادثاً أو استوجب عقوبةً ، أمر به ، فرُمِيَ إلى الكلبة ، فأكلته .

( ١ ) عن مخطوط مكتبة جامع القرويين بفاس ( رقم ١٨٥٥ ) لم ينشر نصه إلى الآن .

فتفرَّق الناسُ عنه وكرهوه ، واتفَّقوا على تقديم عبد الله بن بُلْقَيْن المذكور .  
فقام بأمره سِمَاجَةُ خير قيام .

وطمع ابن عَبَّاد في رجوع تلك الجهة إليه لموت باديس ؛ فحشد من  
كان عنده ، واستكثر من الجند ، وقدم إلى إغَرَنَاطَة ؛ فبرز عليها وبنى  
٥ بقربها حِصْنًا على سِتَّة فراسخ منها ، وملأه بالرُّمَّة والرجَّالة ، وترك الخيل  
فيه مع قائده ، وأمرهم بالضرب على إغَرَنَاطَة وجهاتها . فكان ذلك .  
ثمَّ لم يزل سِمَاجَةُ يخدم الصَّبيَّ إلى أن بلغ مبلغ الرجال ؛ فأراد الانفراد  
بحاله ؛ فنفى عن نفسه سِمَاجَةَ ؛ فلحق بالمرِيَّة بمال كثير وحالة جسيمة ؛  
ولم يزل بها إلى أن هلك . وبقي عبد الله بن بُلْقَيْن بغرناطة . وسيأتي  
١٠ خبره في دولة المرَّابطين إن شاء الله تعالى .

## ( ٢ )

وفي سنة ٤٨٢ ، طرد عبدُ الله بن بُلْقَيْن من غرناطة مُقَاتِل بن عَطِيَّة  
الزَّيْنَانِيَّ ، وكان فارسَ الإسلام ، وهو مع إخوته في ثلاثمائة فارس . فكان  
ذلك ابتداء نحوس عبد الله بن بُلْقَيْن .  
١٥ وفيها ، قام مُوَمَّل ، مَوْلى باديس بن حَبُوس ، في قَصَبَة لَوْشَة ، على  
حفيد مولاه بدعوة كَمْتُونَة ؛ فأخذه عبدُ الله وسجنه .

.....

فأوَّل من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين صاحبُ إغَرَنَاطَة عبدُ الله  
ابن بُلْقَيْن ، كما ذَكَرْنَا ؛ فنظر في اختزان الأقوات ، وألحق الرُّمَّة  
٢٠ والرجال ، وأعلى الأبراج ، وبنى الأسوار ، ووصل بعضها ببعض ، وأقام

عليها الدِّيبَانَات ، ونصب الرِّعَادَات ، وملأ بيوت السلاح ، وجدَّ في ضرب السَّهَام ، وبذل في ذلك جهده ؛ وإذا نفدت هذه ، لم تغنِ العُدَّة ؛ ونقل المال والذخيرة ، وخرَّج المتاع والآنية إلى قَصَبَةِ الْمُنَكَّب لكونها في غاية المنعة وعلى ضفَّة البحر ؛ ولم يستأصل ذلك لكثرتِه ؛ وهدم حصوناً ، توهم عليه القيام منها ، ومن مأمَنه يوثق الحذر .

وعمد على مال كثير ، وثياب نفيسة ، ونُحْت جليلة ، وأعلاق رفيعة ؛ فوجه بها إلى الإذْفُونش ، وكتب إليه متطارحاً عليه ، مستجيراً به ، وأعلمه أنَّ البلد بلدُه ، وأنَّه فيه فائدة . فاهتزَّ لذلك إذْفُونشُ ، وقبل المال والهدايا ، وأقسم بجميع أيمانه ومعتقد ملته أن يشدَّ اليد عليه في ملكه ، ولا يتركه لضَمِّ ولا هزيمة ، وأن ينهض إليه بنفسه ويبدل جدَّه في نصره ؛ وراجعَه بمثل ذلك من قوله . فتقويت نفسُ حفيد باديس بذلك .

وفي ذلك يقول السَّمْسَارِيُّ :

صَاحِبُ غَرْنَاطَةِ سَفِيَّةٍ وَأَعْلَمُ النَّاسِ بِالْأُمُورِ  
صَانِعُ إِذْفُونَشٍ وَالنَّصَارَى فَأَنْظُرْ إِلَى رَأْيِهِ الدَّبِيرِ  
وَشَادَ بَنِيَانَهُ خِلَافاً لَطَاعَةِ اللَّهِ وَالْأَمِيرِ  
يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سَفَاهاً كَأَنَّهُ دَوْدَةُ الْحَرِيرِ  
دَعْوُهُ يَبْنِي فَسَوْفَ يَدْرِى إِذَا أَتَتْ قُدْرَةُ الْقَدِيرِ

وَاتَّصَلَتْ أَنْبَاؤُهُ بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَقِيقَتِهَا ؛ فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ ؛ وَاسْتَزَادَ

جزعه .

وكان أبو جعفر القُلَيْعِيُّ من أهل إغْرَنَاطَةِ فريد عصره في الخير والعلم والتلاوة ، والمُشَار إليه . . . . .

## الملحق الثاني

منتخبات عن « كتاب الإحاطة في تأريخ غرناطة »

للسان الدين ابن الخطيب السَّلمانيّ

( ١ )

ترجمة عبد الله بن بُلُقَيْن<sup>(١)</sup>

• عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس بن حَبُوس بن ما كَسَن بن زِيْرِي بن  
مَنَاد الصَّنْهَاجِيُّ أمير غرناطة .

أَوَّلَيْتُهُ : قد مرَّ ذلك في اسم جدِّه ما فيه كفاية<sup>(٢)</sup> .

حاله : لَقَبُهُ الْمُظَفَّرُ بِاللَّهِ ، الناصر لدين الله . ولى بعد جدِّه الحاجب

المظفَّرُ بِاللَّهِ في شوال سنة ٤٦٥ . وصحبه سِمَاجَةُ الصَّنْهَاجِيُّ تسع سنين .

١٠ ﴿ قال الغافِقِيُّ : ﴾ وكان قد حاز حظاً وافراً من البلاغة والمعرفة ،

شاعِراً جيِّدَ الشعر ، مطبوعه ، حسن الخط ؛ كانت بقرناطة ربعة مُصَحَّف

بخطه في نهاية الصنعة والإتقان .

﴿ ووصفه ابنُ الصَّيْرَفِيِّ : فقال : ﴾ كان جباناً ، مغمداً بالسيف ،

---

( ١ ) مخطوطة الاسكوريال ( رقم ١٦٧٣ ) ، ص ٢١٤ .

( ٢ ) راجع « مركز الإحاطة » ( ط القاهرة ) ج ١ ، ص ٢٣٨ : ترجمة الأمير باديس بن

حبوس الصَّنْهَاجِيُّ .

قلعاً ، لا يثبت على الظهر ، عزهاة ، لا أربَ له في النساء ، هيابة ،  
مفرط الجزع ، يخلد إلى الراحة ، ويستوزر الأغمار .

خلعه : ( قال : ) وفي عام ٤٨٣ ، تحرك أمير المسلمين يوسف بن  
تاشفين لخلع رؤساء الأندلس ؛ فأجاز البحر ويمم قرطبة . وتواترت الأنباء  
على حفيد باديس صاحب غرناطة بما يغيظه ويحقده ، حسبما تقدم<sup>(١)</sup> في  
اسم مؤمل مولى باديس . وقدم إلى غرناطة أربع محلات ؛ فنزلت بمقربة  
منها ، ولم تمتد يدٌ إلى شيء بوجهه ؛ فسرَّ الناس واستبشروا ، وأمنت  
البادية ، وتسايل أهل الحاضرة إلى القرى . وأسرع حفيد باديس في  
المال ، وألحق السوق والحاقة ، واستكثر من الليف ، وألح بالكتب  
على إذفونش بما يطعمه .

وتحقَّ يوسف بن تاشفين استشراف الحضرة إلى مقدمه ؛ فتحرك .  
وفي ليلة الأحد لثلاث عشرة خلت من رجب ، اجتمع إلى حفيد باديس  
صنائه ؛ فخوفوه من عاقبة التربص ، وحملوه على الخروج إليه . فركب ،  
وركبت أمه ، وخرجا ؛ وتركوا القصر على حاله ؛ ولقي أمير المسلمين على  
فرسخين من المدينة ، فترجل وسأله العفو ؛ فعفا عنه ووقف عليه ، وأمره  
بالركوب ؛ فركب وأقبل حتى نزل بالمشيخة<sup>(٢)</sup> من خارج الحضرة .  
واضطربت المحلات ، وأمر مؤملاً بثقاف القصر ، فتولَّى ذلك .  
وخرج الجُم من أهل المدينة ؛ فبايعوا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ؛

(١) راجع أسفله ، ص ٢١٢ .

(٢) اسم مكان من خارج غرناطة لم نعره عليه . وإنما ثبتناه عن النسخة الثانية الاسكوريالية من  
« الإحاطة » . وفي النسخة الأولى : « بالمشايخ » .

فقبلهم وأنسهم وسكن جانبهم ؛ فاطمأنوا . وسهل مؤمّلٌ إليه دخول الأعيان ؛ فأمر بكتّيب الصكوك ورفع أنواع القبالات والخراج ، إلّا زكاة العين وصدقة الماشية وعشر الزرع . واستقصى ما كان بالقصر ؛ فظهر على ما يحول الناظر ، ويروع الخاطر ، من الأعلاق والذخيرة والحلى ، ونفيس الجواهر ، وأحجار الياقوت ، وقصب الزمرّد ، وآنية الذهب والفضّة ، وأطباق البلّور الحكم ، والجُرْجانيّات ، والعراقيّات ، والثياب الرفيعة ، والأنماط ، والككل ، والستائر ، وأوطنة الديباج ، ممّا كان في ادّخار باديس واكتسابه . وأقبلت دوابُّ الظهر من المنسكب بأحمال السبيك والمسبوك . واختلفت أمُّ عبد الله لاستخراج ما أُودع بطن الأرض ، حتى لم يَبْقَ إلّا الخرنبي والثقل والسقط ، وزّع ذلك الأمير على قوّاده ، ولم يستأثر منه بشيء .

﴿ قال ﴾ : ورغب إليه مؤمّل في دخول القصر ؛ فركب إليه ، وكثُر استحسانه إيّاه ، وأمر بحفظه وتفقد أوضاعه وأمنيّته .

ونقلَ عبدُ الله إلى مرّاكش ، وسنه يومَ خلع خمسٍ وثلاثون سنة وسبعة أشهر ؛ فاستقرَّ بها هو وأخوه تميم ؛ وحلَّ اعتقاهُما ، ورُفِّهَ عنهما ؛ وأجروا الرُتَبَ والمُساهمةَ عليهما . وأحسن عبد الله أداء الطاعة ، مع لين الكلمة ؛ فقضيتْ مآربُه ، وأسعفتْ رغباته ، وخفَّ على الدولة ؛ فاستراح واستريح معه . ورزق الولد في الخمول ؛ فعاش له ابنان وبنتٌ جمع لهم المال ، فلما توفّي ترك لهم مالاً جمّاً .

مولده : وُلد عبد الله سنة ٤٤٧ .

## ( ٢ )

## ترجمة مقاتل بن عطيّة (١)

مُقاتِل بن عطيّة البرزاليّ ، يكنى أبا حَرْب . ﴿ قال فيه أبو القاسم الغافقي ﴾ : من أهل غرناطة ، ويُلقَّب بذي الوزارتين ؛ وتعرّف بالرُّيْثة لحرّة كانت في وجهه .

حاله : كان من الفرسان الشجعان ، لا يصطلي نباره ؛ وكان معه من قومه نحو من ثلاثمائة فارس من بني برزّال . ولأهـ الأمير عبدالله بن بُلقين ابن باديس مدينة اليُسّانة ، والتقى به ابن عبّاد وأخذ بمخنقتها . وكان عبدالله يحزره . وعندما تحقّق حركة اللمتونيّين إليه ، صرفه عن جهته ؛ فقلّ لذلك قاصرُه ، وأسرع ذهاب أمره :

شجاعته : ﴿ قال ﴾ : وحضر مُقاتل مع عبدالله بن بُلقين أمير غرناطة وقبعة النيبَل في صدر سنة ٤٧٨ ؛ فأبلى فيها بلاءً عظيماً ، وجرح وجهه وخرق درعُه بالطعن والضرب . وذكر من حضرها ونجا منها ، قال : كنتُ قد سقط الرمح من يدي ولم أشعر ، وحملت الترس ولم أعلم به ، وحملني الله إلى طريق منجاة ، فركبتها مرّةً أقعُ ومرّةً أقوم ؛ فأدركتُ فارساً على فرس أدهم ، ورمحه على عاتقه ، ودرقته على فخذيه ، ودرعُه مهتكةٌ بالطعن ، وبه جرحٌ في وجهه يشبّ دماً تحت مِغْفَره ، وهو مع ذلك ينهض على رسله ، فرجعتُ إلى نفسي ؛ فوجدتُ ثقلاً ؛ فتذكّرتُ الترس ؛ فأخرجتُ حمالته عن عاتقي



وَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي ؛ فَوَجِدْتُ خَفَّةً وَعُدْتُ إِلَى الْعَدُوِّ ؛ فَصَاحَ ذَلِكَ الْفَارِسُ : خُذِ  
 التَّرْسَ ! « قُلْتُ : « لَا حَاجَةَ لِي بِهِ ! » فَقَالَ : « خُذْهُ ! » فَتَرَكْتُهُ وَوَايْتُ  
 مُسْرِعًا ؛ فَهَمَزَ فَرَسُهُ وَوَضَعَ سِنَانَ رَحْمِهِ بَيْنَ كَتِفَيَّ وَقَالَ : « خُذِ التَّرْسَ ،  
 وَإِلَّا أَخْرَجْتُهُ بَيْنَ كَتِفَيْكَ فِي صَدْرِكَ ! » فَرَأَيْتُ الْمَوْتَ الَّذِي فَرَرْتُ مِنْهُ ،  
 وَرَجَعْتُ إِلَى التَّرْسِ ؛ فَأَخَذْتُهُ ، وَأَنَا أَدْعُو عَلَيْهِ ، وَأَسْرَعْتُ عَدُوًّا . فَقَالَ  
 لِي : « عَلَى مَا كُنْتُ فَلَئِنْ عَدَوْتُكَ ! » فَاسْتَعِذْتُ وَقُلْتُ : « مَا بَعَثَهُ اللَّهُ  
 إِلَّا لَهْلَاكِ ! » وَإِذَا قِطْعَةٌ مِنْ خَيْلِ الرُّومِ قَدْ بَصُرَتْ بِهِ ؛ فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ  
 يَسْرِعُ الْجَرَى فَيَسْلُمُ وَأُقْتَلَ ، فَلَمَّا ضَاقَ الطَّلَقُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَقْرَبِهِمْ مِنْهُ ، عَظَفَ  
 عَلَيْهِ كَالْعِقَابِ وَطَعَنَهُ وَوَطَرَهُ ، وَتَخَلَّصَ الرِّمَحُ مِنْهُ ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى آخِرِ ، فَطَعَنَهُ  
 وَمَالَ عَلَى الثَّالِثِ ، فَانْهَزَمَ مِنْهُ ، فَرَجَعَ إِلَيَّ ، وَقَدْ هَبَّتْ مِنْ فَعْلِهِ ، وَرَشَّاشُ  
 دَمِ الْجَرْحِ يَتَطَايَرُ مِنْ قِنَاعِ الْمَغْفَرِ لَشِدَّةِ نَفْسِهِ ، وَقَالَ لِي : « يَا فَاعِلُ ! يَا صَانِعُ !  
 أَتَلْقَى الرِّمَحَ ، وَمَعَكَ مُقَاتِلُ الرُّيَّةِ ؟ »

### ( ٣ )

#### ترجمة مؤمِّل<sup>(١)</sup>

مُؤَمِّلٌ ، مَوْلَى بَادِيسَ بْنِ حَبُوسَ .  
حَالُهُ وَمَحْنَتُهُ : ﴿ قَالَ ابْنُ الصَّيْرَمِيِّ ﴾ وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ بُلْقَيْنَ  
 حَفِيدَ بَادِيسَ ، وَاسْتَشَارَتَهُ فِي أَمْرِهِ لَمَّا بَلَغَهُ حَرَكَةُ يُوسُفَ بْنِ تَاشُفِينَ إِلَى  
 خَلْعِهِ : وَكَانَ فِي الْجُمْلَةِ مِنْ أَحْبَابِهِ رَجُلٌ مِنْ عِبِيدِ جَدِّهِ اسْمُهُ مُؤَمِّلٌ ، وَلَهُ  
 سَنٌ ، وَعِنْدَهُ دِهْلَاءٌ وَفُطْنَةٌ وَرَأْيٌ وَنَظَرٌ .

﴿ قال في موضع آخر ﴾ : ولم يكن في وزراء مملكته وأحبياء دولته أصيلُ الرأي جَزَلُ الكلمة إلا ابن أبي خَيْثَمَة من كتبتَه ، ومؤمِّل من عبيد جدّه ، وجعفر من فتيّانه .

﴿ رجع . قال ﴾ : فألطف له مؤمِّل في القول ، وأعلمه برفقٍ وحُسنِ أدبٍ أنَّ ذلك غير صواب . وأشار إليه بالخروج إلى أمير المسلمين ، إذا قَرُبَ ، والتطارُح عليه ؛ فإنّه لا يمكنه مدافعتَه ولا يطاق حربُه ، والاستخذاء له أحمد عاقبة وأيمنُ مغبّة . وتابعه على ذلك نظراؤه من أهل السنِّ والحنكة ، ودافع في صدر رأيه العالمة الأغمار ؛ فاستشاط غيظاً على مؤمِّل ومن نحا نحوّه ، وهمّ بهم . فخرجوا ، وقد سبل بهم فرقاً منه . فلما جنَّهم الليلُ ، فرّوا إلى كَوْشَة ، وبها من أبناء عبيد باديس فائدها ؛ فلكوها وثاروا فيها بدعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

وبادر مؤمِّل بخطاب يوسف المذكور ؛ وقد كان سفر إليه عن سلطانه ؛ فأعجبه عقلاً ونبلاً ؛ فاهتزَّ إليه ؛ وكان أقوى الأسباب على حركته . وبادر حفيد باديس لأمره ؛ فأشخص الجيش لنظر صهره ؛ فتغلَّب عليهم . وسيق مؤمِّل ومن كان معه شرّاً سوق في الحديد ، قد أركبوا على دوابِّ هجن ، وكُشفت رؤوسهم ؛ وأردف وراء كلِّ رجل من يصفعه . وتقدَّم الأمر في نصب الجذوع وإحضار الرماة . وتلطَّف جعفر في أمرهم وقال للأمير عبد الله : « إن قتلْتهم الآن ، أطفأتَ غضبك وأذهبتَ مالك ! فاستخرج المال ، وأنت من وراء الانتقام ! » فثَقَّفهم . وأطمعوا في أنفسهم ريثا شغله الهول . وأنفذ يوسف بن تاشفين في حلٍّ اعتقالهم ؛ فلم تسعهُ مخالفتَه . فأطلقهم . ولما ملك غرناطة على تفتية تلك الحال ، قدَّم مؤمِّلاً على

مُسْتَخْلَصَه ، وجعل بيده مفاتيح قصره ؛ فنال ما شاء من مال وحظوة ، واقتنى ما أراد من صامِتٍ وذخيرةٍ . ونُسبت إليه بغرناطة آثار ، منها السَّقَاية بِياب الفَخَّارِين ، والْحَوْرُ المعروفة بِحَوْرِ مُوَمَّلٍ . أدركتها ، وهي بحالها .

وفاته : ﴿ قَالَ ابْنُ الصَّيْرَفِيِّ ﴾ : وفي ربيع الأوَّل من هذا العام ، وهو عام ٤٩٢ ، توفَّى بغرناطة مُوَمَّلٌ ، مَوْلَى باديس بن حَبُوس ، عبدُ أمير المسلمين وجابى مُسْتَخْلَصَه . وكان له دهاء وصبرٌ ؛ ولم يكن بقارىء ولا كاتبٍ ؛ رَزَقَهُ اللهُ عند أمير المسلمين أَيَّامَ حياته منزلةً لطيفةً ودرجةً رفيعةً . ولما أشرف على المنيَّة ، أحضر ما كان عنده من مال المُسْتَخْلَصِ ، وأشهد الحاضرين على دفعه إلى من استوثقه على حمله ؛ ثُمَّ أBRأ جميعَ عُمَّالِهِ وَكُتَّابِهِ ، وَأَنفذ رجلاً من صناعته إلى أمير المسلمين بِجُمْلَةٍ من مال نفسه ، يُريه أَنَّ ذلك جميع ما اكتسبه في دولته أَيَّامَ خدمته ، وَأَنَّ بيت المال أولى به ؛ ورغب في ستر أهله ووَلَدِهِ . فلما وصل ذلك إليه ، أظهر الأسف عليه ، وأمضى تقديم صنيعته .

ثُمَّ ذكر ما كشف البحث عنه من محتججه ، وشقاء مَنْ خَلَفَهُ بسببه ، وعدَدَ مَالاً وَذخيرةً .

## فهرس أسماء الرجال

٧١ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١٠٧ ، ١١٧ ،

١١٨ ، ١٣٠ ، ١٦٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،

٢١٠

باديس بن المنصور ( أمير إفريقية ) ٢٤

باديس بن واري ١٤٦

باطر ( بطر ) شولش ٦٩ ، ٧٤

ابن البراء ١٣٧

بزاف ( والى السوس ) ١٦٣

بقراط ١٨٥

ابن بكر ١٧٠

أبو بكر بن مسكن ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

١٥٧

بلبار الصنهاجي ٨٧

بلقين بن باديس سيف الدولة ( والد عبد الله

المؤلف ) ١٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،

١٩٩

بلقين بن حبوس ٣٣ ، ٣٥

بلقين بن زاوي بن زيري ٢٤

— ت —

ابن ياقنوت ٩٦ ، ٩٧

تميم بن بلقين بن باديس المعز ( أخو عبد الله

المؤلف ) ٤١ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٩٠ ،

٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٢ ،

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ،

١٦٢ ، ١٦٣

— ج —

الجاحظ ١٩٨

— ١ —

أبو إبراهيم اليهودي ( ابن نغالة ) ٣٠ ،

٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ .

ولد أبي إبراهيم اليهودي ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ،

٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٦ ،

٨٨ ، ١٣٣ ، ٢٠٥ .

ابن الأحسن السجلماسي ١٠٢ ، ١٧٢

ابن الأحمر ١٤٥

أبو الأحوص بن صادق ( صاحب المرية )

٤٤ ، ٤٥

أختا عبد الله المؤلف ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٤

الإذفونش ٢٠٧ ، ٢٠٩ . وانظر « ألفونش »

ابن أرقم ٥١ ، ٥٢

ابن الأصبحي ٩٧

ابن أضحي الكاتب ٦٣ ، ٦٠

إفلاطون ٨

أبرهانش ١٢٣ ، ١٢٤

ألفونش السادس ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ،

٨٤ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٢ ،

١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،

١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،

— ب —

باديس بن حبوس المظفر ( جد عبد الله ) ١١ ،

١٢ ، ١٣ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٨ ،

١٤٤ ، ١٧٣ ، ١٧٤  
الروى أو النصراني = ألفونش السادس  
الريه ( لقب مقاتل بن عطية البرزالي ) ٢١١ ،

٢١٢

ابن الريوله ٧٧ ، ٧٨

- ز -

زاوى بن زيرى ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ،

٢٤ ، ٢٥

زاوى الصنهاجى ٨٧

زهير ( صاحب المرية ) ٣٤ ، ٣٥

ابن الزيتونى القروى ١٥٨

- س -

سراج الدولة ٨١

ابن سعدون ١٤٩ ، ١٥٥

ابن السقاء ٤٥

سقراط ٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩

ابن سلمون ١١٧

سماجة الصنهاجى ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ،

٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

١٤١ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨

السمسارى ٢٠٧

ابن سهل ( القاضى ) ١١٥ ، ١١٨ ، ١٤٦

السيد لذريق ١٧٥

سير ( الأمير المرابطى ) ١١٠ ، ١٦٠ ،

١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤

سيف الدولة = بلقين بن باديس والد عبد الله

ابن سيق ١٣٢

- ش -

ششاند ٧٣

- ص -

الصحراوي ( أبو بكر حم يوسف بن تاشفين )

١٧١

جالينوس ١٨٦ ، ١٩٣

جعفر الحصى ١٥١ ، ٢١٣

ابن أبي جوش ٨٦

- ح -

حبوس بن ماكسن ( أمير غرناطة ) ١٧ ،

١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ،

٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٧

الحجاج ١٩٢

ابن الحديدي ٧٧

ابن الحسن النباهي ( قاضى مالقة ) ٦٤

الحكم المستنصر بالله ١٥

- خ -

ابن الخياط المنجم ٧٨

ابن أبي خيشمة ١٥٨ ، ٢١٣

- د -

داوود بن عائشة ١٠٣

- ذ -

ابن ذى النون ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٧ ،

٦٩ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨

- ر -

الراضى ( ابن المعتض بن عباد ) ١٠٣ ، ١٠٨ ،

١١٢ ، ١٧١

أبو الربيع بن الماطوني ٤٨ ، ١٣٠

أبو الربيع النصراني ٦٦ ، ٦٨

الرشيد ( هارون ) ١٨٤

الرشيد ( ابن المعتض بن عباد ) ٨١

ابن رشيق ٨٠ ، ٨١ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،

١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٢

- ق -

القادر ( حفيد ابن ذى النون ) ٧٧ ، ٨٠ ،  
١٥٣ ، ١٧٣ .  
ولد القاضي ( صاحب باغ ) ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ،  
١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،  
١١٦ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،  
١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ،  
١٧١ ، ١٧٣ ،  
ابن القطان ٢٠٥  
ابن القليعي أبو جعفر ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،  
١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ،  
١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٠٧

- ك -

كباب بن تميم ٧٥ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ،  
٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠

- ل -

ليبب الحصى ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،  
١٥١  
لذة الحاد ١٥٨  
ابن أبي لولا ١٣١

- م -

ابن ما شاء الله ١٤٧  
ماكسن بن ياديس بن حبوس ٤٠ ، ٤٨ ،  
٤٩ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ،  
٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٩٤ ،  
٢٠٥ ، ٢٠٦  
المأمون بن المعتد ١٧٠  
المتوكل بن الأفضس ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٦٥ ،  
١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،  
١٧٤ ، ١٧٦  
مجاهد ( صاحب دانية ) ٤٤ ، ٤٥

ابن صامح = أبو الأحوص والمعتصم صاحب  
المرية .

أبو الصمصام ١٧١

ابن الصيرفي ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٤

- ع -

عباد ( المعتضد بن عباد ) ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٨ ،  
٥٩

عباد بن المعتد ٧١

العباس بن المتوكل بن الأفضس ١٧٤

أبو العباس الحكيم ١٣٢

أبو العباس ( كاتب حبوس ) ٢٧ ، ٢٨ ،  
٣٠

ولد أبو العباس ٣٠ ، ٣١

ولد عباس ( كاتب زهير ) ٣٤ ، ٣٥

عبد الله بن القروي ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ،  
٤٠ ، ٤٢ ، ٥٩

عبد الملك ( القاضي ) ١٠٢

أم العلو ( بنت عم ماكسن ) ٦٧ ، ٦٨

علي بن أبي طالب ١٨٣

علي بن القروي ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،  
٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢

ابن عمار ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ،

٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،  
٩٦

عمر بن عبد العزيز ١١

- غ -

الغافق ( أبو القاسم ) ٢٠٨ ، ٢١١

- ف -

فرقان ٢٨ ، ٣٢

الفضل بن المتوكل بن الأفضس ١٧٤

٤٥ ، ٤٤  
المنصور بن المتوكل بن الأفطس ١٧٢ ،  
١٧٤ ، ١٧٣  
المؤمن بن هود ٧٨ ، ٧٩  
موسى ٨  
موفق (صاحب المدينة) ٣٧  
مؤمل ١١٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،  
١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ،  
١٥٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢  
٢١٤ ، ٢١٣  
ابن ميمون (أمين يهود اليسانة) ١٣٠ ، ١٣١  
١٣٢

— ن —

الناية ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،  
٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،  
٦٥ ، ٧٠ ، ١٣٣  
نعمان ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٨

— ه —

هشام المؤيد ١٥

— و —

واصل العلج ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨  
والدة المؤلف ٩٤ ، ٩٥ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،  
١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢١٠

— ي —

يحيى بن يفران ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ،  
يدير بن حياصة بن ماكسن ٢٧ ، ٢٨ ،  
٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤

ابن يعيش ٦٤

ابن يكون ١٤٥

يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ١٠٢ ، ١٠٣ ،

ولد مجاهد ٦٢ ، ٧٨  
مخلوف بن ملوك ٥٨  
المرادى ٢٠٥  
المرتضى ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٥  
ابن مرتين ٧١  
ابن المرة ١٣٠ ، ١٣٢  
المستعين بن هود ٧٨  
مسكن بن حبوس المغرالي ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ،  
٦١ ، ٦٢  
المظفر (جد عبد الله) = باديس بن حبوس ،  
المتعصم بن صادق (صاحب المرية) ٤٥ ،  
٤٦ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،  
٥٦ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ،  
١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٤٤ ، ١٦٤ ،  
١٦٥ ، ١٦٧  
المتعصم = عباد ،  
المتعمد بن عباد ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ،  
٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩١ ،  
٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ،  
١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،  
١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،  
١٣١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،  
١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩  
١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٠٦

معد بن يعلى ١٣٩  
المعز بن باديس (أمير إفريقية) ٢٤ ، ٢٥ ،  
٤٣

المعز = تميم بن بلقين بن باديس ،  
معز الدولة بن المتعصم بن صادق ١٦٧  
مقاتل بن عطية البرزالي ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،  
مقاتل بن يحيى ٤٧  
المقتدر بن هود ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،  
ابن ملحان ٧١

منذر بن هود ٧٩  
المنصور بن أبي عامر ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،  
المنصور بن أبي عامر (صاحب شرق الأندلس)

١٧٦ ، ١٧٤ ، ١٧٢ - ١٤٣ ، ١٣٨

٢١٣ ، ٢١٢ ، ٢١٠ ، ٢٠٩ ، ٢٠٦

٢١٤

١٤٧ ، ١٤١ ، ١٤٠ ، ١٣٨ يوسف بن حجاج

١٠٨ ، ١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٤

١١٤ ، ١١٣ ، ١١٢ ، ١١١ ، ١١٠

١٢٠ ، ١١٩ ، ١١٨ ، ١١٧ ، ١١٥

١٢٩ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٢٢ ، ١٢١



## فهرس أسماء الأمم والقبائل والعائلات

صنهاجة ١٨ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،	الإفريقيج ٤٤ ، ٤٥ ، ٨١
٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٢ ، ٥٤ ،	البربر ١٦ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٥ ،
٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ،	٦٤ ، ٩٣ ، ١٥٠
٨٥ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ٢٠٥ ،	بنو برزال ٦٢ ، ٦٣
بنو عباد ٤٧ ، ٧٩ ، ١٦٤	بنو تاقناوت ٩٧ ، ٩٨
بنو اللوارنكي ٧٧	تلكاتة ٢٤ ، ٥٧ ، ٨٧ ، ١٤٦
لمتونة ٢٠٦	بنو حمّود ٤٤
المرايطون ٤٥ ، ٨١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،	الروم أو النصارى ١٥ ، ١٦ ، ٧٠ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،	٧٣ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٩ ،
١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،	١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٢٨ ،
١٣٩ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ،	١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ،
١٦٨ ، ١٧٥	١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢١٢
المغاربة ٦٠ ، ٦١ ، ١١٩ ، ١٥٠ ،	زفانة ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
بنو مغيث ٧٧	١٣٧
اليهود ٣٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،	بنو زيري ١٢٨

## فهرس الأعلام الجغرافية

١٦٠ ، ١٥٢ ، ١٠٨ ، ١٠٤	أرجذونة ( Archidona ) ٩٥ ، ٩١
جطرون ( Jotró ) ٩٤ ، ٩٢	إسطبة ( Estepa ) ٧٥
جليقية ( Galice ) ٧٣	إشبيلية ( Séville ) ١٠٣ ، ١٠٢ ، ٧٥
جيان ( Jaén ) ١٩ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ،	١٧٥ ، ١٧٠ ، ١٦٨ ، ١٢٨ ، ١٠٥
٢٠٥ ، ٩٤ ، ٧٦ ، ٦٣ ، ٦١	أشتير ٩١
حمارش ٩٤	حصن آشر ( Iznajar ) ١٩
الحمرءاء ( Alhambra ) بفرناطة ١٣٠ ، ٥٤	إغرناطة = غرناطة
الحمة ( Alhama ) ٩١	آغات ١٧١
حور مؤمل ( بفرناطة ) ٢١٤	إلبيرة ( Elvira ) ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ،
دانية ( Denia ) ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٤٥	٢٢ ، ٢١
الرملة ( La Rambla ) بفرناطة ٣٢	أنقفرة ( Antequera ) ٩٥
رندة ( Ronda ) ١٧١	أيرش ٩٢
ريه ٩١	باب الفخارين ( بفرناطة ) ٢١٣
ريسة ٩٢ ، ٩٤	باب فتنالة ( بمالقة ) ٩٢
الزاوية ( La Zubia ) ٢٢	باغه ( Priego ) ٦٩ ، ٦٦ ، ٦٤ ، ٤٤
الزلاقة ( Sagradas ) ١٠٦ ، ١٠٥ ، ١٠٤	بسطة ( Baza ) ٧١ ، ٥٧
سبتة ( Ceuta ) ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٩ ،	بطليوس ( Badajoz ) ١٠٥ ، ١٠٤ ، ٤٠
١٦٠ ، ١٤٦ ، ١٤٥	١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٧٢ ، ١٧٣
سرقسطة ( Saragossa ) ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٢٢	١٧٤
السطح ( عمل ) ٢٢ ، ٣٢	بلنسية ( Valence ) ٧٧ ، ٧٨ ، ١٥٣ ،
السوس ١٦٣	١٧٣ ، ١٧٥
شاط ( Jete ) ٩٠	بليش ( Velillos ) ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،
شربة ١١٣	١٤٨ ، ٧٤
شرق الأندلس ٦٠ ، ٨٠ ، ١٢٢	بياسة ( Baeza ) ٦٣ ، ٦٢ ، ٩٦
شقورة ( Segura ) ٨٠ ، ٨١	تدلس ( Delys ) ١٦٨
شليز ( Sierra Nevada ) ٢٢	تدير ٧٩
شنت ألقج ٧٢	الجليل ( نظر ) ٢٢ ، ١١٣
شنت مرية ( Santa Maria ) ٨٠	جريشة ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٤
شنيلي ( Genil ) ٢٠	الحزائر ( Alger ) ١٦٨
شيلش ٧٢ ، ٧١	جزيرة الأندلس ١٠١ ، ١٠٧
صالحة ( Zalia ) ٩١	الجزيرة الخضراء ( Algeciras ) ١٠٢ ، ١٠٣

الصحراء ( Sahara ) ١٥٨

صحرة حبيب ٩٢

صحرة دوس ٩١

طربلش ٨٩

طليطلة ( Tolède ) ٧٣ ، ٦٥ ، ٦٢ ، ٥٦

١٠١ ، ٨٠

العدوة ( Maroc ) ١١٨ ، ١٨ ، ١٦

١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٣٩ ، ١١٩

الغربية ٩٤ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٨

غرناطة ( Grenade ) ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٢

٢٥ ، ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ٢١ ، ٢٠

٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠

٨٦ ، ٩٢ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١٢٠

١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٣٧

١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣

١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٨

١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩

٢١٣ ، ٢١٤

فحص غرناطة ٢٢ ، ٤٤ ، ٧٠ ، ١٥٢

فنيانة ( Fñana ) ٨٩ ، ٨٨ ، ٦٠ ، ٥٩

الفونت ( Alfunte ) ٣٤

قاشره ٧٦

قامرة ٩٤

قبريرة ٥٣

قبرة ( Cabra ) ٦٦ ، ٦٤ ، ٤٤

قرطبة ( Cordoue ) ٧١ ، ٤٥ ، ٤٣

٧٧ ، ٧٨ ، ١٣١ ، ١٤٦ ، ١٤٧

١٥٢ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢٠٩

قرطمة ( Cartama ) ٩٤

قرونة ( Carmona ) ١٧٠

القصر ( حصن ) ٩١

قلعة أسطير ( Alcala la Real ) ٧٥ ، ٧٠

قلعة حماد ١٦٧ ، ١٦٨

قوبلر ٣٢

القيروان ٢٤ ، ٢٥

لرقة ( Lorca ) ٤٤

لوشة ( Loja ) ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ،

١٥١ ، ٢٠٦ ، ٢١٣

ليبط ( Aledo ) ٨١ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،

١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٢

١٢٤ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٦٥ ، ١٧٣

مارتش ( Martos ) ٧٦

مالقة ( Malaga ) ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧

٥٧ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣

٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،

١١٣ ، ١١٥ ، ١٣٨

المدينة ٢١

مراكش ٢١٠ ( وانظر مروكش )

مرسية ( Murcie ) ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١

١٠٨ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥

١٤٦

مروكش ١٢٥ ، ١٧١

المرية ( Almeria ) ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٤ ،

٤٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠

١١٣ ، ١٢٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧

١٦٨ ، ٢٠٦

مرية بلش ( Velez Malaga ) ٩١

المشيحة ٢٠٩

المطمر ٧٦

مكناسة الزيتون ١١٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ،

١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧١

منت ماس ٩٢

المنتوري ٨٨ ، ٨٩

المنكب ( Almuñecars ) ٤٤ ، ٥٣ ،

٨٥ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،

١٥٩ ، ٢٠٧ ، ٢١٠

ميشش ( Mijas ) ٩٤

١١٣ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٥ ، ٦٤ ، ٥٩

١٢٣ ، ١١٤

اليسانة ( Lucena ) ، ١٣٠ ، ١٣١ ،

١٤٨ ، ١٤٥

النيل ( Nivar ) ، ١٢٩ ، ٢١١

نيمش ٩٦

الهند ، ١١٨

وادي آش ( Guadix ) ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ،

٤٤ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ،

## فهرس الفصول

صفحة

١	مقدمة الناشر
١	الفصل الأول : نظرات عامة للمؤلف
١	١ - القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها
٣	٢ - حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به
٦	٣ - قصور القياس دون عون من الوحي
١٠	٤ - ضرورة التعليم والتجربة
١١	٥ - التكوين السياسي للمؤلف
١٣	٦ - صعوبة الإنصاف التاريخي
١٤	٧ - المصادفة وأثرها في التاريخ . مثل المنصور
	الفصل الثاني : الأحداث المسهدة لقيام دولة بني زيري وأوليات هذه الدولة . أيام زاوي بن
١٦	زيري وجبوس بن ماكسن
	٨ - الإصلاح العسكري الذي أدخله المنصور . قدوم بني زيري إلى الأندلس وقيام
١٦	دول الطوائف
١٨	٩ - استقرار بني زيري في البيرة بناء على طلب أهلها
٢٠	١٠ - رد الفعل الذي أحدثه في الأندلس قيام دولة بني زيري . اختطاط غرناطة
٢٢	١١ - خروج المرتضى لحرب بني زيري وهزيمته
٢٤	١٢ - رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً
٢٥	١٣ - إمارة جبوس بن ماكسن
٢٧	١٤ - المؤامرات التي دبرت لإسناد الإمارة إلى يدير بن حباسة . موت جبوس
٣٠	الفصل الثالث : إمارة باديس بن جبوس ( ١ ) من أوليتها إلى موت ابن نغالة
٣٠	١٥ - أولية إمارة باديس بن جبوس وتعاظم الوزير اليهودي أبي إبراهيم
٣٢	١٦ - فشل المؤامرة التي دبرها يدير بن حباسة ضد باديس
٣٤	١٧ - انتصار باديس على زهير صاحب المرية
٣٦	١٨ - شخصية الأمير بلقين سيف الدولة والد المؤلف
٣٦	١٩ - نشاط يوسف بن نغالة اليهودي ومؤامراته

- ٢٠ - موت الأمير بلقين مسموماً . . . . . ٣٩
- ٢١ - ما بلغ ابن نغرالة من المكان الأرفع . . . . . ٤٢
- ٢٢ - استيلاء باديس على مالقة . . . . . ٤٣
- ٢٣ - علاقات باديس ببني صمادح أصحاب المرية . . . . . ٤٤
- ٢٤ - وصول الناية إلى غرناطة . حظوته ومنافسته لليهودى . . . . . ٤٦
- ٢٥ - إجلاله الأمير ماكسن بن باديس . . . . . ٤٨
- الفصل الرابع : إمارة باديس بن حبوس . ( ٢ ) من موت ابن نغرالة إلى نهايتها ٥٠
- ٢٦ - مؤامرة الوزير اليهودى ابن نغرالة . ثورة صنهاجة عليه وقتله . . . . . ٥٠
- ٢٧ - الحركة الموقفة التى قام بها باديس لانتزاع وادى آش من أيدي ابن صمادح . . . . . ٥٥
- ٢٨ - الحركة الموقفة التى قام بها باديس لانتزاع مالقة من يد ابن عباد . . . . . ٥٧
- ٢٩ - الكشف عن أمر فنيانة وقتلتها . . . . . ٥٩
- ٣٠ - استيلاء باديس على مدينة جيان . . . . . ٦٠
- ٣١ - استيلاء الناية على بياسة . . . . . ٦٢
- ٣٢ - مؤامرة ضد الناية ومقتله . . . . . ٦٣
- ٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحضرة . . . . . ٦٦
- الفصل الخامس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ١ ) مشاكل
- الأندلس الخارجية وسعال الجزيرة عند ابتداء إمارة عبد الله . . . . . ٦٩
- ٣٤ - رفض مطالب ألفونش السادس واشترائه مع عمار . . . . . ٦٩
- ٣٥ - المهادنة بين عبد الله وابن صمادح صاحب المرية . . . . . ٧١
- ٣٦ - مهاجمة ألفونش السادس على غرناطة واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه . . . . . ٧٢
- ٣٧ - استيلاء ألفونش السادس على طليطلة . . . . . ٧٦
- ٣٨ - استيلاء ابن هود على دانية . بعض أخبار بني هود . . . . . ٧٧
- ٣٩ - ثورة ابن عمار على المعتمد بمرسية إلى أن أخرجه منها ابن رشيق . أعماله بعد ذلك ومهلكه الشنيع . . . . . ٧٩
- ٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب أشبيلية . . . . . ٨٢
- ٤١ - المؤلف يتحدث عن منهجه فى كتابة مذكراته . . . . . ٨٢
- الفصل السادس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ٢ ) مشاكل
- غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين . . . . . ٨٤
- ٤٢ - عزل الوزير سماعة ، ثم إجلاله واستقلال عبد الله فى الأمر . . . . . ٨٤

## صفحة

- ٤٣ - النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المرية . تعاقب أحداثه وحله . . . ٨٨  
 ٤٤ - توجيه عسكر ضد تميم بن بلقين صاحب مالقة وأخى المؤلف ، ونصره إياه . . . ٩٠  
 ٤٥ - ذكر ثورة كباب بن تميم وثورة بنى تافنوت ونهايتهما . . . ٩٥

## الفصل السابع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ٣ ) قدوم

- المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيط . . . ١٠١  
 ٤٦ - مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس . . . ١٠١  
 ٤٧ - إرسال سفارات أندلسية إلى مراکش . احتلال المرابطين الجزيرة الخضراء . . . ١٠٢  
 ٤٨ - تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد . . . ١٠٤  
 ٤٩ - موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونش السادس . . . ١٠٤  
 ٥٠ - يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المعركة . بدء الخلاف بين  
 المتحالفين . . . ١٠٦  
 ٥١ - عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس . حصار حصن لبيط . . . ١٠٨  
 ٥٢ - محاصرة لبيط تصور فوضى ملوك الطوائف في ذلك الحين . . . ١٠٩  
 ٥٣ - النزاع بين ابن عباد وبين ابن رشيق . . . ١١٠  
 ٥٤ - رفع الحصار عن لبيط . تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم . . . ١١٢

## الفصل الثامن : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ٤ ) سياسة

- عبد الله بعد عودته من لبيط . إجراءات دفاعية وسياسية . . . ١١٤  
 ٥٥ - تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لبيط . مسلك قرور . . . ١١٤  
 ٥٦ - بعض المؤامرات وتحاذل القليعي . . . ١١٦  
 ٥٧ - سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين . تشييد الحصون . . . ١١٩  
 ٥٨ - معاقدة عبد الله مع أبرهانش وكل ألفونش السادس . . . ١٢٢  
 ٥٩ - التزام عبد الله على أداء الجزيرة لألفونش السادس وعقد اتفاق جديد معه . . . ١٢٤  
 ٦٠ - تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله . عبد الله يبرر مسلكه . . . ١٢٧

## الفصل التاسع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ٥ ) الحوادث

- الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة . . . ١٣٠  
 ٦١ - ثورة يهود مدينة اليسانة . . . ١٣٠  
 ٦٢ - قضية زناة . . . ١٣٣  
 ٦٣ - انقلاب مؤول وثورته في لوشة . . . ١٣٦

- ٦٤ - وصف الثائر نعمان وسيرته ضد عبد الله . . . . . ١٣٩
- ٦٥ - مسألة زواج الأميرتين أختي عبد الله . . . . . ١٣٩
- ٦٦ - حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله . . . . . ١٤١
- ٦٧ - رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختي المؤلف . . . . . ١٤٣
- ٦٨ - تدخل الأمير عبد الله في مسألة مرسية وغضب المعتمد . . . . . ١٤٤
- ٦٩ - إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسببته من قبل عبد الله وإيقاع الخوف في نفسه بعد رجوعها . . . . . ١٤٥

#### الفصل العاشر : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : ( ٦ ) استسلامه

- السلطان المرابطي . سجنه . إخراجاه من الأندلس وفيه ١٤٧
- ٧٠ - عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبدء مقاتلته إياه ١٤٧
- ٧١ - وصول الجيش المرابطي قبالة غرناطة . . . . . ١٤٩
- ٧٢ - الحالة داخل حضرة غرناطة . . . . . ١٥٠
- ٧٣ - لا يجد عبد الله مخرجاً إلا بالتسليم . . . . . ١٥١
- ٧٤ - تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله ١٥٤
- ٧٥ - نفي الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى . . . . . ١٦٠
- ٧٦ - عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله . وفيه ١٦٢

#### الفصل الحادي عشر : عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك ١٦٤

- ٧٧ - موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة . . . . . ١٦٤
- ٧٨ - حركات المرابطين على المرية . . . . . ١٦٧
- ٧٩ - توتر العلاقات بين الأمير المرابطي والمعتمد ١٦٨
- ٨٠ - الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفي ابن عباد ١٦٩
- ٨١ - قفول يوسف بن تاشفين إلى مراكش . . . . . ١٧١
- ٨٢ - عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليموس ومهلكه ١٧٢
- ٨٣ - نشاط المرابطين ضد النصاري . استيلاء « السيد » لذريق على بلنسية ١٧٥
- ٨٤ - تأملات في تقلب الأقدار . . . . . ١٧٦

#### الفصل الثاني عشر : تأملات أخيرة بعد النفي ١٧٨

- ٨٥ - المؤلف والشعر . . . . . ١٧٨
- ٨٦ - استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره ١٧٩
- ٨٧ - آراء المؤلف في التنجيم . . . . . ١٨١



## صفحة

١٨٣	٨٨ - آراء طبية في الأغذية والنبيد
١٨٨	٨٩ - رجع الكلام عن التنجيم
١٩١	٩٠ - مسائل فلكية
١٩٢	٩١ - تحديد العلوم الطبيعية والطب
١٩٣	٩٢ - نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم
١٩٤	٩٣ - حديث عن المسرة وعن هموم الهوى والشباب
	٩٤ - تأملات نظرية وأمثلة يضر بها المؤلف من قصة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا
١٩٥	٩٥ - يتحدث المؤلف عن أولاده
١٩٨	٩٦ - توجه المؤلف الحديث إلى قرائه راضين عنه أو ساخطين عليه
٢٠٠	٩٧ - يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء حياته الخاصة
٢٠١	

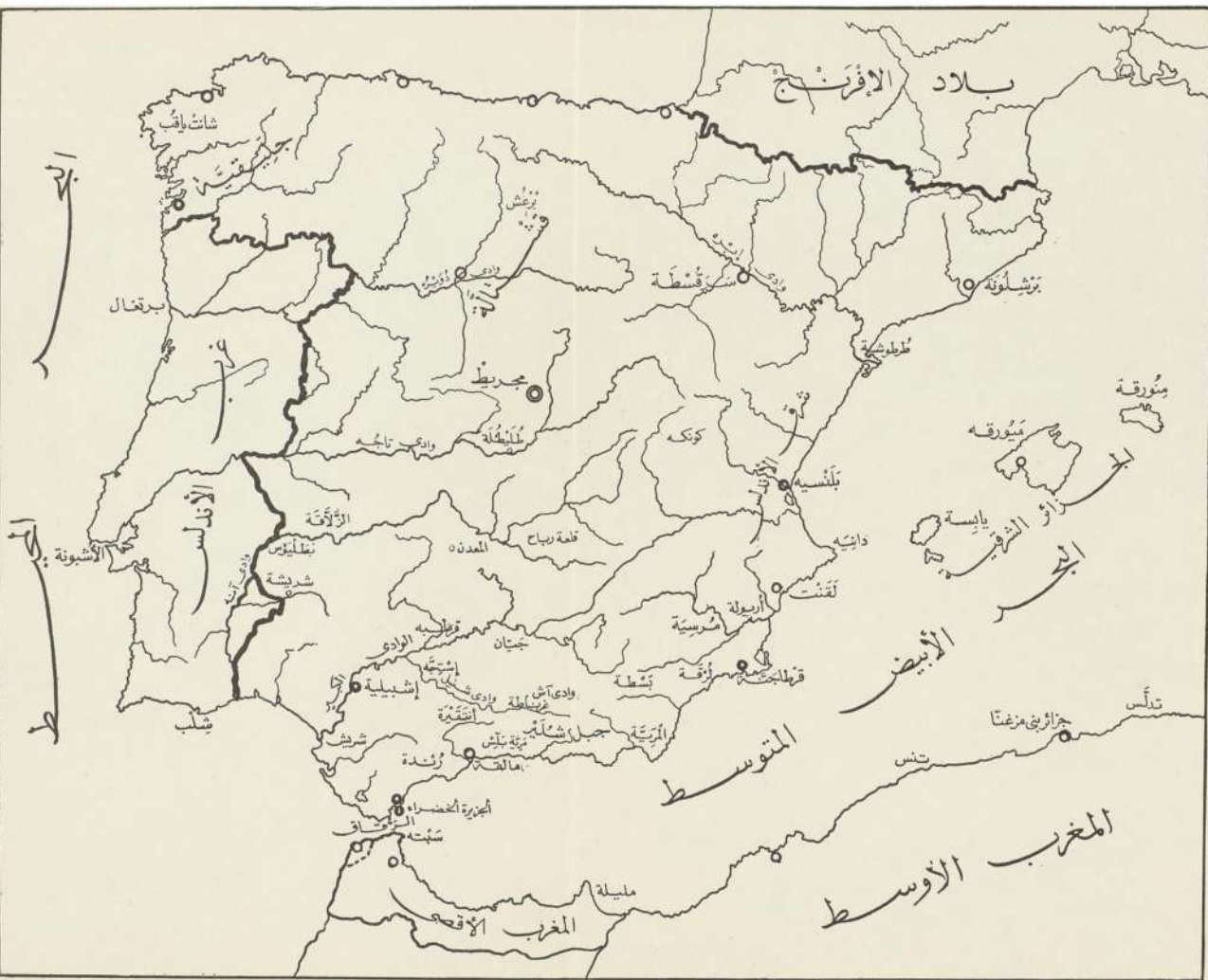
الملحق الأول : منتخبات من « كتاب البيان المغرب » لابن عذارى المراكشي عن دولة الأمير

عبد الله ٢٠٥

الملحق الثاني : منتخبات عن « كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة » لسان الدين ابن الخطيب :

٢٠٨	( ١ ) ترجمة عبد الله بن بلقين
٢١١	( ٢ ) ترجمة مقاتل بن عطية
٢١٢	( ٣ ) ترجمة مؤمل

فهارس الكتاب ٢١٥



خريطة جزيرة الأندلس في عهد ملوك الطوائف

en préparation, sera en grande partie éclairée sous un nouveau jour grâce à cet appoint d'une documentation fort riche et non suspecte.

\* \* \*

Le manuscrit des "Mémoires" de 'Abd Allâh contient au total 80 feuilles d'épais papier de grand format [23 × 31 centimètres], inventoriées à la bibliothèque d'al-Qarawiyyîn à Fès sous le No. 1886. L'écriture est du genre *mabsûf* andalou; la copie est en général en bon état de conservation; seuls deux feuillets sont fort mutilés. Nous avons adjoint au texte deux appendices comportant des passages inédits du *Kitâb al-Bayân al-mughrib* d'Ibn 'Idhârî et de l'*Iḥâṭa* de Ibn al-Khaṭīb sur 'Abd Allah et deux personnages importants de son règne. Enfin une carte permettra au lecteur de retrouver les plus importantes localités du Sud de l'Espagne qui sont citées dans le texte.

Je voudrais, pour terminer, signaler à ceux de mes lecteurs qui s'étonneront de certaines acceptions ou de certaines tournures des "Mémoires" que la langue de 'Abd Allâh, bien qu'en général correcte, a subi dans une certaine mesure l'influence de l'arabe vulgaire hispanique et qu'il faut pour comprendre certains mots qui peuvent paraître erronés, faire appel principalement au *Supplément aux Dictionnaires arabes* de Dozy.

Je n'ai pas besoin de signaler d'autre part au lecteur que les titres qui ont été introduits pour séparer les diverses sections des "Mémoires" et en annoncer le contenu n'existent pas dans le texte original.

Paris, 26 juin 1955

E. L.-P.

sinhâjienne des Banû Zîrî. Né en 447 [1056], il fut désigné à la mort de son père Buluggîn Sayf al-dawla, en 456 [1064] comme l'héritier présomptif de son grand père Bâdîs ibn Ḥabûs, et il lui succéda sur le trône de Grenade en 469 [1077], tandis que son frère Tamîm al-Mu'izz devenait prince indépendant de Malaga. Son règne ne fut qu'une longue suite de troubles à l'intérieur de son royaume, de conflits armés avec ses voisins musulmans et de compromissions avec le roi de Castille Alphonse VI. Au moment de l'intervention des Almoravides en Espagne, il participa aux campagnes d'al-Zallâqa et d'Aledo. Mais ses tractations avec le roi chrétien finirent par lui coûter son trône. En 483 [1090], Yûsuf ibn Tâshufîn vint le bloquer dans Grenade et il dut se rendre à sa merci. Il fut déchu de son trône et envoyé en exil dans le Sud du Maroc, à Aghmât, où il finit ses jours.

Ce fut au cours de son séjour forcé à Aghmât que 'Abd Allâh composa ses "Mémoires". Cette autobiographie — on pourra s'en rendre facilement compte — constitue la somme documentaire la plus considérable et la moins déformée que l'on possède sur l'histoire des *mulûk al-ṭawâ'if*. Malgré de longues digressions dans lesquelles l'auteur tente de justifier sa position politique devant les périls qui menaçaient son royaume, le *Kitâb al-Tibyân* fournit une chronique extrêmement détaillée de tous les événements qui aboutirent en 478 [1085] à la prise de Tolède par Alphonse VI, et, l'année suivante, à l'intervention des Almoravides dans la Péninsule ibérique.

C'est en même temps un document psychologique de premier ordre, qui permet, beaucoup mieux que les chroniques postérieures, de juger de l'état de décomposition sociale et politique de l'Espagne musulmane avant et après la bataille d'al-Zallâqa et des progrès accomplis à cette époque par le champions de la Reconquête chrétienne. Le récit des événements antérieurs au propre règne de l'émir 'Abd Allâh est également fort nouveau et fort important. Les "Mémoires" du prince de Grenade doivent être considérées, à partir de l'époque où prend fin la chronique d'Ibn Ḥayyân, comme un fil conducteur à travers l'histoire confuse des *ṭawâ'if*. Cette période, qui sera décrite au quatrième tome de mon *Histoire de l'Espagne musulmane*, actuellement

cahiers manuscrits jetés au rebut dans une dépendance de la mosquée d'al-Qarawiyîn à Fès depuis au moins six siècles.

On savait, grâce à une indication fournie par la chronique anonyme intitulée *al-Ḥulal al-mawshiya*, que l'émir 'Abd Allâh avait composé un livre sur la dynastie fondée en Espagne par sa famille et dont il fut le dernier représentant. Quand, en 1934, je donnai une première édition de la partie relative à al-Andalus du *Kitâb A'mâl al-a'lâm* d'Ibn al-Khaṭīb, le passage suivant [p. 269] retint mon attention. "J'ai vu un *diwân*, écrit de sa propre main, que 'Abd Allâh ibn Buluggîn composa, après sa déposition, dans la ville d'Aghmât; il y relate son histoire et les événements qui concoururent à sa chute, et cette œuvre est fort curieuse. Le prédicateur de la mosquée d'Aghmât me fit cadeau de ce document". Nous savons, grâce à une précision fournie par le même ouvrage, qu'Ibn al-Khaṭīb visita Aghmât et le tombeau d'al-Mu'tamid Ibn 'Abbâd en 781 [1360]. Et l'on peut se demander si le manuscrit que nous avons utilisé n'est pas, sinon cette copie elle-même, du moins une seconde copie faite sur l'original et confrontée avec lui, comme le prouve la mention fréquente: *ṣahha; aṣl<sup>un</sup>*.

Enfin, un autre hasard de lecture devait me révéler le titre exact des "Mémoires" de 'Abd Allâh: en effet, d'un passage du *Kitâb al-Marqaba al-'ulyâ*, [p. 97], ouvrage sur la judicature andalouse que j'ai publié au Caire en 1948 et dont l'auteur fut le célèbre Ibn al-Ḥasan al-Nubâhî, il ressort que le livre s'intitulait *al-Tibyân 'an al-ḥāditha al-kā'ina bi-dawlat Banî Zîrî fî Gharnâṭa*.

Ce titre dit bien ce qu'il veut dire: l'auteur, détrôné et exilé, s'est proposé de relater l'histoire de son règne et les circonstances de sa chute.

\*\*\*

Qui était cet émir 'Abd Allâh et quelle valeur faut-il attribuer à son livre? Qu'il me suffise de résumer ici ce que j'en ai écrit récemment dans la nouvelle édition de *l'Encyclopédie de l'Islam* [p. 45].

'Abd Allâh ibn Buluggîn ibn Bâdîs ibn Ḥabûs ibn Zîrî fut le troisième et dernier souverain du royaume de Grenade fondé après la chute du califat de Cordoue par une branche collatérale de la famille berbère

## AVANT - PROPOS

L'ouvrage dont on va trouver ici la plus grande partie du texte — tout ce qui en a été jusqu'ici retrouvé — est déjà connu de tous ceux qui ont étudié quelque peu l'histoire de l'Espagne musulmane et plus spécialement la période de cette histoire dite des *mulūk al-ṭawd'if*, correspondant en gros au Ve siècle de l'hégire [XI<sup>e</sup> siècle de J.-C.]. En effet, au fur et à mesure de leur découverte et à deux reprises, j'en ai publié d'abord trois puis deux fragments étendus dans la revue "al-Andalus" de Madrid, en 1935-36 et en 1941. De l'ensemble aujourd'hui reconstitué, à part la première page et une longue et regrettable lacune centrale, une traduction en espagnol paraîtra à bref délai sous la signature de mon collègue et ami le Prof. E. García Gómez et la mienne. Cette traduction sera accompagnée d'une introduction détaillée et d'un appareil de notes historiques et géographiques auxquelles je renvoie d'ores et déjà le lecteur désireux d'être renseigné en détail sur l'ouvrage que je publie aujourd'hui et sur sa valeur documentaire et littéraire.

Je me bornerai donc ici à quelques indications essentielles. Il n'est pas fréquent de rencontrer, dans l'histoire du monde arabe, des souverains ou des personnages haut placés qui aient pris soin de retracer leur carrière en rédigeant leurs "Mémoires" à l'intention de leurs contemporains ou des générations futures. Cette constatation est encore plus vraie pour l'Occident de l'Islam que pour l'Orient; si on y trouve quelques autobiographies de personnages importants, tels qu'Ibn Khaldûn et Ibn al-Khaṭīb au VIII<sup>e</sup> siècle [XIV<sup>e</sup> siècle J.-C.], on ne connaît, dans ce genre historique, qu'une œuvre à citer: celle d'al-Baydhaq, le compagnon du Mahdî Ibn Tûmart, le fondateur de l'almoḥadisme, dont j'eus la chance, il y a plus de vingt-cinq ans, de retrouver en Espagne, à l'Escorial, un manuscrit jusque-là demeuré ignoré. C'est une autre chance, non moins heureuse, qui m'a valu de mettre la main, à plusieurs années d'intervalle et morceau par morceau, sur un ouvrage autobiographique non moins précieux: celui de l'émir 'Abd Allâh, dont les feuillets s'entassaient pêle-mêle dans un fouillis de



# LES « MÉMOIRES » DE ʿABD ALLAH

DERNIER ROI ZIRIDE DE GRENADE

[Ve-XIe siècle]

TEXTE ARABE

publié d'après l'unicum de Fès

*par*

**E. LEVI - PROVENÇAL**

*Professeur à la Sorbonne,*

*Directeur de l'Institut d'Etudes Islamiques*

*de l'Université de Paris*

LE CAIRE

ÉDITIONS AL-MAAREF

1955